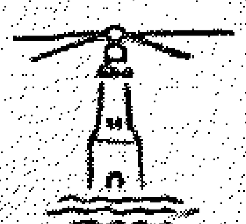
جيمس فريزر

الفولكلور
فى العهد القديم (التوراة)

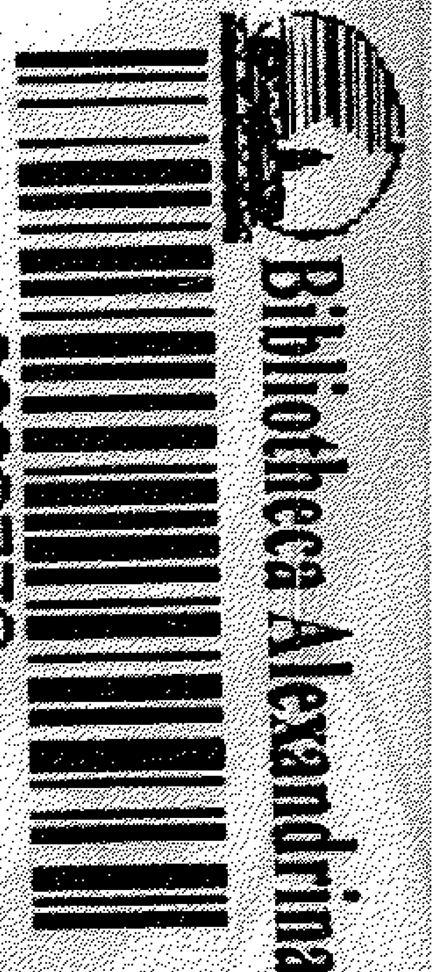
الجزء الأول

ترجمة

دكتورة نبيلة إبراهيم



دار المعارف



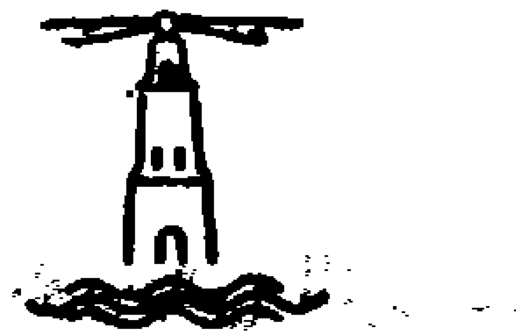
چيمس فريزر

الفُولكلُور في العَهْدُ القديم (التوراة)

الجـزء الأول

ترجمة : د . نبيلة إبراهيم

الطبعة الثانية



دار المعارف

تصميم الغلاف : سوسن أحمد

الناشر : دار المعارف ــ ١١١٩ كورنيش النيل ــ القاهرة ــ ج٠م٠ع

مقدمـــة

يقول فريزر فى مقدمة الطبعة المختصرة لكتاب « الفولكلور فى العهد القــديم » التى قمنا بترجمتها : « وقد حاولت فى هذا الكتــاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقبــا بعض معتقـــدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعلمية فى المراحــل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى تشــبه ما نجــده لدى القبائل البدائيــة التى تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات • واذا كنت قد حققت أى قدر من النجــاح فى هذه المحاولة ، فانه ســيكون من الممكن النظــر الى تاريخ بنى اسرائيــل فى ضوء أكثر صدقا وان يكن أقل رومانســية ، بوصــفهم شعبا لا يميزه الوحى الالهى عن غيره من الشــعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شــعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يســودها الجهل والهجمية ، وذلك عن طريق عملية انتخــاب طبيعى بطىء » • كما يقول فى خاتمة هذه المقدمة : « ولقد دفعنى الهــدف من دراستى هذه الى أن أنعــم فى النظر بصــفة أساسية فى الجــانب الأدنى من حياة العبريين القــدماء كما تتمثــل فى العهد القديم ، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة ، تلك الآثار التى تنتشر على صفحاته »••

ولقد نجح فريزر الى حــد كبير فى تحقيق مأربه ، فكان يضــع يده على طقوس وعادات قديمة ترد بين ثنايا العهد القديم ، من الممــكن أن يمر بها القارىء مر الكرام • دون أن يفكر فى مغزاها أو أصلها • ومثال ذلك ما ورد فى سفر التكوين(١)بصدد مقتل هابيل بيدأخيه قابيل: « فقال قابين للــرب ذنبى أعظم من أن يحتمل ، انك قد طردتنى اليوم عن وجــه الأرض ومن وجهــك أختفى وأكون تائها وهاربا فى الأرض ،

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ ، ١٦ .

فيكون كل من وجدنى يقتلنى . فقال له الرب : لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه . وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده » . وهنا يقف فريزر عند عبارة « وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده » ويتساءل عن كنه هذه العلامة وعن سبب تعليم الرب لقابيل بها ، مستخدما فى ذلك المنهج المقارن الذى تمكن بواسطته من استجلاء مغزى هذا الفعل ، أعنى مقارنته بعادات مماثلة كانت أو لا تزال تعيش بين الشعوب البدائية التى تعيش مرحلة متخلفة من التطور الحضارى . ومثال ذلك أيضا ما ورد فى قصة آدم فى سفر التكوين (١) : « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر . والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد . فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها . فطرد الانسان وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » . وهنا يتساءل المؤلف عما اذا كان الرب الرحيم الذى أسكن آدم وحواء وأنعم عليهما من كل الخيرات ، كان يخشى حقا أن يأكل الأبوان الأولان من ثمار شجرة الخلد فيصبحا خالدين مثله . وقد دفعه هذا التساؤل لأن يتعرض لفكرة الخلود عند الشعوب البدائية وعلاقتها بالحية التى أوقعت آدم وحواء فى الخطيئة كما هو مذكور فى التوراة . وقد استخلص الكاتب من ذلك كيف أن كاتب السفر قد خلط بين قصة الخلق الأصلية وبين المعتقدات والتصورات البدائية ، وكان نتيجة هذا الخلط أن نسبت قصة التكوين فى التوراة الى الرب صفات لا تليق بوحدانيته وألوهيته ..

وبهذا استطاع فريزر من خلال القراءة المتفحصة للتوراة ، ومن خلال تخصصه العميق فى علم الأنثروبولوجيا : أن يحصى ما فى التوراة

---

(١) سفر التكوين ٣ : ٢٢ الى ٢٤ .

من تقاليد وعادات وتصورات بدائية ، وأن يقوم بتحليلها وفحصها واستبيان كنهها عن طريق المنهج الأنثروبولوجي المقارن .

وربما حق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن سبب احتفاظ الدين اليهودي بهذه الكثرة اللافتة من المعتقدات والطقوس القديمة . فالواقع أن الدين اليهودي هو أول الأديان السماوية . واذا كان الدين المسيحي قد جاء من بعده ثم الدين الاسلامي ، فمن المفروض أن الدين الجديد لا يأتي لتغيير جوهر دين سماوي سبقه ، اللهم الا اذا كان الناس أنفسهم قد غيروا هذا الجوهر ، وانما يأتي الدين الجديد لتأكيد الدين الذي سبقه من ناحية ، ولسن تشريعات جديدة أو توضيح وتفصيل بعض ما أوجزه الدين السابق من ناحية أخرى . ومعنى هذا أن الدين السماوي برىء مما تضمنته التوراة من معتقدات وتصورات بدائية ، وأن هذه المعتقدات والتصورات أقحمت على التوراة اقحاما ..

واذا كان فريزر قد استطاع أن يبرز ما في التوراة من بقايا معتقدات وديانات قديمة ، ففي وسعنا الآن أن نشير الى مدى تأثير هذه المعتقدات والديانات على الدين السماوي وفقا لمفهومه الواسع ، أو بتعبير آخر فاننا نشير الى مدى ما ألحقته هذه المعتقدات والديانات بالدين السماوي من تشويه ..

ان الأديان السماوية تهدف أولا وقبل كل شيء الى القضاء على عبادة الأوثان بشتى مظاهرها ، كما أنها تهدف الى السمو بمرتبة الأنبياء وتقدير صفاتهم التي تسمو في مجملها فوق صفات البشر العاديين بوصفهم قادة لهم ونماذج بشرية يحتذى بها . وهي تهدف كذلك الى تنزيه الخالق سبحانه عن كل الصفات الانسانية . فاذا نظرنا الى التوراة فى ضوء ما أوضحه فريزر فاننا نجد أن الدين اليهودي

على هذا النحـــو تكتنفه بعض مظـــاهر عبـــادة الأوثان ، فقد قدس أنبياؤهم بعض الأشجار وبصفة خاصـــة شـــجرة البلوط كما أشـــار المؤلف الى ذلك ، وكمـــا استشهدنا على ذلك بكثير من نصـــوص التوراة فى المكان المناسب من الترجمـــة . وكان يعقـــوب قد رأى فى رؤيـــاه حجرا انتصب فوقه سـلم أخذت الملائكة تصعد وتهبط عليه ، فلمـــا استيقظ نصب الحجـــر وصب فوقه الزيت وعـــده مقدســـا ، ومنذئذ أصبح الحجر مقدســـا لدى العبريين القدماء . ولم يثق ابراهيم بعهد الرب فى أن أرض الميعـــاد ستكون له ولقومه من بعـــده ، الا بعد أن أدى الطقوس القديمة التى كان النـــاس يتبعونها عندما يتعـــاهد طرفان عـــلى أمر من الأمـــور ، فتذبح ذبيحة وتتشـــطر ثم يمر بين شطريها الطرفان المتعاهدان . « وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها . فقال أيهـــا السيد الرب بمـــاذا أعلم أنى أرثهـــا . فقال له خـــذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشـــا ثلاثيا ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها وشقها من الوســـط وجعـــل شـــق كل واحد مقـــابل صاحبه وأما الطير فلم يشقه . فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها ، ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على أبرام سبات واذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه . فقال لأبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستبعدون لهم فيذلونهم أربعمائة سنة ، ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينهـــا ... ثم غابت الشمس فصارت العتمة ، واذا تنور دخـــان ومصـــباح نار يجـــوز بين القطع . فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا ، لنســـلك أعطى هـــذه الأرض بين نهـــر مصر الى النهـــر الكبير نهر الفرات » [1] . ولعلنا نلاحظ فى هذه الأمثلة وغيرها أن اليهودى كان يســـعى دائما لأن يكون بينه وبين الرب وســـاطة حسية تعد من وجهة نظره مقدســـة قداســـة الرب ، فالبلوطـــة مقدسة والحجر مقدس

---

(١) سفر التكوين ١٥ : من ٧ الى ١٨ .

والذبيحة المشطورة التي يمر الرب بين شطريها فى شكل دخان مقدسة كذلك . وعلى هذا النحو تتمثل قوة شمشون فيما يستمده من الاله من قوة ، بل كانت قوته مستكنة فى خصلات شعره التى لم تقص قط منذ نعومة أظفاره . فلما قصت خصلات شعره ، فقد شمشون قوته وخارت قواه ولم يعد بعد شمشون الجبار .

فاذا انتقلنا الى تصوير التوراة للأنبياء فاننا نقرأ عجبا . ويكفى أن تكون شخصية يعقوب على هذا النحو الذى صورته التوراة من الخداع والغش والحيلة والمكر حتى يمكننا أن نضع أيدينا على الصفات المستحبة عند الرجل اليهودى . فيعقوب فى التوراة رجل مادى ذكى لبق . وقد استطاع بهذه الصفات أن يخفى ما به من صفات لا انسانية مثل الخداع والغش والمكر . ولم تكتف التوراة بتصوير يعقوب على هذا النحو الكريه عندما خدع أخاه عيسو ، بل عادت فأكدت له هذه الصفات فى معاملته لخاله لابان . فقد كان يعقوب ينوى أن يسلب الجزء الأكبر من قطيع خاله لابان وأن يرحل به سرا مع بناته اللاتى كان قد تزوج بهن وخدم خاله مقابل ذلك عدة سنين نمى له فيها قطعانه وأغنامه . ولننظر الآن الى الحيلة التى عمد اليها يعقوب فى سبيل اتمام هذا الغرض كما تصورها التوراة. فقد اتفق يعقوب مع خاله أن يأخذ لنفسه كل الغنم المخطط والمرقط ويأخذ خاله الغنم الأسود . ووافق الخال على ذلك ، لأن الغنم المخطط والمرقط لم يكن كثيرا . « ثم أخذ يعقوب لنفسه قضبانا خضرا من لبنى ولوز ودلب ، وقشر فيها خطوطا بيضاء كاشطا عن البياض الذى على القضبان ، وأوقف القضبان التى قشرها فى الأجران فى مساقى الماء حيث كانت الغنم تجىء لتشرب .. فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطا وبلقا وأفرز يعقوب الخرفان.. وجعل له قطعانا وحده ولم يجعلها مع غنم لابان . وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن وضع يعقوب القضبان أمام عيون الغنم فى الأجران لتتوحم بين القضبان .. وحين استضعفت الغنم لم يضعها . فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب . فاتسع الرجل كثيرا جدا وكان له غنم كثير

وجوار وعبيد وجمال وحمير » • ثم جاء الى زوجتيه وقال لهما : « قد سلب الله مواشي أبيكما وأعطاني » • وبهذا « خدع يعقوب قلب لابان الآرامي اذ لم يخبره بأنه هارب » [١] ••

ولم يكن صموئيل أقل حيلة ومكرا من يعقوب • فعندما ثار الشعب اليهودي ضد الحكم الكهنوتي ونادى بأن يحكمهم ملك دنيوى ، عين صموئيل الملك شاءول ملكا على بنى اسرائيل بتفويض من الرب كما تذكر التوراة • وقد وقع اختيار صموئيل على شاءول بصفة خاصة لأنه كان يود أن يكون الملك الجديد خاضعا لسطوته • وعلى الرغم مما كان يتمتع به شاءول من هيبة وجلال أكسباه حب الشعب اياه ، فانه كان فى الوقت نفسه يتميز بجانب ضعيف فى شخصيته أدراكه صموئيل كل الادراك قبل أن يقع اختياره عليه • ولكن عندما بدأ صموئيل يشعر بأن شاءول قد أخذ يستقل عنه ، وأن الشعب أخذ يتجمع من حوله ، أسرع وبحث عن مناوىء له متمثلا فى داود • واستطاع داود أن يجمع من حوله زمرة من بنى اسرائيل ، وبذلك دب الخلاف بينه وبين شاءول • ولم يكن فى استطاعة شاءول فى هذه الحالة وهو الانسان المرهف الحس، أن يقود الجيش ضد الفلسطينيين • لما كان صموئيل قد مات فى ذلك الوقت ، فقد فزع شاءول الى قبره لعله يعينه فى مأزقه • واستطاعت ساحرة عين دور أن تستحضر له روح صموئيل • فصرخ به شبح صموئيل قائلا : « لماذا أقلقتنى باصعادك اياى • فقال شاءول ، قد ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع • فقال صموئيل ، ولماذا تسألنى والرب قد فارقك وصار عدوك ، وقد فعل الرب لنفسه كما تكلم عن يدى • وقد شق الرب المملكة من يدك وأعطاها لقريبك داود لأنك لم تسمع لصوت الرب » [٢] •

---

(١) سفر التكوين ٣٠ : من ٢٧ الى ٤٣ •
(٢) سفر صموئيل الأول ٢٨ : ١٥ الى ١٨ •

والواقع أن من يقرأ سفر صموئيل لا يرى أن شـــاءول قد ارتكب اثما فى حق الرب أو فى حق صموئيل ، فقـــد كان صموئيل قـــد أمره بمحاربة شعب العماليق وقال له : « ولا تعف عنهم بل اقتلهم رجـــلا وامرأة ، طفلا ورضيعا » • فامتثل شـــاءول لأوامره وقبض على أجاج ملك العماليق وأحضره الى صموئيل حيا • ولـــكن الشـــعب اليهودى استحل لنفسه ذبح بعض الغنائم مثل خيـــار الغنم والبقر • فلما تهدده صموئيل قائلا : « لماذا لم تســـمع لصـــوت الرب بل ثرت علي الغنيمة وعملت الشر فى عينى الرب » تحـــداه شـــاءول قائلا : « انى قد سمعت لصوت الرب وذهبت فى الطريق الذى أرسلنى فيها الرب وأتيت بأجاج ملك عماليق •• فأخذ الشعب من الغنيمة غنما وبقرا أوائل الحرام لأجل الذبح للرب الهك » • واذا كان صموئيل قـــد عين شـــاءول ملكا عـــلى الشعب اليهودى بتفويض من الرب كما يتضح من قوله : « اياى أرسل الرب لمسحك ملكا على شعبه اسرائيل » ، فانه عاد وعبر عن حقده عليه فى خاتمة تجربته معه فقال : « والرب ندم لأنه ملك شـــاءول عـــلى اسرائيل » (١) ••

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى طريقة تشخيص التوراة للرب ، فاننـــا نجد فى هذا التشخيص أثر المعتقدات والتصورات القديمة من ناحية ، كما نلاحظ من ناحية أخرى عدم مقدرة اليهودى على الســـمو بالخالق وتنزيهه عن الصفات البشرية • فقد ظهر الرب ليعقوب فى صورة انسان أمسك يعقوب بتلابيبه حتى لا ينفلت منه الا بعد أن يبـــاركه ويبـــارك قومه ، وكأنه لم يكن ليحصل على بركة الرب الا على هذا النحو « • فبقى يعقوب وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر • ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع فخذ يعقوب فى مصارعته معه وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر • فقال له لا أطلقك ان لم تباركنى • فقال له

(١) انظر سفر صموئيل الأول الاصحاح الخامس عشر والسادس عشر •

ما اسمك ؟ فقال يعقوب • فقال لا يدعى اسمك فيما بعـد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت • وسأل يعقوب وقال أخبرنى باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمى ، وباركه هناك » [1] ••

واذا كان الرب قد صور فى التوراة على هيئة انسانية ، فلا عجب أنهـا خلعت عليه صـفات انسانية ، بل صفات غير محببة الى النفس البشرية • فقد طرد الرب آدم وحواء وفقا لقصـة التـوراة ، لا لمجرد مخالفتهما للمحظور الذى حذرهما منه الرب ، ولكن لأنهما سلباه صفة كان يود أن يستبقيها لنفسه دون البشر وهى معرفة الخير والشر • ومن ثم فقد أسرع الرب فى طردهما من الجنة قبل أن يتمكنا من أن يسلباه صفات الهية أخرى وبصـفة خاصة صفة الخلود ، وذلك اذا ما تهورا وأكلا من الشجرة الثانية المحرمة وهى شجرة الحياة • « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر • والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد • فأخرجه الرب الاله من جنـة عدن ليعمل الأرض التى أخـد منها » • بل أن الرب ظل يخشى من أن يسطو الانسان على شجرة الخلد خلسة ولذلك فقد جعل « لهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » [2] ••

وربمـا كان هـذا المجـال مناسـبا لأن نقارن ما رواه القرآن بما روته التـوراة فيمـا يختص بالقصص الدينى الذى تعرض فريزر لبحثه فى هـذا الكتاب ، حتى نلقى بذلك مزيدا من الضـوء على مدى ما اعترض القصص الدينى فى التوراة من تحرير وتغيير ••

قال تعالى فى سورة البقرة : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجتك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هـذه الشجرة فتـكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا

---

(١) سفر التكوين ٣٢ : من ٢٤ الى ٢٩ .

(٢) سفر التكوين ٣ : من ٢٢ الى ٢٤ .

بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » كما قال تعالى فى سورة طه : « فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى • فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى • » فهذه الآيات تقدم الخطوط الأساسية لقصة آدم وحواء منذ أن خلقا فى الجنة الى أن أخرجا منها • فبعد أن خلق الله آدم وحواء أمرهما ألا يأكلا من شجرة ما فى الجنة ، فلما عصيا أمره أخرجهما الله من الجنة وجعلهما يهبطان الى الأرض ليعيشا فيها هما ونسلهما من بعد حياة غير خالدة • فالمسألة هنا تتعلق بتحريم وعصيان لهذا التحريم ، أو هى بتعبير آخر اختبار لطبيعة الجنس البشرى ، تلك الطبيعة التى لازمت الانسان منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، وهى التى تتمثل فى ضعفه أمام قوة الاغراء المادى •

واذا كان هذا هو هدف القصة ، فاننا نجد أن القرآن قد نحا الى التجريد الذى هو من أخص خصائص القرآن الكريم • ومن ثم فان القصة لم تصور لنا كيف استطاع الشيطان أن يقتحم عالم آدم فى الجنة ، كما أنها لم تصف الشجرة التى حرمت عليه • واذا كانت الشجرة قد وصفت بأنها شجرة الخلد على لسان الشيطان ، فانما كان هذا على سبيل اغراء الشيطان لآدم بالأكل منها •

ولما كانت قصة آدم فى القرآن قد عرضت على هذه الصورة التجريدية ، فقد كان من الطبيعى أن يخوض المفسرون فى تفصيلاتها ، وأن يتركوا العنان لخيالهم لكى يصوروا كيف خلق الله آدم، بل الطريقة التى أحضر بها الطين من الأرض ، وطبيعة الشجرة التى نهى الله آدم عن أكل ثمرها (١) ••

ومن المفسرين من يقف موقف الحذر ازاء هذه التفصيلات حيث أن القرآن لم يتعرض لها فى شىء • ومن ذلك ما ذكره الطبرى معلقا على

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ١ من ص ١٥٣ الى ١٨١ (ط • دار المعارف) •

آراء المفسرين الذين خاضوا في وصف الشجرة المحرمة ، فقال : « ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن أو في السنة الصحيحة • فأني يأتي ذلك من أتي ، وقد قيل كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة العنب ، وقيل كانت شجرة التين وجائز أن تكون واحدة منها » (١) ••

ومن المعروف أن تفسير القرآن قد تعرض لتأثير ما سمى بالاسرائيليات • واذا كانت قصة الخلق في التوراة لقد ذكرت غواية الحية لحواء ، فان هذا التصوير لم يكن بعيدا عن أذهان المسلمين الذين حاولوا أن يوفقوا بينه وبين ما ذكره القرآن الكريم من غواية الشيطان لآدم وحواء معا • ومن ثم فقد صور الخيال الشعبى الشيطان وقد دخل في جوف حية حتى يصل الى الجنة التى كان قد طرد منها من قبل • واذا كانت التوراة قد لعنت الحية على لسان الرب عندما قال لها « ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك » (٢) • فان هذه الصورة قد انتقلت بدورها الى التفسير ، فصورت الحية قبل أن تحل بها اللعنة بأنها كانت لها قوائم كقوائم الجمل • فلما حلت بها اللعنة ، فقدت قوائمها وأصبحت ترحف على بطنها •

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى قصة التوراة ، فاننا نفاجأ أول الأمر بأن القصة تنحو الى تشخيص الرب على نحو انسانى • فهو يتمشى في الجنة في المساء الرطب ، وهو ينادى آدم الذى اختبأ وراء الشجر ، ولم يكن يعرف آنذاك أنه قد أكل من الشجرة المحرمة • ثم انه صنع لآدم وحواء ثيابا من الجلد وألبسهما اياها بدلا من ورق الشجر الشحيح الذى غطيا به عورتهما • وعلى هذا النحو تتعرض القصة لذكر تفاصيل عن الشجرتين المحرمتين ، فتذكر أن احدى الشجرتين كانت شجرة

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٧٩ .

(٢) سفر التكوين ٣ : ١٤ .

معرفة الخير والشر وأن الشجرة الأخرى كانت شجرة الحيـــاة ٠ فلما أكل آدم وحواء من شجرة معرفة الخير والشر وأصـــبحا ندا للاله فى المعرفة ، خشى أن يأكلا من شجرة الحياة فطردهما من الجنة ٠٠

وبهذا تختلف قصة آدم وحواء فى كل من القرآن والتوراة اختلافا جوهريا ٠٠ ففضلا على اختلافهما فى طريقة العرض ، فانهما تختلفان فى المغزى والهدف ٠ فاذا كان آدم قد أخرج من الجنة فى قصـــة القرآن ، فلأن سكناه فى الأرض كانت مقدرة له من قبـــل بدليـــل قوله تعـــالى للملائكة قبل خلقه آدم: « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ٠ قال انى أعلم مالا تعلمون » ٠ فاذا كان عصـــيان آدم الله مقدرا له من قبل ، فان هدف القصة يتضح بعد ذلك وهو تأكيد النوازع الانسانية ، وابراز جوانب لضعف فيها التى جعلتها موضوعا لاغراء الشيطان على الدوام ٠ أما قصة التوراة ، فقد أخرج الله آدم من الجنة غيظا منه وحنقا عليه ، لأنه أصبح نده فى المعرفة ٠ وقد تصور أن البلاء سيكون أكبر من ذلك لو أنه أكل من شجرة الخلد ٠٠

فاذا انتقلنا الى قصة قابيل وهابيل فى كل من التوراة والقرآن ، فاننا نجد أن قصة التوراة قد أضافت تلك الاضافة التى حيرت مؤلف هـــذا الكتاب فأخذ يتســـاءل عن مغزاها الى أن ردها الى المعتقـــدات والعادات البدائية ٠ فقد تضرع قابيل الى الرب بعد أن قتل أخاه وقال له : « انك قد طردتنى اليوم عن وجه الارض ومن وجهى أختفى وأكون تائها وهاربا فى الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى » ٠ ويبـــدو أن الرب قد حنا عليه رغم فعلته الشائنة فقال له : « لذلك كل من قتـــل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده » [1] ٠ وهنا نجد أنه على الرغم من أن قابيل قد قتـــل

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٣ الى ١٦ ٠

أخاه فقد أعلن الرب وفقا لنص التوراة ، أن من قتل قايين منه بسبعة أضعاف جريمته ...

أما قصة قابيل وهابيل فى القرآن فترد على النحو التالى : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين. انى أريد أن تبوأ باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين » [(1)] . وهنا يؤكد الله سبحانه وتعالى تأصل الشر فى الجنس البشرى ، حيث ان قابيل القاتل سوف يترك من ورائه سلالته التى تنزع مثله الى الشر ، كما أنه أكد نهاية بنى الانسان عندما يموتون ويوارون فى التراب ..

والفرق جلى بين صورة يعقوب فى القرآن وصورته فى التوراة . فأين صورة الشيخ الجليل الذى أخذ يبكى على ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه ، والذى كان يعلم بمكر بنيه ورد عليهم فى وقار قائلا : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » [(2)] ، من تلك الصورة الماكرة الخادعة التى رسمتها التوراة للنبى الجليل ! ..

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن سبب تصوير التوراة للاله والأنبياء على هذا النحو ،ثم عن سبب ارتباط دينهم بكثير من المعتقدات الوثنية . فهل يرجع سبب هذا الى أن التوراة قد كتبها مؤلفون حوروا ما شاء لهم التحوير فى روايات دينهم ، وعبروا عن معتقدات اليهود

---

(١) سورة المائدة من آية ٢٦ الى ٣٠ .
(٢) سورة يوسف من الآية ١٨ .

وتصوراتهم بصفة عامة ؟ ولكن لماذا ظل اليهود مرتبطين بهذه المعتقدات البدائية على الرغم من نزول الدين السماوى على موسى ؟ ربما استطعنا أن نجيب عن هذه التساؤلات المختلفة اذا استطعنا أن نغوص بعض الشىء فى فلسفة الأديان ..

وأول شىء ينبغى علينا أن نقرره بهذا الصدد ، هو أن العقيدة ضرورة روحانية تنبثق من ذات الانسان فى كل زمان ومكان ، سواء كانت العقيدة فى شكلها الأولى الساذج أو كانت فى صورتها المتطورة الراقية . وأساس العقيدة هو احساس الانسان بالارتباط بقوة أكبر منه لا يريد أن يتحرك الا من خلالها.فالانسان البدائى لم ير اذن فى الرعد والبرق والمطر والنور والظلمة آلهة لمجرد أنه كان يخاف من الرعد أو يرغب فى المطر الى غير ذلك ، وانما رأى فى هذه الظواهر آلهة تعبيرا عن احتياجه النفسى الى الارتباط بقوة علوية يتحرك ويرغب من خلالها . فالاله والانسان منذ قديم الزمن ليسا قوتين تقف كل منهما فى مقابل الأخرى ، بل هما بالأحرى متداخلتان . ذلك أن الانسان يجد نفسه مرتبطا بالاله وواقعا فى أسره ، وداخلا ضمن ملكوته . ولا عجب بعد ذلك أن نجد العقيدة تحتضن العناصر الآتية : الحب والادراك والمقدرة على تشخيص طبيعة الاله ،والارادة والتأثير . فبدون الحب تكون العقيدة عمياء ، وبدون الادراك تكون العقيدة باهتة ، وبدون المقدرة على تمثيل الخالق تكون العقيدة غير حقيقية وبدون الارادة والتأثير تكون العقيدة غير مثمرة (١) . ولا تخلو أكثر الاشكال الدينية سذاجة من ادراك للقوة فوق الطبيعية ومن الاحساس بالحب ازاءها ، ومن المقدرة على تشخيصها ، وأخيرا من العادات والطقوس التى تعبر عن ارادة الانسان والسعى الى التأثير فى هذه القوة الالهية ..

فاذا أصبح تصور القوى الالهية حيا فى نفس الانسان ، أصبح للظواهر الطبيعية والأحلام والموت الى غير ذلك مغزى دينى ، واكتسبت

---

(١) Othamar Spann : Religious Philosophie, p. 12 (Wien 1947).

مخاوفه ورغباته صفة روحانية • ويمكننا أن نتمثل موقف الانسان من القوى العليا وطريقة وصوله اليها اذا تصورنا شكلا مخروطيا تقع في قمته القوة العليا وفي أسفله يقف الانسان ، وبين القوة العليا والانسان يقف الوسيط الذي يتمثل في الطبيعة بشتى مظاهرها • وهناك وسيلتان يصل بهما الانسان الى القوى العليا ، طريق مباشر دون وساطة وهو ما يسميه الفلاسفة طريق الأحوال الصوفية ، وطريق آخر غير مباشر يصطدم فيه الانسان بالوسيط الذي ربما كان عائقا في سبيل وصول الانسان للالتحاق بالقوى العليا ، ويسمى طريق الأحوال السحرية • وكلا الطريقين يخوضهما الانسان نتيجة وعيه بذاته• فالوعي بالذات كما قال هيجل يعني الوعي بذاتية الذات وموضوعيتها • فعندما تسعى الذات الى تشخيص الذات العليا ، فان هذا التشخيص يمثل الجانب الموضوعي من هذا الادراك (١) • والوعي بالذات يقود الى الأجواء غير المادية ، أي أنه يمثل تلك الحالة التي ينغمس فيها الانسان في الوجود الكلي• ولعل هذا يفسر لنا حرص الشعوب جميعا على رواية قصة الخلق ، وذلك أن قصة الخلق تعد تشخيصا لحاجة الانسان الى ارتباطه بالقوى العليا ، فهو اذن مرتبط بها منذ الأزل ، بمعنى أنها هي التي خلقته وهي التي حددت مصيره • أي أن الانسان والطبيعة معا يعدان فيضا من الله • على أن ادراك الانسان للقوى العليا لا ينبع من حاجته الى ارتباطه بالكل الكامل فحسب ، وانما ينبع كذلك من احساسه بعدم كمال ذاته وعدم كمال عالمه • فعن طريق مقارنة وجود الله العلي الكامل من خلال التجربة الصوفية ، بوجود الانسان المادي ، يتبع بالضرورة استبعاد كل ما يشعر به الانسان من نقص في ذاته أو في عالمه عن الخالق • ولهذا السبب فان الحالة الروحية تنبثق من نزوع الانسان الى التخلص من غربته عن عالم الخالق ، والى السعي نحو التمثل به ، وهو الأمر الذي يقوده الى تشكيل حياته بتقاليد محددة وبسلوك ذي طابع روحاني ، أي أن الانسان

---

(١) Op. cit., p. 38.

يخوض تجربة داخلية تسمو به فوق المدركات الحســية أى فوق النطاق المادى المحــدود ••

على أن الانسان يخوض هذه التجربة بوصفها كلا اذا بدأ من أعلى الى أسفل ، وذلك نتيجة احساسه الفطرى بارتباطه بالقــوى العليا •• ويؤيد هذا قصـــة ابراهيم عليه السلام عندما سعى من خــلال التجربة التأملية الى البحث عن الاله فى العالم الارضى ، بل فى العالم السماوى البعيد • فاصطدم بالكوكب أول الأمر فقال : « هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين • فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين • فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون • انى وجهت وجهى للذى فطــر الســماوات والأرض حنيفــا وما أنا من المشركين » [1] • فابراهيم عليه السلام كان يخوض تجربة صوفية بدأها من العالم العلوى وظل يبحث عن تشخيص للخالق حتى أقر بأنه أكبر من كل القوى الطبيعية المتدفقة منه ••

أما اذا بدأ الانسان تجربته الروحية من أســفل الى أعلى ، فانه يسير فى الطريق غير المباشر الذى يصطدم فيه بالظواهر الطبيعية المتعددة التى يخلع عليها صفات ســحرية • وهو يظل يعيش فى هــذا العالم السحرى الذى يحول بينه وبين خوض التجربة التأملية التى يتصــل الانسان عن طريقها بالله اتصالا مباشرا • وفى هذا العالم السحرى تلعب الأرواح الخيرة والشريرة التى تعد فى الحقيقة تشخيصا لمخاوف الانسان ورغباته ــ نتيجة احساسه بارتباطه بقوى فوق الطبيعية ــ دورا كبيرا فى حياة مثل هذا الانسان • ولهذا فانه يخشى الاساءة الى ظواهر الطبيعة لأنها فى الوقت نفسه تعد اساءة القوى العليا • وهو يتجنب هذه الاساءة لأنه يخشى عقاب القوى الخفية المتربصة به ••

---

(١) سورة الانعام من آية ٧٦ الى ٧٩ •

فاذا حاولنا أن نتبين فى ضوء هذا الكلام ملامح الدين اليهودى كما يعرض فى التوراة ، فاننا نرى أن اليهودى لم يستطع أن يتصل بالله اتصالا مباشرا عن طريق التأمل أو الرؤيا أو النور الباطنى • وانما وقف فى منتصف الطريق حيث الوسيط أو الوسائط التى يمكن أن تربطه العادات والتصورات القديمة التى استطاع فريزر أن يكشف عن الكثير بالقوى الالهية • وهذا يفسر سبب تعلقه بطقوس السحر وبكثير من منها • حقا ان كل شعب من شعوب العالم أيا كان نوع دينه السماوى ، احتفظ أو مازال يحتفظ ببعض المعتقدات القديمة التى ربما استطاع أن يكيفها ويغير صورتها بحيث يمكن أن تتلاءم مع دينه الجديد ، ولكن الدين السماوى فى حد ذاته اجتهد فى أن يخلص العقيدة الجديدة من الشوائب القديمة ومن التصورات الوثنية ومن تلك الوسائط المادية التى يمكن أن تكون عائقا بينه وبين الصعود فى مراتب من النور الباطنى الذى يصل به الى وجود الله وطبيعته ••

ولم يستطع اليهود ـ كما هو معروف عن تعلقهم الشديد بالمادة ـ أن ينسلخوا من هذه المادية وأن يسموا بدينهم ، أو على الأقل يحتفظوا بأصوله الروحية السامية • ومن ثم فقد ظلوا متعلقين بكل الوسائل المادية التى حجبتهم عن الرؤية الالهية الخالصة • ولا عجب بعد ذلك أن يلجأ شاءول لى ساحرة عين دور لكى تكشف له عن مصير شعبه فى الحرب بدلا من أن يفزع إلى الله ليعينه فيها • ولا عجب ألا يثق ابراهيم من عهد الرب الا بعد أن أدى الطقوس الوثنية القديمة التى كانت تتبع عند عقد عهد من العهود بين طرفين • ولا عجب أن شخص اليهودى الرب على هيئة انسان أمسك يعقوب بتلابيبه حتى يباركه • ولا عجب أن ترسبت فى دينه كثير من المظاهر البدائية على نحو ما أوضحه المؤلف فى كتابهم المقدس ••

* * *

وبعد تلك الجولة فى عالم الأديان التى حاولنا من خلالها أن نتبين طبيعة الدين اليهودى ، نحاول الآن أن نلقى بعض الضوء على منهج فريزر فى هذا الكتاب ، وبوصفه باحثا أنثروبولوجيا بصفة عامة ••

لقد كان العالمان الأنثروبولوجيان : مالينوفسكى وفريزر متعاصرين • ومع أن كلا منهما كان له منهجه الخاص به فى البحث الانثروبولوجى الاجتماعى ، الا أن كلا منهما يعد عملاقا فى ميدانه ، فكلاهما كان يبحث وهو على وعى تام بما تتصف به الطبيعة البشرية من تعقيد ، وكلاهما كان يكتب بأسلوب حاذق موضوعى ، وان لم يصل أسلوب مالينوفسكى الى ما وصل اليه أسلوب فريزر من لباقة ودقة • وكلاهما أغرم بوصف المظهر الشعائرى للحياة • وقد كانت عملية تحليل المعتقدات بالنسبة لكليهما رحلة استكشاف للروح الانسانى • وكلاهما كان يبحث دائما عن القرائن للحقائق المدركة كما أن كليهما كان يتحرك من الحقائق الى النظرية ومن النظرية الى الحقائق ، وان كان فريزر أكثر استقصاء للظواهر فى أبحاثه من مالينوفسكى ••

ومع كل وجوه التشابه هذه بين الباحثين ، فان مالينوفسكى قدم للبحث مادة أكثر غنى ووفرة فى كتاباته الاثنوجرافية (الانثروبولوجيا الوصفية) • وهو فضلا على هذا وضع نموذجا للعمل الميدانى ولتوثيق نظريته التى تتلخص فى تحقيق المنهج الوظيفى على أكمل وجه ، بحيث يحتذى به فى العصر الحديث • ولقد أشاد فريزر بمنهجه هذا فقال : « ان من أهم ما ميز منهج مالينوفسكى أنه كان يضع نصب عينيه الطبيعة الانسانية المعقدة بوصفها كلا • فلقد كان ينظر الى الانسان فى المحيط الذى يحيط به لا فى المسطح المكانى الذى يعيش فيه ، ذلك أنه كان يتذكر على الدوام أن الانسان مخلوق تتحكم فيه العاطفة بقدر ما يتحكم فيه العقل • ومن ثم فقد كان كل همه أن يستكشف الجانب العاطفى بقدر ما يستكشف الأساس العقلى لسلوكه »[1] • فهل كان هذا الأساس المنهجى والنظرى ينقص فريزر فى أبحاثه ومن فقد أقر بأهميته ؟ ان ما كان ينقص منهج فريزر بحق هو توسيع ثم نطاق العمل الميدانى واستكشاف الروح الانسانى من جانبيه العقلانى والعاطفى وذلك

---

(١) Man and Culture : Edited by Raymond Firth, p. 71, London, 1960.

عن طريق الربط التام بين جميع ممارسات الانسان وسلوكه • أى أنه كان ينقصه ما وصف به مالينوفسكى من أنه ينظر الى الانسان فى المحيط الذى يحيط به وليس فى المسطح الذى يعيش فيه • فكثيرا ما اعتمد فريزر فى دراساته على ما دونه المبشرون عن القبائل البدائية ، وكثيرا ما اعتمد فى أبحاثه على دراسات الباحثين بدلا من اعتماده على الاتصال المباشر بالناس عن طريق العمل الميدانى • ذلك أن منهجه كان يعتمد على جمع الحقائق جمعا مستقصيا وبشتى الطرق بقصد اثبات نظريته فى ظاهرة من الظواهر الانسانيه • ولهذا فقد أخفق فريزر فى أن يجد تفسيرا لبعض الظواهر الاعتقادية • ومثال هذا أنه قد تحدث بصدد بحثه عن تقديس بعض الأشجار ، عن عادة تعليق الخرق الملونة عليها • ومع استقصائه البالغ فى البحث بقصد تأكيد هذه الظاهرة ، الا أنه لم يقدم أى تفسير لمغزى تعليق الخرق على الأشجار بقصد التوسل الى روح الشجرة • وسبب هذا أنه لم يكن يهتم باستكناه مغزى الفعل بقدر ما كان يهتم بسرده ••

ومع كل هذا فلقد قدم فرزر للقارىء المتخصص مادة وافرة لا غنى عنها فى دراسة الحياة الانسانية • ولقد استطاع أن يثبت عن طريق دراساته المقارنة تلك التقاليد والمعتقدات التى تخلفت مع الانسان عبر التاريخ والتى ترجع فى أصولها الى الحياة البدائية الأولى • وبهذا استطاع أن يستكشف ما تخلف فى التوراة من معتقدات وعادات قديمة كانت لها أبلغ الأثر فيما اتسم به الدين اليهودى من جوانب ضعف ، فضلا على أنها كشفت عن شخصية اليهودى الذى استغل الدين كل الاستغلال فى سبيل تحقيق أطماعه المادية ••

واذا كان فريزر قد تناول كل الموضوعات التى طرقها تناول العالم المدقق الذى ينقب فى موضوعية تامة عن خبايا الأمور بقصد استكشاف كنهها ، فاننا نرى أنه قد استخدم هذا المنهج فى غير ضرورة فى قصة موسى عليه السلام • فقد حاول فى هذا الفصل

أن يعزل القصة عن الحقائق التاريخية ، وأن يقرن بينها وبين ما يماثلها من قصص شعبى مروى • وقد اقتضت منا الأمانة العلمية أن نترجم هذا الفصل كما هو على مسئولية المؤلف ••

هذا وقد تطلبت منا الترجمة الكاملة التى تقع فى مجلدين ، كل مجلد على حدة ، أن نذيلها بهوامش لتوضيح بعض الأمور التى لم يوضحها المؤلف فى كتابه هذا • كما أننا أشرنا الى مصدر آيات التوراة التى أغفل عمدا ذكر مكانها فى التوراة على سبيل الاختصار كما ذكر فى مقدمته • وكذلك استشهدنا فى بعض الأحيان بآيات لم يشر اليها المؤلف وذلك بقصد القاء مزيد من الضوء على ما تعرض له المؤلف فى دراسته من عادات وطقوس عند العبريين القدماء •

حـول المؤلف والـكتاب

اذا كان فريزر يمثـل حقبة فى الدراسـات الأنثروبولوجية انقضت بموته عام ١٩٤١ [1] ، فان هـذا يعنى أنه يمثل مدرسـة فى الميدان الأنثروبولوجى تسير وفقا لمنهج محدد وتهدف الى تحقيق هدف بعينه • ولذا يتحتم علينا ، قبل أن نعرض لكتابه « الفولكلور فى العهد القديم » أن تبين معـالم هذه المدرسـة ومنهجها وهدفهـا ، لنرى ما اذا كان فريزر قد استطاع بمؤلفه هذا أن يؤكد منهجه وهدفه • ولكننا قبل أن نفعـل هذا ، يحق لنا أن نقـدم القارىء صورة تقريبية لشخصية هذا العالم الانسانى الكبير ، ولعلاقاته بعلماء عصره بخاصـة هؤلاء الذين كانوا يعملون فى ميدانه •

لقد كان فريزر يمثـل أكثر من أى باحث من الباحثين المعـاصرين له ، الاتجـاه الانسانى الذى كان يستلهم الدراسـات المقـارنة فى سـبيل فهم التراث الاغريقى واللاتينى والشرقى القـديم • وربما ظل اسـمه خاتمة العلمـاء الانسـانيين الكلاسيكيين الكبار • ولقـد كان واسع العـلم متعدد الاتجـاهات ، فقد درس علم الطبيعة وعـلم الأحياء ، وبعض فروع أخـرى من العـلوم الطبيعية • وكان يقـرأ هومير باللغة الاغريقية وأوفيد وفرجيل باللاتينية ، والكتاب المقـدس بالآرامية • وفضلا عن ذلك فان أعمـاله الكبيرة المتعددة لم تمنعـه من كتابة المقالات والشعر [2] •

أما عن علاقة فريزر بعلماء عصره ، فاننا ندع العالم الأنثروبولوجى المرموق مالبنوفسكى ، يتحـدث عن ذلك حيث أنه كان على علاقة وثيقة

---

(1) Manlinoski : A Scientific Theory of Culture : 1944 P. 179.
(2) Ibid : P. 179.

به زمنا طويلا ، وحيث أنه تعرض لنقد أعمــاله ونظرياته نقــد العالم الحصيف المنصف ، فذكر ما له وما عليه • يقول مالينوفسكى :

« لقد عرفت فريزر طيلة الواحــد والثلاثين عاما الأخــيرة من عمره • وفى خلال هذه السنوات الطــوال استطعت أن أتتبــع كثيرا من علاقاته الشخصية مع جماعة الأنثروبولوجيين ، كما حاولت أن أتفهم منهجه فى تنــاول المشــكلات والحقــائق ، وأن أدرس تطــور أفكاره ونظرياته ، فانتهيت الى أن فريزر كان مصدر الهــام كثير من المفكرين والكتاب المحــدثين فى الأنثروبولوجيا والعــلوم الاجتماعية والانسانية • ومع كل هذا فقد كان فريزر يعانى مشقة كبيرة فى مناقشــة موضــوع من الموضــوعات أو رأى من الآراء مع باحث من الباحثين ، اذ قلمــا نجح الانسان لــكبير فى أن يدير مناقشة على طريقة المدرس الذى يعطى ويأخذ • وكان من الضرورى لمحدثه أن يتريث معه حتى توانيــه لحظة الالهــام ، فيرتجل بضعة فقرات جميلة شبيهة بتلك التى نجدها فى كتاباته • وعلى الرغم من هذا العيب ، فقــد عرف عن فريزر اهتمامه البالغ بالحقــائق الجديدة لتى تســفر عنها استكشافات الباحثين فى العمــل الميدانى ، كما عرف عنه مقدرته فى حث الباحثين الميدانيين عن طريق المراســلة • ولقد كان لخطاباته التى أرســلها الى فى أثنــاء رحلاتى فى غينيا الجديدة وميلانيزيا أكبر عون لى فى أبحاثى ســواء عن طريق اقتراحاته أو استفساراته أو تعليقاته •

ومن الطبيعى أن يكون فريزر بنــاء على افتقاره لروح الجــدل والمناقشــة ، محاضرا غير ناجح ، بل انه كان محاضرا غــير مكترث ، وكان يفضــل أن يقرأ محاضراته عن أن يتلوها ارتجالا ويناقشــها مع طلابه • ومعنى هذا أن فريزر لم يــكن معلمــا بالمعنى الضيق لهــذه الكلمة ، اذ لم يكن فى وســعه أن يطور جــدله ويدافع عن نظــرياته عن طريق النقــاش • ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن ينكر أنه كان معلما بالمعنى الواســع لهذه الكلمة ورائدا من كبار رواد العــالم فى مجال البحث الأنثروبولوجى ، فقد كان فرويد يعتمــد عليه فى أبحــاثه عنــد

تطبيقه لنظرياته فى علم النفس التحليلى فى المجــال الأنثروبولوجى • وكان له تأثيره الكبير على دور كليم ومدرسته التى كان من أعلامها فان جينيب وليفى بريل ، وهربرت ، وبوجليه • كما أرسى البـــاحثون الألمان من أمثال فونت ، وتور نفالد ، وبرويس وغـــيرهم ، دعائم علمهم على أســـاس نظريات فريزر وعلمــه الواســـع فى الدراسات الأنثربولوجية

أســـاس نظريات فريزر وعلمــه الواســـع فى الدراسات الأنثربولوجية•

وســـواء اتفق البـــاحثون الانجليز من أمثـــال ويسترمارك وكرولى وجيلبرت مورى ، وجين هاربســـون ، وسيدنى هارتلاند واندرو لانج ، معه فى نظرياته وآرائه أم لـــم يتفقوا معـــه ، فانهم بدون شـــك قد استمدوا توجيهاتهم ومفاتيحهم فى البحث منه • بل انه ترك أثرا بعيد المدى فى جماعة من المفكرين الرواد فى مجال لتاريخ والفلســـفة وعلم النفس والأخلاق من أمثال أناتول فرانس وبرجسون وأرنولد توينبى ، وشبنجلر • ويتضح هذا عندما كان هؤلاء يتعرضـــون للموضـــوعات الأنثروبولوجية الأساسية مثل « التابو » والطوطمية والسحر والزواج وأشكال الديانة البدائية وتطور النظم السياسية (1) •

وقد وهب فريزر ميزتين كبيرتين احداهمـــا مقدرة الفنان عـــلى خلق عالم خيـــالى خاص به ، وثانيتها حصافة العـــالم الصـــادق فى التمييز بين ما هو وثيق الصلة بالموضـــوع الرئيسى وما هو ثانوى • وقد تولد عن الخصلة الأولى أسلوبه الساحرى ومقدرته على صـــياغة الشـــواهد الاثنوجرافية الجامدة فى شـــكل قصصى دراسى ، كما يبدو هذا تماما فى كتابه « الفولكلور فى العهد القديم » ، كما تولد عنها مقدرته على خـــلق الرؤى من البـــلاد البعيدة والحضارات الغريبة • أما الميزة العلمية الثانية ، فقد تولد عنها حسه التجريبى الذى قادة الى التجوال بين عالم المادة الاثنوجرافية لكى يستخلص منهـــا الشواهد التى كثيرا ما كانت تؤدى الى بطلان نظرياته نفسها ، وان كانت تقدم لنا فى المكان

(1) Malinowiski : op. cit. pp. 182-184.

المناسب لها حقائق عن السحر والدين وعن الطوطمية ونظم الزواج ، وكل ذلك داخل الاطار الواقعي ، بما جعلها تنبض برغبات الناس ومعتقداتهم واهتماماتهم • وبهذا استطاع فريزر أن ينظم المعرفة الجافة المتراكمة فى شكل هندسى رائع من الشواهد ، محتضنا الكثير من الأفكار التى صاغها الباحثون من بعده فى شكل نظريات وقد كان من أهم ثمار هذا الجهد العلمى الرائع ، كتاب « الغصن الذهبى » الذى يحكى قصة الفكر والروح الانسانى الموغل فى القدم ، وكتاب « الطموطمية والزواج من الأباعد »وهو الكتاب التعليمى ثم كتاب « الفولكلور فى العهد القديم » الذى يعد أشبه بأسطورة أنثروبولوجية رائعة •

وبقدر ما كان فريزر يعيش فى عالم الخيال ، كان يعيش فى عالم الواقع الموضوعى • وقد استطاع أن يشكل نظرياته فى شكل طيع من الشواهد التى جمعها من جميع أنحاء العالم • وهذا يفسر لنا سر اهتمامه بحقائق العمل الميدانى وعدم اكتراثه بالنظريات الا فيما ندر • ذلك أنه كان يرغب دائما فى أن يضيف شيئا الى عالمه الحى ، عالم الوجود الانسانى الدرامى • وفيما عدا هذا كان يكره تشريح هذا العالم عن طريق النقد النظرى • وعندما غضب من اندرولانج لنقده الساخر من كتابه « الغصن الذهبى » لم يكن غضبه منه لتجريحه الشخصى فيما يقوله الباحثون ، بقدر ما كان بسبب تجريحه عالم أوريرس وفيربيوس وبالدور (١) •

مكانة فريزر فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية :

كان فريزر على رأس المدرسة التطورية التى ركزت اهتمامه على دراسة الجانب البدائى فى الجنس البشرى • وقد كان فريزر يبحث عن هذا الجانب البدائى فى التقاليد والعادات والممارسات

(1) Malinowiski : op. cit p. 185.

بصفة عامة كما كان يبحث عنه عند البدائيين ، بل ولدى الجنس البشرى فى كافة مستويات رقيه الحضارى • أما الوسيلة التى كان يستعين بها فى هذه الدراسة الواسعة فهى المنهج المقارن الذى يعتمد على جمع المادة من جميع أنحاء العالم ثم المقارنة بينها • وقد تطلب منه ارتباط المنهج المقارن بفكرة التطورة فى سبيل فهم الانسان بعض الفروض العامة التى تتلخص فى أن الناس يتشابهون أساسا فى الجوهر ، لأن الشعوب جميعا قد بدأت من مرحلة بدائية ، ومرت تدريجيا بمراحل مختلفة من التطور • ومن الممكن استكشاف المقياس العام لسلوكهم وأفكارهم عن طريق الاستقراء الذى يعتمد على النظرة الشاملة للمادة المجموعة • وعند ذلك يواجه الباحث ما يسمى بالبقايا المتخلفة ، وهى تلك البقايا المتبقية من المعتقدات والعادات التى عاشت مع الانسان فى عصوره البدائية . ثم ترسبت أو ترسب بعضها معه فى أطوار رقيه • وتعد عملية احصاء تلك البقايا المتخلفة من المعتقدات والعادات مفتاحا لفهم الاستمرار فى حدود التغير ، كما أنها تمثل من ناحية أخرى الحلقة التى تصل بين المراحل التطورية المختلفة • فاذا غاص الباحث حتى أدنى المستويات الحضارية ، فانه يصل الى المستوى الهمجى الأدنى للأجناس البشرية ، أى أنه يصل الى أصل الطقوس الانسانية والعادات والأفكار • فالحضارة معقدة كل التعقيد فى حين أن الهمجية بسيطة نسبيا • كما أنها تعد بدون شك البؤرة التى نشأت عنها كل الحضارات عن طريق عملية التطور البطىء • ولهذا ينحتم على من يسعى الى فهم نتاج الحضارات المعقد أن يبدأ من العناصر البسيطة ، أى أن يبدأ بفهم حياة البدائيين وسلوكهم •

على أنه على الرغم من اهتمام فريزر البالغ بنظرية تطور الجنس البشرى عن الأصول البدائية ، وعلى الرغم من محاولاته العلمية فى ابراز تلك الأصول عند الأجناس البشرية ، فانه لم يطور قط أية نظرية كاملة لأسس هذا التطور • فنحن لا نجد فى أعماله أى تحديد

دقيق لتلك المفهومات التى رددها وهى : أصـول الجنس البشرى ، مراحل التطور ، البقايا المتخلفة • بل اننا لا نجد عنده أية محـاولة تهىء له مجـرد تصور عمليـة تطور الجنس البشرى أو تتيح لنا فرصة ادراك القوى الدافعة فى سبيل هذا التطور .

وقد أدرك فريزر كما أدرك غيره أن أسـاس المعتقدات والعادات والتصـورات ينبـع من أنشـطة الانسـان الروحيـة والعقلية وهى والسحر والدين والعلم • وليست هذه الجوانب ، من وجهة نظر فريزر ، متداخلة فى حياة الانسـان فى كل زمان ومكان بحيث يؤدى كل منهـا دورا حيويا فى حياته العملية والروحية ، ولكنها تعيش منفصـلة مـع النـاس ، بحيث يؤدى كل منهـا دورا مهمـا فى مراحـل الحضارة المختلفه ، فالسـحر يسيطر على حياة الانسـان البدائى الهمجى كما كان يحلو لفريزر أن يسميه ، ذلك لانه يعـد الوسـيلة الوحيـدة التى يحـاول الانسان البـدائى عن طريقها اخضـاع ظـواهر الطبيعة لسيطرته • فلما أصبح الانسـان بعـد ذلك أكثر ذكاء ، أصبح أكثر وعيا بقدرته وخضوعه فى الوقت نفسه للقوى العلوية التعسفية • ومن ثم فقد أخذ يسترضى تلك القوى عن طريق تأدية الشـعائر والطقوس . وفى النهـاية يصل الانسان الى مرحلة العلم ، وهى المرحلة التى يعيشها الانسـان المتحضر اليوم • وهنـا يبدى فريزر تشـاؤمه ازاء مصير الانسان ، ذلك أن العلم يعمل فى هدوء وبلا هوادة على تحطيم عالمنـا الذى يسبح فيه كوكبنا كذرة أو هباءة [1] •

ويرتكز السحر من وجهة نظر فريزر على أساسين : الأساس الأول هو ان الشبيه ينتج الشبيه ، والأساس الثانى هو ان الأشـياء التى كانت ذات مرة متصلة ببعضها البعض ، يستمر تأثيرها فى بعضها الآخـر ، وان انقطعت الصلة الظاهرة بينهما • فهذان الأساسان يمثلان من وجهة نظر فريزر قوانين النظرة السـحريه عند الانسان البداتى • وعـلى

---

(1) Kardiner Brible : They Studied Man p. 89.

الرغم من ان الانســـان البدائى لم يعبر عن هذه القوانين بالكلمات ، بل انه لم يدركها ادراكا مجـــردا ، الا أنه كان يعتقد بكل بســـاطة ان طقوسه الســـحرية تنظم له أحـــوال الطبيعة تنظيما مســـتقلا عن ارادته • وكلا الاساســـين يندرجان تحت ما يســـميه فريزر بســـحر المشـــاركة ، لأن كليهما يفترض أن الأشياء تؤثر فى بعضها البعض وهى متباعدة عن طريق العلاقة السرية التى تصـــل بينهما بطريق ما •

ويمكننا ان نستدل بمثالين من كتاب الفولكلور فى العهد القـــديم يوضحان هذين الأساسين لمفهوم السحر عند البدائيين من وجهـــة نظر فريزر ، أما المثال الأول الذى يوضح نظرية : « الشبيه ينتج الشبيه » ، فهو يقع ضمن الأمثلة العديدة التى ساقها فريزر فى الفصـــل الأول من الباب الثانى ، وهو الفصل الذى يقع تحت عنوان « عهد ابراهيم » • وقد حاول فريزر فى هـــذا الفصـــل أن يستدل على أن الشعائر التى أداها ابراهيم لعقد عهد بينه وبين الرب ، شبيهة كل الشبه بالشـــعائر التى تؤديها الشعوب البدائية بقصد عقـــد بين طرفين ، فهم يذبحـــون ذبيحة ويشطرونها شطرين يمر بينهما الطرفان المتعاهدان فى الوقت الذى يتلو أحـــد الأفراد دعوات شريرة على من يحنث باليمين أو ينقض العهد ، وذلك بأن يكون مصيره كمصير الذبيحة المشطورة • فالبدائى بذلك يعتقد كل الاعتقاد أن شـــطر الذبيحة على هذا النحو ينتج عنه جـــزاء مشابه يحل بمن ينقض العهد أو يحنث باليمين •

وأما الأساس الثانى وهو اســـتمرار تأثير الأشـــياء فى بعضها البعض رغم بعد الشقة بينهما ، فيتضح من خلال الأمثلة العديدة التى أتى بها فريزر فى فصـــل شمشون ودليلة وغيره من الفصـــول • ومثال ذلك أن البدائى يعتقد أنه فى وسعه أن يعزل روحه عن جســـده ليحتفظ بها فى مكان آمن • فاذا حدث أن لحـــق ضرر بروحـــه ، فان هـــذا الضرر يصيبه فى الحـــال على الرغم من انفصـــال روحه عن جسده • ونحن نلاحظ أن كلا المثالين يجتمعان مرة أخـــرى تحت مفهـــوم ســـحر المشـــاركة • فمصير الذبيحة ينتقل الى الحانث باليمين عن طريق سحر

المشـــاركة ، وبهذه الطريقة نفسها ينتقل الضرر من الروح الذى أصيب بأذى الى صاحبه •

واذا كان السحر وسيلة لاخضـــاع الظواهر الطبيعية لسـيطرة الانســـان ، فان الدين ، من وجهـــة نظر فريزر ، ليس ســـوى عملية استرضاء القوى العليــا التى تتحــكم فى مصير الانســان والظواهر الطبيعية معا • ولقد حاول الانسان البدائى فى مرحلة حضارية أرقى من المرحلة السحرية ، أن يحـــدد لنفسه تلك المفهومات الكلية مثل القـــوة والحيـــاة والروح والاخصـــاب ، ولكنه عندما حـــاول ذلك ، خلط فى التمييز بين الخصائص الانســـانية وخصائص الطبيعة ، كمـــا أنه شعر بعجزه وعجز أدواته السحرية عن تفسير تلك الظواهر • ومن ثم فقـــد افترض العقل البدائى وجود آلهة أو سحرة علويين يعيشـــون فى عالم غير مرئى ، ومن الممكن التوسل اليهم والتضرع لهم ، ليسدوا النقص فى قدرات القوة الســحرية •

وأما المرحلة الحضـــارية الثالثة وهى مرحلة العـــلم ، فهى تلك المرحلة التى يعيشها الأوروبى اليوم بعد أن تجـــاوز مرحلتى السحر والدين • وفريزر فى هـــذا لا يخفى تعصبه للجنس الأوروبى الذى يرى أنه قد فاق بتطوره العلمى ســـائر الأجناس الأخرى •

واذا نحن أمعنا النظر فى تحديد فريزر لهذه المفهومات ، فاننـــا نجـــد أن مذهبه التطورى قد فرض عليه هذا التقسيم التعسفى بـــين السحر والدين والعلم ، كما سنشير الى ذلك بالتفصيل عندما نتعرض للنقد الذى وجه لفريزر ازاء هـــذا التقسيم • على أننا أشرنا آنفـــا الى أن فريزر لم يكن رجل نظريات ، ولم يكن يعد النظرية ، على حد تعبيره ، ســـوى مشجب يعلق عليه كل الحقائق التى يجمعها [١] • ولهذا فان فريزر يصبح رجلا عمليا بمجـــرد أن يفرغ من مناقشاته النظرية ،

---

(1) Kardiner, Brehle : They Studied Man : p. 91.

ويدخل فى مجال دراسة الشعوب • عند ذلك تتداخل عنده الظواهر المختلفة للحضارة الانسانية والاهتمامات البشرية ، كما أنه يصبح كاتبا ممتعا ومشوقا يستطيع بمقدرته على العرض والربط بين الظواهر المختلفة ، أن يتجول مع القارىء عبر صحراء استراليا وبين أحراش الأمازون وفى برارى آسيا ، ووسط طبيعة أفريقيا المتنوعة ، كما يجعله يعايش الشعوب المختلفة فى أفكارها ومعتقداتها وعاداتها ، وذلك عندما يلقى الضوء على الشواهد المتراكمة بنظرة ثاقبة فى الدوافع الانسانية • بل ان فريزر كثيرا ما كان يقترب من منهج التحليل النفسى للدوافع الشعورية واللاشعورية للسلوك البشرى ، وذلك على رغم مقته لعلم النفس التحليلى مقتا جعله يعزف عن قراءة كا ما كتبه فرويد بهذا الصدد • ويعد فريزر فى مقدرته على تفسير الدوافع الانسانية من خلال الأفعال والشعائر ، وفى تأكيده أن الفعل أكثر ضمانا للبحث من الأقوال — يعد من أصحاب المدرسة السلوكية بالمعنى الاجتماعى لهذه الكلمة • ذلك أنه ينزع على الدوام الى توثيق التفسيرات النفسية بأشكال من لسلوك الانسانى ، وأنه كان ينظر الى الحقائق الأنثروبولوجية بوصفها جزءا مكملا للحياة الانسانية بصفة عامة ، وذلك فى اطار الحضارة ، بل فى اطار الطبيعة التى يعيش فيها الانسان •

وعلى الرغم من الجهد العلمى المخلص الذى بذله فريزر فى دراساته التى ستظل تعيش بوصفها أعمالا رائدة ، مهما جد عليها من أبحاث فى مجال الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية ، وعلى الرغم من أنه فتح للباحثين من بعده آفاقا جديدة واسعة فى الابحاث الانسانية بصفة عامة ، فإن فريزر لم يسلم من النقد والتجريح من قبل الباحثين فى ميدانه ، فمنهم من ظلمه حقه ، وأنكر ما فى أبحاثه من أصالة وما لها من أثر بعيد فى الدراسات الانثروبولوجية الحديثة ، ومنهم من أسرف على النقيض من ذلك فى تمجيده ، بحيث جعله البطل الذى مهد عن طريق نظرياته الأصيلة ، طريق القيم العلمية الصائبة لمن بعده ، فى

الوقت الذى جعل هذا البعض مالينوفسكى نبيا مزيفا قاد الدراسات الأنثروبولوجية الى متاهات لا حدود لها [1] • وهناك نوع ثالث وعلى رأسهم مالينوفسكى الذى نقده نقد العالم الموضوعى الحصيف ، فذكر فضله على الدارسين من بعده ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، فى الوقت الذى تعرض لنقد نظرياته بخاصة نظريته السابق ذكرها فى السحر والدين والعلم • ويهمنا أن نسوق للقارىء هذا النقد حيث أنه يلقى مزيدا من الضوء على نظرية فريزر هذه التى تعد محور كثير من أعماله ان لم تعد محورها جميعا •

لقد كان مالينوفسكى رائد المدرسة الوظيفية كما كان فريزر رائد المدرسة التطورية • وهذا الاختلاف الجوهرى فى اتجاه كل منهما فى مجال البحث ، دفع كثيرا من الباحثين لأن يقرنوا بين العالمين ، هذا فضلا عن أن هذا الاختلاف يشير بادىء بدء الى تباين وجهتى نظرهما فى تناول المشكلات الاجتماعية المتعددة • وفيما يختص بنظرية السحر والدين والعلم ، فقد عاب مالينوفسكى على فريزر أنه لم يفرق بين هذه الأمور من حيث الدور النفسى والاجتماعى الذى لعبه كل منها فى الحياة الاجتماعية ، بل انه فرق بينها من حيث أنها تعد مراحل متعاقبة للسلوك البشرى وتفكيره • ولو أن فريزر فرق بين هذه الأمور الحيوية فى حياة الانسان لأدرك أنها تعيش معا بنسب متفاوتة فى كل زمان ومكان، وأن كلا منها لعب دورا أساسيا فى حياة الانسان البدائى بحيث أنها جميعا شكلت حياته على نحو ما • فالانسان فى كل الظروف يمتلك معرفة من نوع ما ترتكز على أساس تجريبى وهو يستخدمها منطقيا • فأبسط وسائله التكنولوجية وطريقة اشعاله النار وتكييفه لوسائل معيشته تتطلب منه معرفة من نوع ما عن المادة وطريقة تشكيلها واستعمالها • أى أن المعرفة ، بل المعرفة العلمية بحق هى رائد الانسان على الدوام فى علاقته بالمحيط الذى يعيش فيه • ولا يمكن أن

---

(1) Current Anthropology : 1966, p. 560.

توجـــد حضارة من الحضارات أيا كان مستواها ، بدون هذه المعرفة • وويترتب على هذا أن الشخص الذى لديه الخبرة العلمية والمقدرة على السيطرة على الوسائل الفنية ، تكون له مكانة بارزة فى قومه •

والسحر بمعنى استخدام التعاويذ والطقوس فى سبيل الوصول الى نتيجة ذات تأثير فعال فى حياة الناس ، يعد عاملا مساعدا للعلم والخبرة التجريبية • فعندما تخون المعرفة العلمية الانسان البدائى ، فانه يتعامل مع الطقس والمرض على سبيل المثال تعاملا سحريا • فالدافع النفسى وراء ممارسة السحر اذن هو مقاومة المصير العثر وجلب المصير الخير • وكما أن المعرفة الشعبية لأحوال الجو والظواهر الطبيعية بصـــفة عامة تعد من مستلزمات الزعيم ، فان خبرته فى عالم السحر تعد لازمة أخرى له • وهو يصبح زعيما فى هذه الحالة لا لأنه قادر على استخدام الوسائل السحرية فحسب ، بل لأنه يقـــدم للجماعة ضمانا للخير ووسائل لتجنب الشر ، وهكذا يرى مالينوفسكى أننا اذا شئنا أن نعـــدل مفهوم السحر عما اصطلح عليه فريزر ، فاننا نقول : ان الدافع النفسى للسحر ليس هو ترابط الأفكار التى ينجم عنها أن الشبيه ينتج الشبيه ، وأن العلاقة التى تقوم بين الأشياء تستمر بينها على بعد الشقة بين بعضها البعض ، وانما يتلخص هذا الدافع فى سعى الانسان وراء نتائج طيبة تعود بالخير على الجميع [1] •

وعلى هذا النحو يختلف ما لينوفسكى عن فريزر فى مفهوم الدين • فليس الدين مجرد استرضاء الانســـان للقوى الالهية ، ولكنه احتجاج نفسى يرتبط بالقضايا الأساسية الوجود الانســـانى • فاذا كان السحر يختص بمشكلات تفصيلية نوعية محددة وحســـية ، فان الدين يختص بمشكلات كبرى مثل الموت والخلود • فهـــو ببنيته الدوجماتية نظـــام للاعتقاد الذى يحدد وضع الانسان بالنسة للوجود ، والانسان يحـــل مشكلاته الأبدية عن طريق الإيمان بالخلود وعن طريق مصالحته للالهة •

---

(1) Malinowski : «A scientific Theory of Culture, pp. 198-199.

ومن هنا يختلف العلم والسحر والدين عن بعضها البعض من حيث التفكير الذهنى والتنظيم الاجتماعى والظيفة • فالعلم يختص بالمعرفة والخبرة الفنية ، والسحر حشد من الطقوس والأفعال والتعاويذ التى تجلب المصير الخير للجماعة ، وأما الدين فيختص بالصلاة والشعائر وتقديم التضحيات التى تربط الانسان بالقوى الآلهيه وتعينه على استكناه مصيره •

وهكذا نرى أن كلا من مالينوفسكى الوظيفى وفريزر التطورى يمثلان الضدين من حيث أن الأول يهتم بصلة هذه الجوانب الروحية والفكرية بعضها ببعض ، فى حين أن الثانى يهتم بنشأتها بعيدا عن بعضها البعض • كما أن مالينوفسكى لم ير ، كما رأى فريزر ، أن الاهتمام بالسحر يمثل نقصا فى عقلية الانسان البدائى حيث أنه يعيش فى مرحلة حضارية محددة وحيث أن كلا من السحر والدين والعلم يؤدى وظيفة بدرجات متفاوتة مع الانسان فى جميع مستوياته الحضارية •

وهناك فرق آخر جوهرى بين الباحثين ، وهو أن فريزر كان يعد الطقوس بديلة للأسطورة والعكس صحيح ، فاذا ما عثر على أسطورة استطاع أن يحدس عن طريقها بالطقوس البديلة لها • أما مالينوفسكى فقد كان يرتبط كل الارتباط بالشواهد المرئية • حقا ان الأسطورة تعد ميثاقا للسلوك الجماعى : فالعمليات الحضارية التى كرس جهده فى البحث عنها عن طريق العمل الميدانى الذى يرتكز على الفروض النظرية، تكون موضوعا لقوانين محددة • وهذه القوانين بدورها يهتدى اليها الدارس عن طريق تحليله لوظيفة العناصر الأساسية من مجرد افتراضه لتطور المراحل الحضارية عن طريق تعقبه للمخلفات الأثرية والاعتقادية• فالباحث فى ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية يتحتم عليه اذن أن يحلل العناصر الحضارية ويربط بين بعضها البعض ربطا وثيقا حتى يتمكن من الاهتداء الى الدور الذى تلعبه هذه العناصر فى حياة الشعوب وفى بنيتها الحضارية • ومن ثم فان مالينوفسكى قد رحب ببعض نظريات فرويد فى علم النفس التحليلى بوصفها وسيلة لفهم العلاقة الوظيفية بين

الفولكلور والتنظيم الاجتماعى ، ومثال ذلك نظرية فرويد فى الكبت نتيجة الدوافع الاجتماعية • وقد وجد مالينوفسكى أن هـذه النظرية تيسر للباحث تفسير بعض الرغبات المحددة والعقد اللتين تشير اليهما المادة الفولكلورية ويؤكدها التنظيم الاجتماعى • أى أنها تهىء للباحث فرصة اقتفاء أثر النماذج الغريزية والميـول العاطفية داخل نسـيج البنيـة الاجتماعية • وفى الوقت نفسه رفض مالينوفسكى استخدام عقدة أوديب فى تفسير البنية الاجتماعية للاسرة ، حيث أن الأسرة من وجهة نظره تكوين وظيفى يرتكز أولا وقبل كل شىء على بنية المجتمع وحضارته (٩) • أما فريزر فلم يكن فى الحقيقة يسـتعين بنظريات الباحثين ودراستهم الا فى حدود امدادهم اياه بالمادة الأنثروبولوجية المدونة أو المروية •

وعلى الرغم من الاختلاف البين بين منهج كل من فريزر ومالينوفسكى فى أبحاثهما ، وعلى الرغم من تباين النتائج العلمية التى توصل اليها كل منهما ، فان الجهد الذى بذله فريزر فى دراساته مازال وسوف يظل يلعب دورا أساسيا فى الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة•ولقد أقر مالينوفسكى بهذا الفضل أكثر من مرة ، فقال من بين ما قاله : « لم أكد اسـتمر فى قراءاتى فى عمل فريزر العظيم « الغصن الذهبى » حتى وجدت نفسى منغمسا فى هذا العمل الرائع وواقعا فى أسره • بل اننى فرضت عـلى نفسى منذئذ خدمة الدراسـات الأنثروبولوجية » (١) • كما قال عنه ك • س ماثور : « حقا ان عظمة فريزر لا تتمثـل فى نظرياته ، ولكنها تتمثل فى غنى مادته وطريقة تحكمه فيها عبر مساحات شاسعة من كوكبنا وعبر عصـور طويلة ، كما تتمثـل فى مقـدرته على تصـنيف مادته وتفسيرها » (٢) •

ويهمنا الآن أن نتبين من خلال عرضنا لكتاب « الفولكلور فى العهد

---

(1) They Studied Man. p. 172.

(2) Current Anrhropology, 1966, p. 567.

القديم »[1] ودراســة مادته ، كيف حقق فريزر من ناحية ، منهجــه التطورى ، حيث أنه يصرح فى مقدمته بأن هذا هو هدفه من بحثه فيقول :
« وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقبا بعض معتقدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفــكرية والعلمية فى المراحل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التى تعيش حتى اليوم من عادات • واذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح فى هذه المحاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر فى تاريخ بنى اسرائيل فى ضوء أكثر صــدقا ، وان يكن أقل رومانسية ، بوصفهم شعبا لا يميزه الوحى الالهى عن غيره من الشــعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طريق عملية انتخاب طبيعى بطيئة »•

ومن ناحية أخرى فاننا نود أن ندرس نظرية فريزر فى السحر والدين كما تتمثل فى هذه الدراسة •

الفولكلور فى العهــد القــديم :

ينقسم الكتاب بأجزائه الثلاثة الى أربعة أبواب كبيرة يندرج تحت كل منها عــدة فصول « وهذه الأبواب هى على التوالى : عصور الحياة الأولى ، عصر الآباء والشيوخ ، عصر الملوك والقضاة ، القانون • ويتفق هذا القسم مع تطور تاريخ بنى اسرائيلى الذى يبدأ ، شأنهم أى شعب آخر ، بآدم عليه السلام • أى أن المؤلف يبدأ بأول قصة فى العهد القديم وهى قصــة الخلق •

---

(١) صدر الكتاب فى ثلاثة مجلدات كبيرة عام ١٩١٩ . وفى عام ١٩٢٢ اصدر المؤلف طبعة مختصرة له تكاد تحتوى على كل ابواب وفصول النسخة الاصلية المطولة . وليس هذا الكتاب سوى عمل واحد من اعمال فريزر العديدة التى ربما استغرق مجرد ذكرها بضع صفحات من هذا البحث .

أولا : عصور الحياة الأولى :

١ ــ قصــة الخلق :

ملخص هذه القصة أن الرب ، وفقا لرواية الاصحاح الأول فى سفر التكوين شرع فى خلق كل الكائنات وفى نهاية الأمر خلق الرجل والمرأة من الطين ، أو انه وفقا لرواية الاصحاح الثانى من هذا السفر نفسه خلق الرجل ومن بعــده سائر الكائنات وفى النهاية خلق المرأة من ضلع الرجل • ثم أسكن آدم وحواء فى جناته وكفل لهما فيها الحياة الرغدة ، وسمح لهما أن يأكلا الثمار فيما عدا ثمار شجرة المعرفة ، ثم جاءت الحية الى حواء وأسرت اليها بأن الرب انما حرم عليهما أن يأكلا من ثمار هذه الشجرة حتى لا يكونا عارفين بالخير والشر • وكان هذا الاغراء كفيلا بأن يجعل يد حواء تمتد الى ثمار الشجرة لتأكل منها وتقــدم منهــا لزوجها كذلك • ولم يكن الرب قد علم بما ارتكبه الأبوان الأولان من حماقة • وذات يوم عندما كان الرب يتمشى فى جناته وجــد آدم وحواء مختبئين خجلا بعد أن انكشفت لهما عورتهما أثر أكلهما من الشــجرة فنادى عليهما وأسرع فى طردهما من الجنة ، وذلك خوفا من أن يتهورا مرة أخرى ويأكلا من شجرة الحياة فيصبحا خالدين مثله •

وقد استلفت نظر فريزر فى هذه القصة مشكلات ثلاثة فتحت له باب المقارنة على مصراعيه بين هذه القصة وقصص الخلق التى رويت أو تزال تروى بين الشعوب البدائية • وهذه المشكلات هى : **أولا** : خلق الانسان الأول من الطين • **ثانيا** الدور الذى لعبته الحية فى صراع حواء **ثالثا** : حرمان الانسان من الخلود • أما عن العنصر الأول فتكاد تتفق حكايات جميع شعوب العالم على أن الانسان الأول قد شــكل من طين : فمن ذلك ما حكى « عن سكان استراليا السود الذين يســكنون ضــواحى ملبورن أن « بندر ــ جل » الخالق قطع ثلاث شرائح من لحاء الشجر بسكينة الكبيرة ثم وضع بعض الطين على احدى هذه الشرائح وأخــذ

يسويه بسكينة حتى صار قوامه معتدلا ، ثم وضع كمية أخرى من الطين على شبريحة أخرى وشكلها على هيئة انسان فصنع الأقدام أول الأمر ثم الأرجل فالجذع فالأذرع فالرأس • وهكذا صور انسانا من الطين على كلتا الشريحتين من لحاء الشجر وعندما شعر بالارتياح لعمله هذا أخذ يرقص حولهما مبتهجا • وبعد ذلك أحضر خيوطا لحائية من شجر الكافور وصنع منها شعرا لصقه ف رأسى رجليه المصنوعين من الطين • ثم نظر اليهما مرة أخرى تعبيرا عن سعادته وبعد ذلك استلقى فوقهما ونفخ أنفاسه بقوة فى فم كل منهما وفى أنه وسرته • وفى الحال تحركا وتكلما ونهضا مكتملى النمو » [1] •

وأما عن اقحام الحية نفسها فى حياة أول رجل وأمرأة خلقهما الرب ، فهو يرجع من وجهة نظر فريزر الى اعتقاد الانسان البدائى فى أن الحية كانت سببا فى حرمان الانسان الخلود بعد أن سلبت منه هذه المنحة الجليلة • وقد اعتقد الانسان البدائى فى هذا الاعتقاد لأنه رأى أن الحية تغير جلدها فى مواسم معينة ومن تم فقد تصور أنها بذلك تجدد شبابها ولا تموت على الاطلاق • على أن الحية ليست هى الحيوان الماكر الوحيد الذى ربط بينه وبين الانسان البدائى وبين حرمانه الخلود ، فقد روت حكايات عديدة كيف أن القمر أرسل الأرنب أو الكلب أو السلحفاة لتبلغ الانسان أنه عندما يموت فسوف يحيا مرة أخرى تماما كما يحدث للقمر الذى يصبح محاقا ثم ما يلبث أن يولد هلالا مرة أخرى • ولكن هذه الحيوانات كانت دائما تغير من فحوى الرسالة وتبلغها خطأ للانسان • وبهذا كتب على الانسان الموت بسبب تبليغ هذه الحيوانات الرسالة الخاطئة اما عمدا أو غباء •

على أن حكاية التوراة لم تحك أن الانسان كان قد منح منحة الخلود ثم فقدها بسبب خداع الحية له • ولكن لما كان ذكر شجرة الخلود

(1) Folklore in the Old Testament, p. 4.
(الطبعة المختصرة) .

يعــد غريبا عن الموضوع بخاصة اذا وضعناها جنبا الى جنب مــع شجرة المعرفة ، فقــد افترض المؤلف أن حكاية التوراة تعد رواية محرفة لرواية أخرى أصلية حكت عن شجرتين فى الجنة حرمتا على الانسان وهما شجرة الفناء وشجرة الحياة • وقد افترض المؤلف كذلك أن الرب الذى كان رحيما كل الرحمة بالانسان فأسكنه جناته وأنعم عليه من كل خير ، أمر الانسان ألا يأكل من شجرة الفناء وأن يأكل من شجرة الحيــاة ثم جاءت الحية الماكرة التى شاءت أن تحرم الانسان من الخلود ، وأضلت الانسان حتى أكل من شجرة الفناء وبذلك حرم الخلود وأصــبح من الفانين •

ــ فاذا صححت الرواية على هذا النحو ، ولا بدلها من ذلك حتى يكون هناك تناسق بين مغزى الشجرتين المعنيتين من ناحية ، وحتى لا تنسب الى الرب صفة الأنانية التى نسبتها اليه التوراة عندما صورته حريصا على الاستئثار بالمعرفة والخلود لنفسه [1] ــ فان الحكاية تكون شبيهة كل الشبه بحكايات البدائيين التى روت عن خلق الانسان من الطين وعن اكتسابه الخلود ثم حرمانه هــذه المنحة نتيجة خــداع حيــوان من الحيوانات الماكرة له •

٢ ــ **علامة قابيل** : وبعد أن هبط آدم وحواء الى الأرض أنجبــا قابيل وهابيل • « وكان هابيل راعيا الغنم وكان قايين عاملا فى الأرض • وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من ثمار الأرض قربانا للرب ، وقدم هابيل من أبكار غنمه ومن ســمانها • فنظر الرب الى هابيل وقربانه ، ولكن الى قايين وقربانه لم ينظر • فاغتاط قايين جدا وسقط وجهــه •

(١) « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا بالخير والشر والان لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ايضا ويأكل ويحيا الى الابد . فأخرجه الرب من جنة عدن يعمل الارض التى اخذ منها . فطرد الانسان واقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » . سفر التكوين ٣ : ٢٢ الى ٢٤ .

فقال الرب لقايين : لماذا اغتظت ولمـــاذا سقط وجهك • ان أحسنت أفلا رفع وان لم تحسن فعند الباب خطية رابضة واليك اشتياقها وأنت تسود عليها • وكلم قايين هابيل أخاه وحدث اذ كانا فى الحقل أن قايين قام على أخيه وقتله • فقال الرب لقايين : أين هابيل أخوك • فقـــال لا أعلم ، أحارس لأخى • فقال ماذا فعلت صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض ، فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لاتعود تعطيك قوتها تائها وهاربا تكون فى الأرض • فقال قايين للرب : ذنبى أعظم من أن يحتمل ، أنك قد طردتنى اليوم من وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائها وهاربا من الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى • فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه • وجعل الرب لقايين عـــلامة لكى لا يقتله كل من وجـــده » [1] •

وعندما قرأ فريزر هذه القصة قراءة العالم الفاحص ، لاحظ مايلى : **أولا** : أنه على الرغم ، من أن قابيل قتل أخاه هابيل ، فان الرب حـــكم بأن من يقتل قابيل ينتقم منه سبعة أضعاف • **ثانيـــا** : أنه يبـــدو أن الأرض كانت تعج بالناس بحيث أن قابيل كان يخشى من يتعقبه ويأخذ منه بالثأر ، والواقع أن الأرض ، وفقا للروايات الدينية ، لم يكن يعمرها آنذاك سوى آدم وأبنائه • **ثالثا** : استلفت نظر المؤلف بصـــفة خاصة قول « الرب : صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض • فالآن ملعـــون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لاتعود تعطيك قوتها • » ومن ثم فقد تساءل المؤلف عن علاقة الأرض بفعـــل الآثم ، بحيث أنه لو عاد وأفلحها ، فانها لن تقـــدم له ثمارها اليانعة • **رابعـــا** : ان الرب جعل لقابيل علامة ما لكى لا يقتله كل من وجـــده • وأمام هذه المشكلات التى أثارتها الحكاية وقف المؤلف يحل رموزها بأسلوبه المتدفق واستقصائه البالغ فى تقصى التراث الشعبى

---

(١) سفر التكوين ٤ : من ٢ : ١٥ .

البدائى • وقد بدأ تساؤله عن كنه هذه العلامة التى علم بها الرب قايين وسبب تعليمه اياه بها ، لأنه رأى أن فهم مغزى هذه العلامة يعد مفتاحا لفهم سائر النقاط التى أثارها •

لقد كانت الشعوب البدائية وشعوب الحضارات تنفى القاتل وتحرم عليه أن يطأ أرض بلده الا بعد القيام باجراءات طقوس وشعائر محدده كما هو واضح فى قانون أتيكا ، وذلك خوفا من أن تصاب الأرض بالدنس أو على الأقل تصاب بالجدب • ويؤيد هذا قصة « أخاميون » الاغريقية • فقد ظل « ألخاميون » القاتل لأمه ، شريدا هائما على وجهه • وكان كلما وطئت قدمه أرضا لفظته هذه الأرض • حتى لجأ فى نهاية الأمر الى نبوءة دلفى يلتمس عندها العون • وأخبرته النبوءة أن الأرض الوحيدة التى لن تشقى بمأساته هى الأرض التى لم يكن البحر قد انحسر عنهما وقت ارتكابه جريمته • فاستمر ألخاميون فى تجواله حتى عثر على هذه الأرض • ولكنه ما كاد يطأها بقدمه حتى لفظته هذه الأرض كذلك • وهكذا ظل ألخاميون هائما على وجهه طوال حياته • وهنا يتساءل الكاتب عما اذا كانت العلامة التى علم بها قابيل اشارة الى اثمه حتى يتجنبه الناس خوفا من أن يصابوا بعدوى هذا الجرم ؟ ولكن اذا كان الأمر كذلك ، كما تشير الى ذلك معتقدات بعض الشعوب القديمة ، فان هذا يتناقض مع السبب الذى من أجله علم الرب قابيل ، اذ من الواضح من القصة التوراتية أن الرب علمه لكى لا يقتله كل من وجده • فاذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من البحث عن مغزى آخر لهذه العلامة • وهنا يتجول بنا المؤلف مرة أخرى مع الشعوب البدائية لعلنا نهتدى الى تفسير آخر لهذه العادة • ولا بد أن يكون التفسير فى هذه الحالة فى صالح القاتل ، حيث أن الرب نفسه قد أصدر حكما فى صالح قابيل القاتل • وقد انتهى فريزر من خلال المقارنات ، الى أن هذه العلامة لا بد أنه كان يقصد بها ابداء قابيل فى مظهر متنكر لشبح
العلامة لابد أنه كان يقصد بها ايذاء قابيل فى مظهر متنكر لشبح
يقول فى خاتمة بحثه : « ويمكننا أن نفترض على نحو هذا (أى على

نحو ما تفعل بعض القبائل البدائية) أن قابيل قد هدأ روعه بعد أن علمه الرب بعلامة معتقدا بذلك أن شبح أخيه الذى قتله لن يتعرف عليه ويضايقه • على أنه ليست لدينا وسيلة لأن نعرف بها على وجه التحديد شكل العلامة التى علم بها أول قاتل على وجه الأرض • ومن ثم لا يمكننا سوى أن نطرح فرضا عفويا حول هذا الموضوع • فاذا كان من حقنا أن نحكم على هذه العلامة • مستعينين بعادات البدائيين المشابهة لذلك فى الوقت الحاضر ، فان الرب يكون بذلك قد علم قابيل بعلامة حمراء أو بيضاء أو سوداء ، وربما مزج بين هذه الألوان ليكون منها لونا مناسبا فعلمه به ، وربما لون جسمه كله بلون أحمر كما يفعل « الفيجيانيون » على سبيل المثال وربما لونه بلون أبيض كما كما يفعل « النجونيون » أو بلون أسود كما يفعل الأرونتانيون ، وربما لون نصف جسمه باللون الأحمر ونصفه الآخر باللون الأبيض كما يفعل « المساى » والنانديون[1] •

ولم يشأ فريزر أن ينتهى من هذا الفصل قبل أن يبدى سخريته مما تضمنته التوراة من سخافات فقال . « ان تفسير علامة قابيل على هـذا النحو من شأنه أن يخلص القصة التوراتية من السخف الواضح فيها ، فان تفسير العلامة بأن الرب قد علم قابيل بها لكى يحول بينه وبين أن يقتل على يد أى انسان آخر فيه اغفال لحقيقة أنه لم يكن هناك على وجه الأرض من يقتله ، حيث أن الأرض لم يكن يعمرها آنذاك سوى القاتل ووالديه • أما اذا تبنينا التفسير الذى مؤداه أن العدو الذى كان يخشاه القاتل هو شبح انسان حى ، فاننا نتجنب بذلك التهاون الوقح الماثل فى اتهام الرب بزلة فى ذاكرته ، الأمر الذى لا يتلاءم مع صفات الرب العالم بكل شىء [2] ثم يقول مزهوا بمنهجه المقـارن : « ومن ثم يؤكد المنهج المقارن مرة أخرى أنه دفاع قوى فى حق الرب » [3] ••

٣ ــ **الطوفان الكبير** : وقد روت كل شعوب العالم على وجه التقريب

(١) الفولكلور فى العهد القديم ص ٤٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٤٥ .
(٣) نفس المرجع ص ٤٥ .

قصصا عن الطوفان الكبير الذى أغرق الأرض ومن عليها فيما عدا رجلا واحـــدا • وربما كانت أقـــدم قصة من هذا النوع ، تلك القصة البابلية التى وردت ضمن ألواح ملحمة جلجامش الشهيرة • ومن المحتمل كل الاحتمال أن هذه القصة كانت مستقلة بادىء الأمر ، ثم أدمجت ضـــمن حوادث الملحمة وتعد هذه القصة وغيرها من القصص التى روت عن حوادث انفيضانات ، صدى لحوادث طبيعية غمرت فيها الأنهار الأرض أو حدث صدع فى صخور كانت تعـــد بمثابة خزان طبيعى ، فتدفقت المياه أثر ذلك كما حـــدث عندما تدفقت مياه البحر الأسود فى البحـــر الابيض محطمة السدود الصخرية التى كانت تفصلهما تماما عن بعضها البعض ، كما يؤكد علماء الجيولوجيا • وبناء على ذلك فربما انتقلت قصة طوفان نوح التى وردت فى الكتب السماوية والتى ربما حدثت فى بلاد بابل ، حيث أن الحوادث الطبيعية من هذا النوع كانت مألوفة فى هذه المنطقة ، الى بلاد أخرى فحكت عنها ثم أطلقت على البطل الذى خاض هذا الطوفان اسما محليا • على أن هذا لا ينفى أن هناك قصصا أخرى نشأت مستقلة فى أنحاء أخرى من بلاد العالم وأن هذه القصص قد تأثرت بقصة الطوفان التى رواها المبشرون بشكل أو بآخر ، ذلك أن هذه القصص تكاد تتفق جميعـــا مع القصـــة الدينية فى عناصرها الأساسية وهى حدوث طوفان كبير أغرق الأرض ومن عليها فيما عـــدا رجلا واحدا أو رجلا وزوجته • ثانيا : نجاة هذا الشخص فى فلك أو على رمث بعد أن جمع معه صنوفا شتى من الطيور والحيوانات ومن الحبوب حتى يتمكن من تعمير الأرض بعد أن ينتهى الطوفان • ثالثا : محاولة هذا الشخص استكشاف أحوال الأرض بعد انتهاء الطوفان عن طريق اطلاق طير حمل اليه قطعة من طين الأرض اليابسة أو فرعا من فروع الشـــجر •

وعلى الرغم من أن فصل الطوفان الكبير قد استغرق حيزا كبيرا من كتاب فريزر ، اذ أنه يقع فيما بين ص ١٠٤ و ص ٣٦٠ من الجزء الأول

من الكتاب الأصلى ، الا أن هذا الفصل لا يدخل ، ومن وجهة نظرنا ، ضمن أبحاث الكتاب الأساسية التى تتركز حول دراسة أشكال العبادات وطقوس السحر دراسة مقارنة بين العبرين القدماء والشعوب البدائية • حقا أن فريزر ملتزم فى هـذا الفصل كذلك بمنهجه المقارن ، الا أنه يقارن فيه بين قصص مختلفة رويت فيما يبدو ازاء حوادث طبيعية معينـة •

٤ — برج بابل : **من بين المسائل الشائكة التى تتصل بالبحث فى أصل** الجنس البشرى ، مسألة اللغة أو بالأخرى اللغات المختلفة التى تحدثت بها أجناس البشر منذ الأزل • فكيف تعددت هذه اللغات واختلفت كل الاختلاف بعد أن كان الجنس البشرى كلا واحدا يعيش فى بقعة واحدة من الأرض ؟ هذه المسألة جذبت بطبيعة الحال أنظار العبرين القـدماء وفسروها على النحو التالى :

كان الجنس البشرى بأسره يتحدث لغة واحدة فى بداية الحياة • ثم انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من جهة الشرق حتى وصلوا الى سهول شـنعار الفسيحة : أو الى أرض بابل ، وهناك حطوا رحالهم وابتنوا مساكنهم من الطوب بعد أن ألصقوا بعضه بالبعض الآخر بملاط من الطين • على أنهم لم يكتفـوا ببنـاء مدينة ، وانما رأوا أن يشيدوا برجا عاليا يصل الى عنان السماء من نفس المواد التى بنوا بها مساكنهم • والسبب الذى دفعهم لبناء هذا البرج هو أن يكون البرج علامة لهم من ناحية ، وحتى لا يتفرق الناس على وجه الأرض من ناحية أخرى ، ذلك أنه اذا تجول أحدهم خارج المدينة وضل طريقه فى السهول المترامية ، فانه ينظر الى الوراء غربا ، فيرى من بعيد هذا البرج وهو يقف مظلما وقد انعكست عليه أضواء سـماء المساء البراقة • أو أنه ينظر شرقا فيبصر قمة البرج وقد انعكست عليه بقايا أشعة شمس الغروب • وعند ذاك يسلك طريقه مسترشدا بهـذا المعلم حتى يصل الى بيته • وقد كانت هذه الخطة سليمة لولا أنهم لم

يكونوا قد وضعوا في حسابهم قوة الرب وغضبه عليهم ، فبينما كانوا يشيدون البرج بقواهم وسواعدهم الفتية ، هبط الرب من السماء ليبصر المدينة والبرج الذى كان الناس يعلون به فى سرعة فائقة • فساءه هذا المنظر وقال لهم : « هاهم أولاء شعب واحد له لسان واحد ، وهذا ما شرعوا فى عمله ، ولن يمنعهم شىء من تحقيق غرضهم » [1] ويبـدو أن الرب كان يخشى أنه عندما يكتمل بناء البرج ويصل الى عنان السماء يتسلقه الناس ويقضون مضجعه وهو الأمر الذى لم يفكر فيه الناس • ولذلك فقـد عزم الرب على أن يقضى على هذه الخطة فى مهدها ، وقال لنفسه أو لمجمعه السماوى « لنهبـط الى الأرض ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضا » [2] وعند ذاك هبط الرب وبلبل لغتهم وفرقهم عـلى وجه الأرض • ومن ثم فقد كف الناس عن بناء المدينة والبرج • وقد أطلق على هذا المكان اسم بابل ومعناه البلبلة لأن الرب قد بلبل فيـه لغات الناس جميعا • وقد روت القبائل الافريقية وقبائل المكسيك وبورما بل والاغريق القـدماء حـكايات شبيهة بتلك الحكاية ، وكان الغرض من بناء البرج اما قتل الاله الذى كان يسـكن معهم فى الأرض ذات يوم ثم غضب من الناس وصعد الى ملكوته السماوى ، أو رؤية القمر على حقيقته • وقد كانت النتيجة واحدة فى كل هذه الحكايات وهى سقوط البرج وقتل الناس الذين حاولوا تسلقه وبلبلة ألسنة الناس جميعـا وتفرقهم فى بقاع الأرض • والى هنا ينتهى المجلد الأول من الترجمة ، أما المجلد الثانى فيشتمل على الجزأين التاليين :

أولا : عصر الشـيوخ والآباء :

١ ــ عهـد ابراهيم : يبدأ هذا العصر بأبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام • وتحكى التوراة ان ابراهيـم خرج من أرض بابل الى أرض كنعان • وهنـاك ظهـر الرب وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور

(١) سفر التكوين ١١ : ٦ •
(٢) سفر التكوين ١١ : ٨ •

الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها • فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم اني أرثها • فقال له خذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة ، فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط ، وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه • وأما الطير فلم يشقه فنزلت الجوارح على الجثث وكان ابرام يزجرها • ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على ابرام سبات واذا رغبة مظلمة عظيمة واقعة عليه • فقال لابرام أعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلونهم أربعمائة سنة • ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها • وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة ••• ثم غابت الشمس فصارت العتمة واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع • فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا » (١) •

فهذه القصة تحكى عن ميثاق عقد بين ابراهيم والرب ومن ثم فقد سمى فريزر هذا الفصل « عهد ابراهيم » • ومن الواضح أن العهد قد تم بين ابراهيم والرب بعد أن أدى ابراهيم طقوسا معينة بناء على أمر الرب ، وهى القيام بذبح تلك الطيور التى ذكرها الرب وشطرها ثم وضع شطرى كل حيوان فى مقابل بعضهما بعضا • وعندما مر الرب بين هذه القطع كان هذا تأكيدا للعهد الذى قطعه الرب مع ابراهيم على أن تكون الأرض التى رحل اليها له ولنسله من بعده •

ومن الطبيعى أن تستلفت هذه الشعيرة التى أداها ابراهيم فى سبيل اتمام هذا العهد بينه وبين الرب ، نظر العلامة فريزر الذى قضى عمره فى دراسة شعائر البدائيين وطقوسهم ، فراح يقارنها بشعائر البدائيين لاستخلاص مغزاها وهدفها • وقد انتهى فريزر ، بعد استقصاء بالغ لتلك الشعيرة ، الى أنها تفسر من خلال نظريتين . النظرية الأولى هى نظرية الجزاء والنظرية الثانية هى نظرية التطهير أو الوفاء • أما النظرية

---

(١) تكوين ١٥ : ٧ الى ١٨ .

الأولى فتدعمها تلك العادة التى كانت تتبع فى جزيرة نياس عند عقـد عهـد بين طرفين أو عندما كان يقسم الطرفان على أمر ما • وفى هذه الحالة يجز الطرفان رقبة خنزير رضيع بينما يدعو كل طرف على نفسه بأن يصاب بمثل هـذه القتلة اذا ما نقض العهـد أو حنث باليمين •
وأما النظرية الثانية فيؤكدها ما يقوم به عرب موآب عندما ينتابهم القحط أو الوباء • عنـد ذاك يقف الشيخ وسط الخيمة ويهتف قائلا : « افتدوا أنفسكم أيها الناس ، افتدوا أنفسكم » عندئذ تأخـذ كل أسرة شـاة وتضحى بها ثم تشطرها شطرين تعلقهما أسفل الخيمة أو على عامودين أمام الخيمة • ثم يمر أعضاء الأسرة جميعا بين شطرى الضحية اعتقادا منهم أن شطرى الضحية لهما القـدرة السحرية على طرد شبح الوباء أو الكارثة • ومعنى هذا أن الناس ينظرون الى الكارثة أو الوباء بوصفه شخصا شريرا يشهر سيفه ويأتى على كل ما يقابله • فاذا اعترضت الضحية طريقه كالأسد الرابض نشب صراع مفزع بينهما ينتهى بقهر هـذا الكائن الشرير بينما تظل الضحية المنتظرة مسيطرة • فالتفسير التطهيرى أو الوقائى يتلاءم مع هذا المثال ، فى حين ينتفى عنه التفسير الجزائى • اذ ليس من المعقول أن يتسبب قتل الشاة فى موت النـاس الذين يمرون بين أجزائها • بل ان الناس يعتقدون ، على عكس هذا ، أن الضحية تحميهم من الشر الذى يتهدد حياتهم بشكل أو بآخر • وفى ضوء هذين التفسيرين حاول فريزر أن يفسر مغزى الشعيرة العبرية • وقد رأى أنه من الأوفق تفسيرها من خـلال النظرية الوقائية عن أن نفسرها من خلال النظرية الجزائية • ولكنه فى الوقت نفسـه أخـذ يتساءل عن صلة هذه الشعيرة بفكرة التطهير أو الوقاء • وفى هذا يتبنى فريزر وجهة نظر روبرتسـون سميث فيما سماه « بالسر المقـدس » لهـذه الشعيرة • ويفترض روبرتسون بناء على هذه النظرية أن الذين يمرون بين أجزاء الضحية أو يقفون فوقها ، يتحدون مع الحيوان ومع بعضهم بعضا فى رابطة الدم • أى أن هـذا العهد ليس سوى شـكل آخر لعادة تنتشر حتى اليوم على نطـاق واسع تعرف بعهد الدم •

والمتعاهدون ، وفقا لهذه العادة يمزجون قدرا من دمائهم بعضا ببعض ، وبذلك ينشأ فيما بينهم نوع من القرابة العصبية الوثيقة • على أن فريزر المدقق لم يتبين نظرية روبرتسون سميث بطريقة عمياء ، وانما رأى أن تفسير الشعيرة العبرية ينبغى أن يجمع بين نظريتى الجزاء والوقاية معا • فشطر الذبيحة الى شطرين يرمز الى مصير الحانث بالعهد ، كما أن مرور المتعاهدين بين شطرى الذبيحة يفسر من خلال النظرية الوقائية أو نظرية السر المقدس • فكلتا النظريتين ، من وجهة نظره ، تكمل احداهما الأخرى ، كما أنهما معا تقدمان تفسيرا متكاملا لهذه الشعيرة •

على أننا نرى أن الشعيرة العبرية لا يمكن أن تفسر الا من خلال نظرية السر المقدس على نحو ما شرحها روبرتسون سميث فيكون مغزها عندئذ هو عقد أواصر الرباط المقدس بين ابراهيم والرب أثر هذا الميثاق الذى عقده الرب معه • اذ ليس من المعقول أن تفسر الشعيرة أو بالأخرى يفسر جزء منها بالنظرية الجزائية التى يلقى الرب وفقا لها جزاء مشابها بمصير الضحية اذا ما حنث بالعهد الذى قطعه على ابراهيم •

٢ ــ أرث يعقوب أو نظام وراثه الأبن الأصغر :

ويستمر فريزر مع التوراه فى تعقب تاريخ بنى اسرائيل • ولكنه ترك اسحق جانبا ليفرغ لعرض حياه يعقوب الحافلة بالمغامرات التى لم تخل من معتقدات وطقوس بدائية ظلت عالقة بها •

وقد بدأ فريزر هذا الفصل بتصوير شخصية يعقوب كما تتمثل فى التوراه • ولا بد أن الكاتب اليهودى قد أبرز من خصال يعقوب ما هو محبب الى نفسه والى قومه • ذلك أن يعقوب فى التوراه يعد « مثالا للتاجر السامى اللين الحذق الوافر الحيلة الذى يحرص على الكسب وعلى أن يتمم صفقاته لا بالقوة بل بالحذق دون أن يتردد كثيرا

فى اختيار الوسائل التى يبز بها منافسيه ويتفوق عليهم » (٢٢) . ومن ثم فقد خلت شخصية يعقوب فى التوراة من كل من الوقار الذى اتسم به جده ابراهيم . والورع التأملى الذى اتصف به اسحق . وقد عكف فريزر على حادثتين فى حياة يعقوب لم يتردد فيهما فى استخدام كل أساليب المكر والخداع فى سبيل الحصول على مكسب شخصى . ومن حسن الحظ أن هاتين الحادثتين الشائقتين اشتملتا على نماذج من الطقوس والمعتقدات البدائية التى عنى فريزر بابرازها من خلال حكايات التوراة . أما الحادثة الأولى فهى حادثة خداع يعقوب لأخيه الاكبر عيسى لكى يسلب منه حقه فى الارث وفى بركة أبيه ، وأما الحادثة الثانية فهى حادثة خداعه لخاله لابان بعد أن تزوج من ابنتيه ، وقضى معها زمنا طويلا . وبين الحادثتين هناك حوادث أخرى لم يتركها المؤلف عابرا ، وانما حاول كذلك أن يستخلص ما فيها من معتقدات وعادات بدائيـة .

وقد عمد يعقوب الى الحيلة التالية التى تحكيها التوراة فى سبيل خداع أخيه لقد جاء الى أبيه الكفيف اسحق مصطنعا ملمس أخيه عيسو ، بأن ارتدى جلد نعجة ، ومصطنعا صوته ، وادعى لأبيه أنه عيسو وأنه جاءه ليخلع عليه البركة . فباركه أبوه ، وبذلك سلب حق أخيه فى البركة . أما سائر حق عيسى فى الارث فقد اشتراه منه مقابل أكلة من الثريد عندما كان عيسو يعانى آلام الجوع . وهنا يتساءل فريزر عما اذا كان سلوك يعقوب على هذا النحو حقا بدافع خداع أخيه وأبيه ، أم أن عادة الابن الأصغر فى الارث كانت ما تزال تتبع فعلا فى هذا الوقت ثم تغيرت فيما بعد الى عادة حق الابن الأكبر فى الارث فى زمن كتابة سفر التكوين ، ومن ثم فقد فسر كاتب السفر خلع اسحق البركة على ابنه يعقوب على أنه من قبيل خداع يعقوب لأخيه وأبيه ؟

---

(٢٢) الفولكلور فى العهد القديم : ص ١٧٢ .

هذا هو موضوع هذا الفصل • ومن ثم فقد استطرد فريزر فى ذكر تفاصيل عادة حق ارث الابن الأصغر ، فساق الشواهد العديدة عليها • فقد كانت العادة المتبعة فى الأسر القديمة التى كانت تعيش فى ظل النظام الرعوى أو الزراعى المتنقل ، أن يهجر الأبن الأكبر أبويه بحثا عن حياة رعوية أو زراعية مستقلة ، كما كان اخوته يفعلون فعله عندما يكبرون بحيث لا يبقى فى بيت الوالدين سوى الأبن الأصغر الذى يكلف برعاية والديه وأخوته • ومن الطبيعى بعد ذلك أن يكون لهذا الأبن الأصغر حق ارث مسكن والديه كذلك أدوات البيت والأرض الى غير ذلك • ومما ساعد على ممارسة هذه العادة كثرة الأراضى وقلة السكان • فلما استقرت الأسر فيما بعد ولم يعد هناك مزيد من الأراضى الشاسعة ، انتقل هذا الحق الى الابن الأكبر • ولم تكن عادة حق ارث الابن الأصغر متبعة بين القبائل البدائية فحسب ، كما لاحظ ذلك فريزر ، وانما كانت نظاما منتشرا فى كثير من بقاع العالم ومنها انجلترا وفرنسا •

وحيث أن يعقوب كان من وجهة نظر فريزر ، صاحب الحق الشرعى فى ارث أبيه ، وهو الأمر الذى غفل عنه كاتب سفر التكوين ، حيث أن هذه العادة كانت قد تغيرت فى عصره ، فان ارتداء يعقوب جلد النعجة لم يكن بناء على ذلك ، بدافع اصطناع ملمس أخيه لخداع أبيه ، ومن ثم فانه ينبغى أن يفسر هذا التصرف تفسيرا مقنعا آخر • وقد توصل فريزر ، من خلال المنهج المقارن الى أن هذه العادة كانت تتبع فى مناسبات حيوية متعددة منها الميلاد والتبنى والمرض والختان • فاذا كانت مناسبة من هذه المناسبات ، بقرت نعجه ، ووضع المريض أو الصبى أو الطفل أو المريض بداخلها • وقد تتبع هذه العادة بشكل آخر وهو لف الصبى أو الطفل أو المريض بشرائح من جلد النعجة بعد ذبحها وتفسير هذه العادة هو أن الشخص الذى يوضع فى بطن النعجة أو يرتدى جلدها يطابق بين شخصه والحيوان الضحية الذى

يكون بمثابة الحاجز بينه وبين ايذاء القوى الشريرة المتربصة به فى هذه المناسبات بصفة خاصة ، ومن ثم فان القوى الشريرة توجه أذاها الى الحيوان بدلا من الشخص .

وأحيانا كانت هذه العادة تتبع فى مناسبة أخرى يطلق عليها الميلاد الجديد . وهذا الميلاد الجديد يكون فى حالة التبنى أو رفع شخص الى مرتبة أسمى من مرتبته الاجتماعية ، أو فى حالة ما اذا عاد شخص الى قومه بعد غيبة طويلة ، بحيث أنهم عدوه من الأموات . وفى هذه الحالة يوضع الشخص فى تجويف نعجة ويصطنع صراخ الطفل وكأنه يولد من جديد . وهكذا ينتهى فريزر من هذا الفصل بالنتيجة التالية فيقول : « فاذا عدنا من النقطة التى بدأنا منها فاننا نذكر على سبيل الافتراض أن حكاية الخديعة التى ارتكبها يعقوب مع أبيه أسحق تتضمن بقايا احتفال شرعى هو احتفال الميلاد الجديد من عنزة ، الذى كان الناس يرون ضرورة اتباعه أو يرغبون فى اتباعه عندمايفضل الأبن الأصغر فى الحقوق على حساب أخيه الأكبر الذى مازال على قيد الحياة ، تماما كما يتظاهر الرجل الهندى فى أيامنا هذه بأنه يولد من جديد من بقرة ، وذلك اذا شاء أن يسمو الى مستوى اجتماعى أعلى من مستواه أو أن يعود الى قومه الذين خسرهم اما نتيجة حظه العثر أو بسبب سوء سلوكه . وربما بسط هذا الاحتفال الغريب عند العبرين كما بسط عند الأكيكوير ، فأصبح يتمثل فى ذبح عنزة ووضع قطع من جلدها على الشخص الذى يعتقد بذلك أنه يولد من عنزة مرة أخرى . فاذا كان افتراضى هذا صحيحا ، فان كاتب قصة يعقوب فى سفر التكوين يكون بذلك قد دون هذه الشعيرة القديمة ، وان كان قد أساء فهمها فى الوقت نفسه » (١) .

ثم رحل يعقوب الى حران موطن خاله لابان ، وذلك بناء على نصيحة أمه . أما السبب الذى يعزوه المصدر اليهودى لذلك ، فهو خوفه

---

(١) الفولكلور فى العهد القديم ص ٢٢٣ .

الأم على ابنها يعقوب من غضب أخيه عيسو . وأما المصدر الكهنوتى فيفسر ذلك بان الأم لم تشأ لابنها أن يتزوج من بنات الكنعانيين الذين كان العبريون يعدونهم كفرة فارسلته الى خاله ليتزوج من احدى بناته . ومهما يكن سبب رحيل يعقوب الى حران ، فانه اتخذ طريقه الى هناك عبر الجبال والصخور والفيافى الشاسعة فلما جن عليه الليل وكان يسير فوق جبل ، استلقى على الأرض ووضع رأسه على صخرة وراح فى نوم عميق . فرأى فى رؤياه سلما منتصبا يصل بين السماء والأرض والملائكة صاعدة هابطة عليه . ثم سمع صوت الرب يباركه ويعده بأن هذه الأرض ستكون له ولأبنائه من بعده . فلما استيقظ يعقوب مسح الحجر الذى اتخذه وسادة له وأطلق على المكان اسم « بيت ايل » أى بيت الرب . ومنذئذ أصبح هذا الحجر مقدسا لدى العبريين القدماء . ويعلق فريزر على هذه الحادثة بانها حكاية لفقها العبريون القدماء ليبرروا بها حلمهم القديم فى امتلاك هذه الأرض ليصبح وطنا قوميا لهم . ذلك أن هذا المكان بعينه كان الكنعانيون ، سكان البلاد الأصليون يعبدون آلهتهم عنده . ومهما يكن مصدر هذه الحكاية فانها تخفى بين سطورها بقايا عبارات ومعتقدات قديمة . وهنا يسوق فريزر القرائن التى تشير الى اعتقاد بعض الشعوب فى أن لجوءهم الى بعض الأمكنة المقدسة ونومهم فى ساحتها ، يساعدهم على ظهور الآله لهم فى رؤياهم فيتسنى لهم عند ذاك أن يسألونها عما يعن لهم من أمور . أو يطلبون منها الشفاء من مرضهم . كما كان الناس فى الزمن القديم يتصورون أن أرواح الموتى تصعد من الأرض الى السماء عن طريق سلم . بل أن بعض الشعوب كان يضع سلما صغيرا فى القبور لكى يسهلوا على الأرواح عملية الصعود الى مأواها .
ولم تكن فكرة عبادة الحجر الذى يسكنه الرب غريبة على الاسرائيليين القدماء . فقد اتهم النبى أشعياء الاسرائيليين الذين كانوا يعبدون الأحجار الملساء المتآكلة بفعل المياه وهى تلك الصخور التى كانت تقع فى الأخاديد الجدباء ، ويصبون عليها الخمر ويقدمون لها النبات ،

اتهمهم بالوثنية • وعلى كل فان الاسرائيليين لم ينفردوا بعبادة الأحجار ، بل شاركهم فى ذلك كثير من الشعوب من بينهم العرب الجاهليين •

٣ ــ العهد على ركام الأحجار : ثم تستمر التوراة فى سرد قصة يعقوب ، فتحكى عن زواجه من أبنتى خاله لابان ، لبئة وراحيل • وفى مقابل ذلك مكث يعقوب عند خاله فترة من الزمن يرعى له قطعان ماشيته • وبعد فترة من الزمن ، راجع يعقوب مكسبه المادى عند خاله فلم يجده شيئا • فقرر ن يسلب مواشيه ، وأن يهرب مع زوجتيه وأولاده تحت جنح الليل الى بلاده • واحتال بعد ذلك على زوجتيه لاقناعهما على الهرب فوافقتا • وقبل الرحيل عمدت راحيل الى سرقة آلهة بيت أبيها خوفا من أن تنتقم تلك الالهة لأبيها من فعلتهم ، ثم أخفت تلك الآلهة تحت محفة جملها وجلست فوقها دون أن تخبر يعقوب بذلك ، ثم رحلت القافلة تحت جنح الليل منتهزا يعقوب فرصة غياب خاله فى سفر من الأسفار • فلما عاد الخال واكتشف ما حدث ، جمع رجاله وأسرع فى أثر القافلة حتى لحق بها ، وعند ذاك انهال على يعقوب تأنيبا وتعنيفا لا لأنه سرق أمواله وبناته فحسب ولكن لأنه سرق آلهة بيته التى تحرسه • فانكر يعقوب تلك التهمة بشدة وسمح لخاله أن يفتش الركب ، ففعل لابان ذلك ولكنه لم يعثر للآلهة على أثر • وفى تلك اللحظة استرد يعقوب أنفاسه ، ووجدها فرصة لأن يكيل الكيل لخاله أضعافا فانهال عليه تعنيفا ، وأخبره أنه لم يأخذ منه الا ما يستحقه نتيجة خدمته له تلك السنين الطويلة • ولما لم يجد لابان جدوى من مناقشته طلب منه الصلح وقلبه مفعم بالأسى لما حدث • وعند ذاك وقف يعقوب ولابان على حجر جمع عليه ركام أحجار صغيرة وأقسما على ألا يحنث أحدهما بعهد الصلح الذى قطعاه على نفسيهما • وبعد ذلك عاد لابان خاسرا الى بلاده ، فى حين استأنف يعقوب رحلته فائزا بنصيب الأسد •

فهذا مثال يبرزه فريزر من بين نصوص التوراة ليدل به على نظريته فى سحر المشاركة . فالوقوف على الحجر وتلاوة القسم عليه ، يكسب انقسم صلابة الحجر وقوته . ومما يؤكد هذا ما تتبعه بعض الشعوب من جعل العروس تقف على حجر قبل أن تطأ بيت زوجها قائلا : « لتطىء بقدميك هذا الحجر ولتكن صلابتك من صلابته وتتغلبى على الأعداء وتطئيهم بقدميك » (١) .

٤ ــ **يعقوب عند مخاضة نهر اليبوق :** ثم استمر فى سيره مع الركب حتى وصل الى مخاضة نهر اليبوق ، وكان الليل قد أخذ يرخى سدوله عليهم . وعند ذاك أمر يعقوب القافلة أن تسبقه وبقى هو وحيدا عند شاطىء النهر . فلما ساد الكون السكون ولم يعد يسمع من بعيد سوى صوت ثغاء الغنم ، ظهر ليعقوب رجل أخذ يناضل معه يعقوب طوال الليل . ثم قال هذا الرجل ليعقوب : « أطلقنى لأنه قد طلع الفجر » . ولكن يعقوب تعلق بتلابيبه وقال له : لا أطلقك ان لم تباركنى » فلما سأل الرجل يعقوب عن اسمه وأخبره به أجابه قائلا : « لا يدعنى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » . ولم يطلق يعقوب سراح هذا الشخص الا بعد أن باركه . ثم سمى هذا المكان الذى تقابل فيه مع هذا الشخص « فينئيل » ، أى وجه الرب . وقد فسر هو هذا الاسم بقوله . « لأنى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى » (٢) .

ويعلق فريزر على هذه القصة قائلا : « والقصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل أن مؤلفى سفر التكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية عندما اشتموا بها رائحة الوثنية . ولكننا اذا ربطنا هذه القصة من ناحية بالملامح الطبيعية للمكان الذى جرت فيه حوادثها ، واذا ربطناها من ناحية أخرى بالأساطير الشبيهة بها ،

---

(١) الفولكلور فى العهد القديم ص ٢٣٧ .
(٢) التكوين ٣٢ : من ٢٦ الى ٣٢ .

فاننا نفترض بادىء بدء أن هذا الغـريم الغامض الذى تصـارع معه يعقوب هو روح النهـر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجـل انتزاع البركة منه » [1] ولعل هذا يفسر سبب تخلف يعقـوب عن السـير مع القافلة ، وبقاءه وحده فى الظـلام عند مخاضة النهر . وربما حسب يعقوب أن إله النهر يفزع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة أو بين الأشجار ، حتى اذا ما مر الركب وسـاد الهدوء النهـر فيما عدا صـوت التيار الرتيب الهامس ، دفعـة الفضـول لأن يخرج من مخبئه ليسـتطلع أحـوال النهـر ويعرف سبب هذا الهـرج والمرج . وعند ذاك يكون يعقوب الماكر فى انتظاره فينقض عليه ويتشبث به حتى يحصـل منـه على لبركة التى يسعى اليهـا .

وليس غريبا أن تفسر الحكاية على هـذا النحو ، حيث أن الشعوب جميعا كانت أو ما تزال تعتقد فى أن للمياه روحـا أو شيطانا أو الها ، وأنه لابد من استرضاء هذا الكائن قبل عبور المـاء حتى يكون عبورهم سـالما . ولقـد حاول كاتب القصـة أن يخفى هـذا الأثر الوثيق بأن جعل هذا الكائن هو رب يعقوب . ولكن الحـكاية رغم ذلك ما تزال تكشف فى وضـوح عن هذا المعتقد البدائى القديم .

٥ ــ قـدح يوسف : وفى ختام هـذا الباب الذى يتصـل بآباء بنى اسرائيل وشيوخهم ، يأتى فريزر على قصـة يوسف . والقصـة فى حد ذاتها لا تعنيه بطبيعة الحـال ، الا بمقدار ما تتضمنه هى كذلك من معتقدات بدائية . فعندما تقابل يوسف مع اخوته فى مصر بعـد غيبته الطـويلة عنهم ، أمر يوسف أحد خدامه أن يخفى قدحه فى جوال أخيه بنيامين . وما كاد الأخوة يتخـذون طريقهم آفلين الى بلادهم ، حتى أرسـل يوسف الخادم فى اثرهم يتهمهم بسرقة قدح يوسف .

(١) الفولكلور العهد القديم ص ٢٥٢ .

ثم فتش أجوالهم واستخرج القدح بطبيعة الحال من جوال بنيامين • فأخذهم جميعا وعاد بهم الى يوسف • وعند ذلك قال لهم يوسف : « ما هذا الفعل الذي فعلتم • ألم تعلموا أن رجلا مثلي يتفاءل »[1] • ولما كانت كلمة يتفاءل تعني التكهن كما هو واضح في الترجمة الانجليزية المعتمدة للتوراة ، فقد وقف فريزر عند هذا النص وقفة ليستخلص منه اعتقادا من الاعتقادات السائدة ، وهو التنبؤ بالأمور الغيبية عن طريق التأمل في قدح ممتلىء ماء أو به رواسب من القهوة أو الشاي ، وهذا الاعتقاد سائد بين الناس حتى اليوم ، وقد أشار فريزر الى عديد من الأمثلة التي تؤيد ذلك •

ثانيا : عصر القضاة والملوك :

١ — موسى في اليم : وينتهي عصر الشيوخ والآباء عند بني اسرائيل بموت يوسف • وقد وصفت مجموعة من السير التي تميزت بألوانها الحية وتصويرها الرائع ، رحلة هؤلاء الشيوخ والآباء من شواطىء الفرات الى شواطىء نهر النيل • وهنا يترك المؤرخ هذه الحقبة من الزمن لفترة يسدل فيها الستار على الفصل الأول من تاريخ بني اسرائيل • وعندما ارتفع الستار مرة أخرى على المشهد نفسه ، كانت قد ولت حقبة من الزمن تقدر بأربعمائة سنة نمت في أثنائها أسرة الشيوخ وأصبحت أمة • من هنا تبدأ تاريخ هذه الأمة وعلى رأسها يقف موسى بشخصيته القوية ، ذلك المشرع والقائد الكبير الذي قاد شعبه من مصر وسار به عبر الصحراء المصرية وشرع لهم قوانينهم حتى توفي في نهاية الأمر على مرأى من أرض الميعاد التي لم يقدر لها أن يطأها بقدمه •

وقد تشكك فريزر فيما اذا كانت قصة طرح موسى في الماء بعد وضعه في صندوق من القش ، وعثور ابنة فرعون على هذا الصندوق

---

(١) التكوين ٤٤ : ١٥ •

واحتضانها الطفل ورعايتهـا له ، تعتمد على أصـل تاريخى أم أنهـا مجرد صورة أخرى لحكايات من هذا القبيل رويت عن مؤسس الممالك والدول بصفة خاصة ، من أمثال سرجون ملك بابل الذى عاش فى القرن الثالث ق • م ، وتراخـان ملك جيلجيت التى تقـع فى قلب جبـال الهملايا الثلجية ، وغير ذلك من الشخصيات الأسطورية • وقد افترض فريزر ، مقتفيا بعض آراء البـاحثين أن هـذه القصـة وشبيهاتهـا تشتملان على بقايا اعتقاد قديم هو طـرح الطفل فى الماء اثر ولادته لاثبات شرعية بنوة الطفـل أو عدم شرعيته • فاذا طفا الطفـل فانه يكون ابنا شرعيـا والا فانه يكون ابن زنا •

٢ ــ شمشون ودليلة : ومن بين قضـاة بنى اسرائيل المشهورين ، شمشون الجبار • وقصته مع دليلة معروفة بوصفها تراثا شعبيا روائيا • فقـد كانت قوة شمشون تكمن فى خصلات شـعره التى لم تحـلق منـذ نعومة أظفاره • ولما لم يكن يعلم بهذا السر سـواه ، فقد بذل أعداؤه جهدا ضائعا فى سـبيل القضـاء عليه • ومن ثم فقـد لجئوا الى حبيبته دليلة ورشـوها بالمـال حتى تكشف لهم عن مكمن قوته • واحتالت دليلة على شمشون حتى تتعـرف منه عل هـذا السر ، ولكن شمشون كان يخدعها فى كل مرة فيخبرها خطأ بمكمن قوته • وفى نهـاية الأمر ضعف أمام قوة اغرائها والحاحهـا وأفشى لها السر ، وأفشـته هى بدورها الى أعدائه • وفى الحـال قيد شمشون الجبـار وقصت خصلات شعره فخارت قواه وانتقم منه أعداؤه شر انتقام •

فهذه القصة تكشف عن اعتقـاد شـعبى قديم مـؤداه أن قوة الانسـان أو روحه تكمن فى جزء ما من جسـمه أو فى أى شىء مادى خارج جسمه • فاذا استطاع شخص ما أن يهتدى الى معرفة مكمن هذه القوة أو الروح ، وأن يصيبها بضرر ، فان الضرر سرعان ما ينتقـل الى الشخص المعنى فيصـاب بأذى قد يفضى به الى الموت • وليست قصـة شمشون ودليلة كما تروى على هذا النحو ، سـوى رواية من

الروايات المتعـددة التى تحـكى عن هـذا الموضوع وتتـدرج تحت ما نسميه بالحكايات الخرافية • وقد قدم فريزر للقـارىء نماذج وافرة من هذا النوع ليؤيد بها هذا الاعتقاد من ناحية ، ويربط بينهـا وبين قصـة شمشون ودليـلة من حيث الشـكل والمضـمون من ناحيـة أخـرى •

٣ ــ **حزمة الحياة** : ثم صـادف فريزر نصـا آخـر فى قصـة داوود وأبيجال يشير الى اعتقـاد آخر شديد الصلة بهذا الاعقاد • فقد ظل داود يهيم مع رجـاله على وجهه فى البرارى « هربا من تعقب شاءول له ، حتى وصـل الى أرض يملكها مزارع غنى يدعى نابال • فطلب داود منـه أن يزوده بزاد وفير ، ولكنه أبى فلما تهـدده داود أسرعت زوجة نابال الجميلة وتدعى أبيجال وقدمت لداود ما طلبه • ثم قالت له من بين عبـارات الاطراء به : « وقد قام رجـل ليطاردك ويطلب نفسـك • ولكن نفس سيدى لتكن محزومة فى حزمة الحيـاة مع الرب الهـك • وأما نفس أعـدائك فليرم بها كما من وسـط كفـة المقلاع » [1] ومغزى هـذه العبارة هو أن أرواح الأحيـاء يمكن أن ترتبط فى حزمة ضمانا لسلامتها • وأما فى حالة أرواح الأعـداء فان الحزمة تحل وتبعثر أرواحهم منها وتذروها الرياح • ويعلق فريزر على هذه بقوله : « ولا يمكن أن تعترى الشخص العبرى هـذه الفكرة ، حتى وان كانت مجرد صيغة تعبيرية ، ما لم تكن هذه الفكرة ترتبط فى ذهنـه بعقيدة تتصـل بنظرتهم الى الروح » [2] ومن الممكن ، وفقـا لهـذه العقيدة ، أن تربط أرواح القبيلة التى يشار اليهـا بعصى أو بحجـارة فى حزمة واحدة ، ثم تودع هذه الحزمة فى مكان آمن لا يصيبه سوء • وكلما ولد لهذه القبيلة طفل ، أضافوا عصاة أو حجرا لهذه الحـزمة • ومما يؤيد هذا ، كما يقول فريزر ، حزم « شارونجا » وهى عبـارة

---

(١) سفر صموئيل الأول ٢٠ : ٢٩ •
(٢) الفولكلور فى العهد القديم ص ٢٨٥ •

عن مجموعة من الأحجار المسطحة المسواه ومن العصى التى تحتفظ بها قبيلة أرونتا وبعض القبائل الأخرى التى تسكن استراليا الوسطى ، بعناية كبيرة وسرية تامة فى كهوف وشقوق الصخور • وكل حجر من هذه الأحجار السحرية وكذلك كل عصاة ترتبط ارتباطا وثيقا بروح فرد من أفراد العشيرة حيا كان أم ميتا •

ثم استطرد فريزر من الحديث عن اعتقاد الشعوب فى امكان بقاء الروح فى أى صورة ما بعيدا عن الجسد ، الى الحديث عن اعتقادها فى تحضير الأرواح • وقد حارب أنبياء بنى اسرائيل المتأخرين هؤلاء المشعوذين الذين كانوا يقومون بتحضير الأرواح أو حبسها بقصد ايذائها ، وأودعوهم السجون • وكان من بين هؤلاء الذين حاربوهم الملك شاءول • ومع ذلك فعندما اعترت شاءول غمة بسبب عجزه عن محاربة الفلسطينيين ، أسرع الى ساحرة عين دور التى كانت قد أفلتت من العقاب ، وطلب منها أن تحضر له روح صموئيل النبى الذى كان قد توفى غاضبا عليه • فلما استحضرت له الساحرة روح صموئيل بعد أن طمأنها شاءول على حياتها ، خاطب شبح النبى الملك شاءول قائلا : « لماذا أقلقتنى باصعادك اياى » • فقال شاءول : « قد ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع [1] » • ولكن روح النبى لم تطمئنه ، بل انها على العكس أصرت على غضب الرب عليه •

٤ — **جريمة عد السكان** : وقد كان العبريون القدماء يعتقدون فى أن القيام بتعداد السكان يجلب عليهم الشر • فقد ورد بين حكايات سفرى صموئيل والأخبار أن يهوة أو ربما الشيطان قد أوحى الى الملك داوود بفكرة مشئومة هى أن يقوم بتعداد قومه • ومهما يكن

---

(١) سفر صموئيل الأول ٢٨ من ١٣ — ١٥ .

مصدر هذا الوحى على وجه التأكيد ، لأن الكتاب الدينيين يختلفون حول هذا الموضوع ، فان نتيجة هذا العمل أو على الأقل عاقبته ، كانت حلول الكارثة ببنى اسرائيل . فقد تناقص عددهم اثر ذلك مباشرة نتيجة انتشار وباء الطاعون فيما بينهم • ونظر الناس الى هذه الطارئة بوصفها جزاء طبيعيا لجريمة عدهم • ويفسر هذا الاعتقاد بأن الأرواح الشريرة تظل متربصة بمن يملك عددا من الأغنام والماشية أو عددا من الأبناء ، فاذ علمت عددهم على وجه التحديد ، أصابتهم بأذى • ومن ثم فان من يضطر الى عد شيء يمتلكه ، فانه يراوغ فى العد على سبيل خداع الروح الشرير • وهذه الطريقة فى العد معروفة تماما لدينا حتى اليوم عندما يقول الناس فى العد : الله واحد • مالوش ثانى •• وهكذا •

عبادة شجر البلوط : وقد احتلت شجرة البلوط المكان الأول بين الأشجار المقدسة عند العبريين القدماء • وما تزال هذه الشجرة تنمو بوفرة فى فلسطين كما يقول المؤلف • وكثيرا ما يرد ذكر شجرة البلوط بصفة خاصة فى التوراة • ومثال ذلك ما ورد فى سفر التكوين ١٠ : ٦ : « واجتاز ابرام فى الأرض الى مكان شكيم الى بلوطة مورة وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض • » وكذلك ما ورد فى هذا السفر ١ : ١٨ « فنقل أبرام خيامه وأتى عند بلوطات ممرا التى فى حبون • بنى هناك مذبحا للرب • » وبالمثل ما ورد فى الاصحاح ١٨ : ٢٧ من هذا السفر : « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفين لديه » •

ومازال الفلاحون فى فلسطين ، كما يقول فريزر ، ينظرون الى أشجار البلوط التى تنمو بوفرة ، فى جهات كثيرة فى فلسطين نظرة تقديس أساسه التصورات الخرافية ، اذ أنهم يعتقدون أنها مأوى الجن والأرواح • ومع مرور الزمن ربط الأهالى بين عبادة هذه

الأشجار وعبادة الأولياء ، فكانوا يقيمون قبر الولى عند بلوطة خضراء وهناك يذبحون الضحية اليه ، ويتوسلون اليه أن يحقق لهم أمرا من الأمور • وهذا الربط بين الأشجار وضريح الولى يشير الى الاعتقاد فى أن روح الولى تسكن الشجرة • وبهذا يكون هذا الاعتقاد امتدادا للاعتقاد البدائى القديم فى أن للشجرة روحا تؤدى لها الطقوس المحددة فى مناسبات بعينها •

ومن عادة بعض الشعوب ان لم يكن من عادة شعوب العالم جمعاء ، أنه عندما تتعرض أسرة لوفاة فرد منها تفرض على الأحياء قيود معينة تحدد من زوايا متعددة حرية الفرد التى يتمتع بها فى حياته العادية • وكلما كانت صلة الأحياء بالميت أكثر قربا كانت القيود التى تفرض عليهم أكثر تعنتا • وعلى الرغم من أن أسباب فرض هذه القيود لاتزال مجهولة فى الغالب لمن يضطر أن يخضع لها ، الا أن الشواهد العديدة تشير الى أن كثيرا من هذه القيود ، ان لم يكن جميعها ، قد نشأ نتيجة الخوف من شبح الميت والرغبة فى الهروب من ترقياته غير المستحبة بصرف نظره عنهم اما عن طريق طرده أو اغرائه أو الى ارغامه على أن يذعن لمصيره ، ويكف عن مضايقة أهله وأصدقائه • وقد كان العبريون القدماء يراعون اتباع كثير من القيود عند حدوث الوفاة كما يتضح هذا من نصوص التوراة • وقد استطاع فريزر أن يضيف الى قائمة القيود التى تفرض سلوكا معينا على المكلومين عند العبريين ، قيدا آخر لم يطرأ على ذهن الكتاب الدينيين كما يقول ، اذ لم يشيروا اليه فى كتاباتهم ، وان دلت عليه أصول الألفاظ وأكدته العادات المتشابهة التى تتبعها الشعوب البدائية • فكلمة الأرملة باللغة العبرية تعنى الخرساء أو الصامتة • وقد دعاه هذا التحليل اللغوى الى التساؤل عن سبب ارتباط كلمة الأرملة بالصمت • وقد أجاب عن هذا التساؤل من خلال فحص تلك العادة البدائية التى تفرض على أقرباء الميت بعض القيود ومن بينها الصمت •

ومن بين القبـائل التى تراعى هـذه العـادة القبـائل الأفريقيـة وقبائل وسط استراليا وشمالها • فالأرملة فى هذه القبـائل يفرض عليه الصمت لمدة طويلة أو قصيرة ، ولا يسمح لها بالكلام الا بعـد تأدية الصمت : ومن بين القبائل التى تراعى هذه العـادة القبـائل الافريقية شـعائر محددة • والسبب فى هذا فيما يرى فريزر ، هو الخوف من أن ينجذب شبح الزوج الخطير اليهـا اذا ما سـمع صوتها ، فيتعرض لايذائها ما لم تؤد بعض الشعار المحددة •

وبهذا ينتهى الجزء الثالث من الكتاب الذى استطاع فيه المؤلف أن يبرز من بين روايات عصر القضـاة والملوك ، العـديد من التقـاليد المعتقـدات العبرية التى ترتكز فى أصـولها على تقاليـد ومعتقـدات بدائيـة •

ثالثا : القـانون : وبعـد ذلك يفرغ المؤلف لبحث الجزء الرابع والأخير من الكتاب وعنوانه « القانون » • ويميز النقـاد فى مجمـوعة القوانين المعقدة التى تكون الجزء الأكبر من أسـفار موسى الخمسـة ثلاث مجموعات أو تكوينات قانونية على الأقل • وهـذه المجموعـات الثلاث تختلف عن بعضها البعض فى تاريخهـا وطابعها ، وهى تشتمل وفقا لترتيبها التاريخى على كتـاب العهد وقانون سـفر التثنية وقانون السـفر الكهنوتى • ويعرف أقدم قانون فى أسفار موسى الخمسـة بما يسمى بكتاب العهد وهو الذى يتضمن سـفر الخروج من الاصحاح العشرين آية ٢٢ الى الاصحاح الثالث والعشرين آية ٣٣ ، وقد سمى هذا القـانون بالتشريع الأول وهو يتصل كل الاتصـال بسفر الخروج الاصحاح الرابع والثلاثون من آية ١١ الى آية ٢٧ ، وهو ما يسـمى فى بعض الأحيان بكتاب العهـد الصغير • ويقول فريزر انه من الممكن الادعاء أن هذه القوانين حتى قبل تقنينها كانت تنتشر بوصفها نظمـا عادية ، ذلك أن القوانين لا تفرض فرضـا على المجتمع ، بل لابد أن تكون متلائمة مع عادات الناس ومعتقداتهم الى حد بعيد اذا قدر لها

أن تعيش • أما المجموعة الثانية من القوانين التى يميزها النقاد فى أسفار موسى الخمسة ، فهى تلك التى يشتمل عليها سفر التثنية ، وهو السفر الذى دعا الى الاصلاح الدينى عن طريق ازالة الأماكن المقدسة المحلية جميعها ، وتركيز عبادة يهوة الشعائرية فى معبد أورشليم وحده •

فاذا كانت القوانين ترتكز فى العادة على أصل قديم من التشريع الشعبى ، فان قارىء التوراة الذن لن يفاجأ اذا ما صادف بين نصوصه عادات وشعائر ترتكز على تشريعات وثنية قديمة • ومن ثم فان القارىء لن يفاجأ عندما يقرأ وصية من بين الوصايا العشر تنص على عدم طبخ الجدى فى لبن أمه ، وهى الوصية التى تقع فى سفر الخروج ٢٤ آية ا • وهنا تبرز مشكلة وهى أن الوصايا التى دونت فى هذا الاصحاح لا تتفق كلية مع النص الأكثر ذيوعا للوصايا العشر المدون فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج وهى تلك الوصايا التى نقرؤها مرة أخرى فى الاصحاح الخامس من سفر التثنية • ففى الرواية الأولى تختفى القيم الأخلاقية كلية ، اذ أنها تشير جميعا بدون استثناء الى أمور تتعلق بالشعائر المادية التى يطلبها الرب من عباده • ومثال ذلك (تحفظ عيد الفطير سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك — لا تذبح على خمير دم ذبيحتى ، ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح) • أما عن العلاقة بين الانسان والرب ، وبين الانسان والانسان ، فليس هناك شىء يذكر بهذا الصدد • وانما تختص بهذه العلاقات الانسانية الرواية الثانية للوصايا ، وهى التى تحض الانسان على البعد عما يغضب الرب والناس • وقد يدعو هذا الى افتراض قدم التشريع الأول عن الثانى ، ومع ذلك فمازال على القارىء أن يتساءل عن أهمية وصية تحريم طبخ الجدى بلبن أمه • وأغلب الظن أن هذا التحريم كان موجها ضد بعض الشعائر السحرية أو الوثنية التى رفضها المشرع وسعى فى القضاء عليها • وأساس هذه الشعيرة أنها تقوم على سحر المشاركة ، ذلك أن طبخ الجدى فى

اللبن يؤدى الى الاضرار بسائر القطيع الذى يتأثر بذلك عن طريق المشاركة . ولما كان اللحم المطهر فى اللبن من الأكلات المحببة عند العبريين « فقد نص المشرع على تجنب هذا الفعل حتى لا تضار الماشية » . وليس هذا التشريع غريبا عن تشريعات القبائل البدائية التى تمنع غلى لبن الأبقار اثر ولادتها العجول حتى لا تصاب الأبقار بضرر ، ذلك أن هناك مشاركة بين الحيوان واللبن الذى يحلب منه .

٢ — ومن بين القوانين التى تشير كذلك الى اعتقاد قديم ، ذلك التشريع الذى نص عليه فى كتاب العهد على النحو التالى : « اذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات ، يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، أما صاحب الثور فيكون بريئا . ولكن اذا كان ثورا نطاحا من قبل ، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل » [١] .

٣ — وقد كان من عادة القبائل الهجمية تنفيذ قانون الأخذ بالثأر من الحيوان كما هو الحال مع الانسان بل ان هذا كان متبعا فى أوروبا فى العصور الوسطى بصور تدعو الى الضحك ، فقد كانت المحاكمات تنصب من أجل محاكمة الحيوانات التى تؤدى الزرع كالفئران مثلا . وكانت هذه الحيوانات تستدعى للمثول أمام هيئة القضاء ، ويعين لها مدافعون عنها . فاذا لم تحضر الفئران حكم عليها بالنفى أو الحرمان من رحمة الكنيسة الى غير ذلك من الأحكام التى لم تنفذ قط بطبيعة الحال .

٤ — ومن بين تلك التشريعات كذلك ، ذلك التشريع الذى سن

---

(١) سفر الخروج ١٢ : ١٨ .

تعليق الأجــراس فى جبة الكاهن عنــد دخوله المعبــد ، والا أصيب بضرر قد يفضى به الى الموت . فقد نص القانون الكهنوتى على أن يصنع رداء الكاهن وفقا للوصــف التالى : « وتصنع جبــة الرداء كلهــا من اسمانجونى ، وتكون فتحة رأسها فى وســطها ويكون لفتحتها حاشــية حواليهــا صنعة الحائك كفتحــة الدرع يكون لهــا لا تشق ، وتصنع على أذيالهــا رمانات من اسمانجونى وأرجوان وقرمز على أذيالهــا حواليهــا وجلاجل من ذهب بينهــا حواليها جلجل ذهب ورمانة عــلى أذيال الجبة حواليها . فتكون على هرون للخــدمة ليســمع صــوتها عند دخوله الى القدس أمام الرب وعند خروجه لئلا يموت » (١) .

فلماذا كان يتحتم على الكاهن أن يرتدى الأجراس المجلجلة التى يعلقها بين تطريز الثوب حتى يســمع صــوت رنينها عنــد دخــوله المعبــد ، والا مات ؟ عندما قارن فريزر هذا الاعتقاد بالاعتقــاد السائد بــين الشــعوب البدائيــة والحضــارية فى أن صليل الأجــراس فى المناسبات التى تكون فيها الأرواح مهددة بمطــاردة الأشــباح الشريرة لها ، يعمــل على ابعاد هذه الأشباح ، رأى أن تفســير هذا التشريع الذى يحتم على الكاهن ارتداء الأجراس ، لا يمــكن أن يفسر الا من خلال هذا المعتقد البدائى ، وهو أن الأرواح الشريرة تتربص بالكهنة عند دخولهم المعبد فتتعرض لايذائهم ما لم يعملوا على طردها بعيــدا عنهم . وليست عادة دق النواقيس فى الكنائس ســوى امتداد لهــذا المعتقد البدائى القــديم وان نسى السبب الأصلى فى استخدامها .

ولعلنا ندرك الآن بعد تلك الجــولة فى ثنايا كتاب « الفولكلور فى العهد القــديم » أن فريزر قد قدم لنا بحــق « أسطورة أنثروبولوجية رائعة » للشعب اليهودى . وقد كان فى تقسيمه كتابه الى هذه الأبواب

---

(١) سفر الخروج ١٨ من ٣٢ الى ٣٥ .

الأربعة موفقا كل التوفيق ، حيث أنه تمكن بأسلوبه الشائق ومقدرته الفائقة على المقارنات من أن يبرز صنوفا من المعتقدات والتصورات العبرية فى كل مرحلة من مراحل تاريخهم الدينى الطويل • واذا كان فريزر قد نجح بحق فى ارجاع تلك المعتقدات الى أصولها البدائية ، فهذا يعنى أنه نجح فى تحقيق هدفه الذى عبر عنه فى مقدمة كتابه عندما قال : « لقد دفعنى الهدف من دراستى هذه الى أن أنعم النظر بصفة أساسية فى الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل فى العهد القديم ، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة ، تلك الآثار التى تنتشر على صفحاته » •

وفى خاتمة هذه الدراسة يمكننا أن نتساءل عما اذا كان فريزر قد تمكن من تطبيق نظريته فى السحر والدين من حيث أن السحر يعيش بين الشعوب فى مرحلة حضارية أدنى من الدين ، حتى اذا ما انتشر الدين واستقر فى النفوس انقضت المرحلة السحرية الى غير رجعة • فهل تنتمى تلك المعتقدات والتصورات والعادات التى عرضناها فى هذا البحث الى السحر أم الى الدين • أحسب لو أن فريزر سأل نفسه هذا السؤال لأدرك التناقض بين نظريته وأبحاثه ، وهو الأمر الذى أخذه الباحثون عليه وعدوه من نقاط الضعف فى أبحاثه الأنثروبولوجية • فلو أن مرحلة الدين تعد منفصلة تماما عن مرحلة السحر ، لما برزت تلك الطقوس السحرية بين سطور التوراة ، كتاب اليهود المقدس • ولعله يبدو الآن تفوق نظرية مالينوفسكى فى العلم والسحر والدين فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية على نظرية فريزر • ذلك أننا لو افترضنا وفقا لمالينوفسكى أن السحر والدين يعيشان جنبا الى جنب ، وأن كلا منهما يلعب دورا مستقلا فى حياة الشعوب ، لاستطعنا أن نميز بين ما ينتمى الى السحر وما ينتمى الى الدين فى التوراة • فعبادة الأماكن المقدسة وتقديم التضحيات للرب ينتمان فى وضوح الى الجانب الدينى الذى يسعى الانسان بدافعه

الى استرضاء الاله لحمـاية كيانه ووجوده فى لحيـاة • وأما ارتداء يعقوب لجلد النعجة ، ولجوء شاءول الى سـاحرة عين دور وغـرض الصمت على الأرملة أثر وفاة زوجهـا ، وتقديم الضحية لآنه النهر ، الى غير ذلك من الطقوس والشعائر التى عرضها الكتاب ، فهى تنتمى جميعا الى الجانب السـحرى الذى يقوم بوظيفة محاربة القـوى الشريرة حتى يكون المصير الخير حليف الانسـان • واذا كنا نلاحظ أن الطقوس السحرية تغلب بحق الطقوس الدينية فى التوراة ، فان هذا ان دل على شىء فانما يدل على أن اليهـودى لم يستطع نتيجـة ارتباطه الشديد بالمادة ، أن يسمو بدينه السـماوى الى طبيعته الروحـانية التأملية ، ومن ثم فقد ظلت طقوس السـحر البدائيـة عالقة بنفسـه وانتشرت بدورها بقصـد أو غير قصد بين سطور التوراة •

يونيو ١٩٨١

د• نبيلة ابراهيم
استاذة الأدب الشعبى
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

مدخـــل بقـــلم المؤلف

(١)

نبهنى بعض الباحثين الى أن عددا من القراء الذين لا يقــدرون على شراء الطبعة الأصلية من كتابى « الفولكلور فى العهــد القــديم » ، الذى يقع فى ثلاثة أجــزاء ضــخمة ، أو الذين لا يجــدون متسعا من الوقت لقراءة هذه الطبعة ، يرحبون بظهور طبعة مختصرة لهذا الكتاب • ولهــذا فقد قمت باعداد هــذا الموجز تقــديرا منى لهــذه الفكرة ، فحذفت بعض فصول الطبعة الأصلية نهائيا ، واختصرت سائرها • ولكى أفسح المجال للنص نفسه فقد حذفت ، بصــفة خاصة ، القدر الأكبر من الهــوامش التى تحتــوى على الشــواهد المقتبسة من أعمــال بعض الباحثين ، ولم أبق منها الا القليل ، وذلك فى بعض الأحوال النــادرة التى كنت أرغب فيها فى تقديم تفســير ما ، أو أرى من الضرورى — فى مجال الاستشهاد بنص من العهــد القديم — أن أبدى الأســباب التى دعتنى الى أن أتبنى قراءة مخالفــة لتلك التى أخذت بهــا الترجمــة الانجليزية الرســمية أو المعتمــدة للعهــد القديم • أما القراء الذين يرغبون فى التعرف على الأصول الخاصــة بأى موضــوع فعليهم أن يرجعوا الى الطبعة الأصلية التى تحتوى على كثير من الوثائق ••

ولقد لاحظ « رينان » أن التــاريخ البشرى لا يقــدم للعقــل الفلسفى المشتغل بالبحث عن أصــول الأشياء ســوى ثلاث حقب ذات أهمية أساسية ، هى : تاريخ الاغريق ، وتاريخ بنى اسرائيل ، وتاريخ روما • ويمكننا الآن — على سبيل المثال — أن نضيف الى هذه التواريخ الثــلاثة التى تعتمد جميعهــا على وثائق مكتوبة ، تاريخا رابعــا على الأقل ، هو تاريخ البشرية فى العصور والبــلاد التى لم تكن تعــرف

الكتابة • فمنذ أن قدم رينـــان للعالم تاريخه الكبير عن بنى اسرائيـــل وعن المسيحية فى عصـــورها الأولى ، ازدادت معلوماتنا عن التـــاريخ البشرى اتساعا وغنى ، ســـواء عن طريق الكشـــوف الأثرية لعصور ما قبـــل التاريخ أو نتيجة لدراســـة الأجناس البدائية على نحـــو أكثر دقة ، تلك الأجناس التى تقدم الينا صـــورة دقيقة — على نحـــو أو آخـــر — لمراحل التطـــور الاجتمـــاعى المختلفة التى اجتازها قديمـــا أســـلاف الأجناس المتحضرة • وقد تضافرت هذه العلوم الحديثة نسبيا على كشف القناع الى حد ما ، ذلك القنـــاع الذى ظل مســـدلا حتى هذا الوقت على طفولة البشرية ، وأخذت تتيح لنا أن ننفذ بأبصارنا — ان جاز لنا هذا التعبير — خلال الحائط المصمت الذى ظل حتى زمن متأخر حجر عثرة فى طريق الباحثين عما وراء نطـــاق التراث الكلاسيكى ، وتكشف لنـــا آفاقا تبدو لا نهـــائية للفـــكر البشرى ونشـــاطه فى تلك الأحقاب المظلمة السحيقة التى انقضت بين ظهور الجنس البشرى على وجه الأرض ، وبلوغه حالة النضج الكامل فى اطـــار الحيـــاة الانسانية المتحضرة • ومن ثم ظهرت هذه الحماســـة التى صاحبت الدراســـات الفولكلورية ودراســـة الآثار القديمة فىالوقت الراهن ، فى نطـــاق دائرة الباحثين الذين يتزايد عددهم يوما بعد يوم • ويمكننا أن نقول : أنه من بين القوى التى تشـــكل وجهة نظرنا المستنيرة فى أيامنا هـــذه وتحور فيهـــا بدأت مناهج البحث الانســـانى هذه تؤثر فى حركة الفكر العـــامة تأثيرا ثانويا فقط بالقياس الى الحافز الذى تركته فى أذهاننا صـــور التقـــدم المثيرة التى أحرزتها العـــلوم الطبيعية • فالسؤال عن صحة المعتقدات وأنماط السلوك لانســـانى من الصعب فصـــله عن محاولة معرفة أصولها ، تلك الأصول التى مازال علم الفولكلور وعـــلم الآثار القديمة يلقيـــان عليها مزيدا من الضوء ••

وقد حاولت فى هـــذا الكتاب أن أســـير على هدى الدراســـات الفولكلورية متعقبـــا بعض معتقـــدات الاسرائيليين القـــدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعملية فى المراحل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى

تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التى تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات • واذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح فى هذه المحاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر الى تاريخ بنى اسرائيل فى ضوء أكثر صدقا ، وان يكن أقل رومانسية ، بوصفهم شعبا لا يميزه الوحى الالهى عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طرق عملية انتخاب طبيعى بطيئة ••

(٢)

توصلت الأبحاث الحديثة التى تدرس فجر التاريخ البشرى بشتى اتجاهاتها الى نتيجة مؤكدة الى حد بعيد ، مؤداها أن كل الأجناس المتحضرة قد تطورت ، فى زمن أو آخر ، من المرحلة الهمجية التى تشبه فى قليل أو كثير المرحلة التى لا تزال بعض الشعوب المتأخرة تعيشها اليوم • كما انتهت هذه الأبحاث الى أن هناك آثارا ليست بالقليلة من الطرز البدائية القديمة فى الحياة والتفكير ما تزال ماثلة فى عادات الناس وتقاليدهم — حتى بعد أن كانوا قد كفوا منذ زمن طويل عن التفكير والسلوك الهمجيين • وهذه الآثار الباقية تدخل فى اختصاص علم الفولكلور الذى يمكن أن نعرفه ، بمعناه الواسع ، بأنه العلم الذى يستوعب مجموعة المعتقدات والعادات المأثورة لدى شعب من الشعوب ، مادام مرد هذه لمعتقدات والعادات الى السلوك الجمعى لعامة الناس ، وكانت بمنأى عما يكون لعظماء الرجال من تأثير فردى • وعلى الرغم مما كان العبريون القدماء قد أحرزوه من رقى فكرى وتطور دينى ، فليس هناك ما يدعو لافتراض أنهم قد شذوا عن هذا القانون العام ، اذ المحتمل أنهم أيضا قد مروا بمرحلة بربرية بل همجية • وهذا الاحتمال ، الذى يرتكز على ما بينهم وبين الأجناس البشرية الأخرى من تشابه ، تؤيده النظرة الفاحصة لأدبهم ، ذلك الأدب الذى يتضمن كثيرا من الاشارات الى معتقداتهم

وعاداتهم التي لا يمكن أن تفسر الا من خلال افتراض أنهما مخلفات باقية من مستوى حضارى أشد انخفاضا بكثير • ومن ثم كان موضوع دراستى هذه هو أن أوضح وأفسر قدرا محدودا من تلك المعتقدات البالية التى تنتمى الى عصور بدائية ، والتى يحتفظ بها العهد القديم كأنها حفريات • ولقد أتيحت لى الفرصة من قبل فى غير هذا الكتاب لأن أضع يدى على آثار بدائية أخرى يتضمنها العهد القديم ، لها نظائرها عند القبائل الهمجية ، مثل التضحية بالابن الأول ، وقانون دنس النساء ، ثم عادة تقديم ذبيحة الخطيئة (١) Scapegoat ولكن حيث اننى لا أود أن أكرر ما سبق أن ذكرته حول هذه الموضوعات ، فاننى أكتفى باحالة القارىء الذى يرغب فى البحث فيها ، الى كتاباتى الأخرى • •

ووسيلتنا فى الكشف عما يتغلغل فى الحضارة من آثار بدائية هو المنهج المقارن ، فهو يمكننا ، فيما يتصل بالعقل الانسانى ، من أن نقتفى أثر تطور الانسان فكريا وأخلاقيا ، بنفس الدرجة التى يمكننا بها ، فيما يتصل بجسم الانسان من أن نقتفى أثر تطوره جسديا من الأشكال الدنيا للحياة الحيوانية • وباختصار فان هناك تشريحا مقارنا للعقل ، كما أن هناك تشريحا مقارنا للجسم • وتشريح العقل تبشر نتائجه البعيدة المدى بأنها لن تكون ، بالنسبة لمستقبل

---

(١) راجع سفر اللاويين اصحاح ١٦ .

« يسميها بعضهم كبش الفداء وآخرون « تيس عزازيل » وهي تعنى فى علم الانثروبولوجيا أن شخصا أو شيئا أو حيوانا يحمل خطايا الفرد أو المجتمع او يحمل ما يبتلى به الفرد أو المجتمع من أمراض وكوارث ، ومن ثم فان هذا الشخص أو الشيء أو الحيوان يقدم ضحية الاله . ويرجع هذا الاصطلاح الى عادة عبرية قديمة ، اذ كان العبريون يقدمون كبشين ضحية للاله تكفيرا عن ذنوب الشعب أو الفرد . ثم دخل هذا الاصطلاح فيما بعد مجال علم النفس ومعناه أن يلوم شخص غيره عما يصاب به من خيبة فى أمر ما . فهو ينسب اليه التقصير لا الى نفسه . ومن ثم فهو يعد شكلا من اشكال الاسقاط .
(المترجمة)

الانسانية ، أقل قيمة من نتائج تشريح الجسم ، لا من الناحية النظرية فحسب ، بل من الناحية العملية كذلك . وليس بدعا أن نطبق المنهج المقارن على دراسة التراث العبرى القديم ، فقد استخدم العالم الفرنسى صموئيل بوشار القس هذا المنهج فى القرن السابع عشر فى فرنسا استخداما ناجحا ، كما استخدمه فى انجلترا رجل الدين العالم « جون اسبنسر » رئيس كلية « جسد المسيح » Corpus Christi بجامعة كمبودج . وقد قيل عن كتابه الذى ألفه حول قوانين الطقوس لدى العبريين القدماء أنه أرسى دعائم الأديان المقارن . أما فى عصرنا ، وبعد قرنين من الزمان ، فقد استأنف أستاذى المبجل وصديقى « وليم روبرتسون سميث » فى كمبردج العمل الذى اضطلع به هذان العالمان الجليلان . ويرجع التقدم الذى أحرزته هذه الدراسة فى حياته وبعد وفاته المبكرة جدا الى حد بعيد ، الى أثره القوى الذى ظفرت به هذه الدراسة بفضل عبقريته الخارقة وعلمه . وقد كان الأمل يحدونى أن أقتفى أثر هؤلاء المتقدمين المرموقين فى هذا المجال من العلم ، وأن أسير به قدما بما يمكننى من أن أسمح لنفسى بأن أسميه تراث كمبردج فى الأديان المقارنة .

ومن المسلمات الشائعة أن الوصول الى حل كامل لمشكلة ما يتضمن حلا لمشكلات أخرى كثيرة . ولكن لا ، فالقليل من العلم بكل شيء لن يكون كافيا لأن يجيب ضمنا عن الأسئلة التى تثيرها أبسط أشكال البحث . وبناء على ذلك ، فان فحص مسألة فولكلورية ، بخاصة فى المرحلة الأولية الراهنة لهذه الدراسة ، من الطبيعى أن يفتح مجالات للتساؤل تتشعب فى اتجاهات عدة . واننا لننساق بطريقة عفوية — فى أثناء تتبعنا لمجالات هذا التساؤل — الى آفاق من البحث تزداد اتساعا على الدوام حتى لتختفى عن أنظارنا النقطة التى بدأنا منها . أو — بتعبير أدق — حتى لتبدو النقطة التى بدأنا منها فى بعدها الحقيقى مجرد ظاهرة ضمن عدد كبير من الظواهر

المماثلة • وأن ما صادفته منـذ سنين طويلة عندما أخذت على عاتقى أن أبحث مسألة فولكلور ايطاليا القديمة ، يصـادفنى الآن وأنا أتهيأ لمناقشـة مسـائل بعينها فى فولكلور العبريين القـدماء • فقد حدث أن البحث فى أسطورة معينة أو عـادة أو قانون قد تشعب بى فى بعض الأحيـان ، حتى أوشك أن يصبح بحثا بل رسـالة • ولكننى آمل — بعيـدا عمـا تضمنته أبحاثى من رأى متعجـل فى تراث الاسرائيليين وعاداتهم — أن تكون هذه الأبحاث بمثابة اسـهام فى دراسة الفولكلور بصفة عامة • ان هذه الدراسـة لاتزال فى مرحلة البداية والأرجح أن تظل نظرياتنا ، التى تتعلق بهذه الموضـوعات ، تجريبية ومؤقتة على مدى فترة متطاولة من الزمن ، وأن تكون مجرد أدراج تصـنف فيهـا الحقائق الكثيرة الى حين ، لا قوالب حديدية تسـتقر فيها تلك الحقائق الى الأبـد • وفى هذه الأحوال يقـدم البـاحث المخلص فى مجـال الفولكلور فى الوقت الحاضر نتائج بحثه فى قـدر من التهيب والتحفظ اللذين يتلاءمان مع ما تتسم به المادة التى فى متناول يده من صـعوبة وحاجة الى التمحيص ••

وعلى هدى من هذا كنت أسير دائما • واذا كنت فى أى مكان من هذا البحث قد نسيت هذا التحذير الـذى أتجه به الى الآخـرين ، وعبرت عن نفسى فى صـورة تقريرية لا تؤيدها الأدلة ، فاننى أطلب من القارىء أن يصحح مثل هذه العبارات التقريرية جميعـا ، عن طريق اعلان هذا النوع من التشكك العام المخلص ••

وقد حاولت فى هذا لبحث ان أضـع فى الاعتبار النتـائج التى توصـل اليها أشهر النقـاد المحدثين فيما يختص بتأليف أسفار العهد القديم المختلفة وتاريخها • ذلك أننى أعتقـد أن كثيرا من المتناقضات الجلية فى الكتاب المقدس ، لا يمكن أن تقبل تفسـيرا منطقيا وتاريخيا معقولا الا فى ضـوء هذه النتائج • أما النصـوص التى اقتبستها فقد دونتها عادة بألفاظ « الترجمة الانجليزية المعتمدة للعهد القـديم » •

ومع اننى خاطرت بين الحين والآخر بأن أخالف الترجمـة الانجليزية وأن أفضـل عليها ترجمة أخرى ، أو أفضـل عليهـا ـ فى مواضـع قليلة للغـاية ـ قراءة خاصة من قراءات العهد القديم ، فاننى أود أن أقول أننى اذا كنت قد قرأت العهد القـديم كله باللغة العبرية قراءة فاحصـة ، وبجانبى « الترجمـة الانجليزية المنقحة » على الدوام ، فاننى شديد الاعجاب بلباقة المترجمين والنقحين على السـواء ، تلك اللبـاقة الفائقة فى اختيارهم لعبـاراتهم مع اخلاصـهم البالغ لحرفية النص والتزامهم بروح النص الأصـلى • ان « الترجمـة الانجليزية المنقحة للعهد القديم » فى جمعها بين الدقة البالغة ووقار اللغة وجمالها ، لا يبزها بدون شـك ، بوصفها نصا مترجما ، أى عمـل أدبى آخر ، بل المحتمـل أنه ليس هنـاك عمـل أدبى آخـر يقف معهـا عـلى قدم المسـاواة ••

لقـد دفعنى الهـدف من دراستى هـذه الى أن أنعم النظـر بصـفة أساسية فى الجـانب الأدنى من حياة العبريين القـدماء كمـا تتمثل فى العهد القديم ، وأن أتتبع الآثار الهمجية والخرافية ، تلك الآثار التى تنتشر فى صفحاته • واذا كنت قد صنعت هذا فليس معناه أننى أجهـل الجانب الأعلى من العبقرية العبرية التى كشفت عن نفسـها فى ديانة روحية وآثار خلقية سجلها العهد القديم الخالد ، أو أن أحط من قدرها • •

البـــاب الأول

عصر الحيـــاة الأولـــى

الفصل الأول

خـلق الإنسـان

الذين يقرءون الكتاب المقدس قراءة فاحصـة لا يمكن أن يغيب عنهم التناقض الصـارخ بين قصتي خلق الانسـان ، اللتين تقعان فى كل من الاصحاحين : الأول والثانى من سـفر التكوين . ففى الاصحاح الأول نقرأ كيف أن الله خلق فى اليوم الخامس من بدء الخليقة السـمك والطيور ، بل كل الكائنات التى تعيش فى الماء أو الهـواء ، وكيف أنه خلق فى اليوم السـادس كل صـنوف الحيوان التى تعيش على وجه الأرض ، وأخيرا خلق الانسـان ، الذكر والأنثى كليهما ، على صورته . ومن هذه القصة نستنتج أن الانسـان قد خلق بعد أن خلقت كائنات الأرض جميعها ، كما نتبين أن تقسـيم الانسان الى ذكر وأنثى ــ وهو التقسـيم الذى تختص به الانسـانية ، قد تم على يدى الخـالق نفسه ، وان لم يقـدم الينا الكاتب أية معلومات تمكننا من التوفيق بين الخلق الثنائى للانسـان ووحدة الخالق . فاذا تجاوزنا تلك المشـكلة الدينيـة ، التى ربمـا شقت على الفهم الانسانى ، فاننا نتجـه الى مسـألة أخرى أبسـط منها ، تتصـل بالسـق التاريخى للخـلق ، ونتدبر العبارات التى تقول : ان الله خلق صنوف الحيوان الدنيـا أول الأمر ، ثم أعقبها بخـلق الانسان ، وأن الانسـان قد انقسـم الى ذكر وأنثى تم خلقهما فى آن واحد معا ، وأن كلا منهما كان يعكس بنفس الدرجة عظمة أصلهما الالهى . هذا ما نقرؤه فى الاصحاح الأول من سفر التـكوين . فاذا نحن انتقـلنا الى الاصحاح الثـانى ، انتابتنا الحيرة على نحو ما ، عندما نفاجأ برواية تختلف تماما عن هـذه الرواية

الخطيرة ، بل انها لتتناقض معها كل التناقض ، اذ نفاجأ فيها بما يثير فينا الدهشة ، وهو أن الله خلق الانسان أولا ، ثم خلق صنوف الحيوان الدنيا من بعده • أما المرأة فقد خلقها بعد فراغه من كل هذا ، وشكلها من ضلع انتزعه من الرجل فى أثناء نومه ، كما لو كانت مجرد فكرة خطرت له فيما بعد ••

وواضح أن نظام خلق الكائنات من حيث قيمتها معكوس فى كلتا الحكايتين •

ففى الحكاية الأولى يبدأ الاله بعملية خلق السمك ، ثم يمضى بعد ذلك فى خلق الطيور والوحوش حتى ينتهى الى خلق الرجل والمرأة • •

أما فى الحكاية الثانية فهو يبدأ بخلق الرجل ، ويمضى بعد هذا الى خلق الحيوانات الدنيا ، ثم يخلق فى النهاية المرأة ، التى تشير بوضوح الى أدنى أعمال الصنعة الالهية • وليس هناك فى الحكاية الثانية أدنى اشارة الى أن كلا من الرجل والمرأة قد خلق على صورة الاله ، وانما تحكى لنا الحكاية ببساطة فتقول : « وجعل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية » (١) ••

وبعد ذلك أراد الله أن يخفف على الرجل وحشته ، اذ كان يتجول دون رفيق فى الجنة الجميلة التى كانت قد صنعت من أجله ، فخلق له الطيور والوحوش ، وقدمها اليه فيما يبدو لتسليته ، ولكى تؤنس وحشته • وعند ذاك نظر الرجل اليها وسماها بأسمائها ، ولكنه كان لايزال غير راض عن رفقتها ، فخلق الله له فى النهاية ــ وكأنه كان قد يئس من أمره ــ المرأة من جزء من جسمه لا أهمية له ، وقدمها اليه لكى تكون زوجا له •

---

(١) سفر التكوين ٢ : ٧ •

هذا التناقض البين بين القصتين يفسره ببساطة أن القصتين قد استمدها الكاتب من مصدرين مختلفين ومستقلين أصلا ، ثم جمع بينهما فى كتاب واحد ونقلهما معا ، دون أن يجهد نفسه فى أن يخفف من حدة التناقض فيهما أو يوائم بينهما • فقصة الخلق فى الاصحاح الأول مستمدة مما يسمونه بالمصدر الكهنوتى الذى ألفه كتاب كهنوتيون فى أثناء السبى البابلى أو بعده • •

وأما قصة الخلق فى الاصحاح الثانى فمستمدة مما يسمى بالمصدر اليهودى الذى ألف قبل المصدر الكهنوتى بمئات السنين ، أى أنه ألف — فيما يبدو — فى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد • والاختلاف بيّن بيْن وجهات النظر الدينية لدى كل من الكاتبين ، فالكاتب المتأخر أو الكهنوتى يصور الاله فى صورة مجردة على نحو ما قد يتصوره الانسان ، وأنه قد خلق الكائنات جميعا بأن أمرها فى بساطة أن تكون فكانت • أما الكاتب المتقدم ، أو اليهودى ، فقد صور الاله فى صورة حسية فهو يتصرف ويتكلم على نحو ما فعل الانسان ، وهو يشكل الانسان من الطين وفقا لنموذج معين ، ويزرع جنة ويسير فيها عندما يميل الجو الى البرودة ، ويطلب من الرجل والمرأة أن يظهرا من بين الأشجار التى كانا يختفيان وراءها ، ويصنع لهما أردية من الجلد ليرتدياها بدلا من الغلالات الهزيلة المصنوعة من أوراق التين التى اهتدى اليها أول أبوين لكى يخفيا بها عورتهما خجلا منها • فالبساطة الجميلة بل المرح ، فى القصة المتقدمة تتعارض مع الجدية البالغة فى القصة المتأخرة ، وان كنا لا نملك الا أن ندهش لذلك الطابع الحزين المتشائم الذى يستخفى وراء صور الحياة البهيجة فى عصر البراءة ، تلك الصورة التى رسمها لنا الفنان اليهودى الكبير • ولم يستطع هذا الفنان بعد كل هذا أن يخفى احتقاره الشديد للمرأة ، فتأخر خلقها ، فضلا على الطريقة الشاذة غير المشرفة التى خلقت بها — اذ شكلها الاله من جزء من جسم سيدها آدم ، بعد أن خلقت صنوف الحيوان بطريقة طبيعية لائقة — كل هذا يشير

اشـــارة كافية الى رأيه فى حقارة شـــأن المـــرأة • وترتيبا على هــذا فان كرهه للمرأة ــ كمــا يمكن أن نسميه بحق ــ يضفى على القصــة لونا قاتمــا ، وذلك حين يعزو الكاتب محنة الجنس البشرى وأحزانه الى سلوك الأم الأولى الذى يتســم بالحماقة الساذجة ، والى شهوتها التى أطلقت لها العنان • •

ولا تتميز القصــة المتقدمة عن أختها المتأخرة بأنها أكثر زخرفة منهــا فحسب ، بل تتميز عنهــا . فضــلا على هذا ، بغنى عناصرها الفولكلورية ، فلقــد أبقت على ملامح واضحة من البســاطة البدائية ، طمسها الكاتب الثانى فى حــرص • وبنــاء على هذا قــد تقــدم من العناصر ــ فى مجــال المقــارنة بالحكايات البدائية الســاذجة ، التى حاول الناس عن طريقها فى العصــور والبــلاد المختلفة أن يشرحــوا اللغز الكبير لبداية الحياة على وجــه الأرض أكثر مما تقــدمه الحكاية الكهونية • وسوف أورد فى الصفحات التالية بعض هــذه الحــكايات البســيطة ••

ويبدو أن المؤلف اليهودى قد تصــور أن الاله قد شــكل الرجل الأول من الطين على نحو ما يفعل صانع الفخــار تماما ، أو كما يفعــل الطفل حين يشــكل دمية من الطين • فبعــد أن عجن الاله الطين وسواه على الصــورة المعلومــة ، بث فيه الــروح بأن نفخ فى فم التمثــال ومنخريه ، بنفس الطريقة التى يروى عن النبى اليشع أنه أعــاد بهــا الحياة الى جسد الطفل الميت ابن الشــونامية [1] ، وذلك بأن استلقى فوق الطفل ، ووضع عينيه على عينى الطفل ، وفمه على مه ، وذلك لكى يمنح الجســد بطبيعة الحــال بعض أنفاسه • وبعد ذلك عطس الطفل سبع مرات وفتح عينيه • على أن فكرة العبريين فى أن الجنس البشرى يرجع فى أصله الى التراب ــ تتضح لنا على نحو طبيعى للغاية ، اذ أننا نجد أن كلمة « أدمة » فى لغتهم ، ومعناها الأرض ، هى الصيغة المؤنثة

(١) الملوك الثانى اصحاح ٤ آية ٨ ــ ٣٧ .

الكلمة آدم ، ومعناها الرجــل • ويبدو من نصـــوص مختلفة فى الأدب البــابلى أن البابليين كذلك كانوا يرون أن الانســان قد خلق من طين • فهناك رواية اغريقية احتفظت بحكاية عن أصــل الخليقة « لبيروسوس » الكاهن البابلى تقــول : ان الاله « بل » [1] قطع رأسه ، وأن ســائر الآلهة جمعوا الدم المتدفق منه وعجنوا به التراب ، وخلقوا البشر من هذه لعجينة المخلوطة بالدم • ولهذا السبب ، كما يقول البابليون ، كان الرجال حكماء كل الحكمة ، لأن الطين الذى خلقوا منه كان مخلوطا بدم الاله • ويروى فى الأساطير الفرعونية أن « خنم » [2] أبا الآلهة قد خلق الانسان من الطين على دولابه الذى كان يشــكل عليه الفخار ••

وبالمثــل يحــكى فى الأسطورة الاغريقيــة أن بروميثوس [3] • الحكيم قد خلق الانسان الأول من الطــين عند بانوبيوس التى تقع فى فوكيس [4] • وقد تخلفت عن عملية الخلق كمية من الطين كان من الممكن رؤيتها بعد هذا بزمن طويل على شــكل صخرتين كبيرتين تشرفان على واد ضيق ••

وقد تراءى لمســافر يونانى كان يزور هذا المكان فى القرن الثانى الميلادى أن الصخرتين كانتا بلون الطين ، وأن رائحة اللحم البشرى كانت تفوح منهما قوية •

وقد قمت أنا كذلك بزيارة هذا المكان بعد ذلك بما يقرب من سبعة عشر قرنا ونصف قرن ، فوجدته واديا مهجورا ، أو بالأحرى تجويفا يقع على الجانب الجنوبى من تل بانوبيوس ، فى أســفل صف من الآثار المتهدمة وان كانت لاتزال تبدو فى شكل حوائط متماســكة وقلاع تتــو-

---

(١) بل هو الاسم البابلى للالة « بعل »

(٢) الاله المصرى القديم خنم الذى تصوره المصريون برأس كبش واسمه مرتبط من حيث الاشتقاق اللغوى بالكلمة العربية « غنم »

(٣) هو خالق الجنس البشرى وبادىء الحضارة الانسانية وفقا للأسطورة لاغريقية وقد حكم عليه الاله زيوس بالنفى الى جبال القوقاز ، حيث اخذ نسر ينهش لحمه ، لانه كان قد سرق النار واحضرها للبشر . ثم اطلق هرقل سراحه فيما بعد . (المترجمة)

(٤) اقليم كان يتوسط بلاد الاغريق فى الزمن القديم . (المترجمة)

صخور القمة الرمادية • لقد كان قائظا فى أواخر أيام الخريف ، هو اليوم الأول من شهر نوفمبر • وقد بدا الوادى جافا كل الجفاف بعد صيف طويل لم تسقط فيه الأمطار فى بلاد اليونان • ولذلك لم تكن قطرات المياه تتساقط على جانبيه المليئين بالأدغال ، ولكنى أبصرت فى قاع الوادى تربة مفتتة مائلة الى الاحمرار ، ربما كانت مخلفات أثرية من الطين الذى خلق منه بروميثيوس أول أبوين على وجه الأرض • وقد كان المكان موحشا مهجورا ، اذ لم يكن هناك أثر لانسان أو لمسكن سوى صف من القلاع العفنة ، وشرفات تطل من فوق التل تحكى عن الحياة المصطخبة التى ولت منذ زمن طويل • فالمنظر كله — شأن كثير من مناظر اليونان — كان ملائما لأن يثير فى النفس احساسا بحياة الانسان القصيرة الصاخبة اذا هى قيست بدوام الطبيعة وهدوئها وأمنها الظاهرى على الأقل • وقد ازداد هذا الاحساس عمقا فى نفسى حينما خلدت الى الراحة فى قيظ ذلك اليوم على قمة التل فى ظل بعض أشجار البلوط الجميلة الدائمة الخضرة ، ونفذت ببصرى فى المنظر البعيد الغنى بذكريات الماضى ، فى حين كانت رائحة الزعتر البرى تفوح فى الأرجاء • وفى الجنوب كانت ذروة جبل هيليكون المنحوتة نحتا دقيقا تشرف على سلسلة التلال المنخفضة التى يتداخل بعضها فى بعض • أما فى الغرب فقد برزت كتلة جبل بارناسيوس الصخرية الهائلة ، وقد غطت أشجار الصنوبر منحدراته الوسطى ، كما لو كانت ظلالا من السحب تكسوها النباتات المتسلقة ، وقد أشرقت على الوادى العميق الذى يتلائم جماله الرومانسى كل التلاؤم مع أفراح بروكنى وفيلوميلا [1] وأحزانهما ، وهما الشخصيتان اللتان ربطت بينهما الأسطورة الاغريقية وبين هذا المكان ••

---

(١) « فيلوميلا » هى ابنة الملك الأثينى « باندويون » ونقا للأسطورة الاغريقية . وقد سلبها « بيروس » زوج أختها « بروكنى » شرفها ثم انتزع لسانها حتى يظل حبه لها سرا خافيا . ولكن « بروكنى » انتقمت من «بيروس» بأن قتلت ابنه . وأخذ « بيروس » بعد هذا يتعقب الأختين ، ولكن الآلهة حولت بروكنى الى بلبل كما حولت فيلوميلا الى طائر السنونو وبذلك استطاعتا أن تهربا منه . (المترجمة)

أما فى الشمال عبر السهل للفسيح الذى ينحدر اليه تل بلنوبيوس العارى ، فلن العين تستقر على فجوة فى التلال يشق فيها نهر سيفيسسيس طريقه المتعرج وهو يتدفق أسفل أشجار الصفصاف الرمادية التى تقع فى سفح التلال الصخرية العارية ، حتى تختفى ميـاهه العـكرة لا فى مستنقعات بحيرة كوبياك الممتدة النحيلة التى اختفت الآن ، ولكن فى كهف مظلم يقع داخل صخرة من الحجر الجيرى • وفى الشرق يتصل حطلم شايرونيا ، حيث ولد بلوتارك ، بمنحدرات سلسلة الجبال العارية التى يكون تل بانوبيوس جزءا منها • هناك فى هـذا السـهل قامت المعركة الفاصلة التى انتهت بخضوع الاغريق لمقدونيا ، وهناك أيضـا اشتبك الشرق والغرب فى الأزمنة الغابرة فى معارك دامية ، انتهت بهزيمة جيوش ميثريداتس [1] الآسيوية على يد جيوش روما بقيادة سولا • لقد كان هذا المنظر الذى بدا أمام عنى فى أحـد أيام الخريف الأول التى تثير روعتها النفس ، عندما كان الصيف المدبر ما زال ينسحب فى ادلال ، كما لو كان يشق عليه أن يترك للشتاء جبال اليونان الساحرة • وفى اليوم الثانى تغير المنظر ، اذ كان الصيف قد ولى • وأطل ضباب شهر نوفمبر الرمادى على التلال التى كانت حتى الأمس تتألق فى ضوء الشمس • وتحت ستائره الحزينة اكتسى سهل شايرونيا المنبسط اللهامد ،الذى يخو من الأشجار ، وتحيط به المنحدرات الموحشة من جانب ـــ اكتسى بحزن رهيب يتفق مع المعركة التى فقدت فيها أمة حريتها •

اننا لا نستطيع أن نشك فى أن مثل هـذه الأفكار الساذجة عن أصل الانسان التى كانت مألوفة لدى الاغريق والعبريين والبابليين والمصريين القـدماء ، قـد انتقلت الى الشـعوب المتحضرة القـديمة عن طريق

---

(١) « ميثريداتس » أو « ميثراداتس » ملك بونطوس . حكم فيما بين ١٣٢ الى ٦٣ ق.م. وقد سولت له أطماعه أن يستولى على آسيا الصغرى . فاشتبك مع الجيوش الرومية بقيادة « سولا » من سنة ٨٨ الى ٨٥ ق.م. وهزم « سولا » « ميثريداتس » واضطره الى اللجوء الى زوج ابنته فى أرمينيا . وظل الرومانيون يتعقبونه حتى قتل فى مملكته . (المترجمة)

أجدادهم الهمجيين أو المتبربرين • فمن المؤكد أن مثل هذه الحكايات رواها الهمجيون الذين يعيشون اليوم أو كانوا يعيشون بالأمس ، فقد حكى سكان استراليا السود الذين يقطنون ضواحي ملبورن ، أن بنده — جل الخالق قطع ثلاث شرائح من لحاء الشجر بسكينه الكبير ، ثم وضع بعض الطين على احدى هذه الشرائح ، وأخذ يسويه بسكينه حتى صار قوامه معتدلا ، ثم وضع كمية أخرى من الطين على شريحة أخرى وشكلها على هيئة انسان ، فصنع الأقـدام فى أول الأمر ، ثم الارجل فالجـذع فالأذرع فالرأس • وهكذا صـور انسانا من الطين على كلتا الشريحتين من لحاء الشجر ، وعندما شعر بالارتياح لعمله هذا أخـذ يرقص حولهما مبتهجا • وبعد ذلك أحضر خيوطا لحائية من شجر الديكاليبتوس وصنع منها شعرا لصقه فى رأسه ورجليه المصنوعين من الطين • ثم نظر اليهما مرة أخرى وأعجب بعمله ، ورقص من حولهما مرة أخـرى تعبيرا عن سعادته • وبعد ذلك استلقى فوقهما ونفخ أنفاسه بقوة فى فم كل منهما وفى أنفه وسرته • وفى الحال تحركا وتكلما ونهضا مكتملى النمو •

ويحكى الماوريون ، سان نيوزيلندة ، أن آلها معينا يسمى بأسماء مختلفة هى تو ، وتيكى ، وتانى ، أخـذ طينا أحمر من جانب النهر وعجنه بدمه ، وشـكله على صـورته ، بعينين ورجلين وذراعين وغير ذلك من الأعضـاء • بحيث أصـبحت الصـورة مطابقة للاله • وبعد أن أتقن صنع نموذجه ، بعث فيه الحياة بأن نفخ فى فمه ومنخره • وفى الحـال اكتسبت الدمية الطينية الحيـاة وعطست • ولقـد كان الرجل الذى صنعه « تيكى » آله المـاء وريين شـديد الشبه به الى درجة أن سماه « تيكى أهوا » أى شبيه تيكى ••

ومن الروايات الشعبية المألوفة فى تاهيتى أن الاله « تاروا »، الاله الأكبر ، خلق أول زوجين • فهو بعد أن خلق العالم ، كما يقولون ، خلق الانسان من الطين الأحمر الذى كان الانسان يستخدمه كذلك فيما بعد طعاما له ، وذلك قبل أن يزرع الثمار التى صنع منها الخبز • ويحكى بعض سكان تاهيتى أن « تاروا » نادى الرجل باسمه ، فلما جاء اليه سلط عليه النوم • فلما استغرق فى نومه انتزع منه عظمة من عظـامه

(وتسمى العظمة فى لغتهم « ايفى ») ، وصنع منها امرأة قدمها الى الرجل ليتخذ منها زوجة له • ومن هذين الزوجين تناسلت البشرية فيما بعد • وقد دونت هذه الرواية من أفواه أهالى تاهيتى فى السنين الأولى من وفود المبشرين اليهم • ويعلق المبشر « وليم اليس » على هذه القصة التى دونها بنفسه قائلا : « ان القصة تبدو لى مجرد سرد للحكاية الموسوية عن الخليقة ، تلك الحكاية التى سمعها الأهالى من الأوربيين • ولكننى لم أعول على هذه الرواية ، على الرغم من أن الأهالى ذكروا لى مرارا أنها حكاية مأثورة عرفوها قبل أن تطأ قدم أى أجنبى أرض بلادهم • كما قرر بعضهم أن المرأة كان اسمها ايفى Iv[1] • وهم ينطقون هذه الكلمة حسبما تكتب كلمة Eve أى « ايف » • وايفى Ivi كلمة أصلية فى لغتهم ، وهى لا تعنى العظمة فحسب ، بل تعنى كذلك الأرملة ، كما أنها تعنى ضحية الحرب • وعلى الرغم من تأكيد الأهالى لهذه المعانى ، فاننى أميل لأن أعتقد أن كلمة Evi أو Eve ، هى الجزء الأصلى الوحيد فى القصة ، وذلك فى نطاق علاقتها بالأم الاولى للجنس البشرى » • ومهما يكن من شىء فان هذه الحكاية المأثورة بعينها قد دونت فى مناطق أخرى من بولينيزيا الى جانب تدوينها فى تاهيتى • فأهالى فاكاؤمو أو جزيرة بادويش يقولون : ان الرجل الأول خلق من حجر ، وأنه قرر بعد مرور فترة من الزمن أن يخلق امرأة ، فجمع ترابا وشكله فى صورة امرأة ، ثم انتزع ضلعا من جنبه الأيسر وزج به فى تمثال المرأة ، فدبت فيها الحياة توا ، وأطلق عليها اسم « ايفى » أى الضلع ، واتخذ منها زوجة له ومنهما معا تناسل الجنس البشرى فيما بعد • وقد روى كذلك أن الماءوريين يعتقدون أن المرأة الأولى قد خلقت من ضلوع الرجل الأول • وانتشار هذه الحكاية على هذا النحو فى بولينيزيا يثير الشك فيما اذا كانت ، كما اعتقد « اليس » ، مجرد تكرار لحكاية الكتاب المقدس كما سمعها الأهالى عن الأوربيين أم لا •

وعلى كل فان قصة خلق أول امرأة من ضلع أول رجل تصادفنا فى

أماكن أخرى فى شكل روايات شديدة الشبه بحكاية الكتاب المقدس ، الى درجة أننا لا يمكن أن نعدها مستقلة عنها • فالكاريبيون سكان بورما يقولون : « ان الله خلق الرجل ، ولكن من أى شىء خلقه ؟ لقد بدأ بخلق الرجل من التراب ، ثم أتم من بعده عملية خلق المرأة ، ولكن من أى شىء خلقها ؟ لقد أخذ ضلعا من أضلاع الرجل وخلق المرأة » • ومرة أخرى نجد التتار البيدليين سكان سيبيريا يروون حكاية مأثورة ، مؤداها أن الله فى بادىء الأمر خلق الرجل الذى عاش وحده على وجه الأرض • وأنه بينما كان الرجل ينام وحده ذات مرة ، لمس الشيطان صدره ، فبرزت عظمة من بين ضلوعه ، وحينما سقطت على الأرض أخذت تنمو ، وصارت المرأة الأولى •

وهنا نلاحظ أن التتار قد عمقوا نغمة السخرية عند كاتب سفر التكوين حينما جعلوا للشيطان يدا فى خلق أمنا الأولى • ولنعد مرة أخرى الى أقاليم المحيط الهادى

ويروى سكان « جزر بيليو » [1] أن أخا وأخته صنعا رجالا من طين عجن بدماء صنوف من الحيوان ، وأن شخصيات هؤلاء الرجال الأولين ونسلهم تحددت وفقا لخصائص صنوف الحيوان التى مزجت دماؤها بالطين الأصلى ، فالرجال الذين امتزج طينهم بدم الفيران أصبحوا لصوصا ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الثعابين اتصفوا بالغدر ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الديوك اتصفوا بالشجاعة • ووفقا لأسطورة مالينيزية تروى فى جزيرة « موتا » احدى « جزر البانك » [2] أن البطل « كات » خلق الرجال من الطين ، وعلى وجه

---

(١) جزر « بالاو » أو « بيليو » وهى مجموعة جزر فى المحيط الباسفيكى وتبعد عن الفيليبين بحوالى ٥٥٠ ميلا .

(المترجمة)

(٢) « جزر البانك » وهى مجموعة من الجزر الصغيرة ويبلغ عددها خمسا وتقع فى الجنوب الغربى من المحيط الباسفيكى . وأهم هذه الجزر فانوا ولافا وموتا ونجاوة . (المترجمة)

للتحديد من الطين الأحمر ،الذى أخذه من شواطىء النهر التى تكثر فيها المستنقعات عند « فانوا لافا » • وقد صنع « كات » فى بادىء الأمر الرجال والخنازير متشابهين ، ولكن اخوته ثاروا ضده لهذا السبب، فضرب الخنازير وجعلها تسير على أربع ، فى حين جعل الرجل يسير على قدميه فحسب • أما المرأة الأولى فقد صنعها « كات » من غصن لدن ، فلما ابتسمت عرف أن الحياة قد دبت فيها • وقد أطلق أهالى « ماليكولا » احدى جزر الهبريد الجديدة [1] ، اسم « بوكور » على الخالق الكبير الذى خلق أول رجل وامرأة من الطين ••

ويروى سكان اقليم نو ــ هو ــ روا ، الذى يقع فى جزر « كاى »[2] أن الاله الأعلى « دوادليرا » خلق أجدادهم من الطين ، بعد أن نفخ فى أجسادهم الطينية أنفاس الحياة • ووفقا للتورادجيين ، سكان « سيلبس الوسطى » [3] ، الذين يتحدثون اللغة البارئية ، أنه لم يكن هناك فى البداية أى كائن حى على وجه الأرض ، ثم قرر « اى لاى » ، اله العالم العلوى ، و « اى ندارا » الهة العالم السفلى ، أن يخلقا البشر ، فأسندا هذا العمل الى « اى كومبينجى » الذى صنع نموذجين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة من الحجر وفقا لأحد الآراء ، أو من الخشب وفقا لرأى آخر • بعد أن أتم « اى كومبينجى » عمله ، أوقف النموذجين على جانب الطريق الذى يوصل العالم العلوى بالعالم السفلى ، حتى يتسنى للأرواح العابرة أن ترى صنعه وتحكم عليه • وفى المساء اجتمعت الآلهة لتتداول الرأى حول خلق النموذجين ، واتفقوا على أن سمانة ساق كل من الرجل والمرأة ليست مستديرة استدارة كافية • وعندئذ صنع « اى كومبينجى » نموذجين آخرين وعرضهما

---

(١) مجموعة جزر تقع فى المحيط الهادى وسكانها الأصليون من الميلانيزيين . (المترجمة)

(٢) مجموعة جزر اندونيسية واكبرها جزيرة « توهو ــ شوت » . (المترجمة)

(٣) احدى الجزر الأندونيسية الكبرى . (المترجمة)

على الآلهة لتبدى رأيها فيهما ، فلاحظت الآلهة هذه المرة أن البطن فى كلا النموذجين منتفخة الى حـد كبير • ولهذا صـنع « اى كومبينجى » للمرة الثالثة نموذجين رضيت عنهما الآلهة بعـد أن أحـدث تعديلات طفيفة من الناحية التشريحية ، وذلك بأن قام بنقـل جزء من جسـم الذكر الى المرأة • ولم يبق بعد ذلك سوى أن تدب الحياة فى النموذجين• وعندئذ صـعد الاله « لاى » الى مسكنه فى السماء لكى يحضر النفس الأبدى لكل من الرجل والمرأة • ولكنه ـ فى أثناء هـذا ـ ترك الريح ، اما نتيجة غفلة منه ، أو لأنه كان فى عجلة من أمره ، تهب على النموذجين ، حاملة معها الأنفاس والحيـاة اليهما ، فاستنشقهما النموذجان بدورهما • وهـذا هو السبب فى أن نفس الانسان يعود الى الريح عندما يموت • ويروى « الدياكيون » [1] ، الذين يسـكنون « ساكاران » فى جزيرة بورنيو التابعة للاحتلال البريطانى ، ان أول رجل على وجه الأرض خلقه طائران كبيران • وقد حاول هذان الطائران أن يخلقـا البشر من الشجر فى بادىء الأمر ، ولكن دون جـدوى ، فنحتوا أشـكالهم من الصخور ولكنها كانت خرساء • عنـدئذ شكلا رجلا من الطين ، ودفعا فى عروقه صمغ شجرة الكومبانج الأحمـر ، وناداياه فرد عليهما ، فلما جرحاه تدفق الدم من جروحه • عندئذ أطلقا عليه اسم « تانا كومبوك » أى « الطين المشـكل » • على أن بعض « الدياكيين » يرون حـكاية أخرى مخالفة لهذه الحـكاية ، فهم يعتقدون أن الهـا بعينه اسـمه « سالا مباندیا » هو الذى قام بخلق البشر ، اذ أخـذ يشـكل الطين بمطرقته حتى سوى أجساد الأطفال الذين كان مقدرا لهم أن يولدوا فى الحيـاة • وعندما يسمع الدياكيون صـوت حشرة عنـدهم تحدث صلصلة غريبة فى الليل فانهم يقولون : انه صوت مطرقة « سلامباندیا » وهو يقـوم بعمله • ثم تسـتمر القصـة فتحـكى أن الآلهة أمرت « سلامباندیا » أن يصـنع رجلا ، فصنعه من الحجر • ولكن التمثال

---

(١) هم سكان جزر الملايو الأصليون . وتعد « بورنيو » من اكبر جزر الملايـو .
(المترجمة)

كان أخرس ، ولذلك فقد رفضته الآلهة كما رفضت التمثال الأول • وفى المرة الثالثة صنع سلامباندیا رجلا من الطين كانت له القدرة على الكلام ، فسرت به الآلهة وقالت له : « ان الرجل الذى صنعته يبشر بالخير ، فلتجعل منه جدا للجنس البشرى ، وعليك أن تصنع أشكالا مثله » • عندئذ بدأ « سلامبفانديا » فى صنع النماذج البشرية — وهو مازال يقوم بصنعها مستعينا بسندانه وآلاته — فى مناطق مجهولة • فهو هناك يشكل الطين فى شكل أطفال ، وكلما فرغ من صنع أحدهم أحضره الى الآلهة ، فتوجه اليه الآلهة هذا السؤال : « ما الشىء الذى تود أن تمسك به وتستعمله ؟ » فاذا هو أجاب بقوله : « السيف » نادت به الآلهة ذكرا ، أما اذا أجاب بقوله : « القطن ودولاب الغزل » ، نادت به أنثى • ومعنى هذا أن الأطفال قد ولدوا ذكورا أو اناثا وفقا لرغبتهم ••

ويحفظ أهالى « نياس » ، وهى جزيرة تقع فى الجنوب الغربى من سومطرة ، قصيدة طويلة تصف قصة الخلق ، وينشدونها عندما يرقصون فى أثناء الاحتفال الجنائزى لوفاة أحد زعمائهم • وفى هذه القصيدة — المؤلفة على نظام المزدوجات مثل نظام الشعر العبرى ، حيث يعيد جزؤها الثانى فكرة الجزء الأول بعبارات أخرى مختلفة بعض الشىء — نقرأ أن الاله الأعلى « ليوزاهو » عندما كان يستحم فى نبع سماوى ، انعكست صورته فى مياهه الصافية كالمرآة ، فلما أبصر صورته فى الماء ، أخذ حفنة من التراب فى حجم البيضة وشكلها فى صورة تشبه صور الأجداد ، تلك التى كان أهالى « نياس » يصنعونها • وحين فرغ من ذلك وضع هذا التمثال فى كفة ميزان ووزنه ، ثم وزن الريح كذلك ، ووضعها بعد وزنها على شفتى التمثال الذى صنعه • عند ذلك تحدث التمثال على نحو ما يتحدث الرجل أو على نحو ما يتحدث الطفل ، وأطلق عليه الاله اسم « سيهاى » • وعلى الرغم من أن « سيهاى » كان يشبه الاله فى شكله فانه لم يعقب ذرية • وقد كانت الدنيا آنذاك مظلمة ، اذ لم تكن الشمس ولا القمر

قد خلقا بعـــد ، فتدبر الاله الأمر وأرسل « سيهاى » الى الأرض ، ليعيش فى بيت شـــيد من أشجار السرخس • ولكن « سيهاى » توفى ظهر يوم ، قبـــل أن يرزقه الله بزوجة أو ولـــد ، ولكن شـــجرتين نبتتا من فمه ، وأينعتا وأزهرتا ، وهز الريح الزهر فتساقط على الأرض ، ومن هـــذا الزهر نشأت الأمراض • ثم نبتت من حنجرة « سيهاى » شجرة كان يستخلص منها الذهب ، كما نبتت من قلبه شـــجرة أخرى ينتسب اليها الرجال • وفضـــلا على ذلك فقد بزغت الشمس من عينيه اليمنى وبزغ القمر من عينه اليسرى • وفى هـــذه الأسطورة نلاحظ أن فـــكرة خلق الانسان فى صورة الاله تراءت للخالق بعد أن رأى صورته منعكسة على صفحة النبع الصافى •

وتحكى قبيلة « بيـــلا ــ آن » البدائية ، وهى قبيلة من قبـــائل « منداناو » ، احدى جزر الفيلبين ، قصـــة خلق الانسان الأول كما يلى : كان هناك فى بداية الحياة كائن بعينه يدعى « ميلو » ، وكان ضـــخما للغاية ، الى درجـــة لا يمكن مقارنته بشىء معلوم لدينا • وكان هـــذا الكائن أبيض اللون ، ذا أسنان ذهبيـــة ، وكان يجلس فوق الســـحب فيشغل كل أجواز السماء • وحيث انه كان بطبعه نظيفا للغاية فقـــد كان دائم التدليل لنفسه حتى يحتفظ ببياض جلده نقيـــا • وكان يلقى بجانبه القشور التى يزيلها من جسمه ، حتى تجمعت منها كومة أزعجه منظرها ، فخلق منها الأرض لكى يتخلص منها • ولـــا سر بعمله هذا قرر أن يصنع شكلين يشبهانه ولكن دونه حجما • وقد شكلهما مطابقين له كل المطابقة ، وذلك من القشور التى سبق له أن خلق منها الأرض • وقد كان هـــذان الشـــكلان أول مخلوقين بشريين • وبينما كان هذا الخالق يقوم بعمله ، فأتم صنع أحـــد النموذجين فيما عـــدا أنفه ، كما أتم صنع النموذج الثانى فيمـــا عـــدا أنفه وجزءا آخر منه ، جـــاءه « تاو دالوم تانا » وطلب منه أن يسمح له بأن يصـــنع أنفى الشكلين • وبعـــد جـــدل عنيف بينه وبين الخالق حول هـــذا الموضـــوع انتهى « تاو دالوم تانا » الى صنع الأنفين • ولكنه حينما شاء أن يركبهمـــا

على وجهى أول أبوين فانه وضعهما على نحو معكوس • ومرة أخرى دب الخلاف العنيف بين الخالق ومساعده حول تركيب الأنفين الى درجة أن الخالق نفسه نسى كلية أن يكمل الجزء الباقى من الشـــكل الثانى ، وصـــعد الى مكانه فوق السحاب ، تاركا نموذج الرجل الأول أو المرأة الأولى (فالقصـــة لم تحـــدد النوع) ناقصـــا ، كما هبط « تاو دالوم تانا » الى عالمه السفلى • ثم أخـــذت أمطار غريزة تهطل بعد ذلك ، الى درجة أن كاد يهلك أول مخلوقين بشريين ، لأن الميـــاه أخـــذت تتدفق على قمة رأسيهما متخللة أنفيهما المعـــكوسين • ولحسن الحظ أبصر الخالق النموذجين فى هذا الموقف الحرج ، فخف لنجدتهما وخلع أنفيهما وأعادهما الى وضعها الطبيعى ••

وتحكى قبيلة « الباجوبوس » ؛ وهى قبيلة وثنية تقطن جنـــوب شرق « مينداناو » أن خالقا بعينـــه يدعى « ديواتا » قد خلق فى بداية الحيـــاة البحر والأرض وغرس أشـــجارا مختلفة الأنواع ، ثم أخـــذ حفنتين من تراب وشكلهما فى هيئة شكلين آدميين ، ثم بصـــق عليهما فتحولا الى رجـــل وامرأة • أما الرجل الشـــيخ فسمى « توجلاى » ، وأما المرأة العجوز فسميت « توجليينج » • ثم تزوجا ، وابتنى الرجل بيتـــا عظيما وزرع أنواعا أنواعا متعـــددة من الحبـــوب التى كانت المرأة قـــد قدمتها اليه •

وقد حكى « الكوميون » الذى يسكنون بقاعا من « أراكان » وتلال « وتشيتاجونج » فى الهنـــد الشرقية ، حكوا للكابتن « لوين » الحكاية التالية عن خلق الانسان ، التى تقول : ان الله خلق العالم والأشـــجار والحيوانات الزاحفة فى بادىء الأمر ، وبعد ذلك شـــكل رجلا واحـــدا وامرأة واحـــدة من الطين • على أن حيـــة كانت تتسلل فى كل ليلة ، بعد أن يفرغ الاله من عمله ويخلد للنـــوم ، وتبتلع النموذجين اللذين صنعهما الاله • وتكرر حدوث هـــذا مرتين أو ثلاثا ، حتى كاد الاله أن يفقـــد صوابه ، اذ كان عليه أن يعمل طوال اليوم ، ولم يكن فى وسعه

أن يتم صـــنع النموذجين فى أقل من أثنتى عشرة ساعة • واذا هو لم يسترح بعـــد تعب النهار « فان حالته تســوء » — على حـــد تعبير القصاص القومى — ولهذا فقد كاد الاله أن يفقد صوابه كما ذكرت ، ولكنه فى نهاية الأمر استيقظ مبكرا ذات فصباح ، وشـــكل نموذجا لكلب وبث فيه الحيـــاة ، وعينـــه حارســـا على النموذجين الآدميين • فلما تســـللت الحية اليهما نبـــح الكلب فهربت الحيـــة فزعا • وهـــذا هو السبب فى أن الكلاب تأخذ فى النباح عندما يحتضر الانسان • على أن « الكوميين » يعتقدون أن الاله فى هـــذه الأيام يغط فى نوم عميق ، أو أن الحية صارت أشجع مما مضى ، وذلك لأن الناس يموتون على الرغم من نباح الكلاب • ولو لم ينم الاله لمـــا كان هنـــاك مرض أو موت ، فالحية لا تأتى وتنتزعنا إلاّ فى أثنـــاء الفترة التى ينـــام فيها الإله • وشبيه بهـــذه الحـــكاية حكاية يرويها الخاسيون « سكان أسام » • فهم يقولون : ان الله خلق الرجل فى بادىء الأمر ووضعه على الأرض ، وعندما عاد ليعيـــد النظر فيما صنعه يداه وجـــد أن الروح الشريرة قد حطمت الرجل ، فلما حـــدث هـــذا مرة أخرى خلق الاله الكلب أولا والرجل ثانيا ، فسهر الكلب على حراسة الرجل ، ومنع الروح الشريرة من أن تصيبه بأذى • وبهـــذا أبقى على عمل الاله •

وقد برزت هـــذه الحـــكاية نفســـها ملونة بمســـحة طفيفة من الميثولوجيا الهنـــدوكية عنـــد قبيلة « كوركوس » ، وهى قبيلة عريقة تقطن الأقاليم الوسطى فى الهند • وخلاصة هذه الحكاية أن « راوان » ، ملك « ســـيلان » الشيطان ، لاحظ أن سلســـلة جبـــال « فندهيان » و « ساتبورا » غير مأهولة ، فتضرع الى الاله الكبير « ماهاديو » أن يعمرها بالسكان • عنـــدئذ أرســـل « ماهاديو » ، الذى يعنـــون به « سيفا » ، غرابا لكى يبحث له عن كثيب الرمال ذى التربة الحمراء ، فعثر الطـــائر على هـــذا الكثيب بين جبال « بيتول » • عندئذ رحـــل الاله الى هـــذا المكان ، وأخـــذ حفنة من التربة الحمراء وصـــنع منها تمثالين لرجل ومرأة • ولم يكد الاله يفعل هـــذا حتى بزغ حصانان

ناريان من الأرض ، أرسلهما « اندرا » ، فأحالا التمثالين الى تراب • وعاود الاله المحـاولة فى يومين متتاليين ، ولكن تماثيله كانت تتحطـم بمجرد فراغه من عملها • وأخيرا صـنع الاله تمثالا لكلب ونفث فيه أنفاس الحيـاة ، فاستطاع الكلب أن يبعد حصانى « اندرا » الناريين عن التمثالين • ومن ثم تمكن الاله من أن يصـنع تمثالى الرجل والمرأة دون ازعاج ، ومنحهما الحيـاة وسماهما « مـولا » و « مولاى » • وقد أصبح هذا الرجل وهذه المرأة الأبوين الأولين لقبيلة «كروكوس » •

ويروى عن قبيلـة « موندا » ، وهى قبيلة بدائيـة قـديمة فى « شوتانجبور » ، حكاية شبيهة بالحـكاية السابقة مع بعض الاختلاف المثير ، تقول : ان اله الشمس الذى يدعى « سنجبونجا » قـد شـكل تمثالين من الطين : أحدهما فى صورة رجل ، والآخر فى صـورة أمرأة ، ولكنه قبـل أن يمنحهما الحيـاة داسهما الحصـان بحوافره ، ناظرا بعين المستقبل الى ما يمكن أن يلقاه منهما من متاعب • وقد كان للحصان فى تلك الأيام أجنحة ، وكان فى وسعه أن يركض أسرع منه فى هـذه الأيام • ولمـا رأى اله الشمس أن الحصـان قد حطم تماثيله خلـق حشرة العنكبوت أولا ، ثم عاد فشـكل تمثالين آخرين شبيهين بالتمثالين اللذين داسهما الحصـان بحوافزه ، وأمر العنـكبوت بأن يحرسهما ، فنسج العنكبوت خيوطه حول التمثالين بطريقة لم تمكن الحصـان من أن يدوس التمثالين مرة أخرى بحوافزه • وبعد ذلك تمكن اله الشمس من أن ينفث الحيـاة فى التمثالين اللذين أصبحا أول بشرين على وجـه الأرض ••

ويحكى « الشيريميون » فى روسيا ، وهم قوم من أصـل فنلندى ، حكاية عن خلق الانسان تذكرنا بحوادث فى أساطير الهنود و «التورادجيين» عن الخلق • فهم يرون أن الاله شكل جسم الانسـان من الطين ، ثم صـعد الى السماء ليحضر الروح الذى يحيى به الانسان ، بعـد أن ترك الكلب يحرس التمثال فى غيابه • ولكنه ما أن تجاوز مكان التمثال ،

حتى اقترب الشيطان من التمثال وأثار ريحا باردا على الكلب ، واستطاع أن يرشوه برداء من الفرو كي يتنحى عن حراسة التمثال • وبعد ذلك بصـــق الشيطان على التمثال فلوثه بطريقة غاية فى القذارة ، الى درجة أن الاله عنـــدما أبصر ذلك ، لم يتمكن من تنظيفه ، ووجـــد نفســـه مضطرا لأن يقلب التمثال ظهرا لبطن • وهـــذا هو السبب فى أن باطن الانسان قد أصبح قذرا كل القذارة • وفى ذات اليوم نفسه صـــب الاله اللعنة على الكلب جزاء اهماله الذى استحق عليه العقاب •

فاذا انتقلنا الى أفريقيا فاننا نجـــد أن أسطورة خلق الانسان من الطـــين تنتشر بين قبـــائل الشـــلوك التى تســـكن اقليـــم النيـــل الأبيض • وتفسر أساطيرهم بطريقة بارعة اختلاف ألوان بشرة الأجناس البشرية المختلفة باختلاف ألوان الطين الذى خلقت منه • فيروى فى حكاياتهم أن الخالق « جووك » شـــكل الناس جميعا من التراب • وأنه كان يتجـــول فى أنحـــاء العالم ، فى أثنـــاء قيامه بعمله • ففى بلاد الأجناس البيضـــاء عثر على تراب أو رمل أبيض نقى ، فشـــكل منه الناس ذوى البشرة البيضاء •• ثم وفد على أرض مصر ، فشـــكل من طمى النيل أناسا ذوى بشرة حمراء أو بنية •• وأخيرا وصـــل الى أرض الشلوك ، ووجـــد بها تربة ســـوداء ، فشـــكل منهـــا النـــاس ذوى البشرة السوداء •

وقد اتبع الاله « جووك » الطريقة الآتية فى تشـــكيل النموذج الانسانى : كان يأخـــذ حفنة من التراب ويقول لنفسه : سأشـــكل نموذجا للانسان بشرط أن يكون قادرا على السير والجرى والخروج الى الحقول ، ولهـــذا سأمنحه رجلين طويلتين كرجلى طائر « البشروش » فلما فرغ من صنع الرجلين قال لنفسه مرة أخرى : « ولا بد أن يكون هـــذا الانسان قادرا على أن يزرع الذرة ، ولهذا فسأمنحه ذراعين : ذراعا تحمل الفأس ، وأخرى تنتزع العشب الضـــار بالزرع » • ومن ثم صنع له ذراعين • ثم تدبر الأمر مرة ثالثة وقال : « ولا بد لهـــذا

الانسان أن يرى النبات ، ولهـذا فسأمنحه عينين » • وركب له عينين فى وجهه • ثم قال بعد ذلك : « ولا بد أن يكون قادرا على أكل مالديه من ذرة ، ولهذا فسأمنحه فما » • ومنحه الفم • ثم تدبر الأمر وقال : « ولا بد أن يكون الرجل قادرا على الكلام والرقص والغناء والصراخ ولكى يستطيع أن يفعل كل هذا فهو فى حاجة الى لسان » • ثم ركب له لسانا • وأخيرا قال لنفسه : « ثم لابد أن يكون الانسان قادرا على سماع ضجيج الرقص ، وحديث العظماء من الرجال ، ولهـذا فهو فى حاجة الى أذنين » • ثم ركب له أذنين وبعث به على هـذا النحو انسانا كاملا الى الحيـاة • ويحـكى « الفانيون » الذين يسـكنون فى غرب أفريقيـا ، أن الله خلق الانسان فى بادىء الأمر على شـكل سحلية من الطين ، ثم وضعه فى حوض به ماء مدة سبعة أيام • وفى نهاية اليـوم السابع صاح به وقال له : « اصـعد من المـاء » • فبرز من المـاء شكل فى هيئة رجل لا فى هيئـة سحلية • وتعتقـد القبائل التى تسكن « توجولاند » فى غرب أفريقيا ، وتتحدث لغة قبائل « ايوى » [1] ، ان الله مازال حتى اليوم يشـكل الناس من الطين ، فاذا تبقى قليـل من المـاء الذى يبلل به التراب ، سـكبه على الأرض ، وخلق منـه الأشرار والعصاة من الناس • فهو حينما يود أن يخلق انسانا صالحا ، فانه يشكله من طين جيـد ، أما عندما يود أن يخلق انسانا شريرا ، فانه يشكله من الطين الردىء • وقد شـكل الاله الرجل فى بداية الأمر ، وأوقفه على الأرض ، ثم شـكل المرأة من بعـده • فنظر الرجل والمرأة أحدهما الى الآخر ، وشرعا يضحكان ، فبعث الاله بهما أثر ذلك الى الحيـاة •

وكذلك يروى « الاسكيمو » والهنود الذين يسـكنون فيما بين

---

(١) « ايوى » مجموعة من القبائل التى تنتمى الى الزنوج السودانيين وتقطن فى جنوب « تونجو » و « داهومى » . وهى تكون منذ عـام ١٩٥٧ العنصر السـائد فى جمهورية « تنجو » . (المترجمة)

ألاسكا وبراجواى فى أمريكا أسطورة خلق الإنسان من الطين • فالاسكيمو الذين يسكنون فى « بوينت بارو » فى ألاسكا يقولون انه مضى زمن على الوجود لم يكن فيه رجل على وجه الأرض ، واستمر الأمر كذلك الى أن جاء روح بعينه اسمه « آسى لو » فأقام فى « بوينت بارو » ، وشكل رجلا من الطين ، ثم وضعه على الشاطىء ليجف ثم نفخ فيه أنفاسه ومنحه الحياة • ويحكى قوم آخرون من اسكيمو ألاسكا أن الغراب شكل أول امرأة من الطين لكى تكون رفيقا لأول رجل ، ثم ألصق فى مؤخر رأسها عشبا مائيا لكى يكون لها شعرا ، ثم نشر جناحيه على التمثال الطينى فانتصب امرأة شابة جميلة • وقد حكى الهنود « الاكاجشميم » فى كاليفورنيا ان كائنا مهولا كان يدعى « شينجشنيش » خلق الانسان من الطين الذى وجده على شواطىء احدى البحيرات • وقد قام بخلق الرجل والمرأة من الطين ، وعنهما تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم فى تلك البقاع •

وقد قامت شخصية غامضة تدعى « العارف بالأرض » بخلق أول رجل وامرأة وذلك رفقا لرواية الهنود « المايدو » الذين يسكنون كاليفورنيا وقد هبطت هذه الشخصية من السماء عن طريق حبل مصنوع من الريش ، وكان جسمه يشرق كالشمس وان كان قد أخفى وجهه فلم يره أحد قط • وفى عصر أحد الأيام أخذت هذه الشخصية كمية من التراب الأحمر الداكن ومزجتها بالماء ، وصنعت منها شكلين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة • وعندما عادت هذه الشخصية الى مسكنها العلوى وضعت الرجل عند جانبها الأيمن ، والمرأة عند جانبها الأيسر ، ورقدت بينهما ، وأخذ العرق يتصبب منها طوال عصر هذا اليوم وفى أثناء الليل • وفى الصباح الباكر أخذت المرأة تدغدغ جنبها ، ولكنها ظلت ساكنة ولم تستسلم للضحك • ثم نهضت بعد قليل وغرست قطعة من الخشب مطلية بالقار فى الأرض ، فاندلعت النار فى الحال • وقد كان الزوجان المخلوقان ناصعى البياض ، وليس فى الناس اليوم من يماثلهما فى نصاعتهما • وكذلك كانت عيونهما

وردية وشعرهما أسود وأسنانهما براقة ، كما كانا غاية فى الوسامة • وقد قيل : ان « العارف بالأرض » لم يصنع لشكليه أياد ، لأنه لم يهتد الى الطريقة المثلى فى تشكيلهما •

ثم أبصر « الكويوت » ، أو ذئب انبرارى الذى يقوم بدور كبير فى أساطير الهنود الغربيين ، أبصر التمثالين فيما بعد ، ورأى ضرورة خلق أياد لهما مثل يديه • ولكن « العارف بالأرض » رد عليه قائلا : « لا ، بل ان أيديهما ستكون مثل يدي » • ومن ثم أكمل صنع الزوجين • فلما سأله « الكويوت » عن سبب صنعه الأيادى على هذا النحو أجاب : « حتى اذا طاردتهما الدببة استطاعا أن يتسلقا الأشجار » • وقد سمى أول رجل « كوكسو » ، كما سميت أول أمرأة « المرأة نجمة الصباح » •

ويروى الهنود « الديجونيو » أو — كما يسمون أنفسهم — « الكواكيبايس » وهم الهنود الذين يسكنون الركن الجنوبى الغربى الأقصى من ولاية كاليفورنيا ، يرون أسطورة يفسرون بها كيف خلق العالم والجنس البشرى على نحو ما هما عليه الآن • فهم يقولون انه لم يكن هناك فى بادىء الأمر تراب أو أرض صلبة ، أو أى شىء آخر سوى المياه الملحة التى كانت تملأ محيطا واحدا قديم العهد شاسعا • وقد كان يسكن تحت سطح الماء أخوان يدعى أكبرهما « تشايباكومات » ، وكان كلاهما يعيش بعينين مغمضتين ، لأنهما ان لم يفعلا ذلك أصابتهما المياه الملحة بالعمى • وبعد مرور وقت خرج الأخ الأكبر الى سطح المحيط فلم يستطع أن يبصر شيئا سوى الماء • ثم اتخذ الأخ الأصغر طريقه الى السطح كذلك ، ولكنه فتح عينيه فى غير حذر فى أثناء صعوده ، فأصيب بالعمى ، فلما وصل الى السطح لم يبصر شيئا • ومن ثم فقد هبط ثانيا الى قاع المحيط • ولما وجد الأخ الأكبر نفسه وحيدا على سطح الماء وشرع فى خلق تراب صالح للسكنى عليه من مهملات المحيط ، فخلق فى أول الأمر نملا أحمر صغيرا غطى

المياه بأجسامه الدقيقة حتى تحول سطح المياه الى جسم صلب •
وقد كان الكون حتى ذلك الوقت مظلما ، اذ لم تكن الشمس ولا القمر قد خلقا بعد ، فلما خلق « تشابياكومات » بعد ذلك طيورا معينة سوداء مفلطحة المناقير حدث أنها ضلت طريقها فى الظلام ولم تجد لها مستقرا • وبعد ذلك أخذ « تشابياكومات » ثلاثة أنواع من الطين : أحمر وأصفر وأسود ، وصنع منها شيئا مستديرا مسطحا أمسكه فى يده وقذف به نحو السماء فالتصق بها ، وأخذ ينبعث منه ضوء خافت تكون منه القمر بعد ذلك • ولكن « تشابياكومات » لم يقنع بهذا الضوء الخافت الذى ينبعث من هذا النجم الشاحب ، فأخذ مزيدا من الطين وشكله على هيئة قرص آخر مستدير ومسطح ، وقذف به نحو السماء ، فى الجانب الآخر منها ، فالتصق بها ، وأصبح هو الشمس التى تضىء الكون بأشعتها • وبعد ذلك أخذ « تشابياكومات » قطعة من الطين ذات لون فاتح وشطرها شطرين ، وشكل منها الرجل • ثم أخذ ضلعا من الرجل وشكل منه المرأة التى أطلق عليها اسم « سينى أكساو » ، ومعناه المرأة الأولى • وكلمة « سينى » تعنى المرأة ، وكلمة « أكساو » تعنى الأولى • وقد تناسلت البشرية من هذين الشكلين اللذين شكلهما هذا الخالق من الطين ••

وعلى هذا النحو يعتقد الهنود « الهوبى » أو « الموكو » الذين يسكنون أريزونا أنه لم يكن فى بداية الحياة سوى الماء يعم كل البقاع ، وأن الهين — وربما كانتا الهتين — كلتاهما كانت تدعى « هوروينج وهتى » كانتا تعيشان فى بيتين يقعان فى المحيط ، أحدهما يقع فى الشرق والآخر فى الغرب • وقد استطاعت هاتان الالهتان بجهودهما أن تجعلا الأرض الصلبة تظهر وسط المياه • على أن الشمس لاحظت ، فى أثناء مرورها يوميا فوق الأرض الجديدة ، أنه ليس هناك كائن حى من أى نوع يعيش على هذه الأرض ، فلفتت نظر الالهتين الى هذا العيب الجوهرى • وبناء على ذلك اجتمعت الآلهتان للتشاور فى هذا الأمر ، واتخذت الالهة التى تسكن شرقا من

قوس قزح جسرا عبرت عليه الى اختها التى تسكن غربا • وبعـد أن تشاورتا معا قررتا أن تخلقـا طائرا صغيرا ، فشـكلت الهة الشرق طائرا صغيرا للغاية ثم أخذتا معا تتلوان عليه التعاويذ ، فدبت الحياة فى الطائر على الأثر • وعند ذاك أطلقت الالهتان الطائر ليطوف فى أرجاء العالم ليرى ما اذا كان هناك على وجه الأرض أى كائن حى ، فلما عاد الطائر أخبرهما بأنه لم يرأثرا لأى كائن حى • وعند ذاك خلقت الالهتان بنفس الطريقة أنواعا مختلفة من الطيـور ، وبعثتا بها الى الأرض لكى تعمرها • وفى نهاية الأمر استقر رأى الالهتين على أن تخلقا الانسان ، فأخـذت الهة الشرق قطعة من الطين وشكلت المرأة أولا ثم الرجل بعد ذلك ، وبثت الالهتان الحيـاة فى الرجـل والمرأة على نحـو ما فعلتا مع الطيـور والوحوش •

ويزعم الهنود « البيما » الذين يسكنون فى أريزونا أن الخالق أخذ قطعة من الطين فى يده ثم مزجها بعرق جسده وصـنع من هـذا المزيج كتلة من العجين ، ثم راح ينفخ فيها حتى دبت فيها الحيـاة ، وأخذت تتحرك ، وتحولت الى رجل وامرأة • وقد قال أحـد كهنـة الهنـود « الناقشـيز » الذين يسـكنون « لويزيانا » ــ قال لـ « دوبراتز » « ان الاله عجن قطعة من الطين الذى يشبه ما يستعمله صـانع الخزف فى صـنع الأوانى الخزفية ، وشـكل منه تمثالا صغيرا لرجل • وبعد أن تفحصه ووجـد شكله لائقا نفخ فيه فدبت الحيـاة فى التمثال ، وأخـذ الرجل يكبر ، كما أخـذ يسير ويسلك مسلك البشر • ثم نظر هـذا الرجل الى نفسه فوجـد نفسه مصـورا أحسن تصـوير » • أما بالنسبة للطريقة التى خلقت بهـا المرأة فقد أقر الكاهن لـ « دوبراتز » صراحة بأنه لا يعرف شيئا عن هـذا الموضـوع ، فتراث قبيلته القديم لم يذكر شيئا عن الفرق بين الجنسين فى طريقة خلقهما • وهو يعتقـد كذلك أن الرجل والمرأة قد خلقا بطريقة واحـدة •

وقد روى « المتشواكان » وهم من سكان المكسيك أن الاله الكبير

« توكاباشا » شـكل الرجل والمرأة في بادىء الأمر من الطين ، ولكن عندما نزل الزوجان الى النهر ليستحما امتص الطين المـاء وتفتت • ولكى يتفادى الاله هـذا العيب فقد شكل التمثالين مرة أخرى من الرماد ، ولكن النتيجة لم تكن سارة فى هـذه المرة كذلك • وأخيرا فقـد قـام بتشكيلهما من المعـدن حتى يتجنب الاخفاق للمرة الثالثة • وقد كان عمله محمودا هـذه المرة ، اذ أنه أحـكم صنعهما بحيث لم تعد الميـاه تتسرب اليهما ، فلما نزلا الى المـاء لكى يستحما لم يتعرض جسماهما للتفتت • ومن هذين الزوجين تناسلت السلالات البشرية • وقد حـكى هنود « بيرو » لقس أسبانى من « كوزكو » أسطورة ، مؤداها أن الجنس البشرى عاد الى الظهور مرة أخرى فى « تياهوانكو » بعـد أن قضى الطوفان عليه جميعا ، فيما عـدا رجل وامرأة • فهناك فى « تياهوانكو » التى تبعـد حوالى سبعين فرسخا عن « كوزكو » بعث الخالق الناس والشعوب التى هلكت فى تلك البقاع بأن شـكل أفراد كل أمـة من الطين ، ولون رداء كل فرد باللون الذى يميزه عن أردية الأمم الأخرى • واذا كان الفرد ينتمى الى أمة كان أفرادها يسدلون شعورهم ، خلق له شعرا مسدلا ، وأما اذا كانت أمته تحلق شعورها ، فانه كان يخلقه بشعر قصير • كما أنه جعل كل أمة تتحـدث اللغة التى كانت تتحـدث بها ، وتغنى الأغانى التى كانت تتغنى بها ، ومنح كلا منها الحبـوب والأطعمة الخاصة بها • ولمـا فرغ الخالق من تشكيل شـخوص كل أمة ، وتلوين ملابسها ، بث الحيـاة فى هـذه الأشكال ، الذكور منهـا والاناث ، وأمرهم أن يسيروا تحت الأرض ، ثم صـعدت كل أمة من المكان الذى أمرها الله أن تصـعد منه » • ويعتقـد الهنود « الليبنجوا » الذين يسكنون « براجواى » أن الخالق كان فى شـكل خنفساء يسكن جحرا فى الأرض ، وأنه شـكل الرجل والمرأة من الطين الذى كان يطوح من مسكنه تحت الأرض •

وقد كان الزوجان ملتصقين فى بادىء الأمر « مثل التوأم السيامى » • وفى هـذه الصورة الشاذة بعث بهما الخالق الى العالم الأرضى ، حيث تنازعا ــ وهما على هـذه الصورة غير الملائمة ــ مع جنس من الكائنات

القوية التى كان الخالق قد خلقها من قبل • وعند ذاك توسل الزوجان الى الخالق الخنفساء أن يفصل أحدهما عن الآخو ، فاستجاب لمطلبهما ، ومنحهما القــدرة على التكاثر ، ومن ثم أصبحا الأبوين الأولين للجنس البشرى • أما الخالق الخنفساء فقد كف ، بعد أن خلق الكون ، عن أن يقوم بعــد ذلك بأى عمل ايجابى فيه ، كما لم يعد يهتم لشىء فيه • وتذكرنا هــذه الرواية بحــكاية أرستوفان الخيــالية فى « محاورات أفلاطون » تلك الحــكاية التى يحكى فيها أرستوفان عن الشكل الأصلى للجنس البشرى ، وكيف أن المرأة والرجــل قــد خلقا فى بداية الأمر ملتحمين فى شــكل واحــد مركب له رأسان وأربع أذرع وأربع أرجل ، حتى جــاء زيوس فشقهما من النصــف ، وفصــل الجنسين أحــدهما عن الآخر » •

ومن الجدير بالملاحظة أن عددا من الحكايات السالفة الذكر تتفق جميعا فى أن الطين الذى شــكل منه أول أبوين كان أحمر اللون ومن المحتمل أن اللون الأحمر يقصــد به تفسير لون الدم • وعلى الرغم من أن الكاتب اليهودى قد أغفل ، فى حــكايته فى سفر التكوين ، ذكر لون الطين الذى استخدمه الله فى خلق آدم ، فاننا نحدس ، ولعلنا لا نكون متعجلين فى حدسنا ، أن الطين الذى استخدم فى هــذه المناسبة كذلك كان لونه أحمر • فالكلمة العبرية التى تطلق على الرجل فى العموم هى « آدم » ، والكلمة التى تطلق على الأرض هى « أدمة » ، كما أن الكلمة التى تطلق على اللون الأحمر هى « أدوم » • وبذلك نصــل عن طريق التسلسل الطبيعى ، بل الضرورى ، للعقل ، الى أن الأبوين الأولين قــد خلقا من التراب الأحمر • فاذا ساورنا شــك فى هذا فربما كانت ملاحظة أن تربة فلسطين تميل حتى اليوم الى الحمرة الداكنة تبدد هذا الشك • « وهــذا يشير ــ وفقا لرأى الكتاب الذى لاحظ هــذه الملاحظة وعلق عليها فى انصاف ــ « الى العلاقة بين آدم والتربة التى خلق منهــا • وهــذا اللون يبدو بشــكل واضح عندما تقلب التربة ، اما عن طريق المحراث أو عن طريق الحفر » • فالشىء اللافت أن الطبيعة نفســها تحمل شواهد على الدقــة الأدبية فى الكتاب المقدس •

الفصل الثانى

سـقوط آدم

١ ــ القصــة فى سفر التكوين :

يصـــور الكاتب اليهودى عن طريق القـاء قليل من الضـــوء ، ولكن بريشة فنان ماهر ، الحيــاة السعيدة التى عاشها الأبوان الأولان فى جنة السعادة التى خلقها الرب لهما ليسكنا فيها • هناك نمت فى وفرة كل الأشجار التى تعطى الثمار الطيبة وتسعد العين بمرآها ، وهنـــاك عاشت صنوف الحيوان فى وئام مع الانسان ومع بعضها بعضا ، وهناك لم يكن الرجل والمرأة يعرفان الخجل ، لأنهما لم يكونا يعرفان العيب ، فقـــد كان هـــذا عصر البراءة •

ولكن هذه الحيــاة السعيدة لم تدم طويلا ، اذ سرعان ما غشى الغمام ضوء الشمس • وينتقل الكاتب فجأة من قصـــة خلق حـــواء ، وتقـــديمها لآدم ، ليحكى لنـــا قصة سقوطهما الحزينة ، وفقـــدانهما للبراءة ، وطردهما من جنـــة عـــدن ، وما قدر لهما هما ونسلهما من بعد من العمل والحزن والموت • ففى وسط الجنة نمت شجرة المعرفة ، معرفة الخير والشر ، التى حرم الرب على آدم أن يأكل من فاكهتها قائـــلا : « وأما شـــجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » [1] ، ولكن الحية كانت ماكرة ، كما كانت المرأة ضعيفة ومن السهل أن يغرر بها • فذهبت الحيـــة الى حواء وأغرتها أن تأكل من الثمار المشئومة ، وقدمت حواء بدورها الثمار لزوجها ، فأكلها كذلك •

---

(١) سفر التكوين ٢ : ١٧ •

وما كادا يتذوقان الثمـــار حتى تفتحت عيونهما على الحقيقـــة وأدركا أنهما عاريان ، فسترا عورتيهما ، وقد ملأهما الخزى والارتباك ، بغطاء من أوراق التين : وفى هـــذه اللحظـــة ولى عصر البراءة الى غير رجعة • وبعد أن خفت وقدة حر الظهيرة ، وانتشرت الظلال فى ربوع الجنـــة ، أخـــذ الرب يتمشى ، كما كانت عادته ، فى ساعة العصر الرطبة • وسمع الرجل والمرأة وقع خطواته ، وربما سمعا كذلك حفيف الأوراق وهى تتساقط تحت قدميه (اذا كان يمـــكن لأوراق الشـــجر فى الجنـــة أن تتساقط) • فاختبأ بين الأشجار ، وقد ملأهما الخجـــل من أن يراهما عاريين • فصاح بهما الرب أن يخرجا من خلف الأشجار • ولمـــا علم من الزوجين الخجولين أنهما قد عصـــيا أمره وأكلا من شجرة المعرفة ثارت سورة غضبه ، ولعن الحيـــة ، وحـــكم عليهما بأن تزحف على بطنها ، وأن تأكل التراب ، وأن تكون عدو الانســـان الى الأبد ، ولعن الأرض وقضى عليها أن تنبت الشوك والحسك ، ولعن المرأة وحكم عليها أن تلد أولادها فى ألم ، وأن تكون خاضعة لزوجها ، ولعن الرجل وقضى عليه ، أن يستخرج خبز يومه من الأرض بعرق جبينه ، وأن يعـــود فى نهاية حياته الى التراب ، كما خلق من التراب • وخفت سورة غضـــب الرب بعد أن نطق بهـــذه اللعنات المتعددة • ومع ذلك فان الرب الغاضـــب ، بل الرءوف بحق ، أشفق على المذنبين الى حـــد ما ، وصـــنع لهما رداءين من الجلد ، ليرتدياهما بدلا من الغلالات المصـــنوعة من ورق التين • أما آدم وحواء فقد انسحبا الى الوراء من خـــلال الأشجار فى رداءيهما الجديدين والخزى يشـــيع فى وجهيهما ، فى حين كانت الشمس تختفى شيئا فشيئا جهة الغرب ، والظلال تتراكم فى الجنـــة المفقودة •

ان كل حدث فى هـــذه القصة يرتبط بشجرة معرفة الخير والشر ، فهى تقف مع الرجل والمرأة والحيـــة الناطقة ، فى بؤرة المأساة الكبيرة ، اذا أمكن لنا أن نقول هذا • على أننا أمعنـــا فى النظر ، فاننا نجـــد شجرة أخرى تقف مع شجرة المعرفة جنبا الى جنب وســـط الجنـــة ، وهـــذه الشجرة تلفت النظر للغاية ، لأنها ليست سوى شجرة الحياة

التى تكسب كل من يأكل من فاكهتها الخلـــود • ومع ذلك فان هـــذه الشجرة الرائعة لا تلعب أى دور فى قصـــة الســـقوط الحقيقية ، فعلى الرغم من أن ثمارها كانت تتدلى منها يانعة القطوف ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحول بين الانسان وبين هـــذه الثمار أى تحريم الهى ، على عكس ما حـــدث مع شجرة المعرفة ، فان أحـــدا من الأبوين لم يفـــكر فى قيمة تناول شىء من فاكهتها اللذيذة ، فيعيش الى الأبد • ولكن يبدو أن شخوص المأساة الكبيرة وقد تركزت أبصارهم حول شجرة المعرفة ، لم يبصروا شـــجرة الحيـــاة ، بل ان الرب نفسه لم يتذكر هذه الشجرة العجيبة التى تقف بامكانيتها غير المحـــدودة مهملة وسط الجنة ، الا بعد أن قضى الأمر وانتهى كل شىء • وقـــد خشى الرب بعـــد أن أصـــبح الانسان صنوه فى المعرفة عندما أكل من ثمار شجرة المعرفة ، أن يصبح كذلك خالدا مثله اذا ما أكل من شجرة الحيـــاة ، ولذلك فقـــد أسرع بطرده من الجنـــة ، وعين فريقا من الملائكة الذين يحملون سيوفا لامعة لتحرس الشـــجرة من كل من يقترب منها ، حتى لا يتسنى لأحـــد أن يأكل من فاكهتها السحرية ، فيعيش الى الأبد ، ومن ثم فانه على حين تتركز أبصارنا ، طوال حركة المسرحية فى الجنة ، حـــول شجرة المعرفة كل التركيز ، فان النظرة الأخيرة الى الجنـــة السعيدة تطلعنا عنـــدما يتغير المشهد فى النهاية ويخبو بهاء جنـــة عدن الى الأبد ، ويتحـــول نهارها الى نهار عادى — تطلعنا على شجرة الحيـــاة وهى تقف بمفردها وقد أضاءها بصيص الضـــوء المنبعث من سيوف الملائكة المشرعة •

ومن المسلم به بوجه عام ، فيما يبـــدو ، أن حـــكاية الشجرتين قـــد اعتراها بعض الخلط ، وأن شجرة الحيـــاة لم تلعب فى الحـــكاية الأصـــلية هـــذا الدور المثير السلبى الصرف الذى لعبتـــه فى هـــذه الحكاية • ومن ثم فقـــد اعتقـــد البعض أنه كان هنـــاك فى الأصـــل حكايتان مختلفتان عن السقوط ، صورت فى احديهما شجرة المعرفة على حـــدة ، كما صـــورت فى الأخرى شجرة الحيـــاة منفردة ، وان كاتبا مزج بين الحكايتين فى غير حـــذق ، وجعل منهما حكاية واحـــدة • وعلى

حين احتفظ باحداهما فى شـــكلها الأصـــلى على وجه التقريب ، اختصر الحكاية الثانية وشذبها حتى كادت تفقد معالمها • وربما كان الأمر كذلك كما يعتقـــد هؤلاء ، ولكن ربما استطعنا أن نجـــد حلا لهـــذه المشكلة بطريقة أخرى •

فالهدف من حـــكاية السقوط ، فيما يبـــدو ، هو محاولة لتفسير فناء الانسان ولتقـــديم السبب الذى من أجله أصبح الموت جزءا من حياتنا الدنيوى • حقا ان القصـــة لم تذكر أن الانسان قد خلق خالدا ، وأنه فقـــد هـــذا الخلود عن طريق عصيانه ، ولكن الحـــكاية لم تذكر كذلك أنه خلق فانيا • بل انه حرى بنا أن نفهم من سياق الحكاية ، أن امكانية الخلود والفناء كانت متروكة له ، وكان عليه أن يختار أحـــد الأمرين ، ذلك أن شجرة الحيـــاة كانت فى متناول يده ، ولم تكن فاكهتها محرمة عليه ، وما كان عليه سوى أن يمد يده ويقطف ثمارها ، ويأكلها فيكتسب الخلود الى الأبد • بل انه من المفهوم ضمنا ، بعيـــدا عن أن الانسان قد حرم عليه أكل ثمار هـــذه الشجرة ، أن الخالق قد سمح له أن يأكل منها ، ان لم يكن قد شجعه على ذلك ، فلقد قال له صراحة : انه فى وسعه أن يأكل فى حرية من ثمار أية شجرة من أشجار الجنـــة فيما عـــدا شجرة معرفة الخير والشر • فمن الواضـــح اذن أن الرب ، بغرســـه شـــجرة الخلود فى الجنـــة ، وعـــدم منعه آدم من يأكل من ثمارها ، كان يهـــدف الى أن يجعـــل للانســـان الخيـــار أو على الأقل يتيح له الفرصـــة ، لأن يكون خالدا ، ولـــكن الانســـان ضـــيع على نفسه هذه الفرصة حينما اختار أن يأكل من الشجرة الثانية التى حذره الله من أن يمسها ، والا استعجل فناءه • وهذا يؤكد أن الشجرة المحرمة كانت فى الحقيقة شجرة فنـــاء لا شجرة معرفة ، وأن مجرد تنـــاول فاكهتها المهلكة ، بغض النظر عن موضوع طاعة الأمر الالهى أو عصيانه ، كان كفيلا بأن يفضى بالانسان الى الموت • ويتمثل هـــذا الاستدلال كل التمثل فى تحذير الرب لآدم عندما قال له أنك لن تأكل منها ، واليـــوم الذى تأكل فيه من ثمارها شيئا ، سيكون مصيرك الموت المحتوم • وبناء

على ذلك ، يمكننا أن نفترض أن القصة الأصلية أشارت الى شجرتين : شجرة الحياة وشجرة الفناء ، وأنه كان للانسان الخيار فى أن يأكل من الشجرة الأولى وأن يعيش خالدا الى الأبد ، أو أن يأكل من الشجرة الثانية ويصبح انسانا فانيا • وأن الرب ، رحمة بمخلوقه ، نصحه أن يأكل من شجرة الحياة وحذره من أن يأكل من شجرة الفناء ، ولكن الانسان ، عندما أضلته الحية ، أكل من الشجرة المحرمة ، وبذلك حرم عليه الخلود الذى كان ربه الرحيم قد رسمه ٩ •

ومن شأن هذا الافتراض أنه يوجد — على الأقل — نوعاً من التوازن بين دور الشجرتين فى القصة ، وأن يكسب القصة بوصفها كلا الوضوح والبساطة والتماسك • كما أنه يقدم حلا لضرورة افتراض وجود قصتين أصليتين متميزتين مزج بينهما كاتب سقيم التفكير فأفسدهما • بل ان هذا الافتراض يرجحه أكثر من ذلك اعتبار آخر عمقا ، يصور السلوك الالهى فى صورة مقبولة ، فهو ينزهه كل التنزيه عما أثير عن حقده وحسده ، فضلا على الجبن وتعمد الأذى ، تلك الصفات الشائنة التى ظلت ، بتأثير قصة سفر التكوين — بقعة سوداء فى حق الصفات الالهية • ذلك أن الاله ، وفقا لهذه القصة ، قد نفس على الانسان امتلاكه للمعرفة والخلود معا ، ورغب فى أن يستبقى هذه الصفات الطيبة لنفسه وخشى أن يصبح الانسان مناوئا لخالقه ، اذا ما استحوذ على أحدهما أو كليهما ، الأمر الذى لم يكن من الممكن للرب أن يتقبله بحال من الأحوال • ومن ثم فقد حذر الانسان ، وفقا لهذه القصة ، أن يأكل من شجرة المعرفة ، ولما لم يكترث الانسان لهذا التحذير ، طرده الرب من الجنة وأوصد بابها دونه ، حتى يحول بينه وبين الشجرة الأخرى التى ان هو أكل من ثمارها أصبح خالدا • ان الدافع الذى تقدمه القصة دنىء ، كما أن السلوك الذى تنسبه للرب يستحق الازدراء • وفضلا على هذا فان كلا من هذا الدافع وذلك السلوك يتناقض مع سلوك الرب ازاء الانسان فى بداية الأمر كما صورته القصة ، قد كان الرب بعيدا كل البعد عن

أن ينفس على الانسان شيئا ، بل انه بذل كل ما فى وسعه لكى يجعله سعيدا هانئا ، فخلق له جنة رائعة الجمال لينعم بها وخلق له الطيور وصنوف الحيوان ليأتنس بها ، كما خلق له المرأة لتكون زوجا له •

حقا ان التلاؤم بين عناصر مغزى القصة من ناحية ، وبينها وبين الصفات الالهية من ناحية أخرى ، يكون أبعد مدى اذا افترضنا أن الرب شاء أن يتوج عطفه على الانسان بمنحه الخلود ، وأن قصده النبيل لم يحبطه سوى مكيدة الحية •

على أنه مازال علينا أن نواجه هذا السؤال : لماذا دبرت الحية تلك المكيدة للانسان ؟ وماذا كان هدفها من وراء حرمان الجنس البشرى من المميزات الكبيرة التى كان الرب يعتزم أن يخلعها عليه ؟ فهل كان تدخلها فى هذا الأمر مجرد فضول ؟ أم أنها كانت تكن هدفا أبعد من هذا ؟ كل هذه الأسئلة لا يجيب عنها سفر التكوين أدنى اجابة • فالحية لم تغنم شيئا من وراء تلك المكيدة ، بل انها كانت على عكس هذا ، من الخاسرين ، اذ حلت عليها اللعنة الالهية ، وقضى عليها أن تزحف على بطنها وأن تعلق التراب • وربما لم تكن نياتها سيئة للغاية ، بل ربما كانت تقوم بعمل لاهدف وراءه كما يبدو من ظاهر القصة • ولكن اذا كانت القصة تخبرنا بأنها كانت أشد ميلا للخديعة من أى حيوان آخر ، فهل شاءت حقا أن تدل على حكمتها بأن تطيح بآمال الانسان دون تحقق لنفسها شيئا منها ؟ وربما ساورنا الشك فى أن الحية فى القصة الأصلية قد أثبتت لنفسها مكانا مرموقا بأن استولت على البركة التى حرمت منها الجنس البشرى ، اذ أنها فى الواقع أكلت هى نفسها من شجرة الحياة فاكتسبت الخلود ، فى الوقت الذى أغرت فيه الأبوين الأولين أن يأكلا من شجرة الفناء • ويبدو أننا لسنا مغالين فى هذا الفرض ، فنحن نقرأ فى حكايات بدائية ليست بالقليلة ، تحكى عن أصل الموت ، وسأعرضها على القارىء وشيكا ، أن الحيات سعت فى تدبير حيلة لتسخر من الانسان أو لتلقى الروع فى قلبه ، حتى تحتفظ

لنفسها بالخلود الذى كان الانســـان معنيـــا به • فكثير من البدائيين يعتقدون أن الحيـــات وبعض أنواع من الحيوان تجـــدد شبابها وتحيا الى الأبد ، وذلك عن طريق تغييرها لجلدها مرة فى كل عام • ويبـــدو أن الشعوب السامية قد عرفت هـــذه العقيـــدة كذلك ، فالحيـــة ــ وفقا لرأى الكاتب الفينيقى القديم « سانشونياثون » ، كانت أطول الحيوانات عمرا ، لأنها كانت تجـــدد شبابها على الدوام عندما تغير جلدها • واذا كان الفينيقيون قد اعتقدوا أن الحـــة معمرة ، وأن سبب هـــذا يرجع الى تغييرها جلدها ، فليس ببعيد أن جيرانهم وأقرابهم العبريين كانوا يعتقدون الاعتقاد نفسه • والشىء الذى لا جـــدال فيه ، هو أن العبريين كانوا يعتقدون أن النسور تجـــدد شبابها عندما تغير ريشها • واذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا يعتقدون بالمثل أن الحيـــة كذلك يتجـــدد شبابها بتغير جلدها ؟ على أن فـــكرة خـــداع الحيـــة للانسان ، وسلبها منه الخلود ، عن طريق استيلائها على عشب الخلود ، الذى كانت الآلهـــة تقصـــد الاحتفاظ به للجنس البشرى ــ تتمثل فى الواقـــع فى ملحمة جلجامش التى تعـــد معلما من المعالم الأدبية القـــديمة لدى الجنس السامى ، أكثر قـــدما من سفر التكوين •

ففى هـــذه الملحمة نقرأ كيف أن أوتنابيشتيم الانسان المؤله ، أفشى للبطل جلجامش سر وجود نبات له مقدرة ســـحرية على اعادة الشباب الى الانسان ، يطلق عليه اسم « الرجل الكهل يعود شـــابا » ، وكيف أن جلجامش اهتدى الى هـــذا النبـــات ، وأصـــابه الزهو بأنه سيأكل منه ويسترجع شبابه الذى ولى ، ثم كيف أن حيـــة تسللت ، قبل أن يأكل جلجامش من هـــذا العشب ، وسرقت النبات السحرى ، بينما كان جلجامش يستحم فى الميـــاه الباردة فى أحـــد الينابيع أو الغدران ، ثم كيف أن جلجامش ، بعد أن فقـــد الأمـــل فى اكتساب الخلود ، جلس وبكى • حقـــا ان الملحمة لا تذكر صراحة أن الحيـــة اكتسبت الخلود عندما التهمت ذلك النبات ، ولكن ربمـــا كان حـــذف هـــذا مرده الى غموض النص وما فيه من عيب • واذا كان شاعر الملحمة قد ســـكت

عن هـذا الموضوع ، فان الروايات الأخرى التى سأذكرها وشيكا مطابقة لهـذه القصـة ، تمكننا من أن تسد هـذه الثغرة على أساس احتمال معقول • وأكثر من هـذا فان هـذه الروايات تشير دون دليـل الى أن الحية فى الحكاية الأصلية التى أفسدها الكاتب اليهودى وشوهها، كانت رسولا من الله للانسان يحمل اليه نبأ الخلود السار ، ولكن هـذا المخلوق الماكر استغل الرسالة لصالح نوعه ولدمار البشر • أما منحة الكلام التى استغلتها الحيـة من أجل تحقيق غرضـها الخبيث فقـد زودها الاله بها لتـكون قادرة على تبليغ رسـالته الى الانسـان •

وباختصـار فاننا يمكننا أن ننتهى ، من خـلال الموازنة بين روايات هـذه الحكاية المختلفة ، المنتشرة بين الشعوب المختلفة ، الى أن حكاية سقوط الاسان الأصلية الحقيقية كانت تجرى على النحو التالى على وجه التقريب : ان الخالق الكريم ، بعد أن شكل الرجـل الأول والمرأة الأولى ، وأحياهما عن طريق عملية بسيطة بأن نفخ فى فميهما وأنفيهما — أسـكن الزوجين السعيدين فى جنـة أرضـية ، حيث عاشا متحررين من كل عنـاء ومشـقة ، يأكلان من ثمار هذه الجنـة السعيدة اليانعة ، ويستأنسان بالطيور والحيوانات وهى تمرح من حولهما فى اطمئنـان لا يتسرب اليه الخوف • ثم فـكر الرب فى أن يتوج سعادة الزوجين بأن يمنحهما نعمة الخلود الكبيرة • ولكنه قرر ، فى الوقت نفسه ، أن يكونا هما نفساهما حـكما على مصيرهما ، وذلك بأن ترك لهما حرية قبول أو رفض المنحة المقـدمة اليهما • ولهذا الغرض أنبت فى وسـط الجنة شجرتين عجيبتين تحمل كل منهما فاكهة من كل نوع ، وتجلب فاكهة احديهما الفناء لآكلها ، بينما تكسب ثمار الشجرة الثانية الخلود لمن يأكل منها • وبعد ذلك أرسـل الحيـة برسالة لكل من الرجل والمرأة لتقول لهما : لا تأكلا من شجرة الفنـاء ، ففى اليوم الذى تأكلان فيه من فاكهتها يكون مصيركما الموت المحتوم • على أن الحيـة التى كانت أكثر الحيوانات مكرا ، فكرت ، وهى فى طريقها الى الرجل والمرأة ، فى أن تغير فحوى الرسالة • فلما وصلت الى الجنـة السعيدة ، حيث

وجـدت حواء بمفردها ، قالت لها : « ان الله يقول : لا تأكلا من شجرة الحيـاة ، لأنه سيقضى عليكما بالموت المحتم فى اليوم الذى تأكلان فيه منها ، ولكن كلا من شجرة الفنـاء لتعيشا الى الأبد » وصدقتها المرأة الحمقاء وأكلت من الفاكهة المهلكة ، وأعطت منها لزوجها فأكل منهـا كذلك • أما الحيـة الماكرة فقـد أكلت من ثمار شجرة الخلود • ولهـذا السبب أصبح الانسان فانيا والحية خالدة الى الأبد ، اذ ان الحيـة تغير جلدها كل عام ، وبذلك يتجـدد شبابها • ولو أن الحيـة لم تشوه رسالة الخالق ، ولم تخـدع أمنا الأولى ، لمنحنا الخلود بدلا منها ، ذلك أننا كنا سنغير جلودنا فى كل عام كما تفعل الحية ، ومع تغيرها يتجدد شبابا على الدوام •

ومما يزيد من احتمال أن هـذه الرواية ، أو ما يشبهها ، كانت هى الصـيغة الأصـلية للحـكاية ؛ مقارنتها بالحـكايات التالية التى يمكننا أن نصنفها فى يسر تحت عنوانين رئيسيين هما « حـكاية الرسالة المحرفة » وحكاية « تغيير الجلد » •

٢ ـ حـكاية الرسـالة المحرفة :

تربط قبائل « الناماكوا » أو « الهوتنتوت » كما يصـنع غيرهم من الشعوب البدائية ، أطوار نمو القمر ونقصـانه بفـكرة الخلود • فما يبدو لهم من زيادة ونقصـان فى شـكل القمـر ، يفسر على أنه عملية حقيقية من التفكك واعـادة التكامل ، ومن الاضمحلال والنمو ، تحـدث بصـفة مستمرة • بل انهم يفسرون بزوغ القمر ومحـاقه بميلاده وموته • فهم يقولون ان القمر شاء ذات يوم أن يبلغ الانسـان نبأ خلوده ، وأخـذ الأرنب البرى على عاتقه أن يقوم بتبليغ هـذه الرسالة ، فوافق القمر وطلب اليه أن يقول للنـاس : « كما أننى أموت ثم أعود الى الحيـاة ، فانكم ستموتون وتعودون الى الحيـاة مـرة أخرى كذلك » • وبناء عليه ذهب الأرنب الى الناس وحرف الرسالة ،

اما نتيجة نسيانه أو اضماره الشر للانسان ، وأبلغها اياهم على النحو التالى : « كما أننى أموت ولا أعود الى الحيــاة مرة أخرى ، فانكم كذلك ستموتون ولا تعودون الى الحيــاة مرة أخرى » • ثم عاد الى القمر الذى طلب منه أن يعيــد عليه ما قاله للناس • فأخبره الأرنب بما أبلغه الناس • فلما سمع القمر منه الرســالة المحرفة غضب كل الغضب الى درجة أنه رماه بعصــا شقت شفته • وهذا هو الســبب فى أن شــفة الأرنب لا تزال مشــقوقة حتى اليوم • ثم ولى الأرنب مسرعا عنــدما رماه القمر بالعصــا ، وهو ما زال يجرى بسرعة حتى هــذا اليوم • على أن بعض الناس يقولون : ان الأرنب خدش وجــه القمر قبل أن يهرب ، ولهــذا فان القمر مازال يحمل فى وجهه آثار هذا الخــدش الذى يمكن أن يراه كل فرد عندما يكون القمر بدرا فى ليلة صــافية • ولا تزال قبائل « الناماكوا » غاضبة على الأرنب حتى اليوم ، لأنه سلبهم الخلود • وقــد تعــود الرجال المسنون فى هــذه القبيلة أن يقولوا : « اننا ما زلنــا غاضبين من الأرنب ، لأنه حمل لنا هــذه الرسالة المشئومة ، ومن ثم فنحن لا نأكل لحمه » • ولهــذا فان الصبى اذا بلغ سن النضج ، واتخــذ مكانه بين الرجال ، فانه يمنع من أكل لحم الأرنب ، بل يمنع من استخدام نار سبق أن طهى عليها أرنب • فاذا خالف رجل هــذا المحظور فانه يبعد عن القرية ، كما يحــدث هذا فى كثير من الأحيــان ، اللهم الا اذا دفــع دية ، وعنــد ذاك تقبله جماعته مرة أخرى •

—

وتحكى قبائل « البوشمان » حكاية شبيهة بهــذه الحــكاية مع اختلاف طفيف • ففى ســالف الأزمان ، وذلك وفقــا لروايتهم ، قال القمر للنــاس : « كمــا أننى أموت ثم أعود الى الحيــاة مرة أخرى ، فانه سيصبكم ما يصــيبنى • فاذا متم ، فانكم لن تموتوا كلية ، بل سرعان ما تعودون للحيــاة مرة أخرى » • وسعد الجميع بهــذا النبأ السعيد ، سوى رجل واحــد لم يستطع أن يسكت عن الجهر بعــدم تصــديقه لهذا النبأ • فقــد حــدث أن توفيت أم هــذا الرجل فبكاها

بعويل وصراخ ، وما من شيء استطاع أن يقنعه بأن الحيـاة ستعود اليها مرة أخرى ، عند ذاك دبت مشاجرة حامية بينه وبين القمر حول هـذا الموضوع المؤلم ، فقـد قال القمـر له : « ان أمك نائمـة ولم تمت » • فأجابه الرجل : « لا بل انها قد ماتت » • عنـد ذاك احتد بينهما الشجار حتى نفـذ صـبر القمر وضرب الرجل بقبضـة يده ضربة شجت فمه ، وصب عليه اللعنة قائلا : ان فمه سيظل مشجوجا على هـذا النحو وان تحول الى أرنب • ذلك لأنه سيمسخ حتما فى صورة أرنب • ولسوف يقفز بعيـدا عنا ثم يرتد الينا ، ولسـوف تعـدو الكلاب فى أثره ، حتى اذا أمسكت به مزقته شر ممزق ، ولسوف يفنى الى الأبد ، وكذلك سائر البشر • ذلك أنه أبى أن يصـدقنى عنـدما طلبت منه ألا يبـكى أمه لأن الحيـاة ستعود اليها مرة أخرى ، ورد على قائلا : « لا ان أمى لن تحيـا مرة أخرى » • من أجل هـذا السبب فانه سوف يتحول كلية الى أرنب ، كما أن الناس سيفنون جميعا بسبب أنه عارضنى بتبجح عندما أخبرته أن النـاس سيصيبهم ما يصيبنى ، فيعودون للحيـاة بعد الموت » • وهـكذا عوقب هـذا الرجل عقابا عادلا جزاء شكه ، فلقـد مسخ فى صـورة أرنب ، وما زال ممسوخا فى شـكل أرنب حتى اليوم ، وان كان لا يزال محتفظا فى فخـذه بلحم انسانى • وهـذا هو السبب فى أن « البوشمان » ، عنـدما يذبحون أرنبا ، لا يأكلون هـذا الجزء ويرمونه جانبا ، لأنه لحم آدمى • ومازلوا يقولون : « لقد لعننا القمر بسبب الأرنب ، من ثم قضى علينا بالموت الذى لا رجعة فيه • ولولا ذلك لعـدنا للحيـاة بعد الموت • ولـكن ما حيلتنا فى هـذا ، وقد أنكر الرجل ما أخبـره به القمر وعارضـه معارضـة صريحة » • فالأرنب فى رواية البوشمان لم يكن رسـولا من الخالق الانسان ، ولكنه انسان شاك مسخ فى صـورة أرنب ، وقـد حـكم على الجنس البشرى كله بالفنـاء ، لأنه شك فيما بشره القمر به من خلود الانسان •

وتحكى قبيلة « ناندى » التى تسكن « آفريقيا الشرقية البريطانية »،

حكاية تعزو فيها ابتلاء الجنس البشرى بالموت الى افتقار كلب ما لروح الفكاهة : فقد كلف كلب بأن يحمل رسالة الخلود لبنى الانسان ، ولكنه لما لم يستقبل بالحفاوة التى تتلاءم مع مهابة الرسالة ، انتابته نوبة من الغضب وحكم على الانسان بهذا المصير الحزين الذى قدر له منذ ذلك اليوم •

وتجرى الحكاية على النحو التالى : ذات يوم جاء كلب الى القوم الأولين الذين كانوا يعيشون على وجه الأرض وقال لهم : « انكم سوف تموتون كما يموت القمر ، ولكنكم لن تعودوا الى الحياة كما يفعل القمر • اللهم الا اذا قدمتم لى قليلا من اللبن أشربه من وعائكم ، وقليلا من الجعة أرتشفها عن طريق عود من قشكم ، فان فعلتم هذا فسوف أساعدكم على أن تحملوا الى النهر يوم تموتون ، ثم تعودون الى الحياة فى اليوم الثالث من وفاتكم » • ولكن الناس سخروا من الكلب ، وقدموا اليه قدرا من اللبن ليشربه من وعاء يتبولون فيه ، فغضب الكلب لأنه ، لم يشرب من الوعاء الذى يشرب منه الانسان • وعلى الرغم من أنه شرب اللبن والجعة باشمئزاز من الوعاء الذى قدم اليه ، فانه رحل والغيظ يملأ صدره وهو يقول : « سوف يموت الناس جميعا الى الأبد ، ولن يعود الى الحياة على الدوام سوى القمر • وهذا هو السبب فى أن الناس يموتون موتة واحدة لا يعودون بعدها الى الحياة ، فى حين أن القمر يختفى ويعود الى الظهور بعد اختفائه بثلاثة أيام • ولو كان الناس قد قدموا وعاءهم للكلب ليشرب منه اللبن • وعودا من القش ليرتشف منه الجعة ، لعدنا الى الحياة بعد الموت بثلاثة أيام كما يفعل القمر • ولا تذكر هذه الحكاية شيئا عن حمل الكلب رسالة الخلود لبنى الانسان ، ولكننا نستدل استدلالا منطقيا من خلال اشارة الكلب الى القمر ، ومن خلال مقارنة هذه الرواية برواية « الهوتنتوت » الشبيهة بها ، على أن القمر هو الذى كلف الكلب بالقيام بهذه المهمة • ولكن هذا الحيوان الغافل لم يشتغل هذه الفرصة فى أن يحتفظ لنفسه بمنحة لم يؤهل لها بحق ••

في هـذه الحكايات كلف رسـول واحـد بحمل الرسـالة ذات الشأن الخطير الى البشر • وقد أخفق الرسـول فى تأدية رسـالته ، اما بسبب اهماله أو بدافع مكره • على أن هنـاك بعض الحكايات الأخرى التى تحكى عن سبب ابتلاء الانسان بالموت ، كلف فيها رسولان بحمل الرسـالة • وسبب ابتلاء الانسان بالموت فى هـذه الحكايات هو تأخر الرسـول فى تبليغ رسالة الخلود الى الانسـان ، أو سـوء تصرفه • ومن بين هـذه الحكايات حـكاية تروى كذلك عن قبـائل « الهوتنتوت » وهى تجرى على النحو الآتى : أرسل القمر ذات مرة حشرة الى بنى الانسان وقال لها : « اذهبى الى الناس وقولى لهم : كما أننى أموت ثم أحيـا بعد الموت ، فإنكم كذلك ستموتون وتحيـون بعد الموت » • فذهبت الحشرة لتبلغ الرسالة • وبينما كانت ترحف فى الطريق ، اعترضـها أرنب برى ووقف بجانبها وسـألها : « الى أين تسيرين ؟ » • فردت عليه قائلة : « لقـد أرسلنى القمر الى النـاس لـكى أبلغهم أنه ، كما يموت القمر ويحيـا بعـد الموت ، كذلك هم سيموتون ويحيون بعد الموت » • عندئذ قال لهـا الأرنب : « حيث انك تعوزك الرشاقة فى الحركة ، دعينى أنا أذهب اليهم وأبلغهم الرسالة » • ثم جرى الأرنب وسارت الحشرة ترحف وراءه : ولمـا وصـل الى الناس غير من فحوى الرسالة التى أخـذ على عاتقه أن يبلغها الى الناس بطريق غير رسمى • فلقد قال لهم : « ان القمر أرسلنى اليكم لأبلغكم رسالته التى قال فيها : « كما أننى حينما أموت أفنى الى الأبد ، فأنتم كذلك ستموتون وتفنون الى الأبد » • ثم رجـع الأرنب الى القمـر وأعاد عليه ما قاله للناس • فغضب عليه القمر أشـد الغضـب وعنفه وقال له : « كيف تجرؤ على أن تقول للناس كلاما لم أنطق به ؟ » ثم أمسك بعصـا وهوى بها على أنف الأرنب فشجه • وهـذا هو السبب فى أن أنف الأرنب ما زال مشقوقا حتى اليوم •

وتحكى قبـائل « تاتى بوشمان » أو « ماسـاروا » التى تسـكن « محمية بتشوانالاند » وصحارى « كالاهارى » وبقـاعا فى جنـوب

روديسيا ، هذه الحكاية نفسها مع تغيير طفيف . فهم يقولون : ان أجدادهم فى قديم الزمان حكوا الحكاية التالية : لقد شاء القمر أن أرسل رسالة الى الرعيل الأول من الناس يقول لهم فيها : انه كما مات وعاد الى الحياة مرة أخرى ، فهم كذلك سيموتون ثم يعودون الى الحياة مرة أخرى . عند ذاك صاح القمر بالسلحفاة وقال لها : « اذهبى الى هؤلاء الناس وبلغيهم رسالتى . قولى لهم أنى أعيش بعد موتى فانهم كذلك سيعيشون بعد موتهم » . على أن السلحفاة كانت تسير سيرا بطيئا للغاية ، كما ظلت تردد رسالة القمر فى أثناء الطريق حتى لا تنساها . ولكن القمر أقلقه بطء السلحفاة وضعف ذاكرتها فصاح بالأرنب وقال له : انك تستطيع أن تجرى فى سرعة فاذهب الى الناس الذين يسكنون بعيدا هناك وقل لهم : « كما أننى أحيا بعد موتى ، فهم كذلك سيحيون بعد موتهم » وأسرع الأرنب ليبلغ الرسالة ، ولكنه سرعان ما نسى مضمونها . ومن ثم فقد بلغ الناس الرسالة على النحو التالى ، فقال لهم على لسان القمر : « كما أننى أموت ثم أحيا بعد ذلك ، فانكم حين تموتون فستموتون الى الأبد » .. وفى أثناء هذا تذكرت السلحفاة الرسالة واستأنفت سيرها وهى تقول لنفسها : « لن أنسى مضمون الرسالة بعد ذلك » . وفى النهاية وصلت الى مكان تجمع الناس وأبلغتهم الرسالة الصحيحة . فلما سمع الناس قولها غضبوا كل الغضب من الأرنب الذى كان يجلس على بعد منهم يقرض الحشيش . فجرى أحد الرجال ورفع حجرا ورماه به . فأصاب الحجر الأرنب اصابة مباشرة ، وشج شفته العليا . ولا تزال شفة الأرنب العليا مشجوبة حتى اليوم . وبهذا تنتهى الحكاية .

وكذلك يروى زنوج ساحل الذهب حكاية الرسولين هذه . والرسولان فى روايتهم هما شاة وعنزة . وفيما يلى صيغة الحكاية كما رواها مواطن زنجى لمبشر سويسرى فى « أكروبنج » :عندما خلقت السماء والأرض فى بداية الحياة ، لم يكن على وجه الأرض بعد أثر لانسان . ثم هطلت أمطار غزيرة ، تدلت فى أعقابها سلسلة كبيرة من السماء وقد علق بها سبعة من الرجال . لقد كان الاله قد خلق هؤلاء

الرجال ، وجعلهم يهبطون الى الأرض عن طريق هذه السلسلة • وكانوا قد أحضروا معهم نارا طهوا عليها طعامهم • ولم يكد يمضى بعض الوقت على استقرار هؤلاء الرجال على وجه الأرض ، حتى أرسل الاله اليهم من السماء عنزة لتحمل اليهم الرسالة التالية : « ان هناك شيئا يسمى الموت ، وسوف يصاب به بعضكم يوما ما ، ولكن على الرغم من أنكم ستموتون ، فانكم لن تفنوا فناء كليا ، فلسوف ترجعون الى هنا فى السماء » • وذهبت العنزة تحمل الرسالة • وعندما اقتربت من بلاد هؤلاء الرجال ، تريثت عند أيكة حسبتها صالحة للأكل • فتلكأت عندها وأخذت تقرض الأشجار • ولما استبطأها الاله ، أرسل فى أثرها شاة لتبلغ الرسالة • فذهبت الشاة ولكنها لم تبلغ الرجال ما أمرها الاله به ، اذ أنها غيرت الرسالة وقالت لهم : « انكم اذا متم مرة ، فانكم ستفنون الى الأبد ، ولن تبعثوا فى أى مكان » ولم تكد تمضى الشاة حتى وصلت العنزة وقالت للرجال : « ان الاله يقول لكم انكم حقا ستموتون ولكن هذه الميتة لن تكون هى نهايتكم ، لأنكم سوف ترجعون الى » • عندئذ رد عليها الرجال قائلين : لا أيتها العنزة ، ان الاله لم يقل هذا ، فما أخبرتنا به الشاة من قبل ، سوف نلتزم به » ••

والرسولان فى رواية أخرى لهذه الحكاية التى تروى عن قبيلة « أشانتى » ، هما أيضا شاة وعنزة • ويعزى تحريف رسالة الخلود الى هذه أو الى تلك • ويقول « الأشانتيون » : ان الناس عاشوا فى سعادة زمنا طويلا ، لأن الاله كان يقيم بينهم ويتحدث معهم وجها لوجه • ولكن هذه الأيام المباركة لم تدم طويلا • فقد حدث فى يوم مشئوم أن كان بعض النسوة يسحقن الحنطة بالمدق فى الهاون ، بينما كان الاله واقفا ينظر اليهن • ولسبب ما تضايقت النساء من وقوف الاله بجوارهن وطلبن منه أن يرحل بعيدا عنهن • ولما رفض ، ضربنه بالمدق ، فانتابت الاله نوبة من الغضب الشديد واعتزل العالم الانسانى كلية ، ورحل الى عالم الآلهة • ومازال الناس يقولون حتى اليوم : « كم كنا نكون سعداء ولا هؤلاء النساء العجائز » •

وعلى الرغم مما حدث فقد كان الاله رحيما طيبا ، اذ أرسل من ملكوته البعيد رسالة الى الناس فى الأرض عن طريق عنزة يقول لهم فيها : « ان هناك شيئا يسمى الموت الذى يقضى على عدد منكم • ولكنكم لن تفنوا فناء كليا حتى عندما تموتون ، اذ أنكم تعودون الى فى السماء بعد ذلك » • وبهذا النبأ السعيد رحلت العنزة الى الناس • ولكنها قبل أن تصل الى بلدتهم ، أبصرت أيكة عى قارعة الطريق أعجبها منظرها فتوقفت لتأكل من ورقها • ولما نظر الاله من السماء ، وأبصر أن العنزة تتلكأ فى السير ، أرسل شاة لتبلغ الناس الرسالة نفسها على التو • ولكن الشاة لم تبلغ الرسالة على نحو صحيح ، بل حرفتها تحريفا كليا وقالت لهم : ان الاله يبلغكم كلمته ، وهى أنكم ستموتون ، وفى هذا تكون نهايتكم » • أما العنزة فانها بعد أن انتهت من وجبتها ، أسرعت الى البلدة وأبلغت الناس الرسالة وقالت لهم : « ان الاله يرسل اليكم كلمته ويقول : حقا انكم ستموتون ، ولكن هذا لا يشكل نهايتكم ، لأنكم سترجعون اليه بعد الموت » • ولما سمع الناس كلام العنزة أجابوها قائلين : « لا أيتها العنزة : ان الاله لم يقل لك هذا ، ونحن نعتقد أن الرسالة التى حملتها الشاة الينا هى الرسالة الصحيحة » •

وقد ابتلى الانسان بالموت منذ أن حدث سوء التفاهم المشئوم هذا • ويختلف الدور الذى لعبته كل من الشاة والعنزة فى رواية أخرى لهذه الحكاية تروى عن « الأشانتيين » • فالشاة هى التى حملت أولا رسالة الخلود من الاله الى الانسان • ولكن العنزة سبقتها وأبلغته نبأ موته بدلا من أن تبلغه بنبأ خلوده • وقد استقبل الناس ببراءتهم ، نبأ الموت بحماسه ، لأنهم ما كانوا يعرفون ما الموت ، وطبيعى أن الموت أخذ يفنيهم منذ ذلك الحين ••

واذا كانت الرسالة فى كل الحكايات السابقة ، قد أرسلها الاله للناس ، فان هناك حكايات أخرى رويت فى « توجولاند » فى غرب أفريقيا ، تحكى أن الرسالة أرسلت من قبل الناس الى الاله • فقد أرسل الناس الى الاله ذات يوم كلبا ليخبره بأن الناس يودون أن

يعودوا الى الحيـــاة بعد الموت • ومضى الكلب يحمل رســالة الناس الى الاله • ولكنه شــعر بالجوع فى أثناء الطريق فدخل بيتا كان صــاحبه يغلى أعشـــابا ســـحرية ، فجلس الكلب وقال لنفسـه : « ان الرجــل يطهو طعاما وأود أن آكل منه » • وفى أثنـــاء ذلك كانت الضفدعة قـد رحلت الى الاله لتخبره بأن النـــاس يفضلون ألا يعودوا الى الحياة مرة أخـرى بعد موتهم • ولم يكن هذا الســلوك من قبل الضفدعة ســوى مجــرد فضول ووقاحة ، اذ لم يكن أحــد قد طلب منهـــا أن تبلغ الاله هذه الرســـالة ، ولكنها ذهبت على كل حـــال • أما الكلب الذى كان يراقب فى أمــل الحساء وهو يغلى ، فقــد أبصر الضفدعة تجرى مسرعة أمام باب البيت • ولكنه قال لنفســه ، سوف ألحق بها بعد ما أتناول شيئا من الطعام • ولكن الضفدعة سبقته وقالت للاله : « ان النـــاس يفضلون ألا يعودوا الى الحياة مرة أخرى بعد ما يموتون » • ووصــل الكلب من بعدها مبـــاشرة وقال للاله : « ان الناس يودون أن يعودوا الى الحيـــاة مرة أخرى بعد ما يموتون » وكان من الطبيعى أن يشعر الاله بالحيرة ، ورد على الكلب قائلا : « اننى لا أفهم حقيقة هاتين الرسالتين ، فسأمتثل لطلبها لا لطلبك » • وهـــذا هو السبب فى أن الناس لا يعـــودون الى الحياة مرة أخرى بعـــد الموت • ولو أن الضـــفدعة اهتمت بشئونها الخاصة ، ولم تتدخل فى شـــئون الناس لكان الأحياء يعودون بعــد الموت الى الحيـــاة حتى يومنا هذا • على أن الضفادع تحيا مرة أخرى عندما ترعد السماء فى بداية الفصـــل الممطر بعد أن تظـــل ميتة طوال فصل الجفـــاف الذى تهب فيـــه الرياح « الهارماتانية » [1] • ومن ثم ، فانك قد تســـمع نقيق الضفدع فى المروج ، بينما تســـقط الأمطار ويدوى الرعد • وبنـــاء على ذلك فنحن نرى أن الضـــفدعة قد حرفت الرســـالة لصالحها • ولهذا اكتسبت الضفادع الخلود الذى حـــرم منه الانســـان ••

---

(١) رياح قوية متربة تهب من الشمال الى الشرق على ساحل شمال غينيا . (المترجمة)

ونلاحظ أن سبب ابتلاء الانسان بالموت فى هذه الحكايات يرجع الى خطأ فاضح أو الى خدعة ماكرة دبرها أحد الرسولين • على أن الموت لم يتسبب ، وفقا لرواية أخرى للقصة تنتشر انتشارا واسعا بين قبائل « البانتو » فى أفريقيا ، عن خطأ ارتكبه الرسول ، بل عن تردد الاله نفسه ، الذى انتهى الى أن يكون الانسان خالدا ، ثم عدل عن رأيه وقرر أن يفنيه أو أن يتركه يفنى • ولسوء حظ الانسان أن الرسول الذى كان يحمل رسالة الموت اليه وصل قبل الرسول الذى كان يحمل اليه رسالة الخلود • وقد قامت الحرباء فى هذا النوع من الحكايات ، بدور الرسول الذى حمل نبأ الخلود ، كما قامت السحلية بدور الرسول الذى حمل رسالة الفناء • فتحكى قبائل « الزولو » أن « أنكولونكولو » « الاله القديم » ، كلف الحرباء أول الأمر بأن تحمل رسالة للناس وقال لها : « اذهبى الى الناس وأخبريهم بأنهم لن يقضى عليهم بالموت » • فمضت الحرباء ، ولكنها كانت ترجف فى بطء كما أنها تلكأت فى الطريق لتأكل ثمار التوت ذات اللون الأرجوانى من شجيرة « أوبو كوبيبزاف » أو من شجرة التوت • ويقول بعض الناس أنها تسلقت شجرة لتستلقى فى دفء الشمس وابتلعت الذباب حتى ملأت جوفها به ثم استغرقت فى نوم عميق • وفى أثناء ذلك راجع « الاله القديم » نفسه فى هذا الأمر وأرسل بسرعة البرق سحلية من بعد الحرباء لتبلغ الناس رسالة تختلف كل الاختلاف عن الرسالة الأولى • فلقد قال لها : « عندما تصلين الى الناس قولى لهم : « أنه قد قضى عليكم بالموت » • فرحلت السحلية وسبقت الحرباء ، وأبلغت الناس هذه الرسالة وكرت راجعة الى « الاله القديم القديم » • ثم وصلت الحرباء بعد ذلك الى الناس تحمل اليهم النبأ السار بخلودهم وقالت بصوت عال : « قد طلب منى أن أبلغكم أنكم لن تموتوا » • فرد عليها الناس قائلين : « لقد بلغتنا من قبلك رسالة السحلية ، اذ قالت لنا : « انه قد قضى عليكم بالموت السحلية » • ومنذ ذلك اليوم دارت على الناس دائرة الموت • ولهذا فان « الزولو »

يمقتون السحلية ويقتلونها حيثمـا يتيسر لهم ذلك • فهم يقولون : « انها الشيء المقيت نفســه الذى أسرع الى الناس أول الأمر وأخبرهم أنهم سـيموتون » • وبعضـهم يمقتون الحرباء ويبعـدونها عنهم أو يقتلونها ويقولون : « انها الشيء الحقير الذى تلكأ فى حمـل نبـأ الخلود الى الانسـان • ولو أنها أبلغت النبأ فى حينه لخلدنا وخـلد أجدادنا ولما كان للمرض وجود عى وجه الأرض • ولكن تلكؤ الحرباء تسبب فى حرماننا من هذا كله » •

وتحكى قبائل أخرى من قبائل « البانتو » هذه الحكاية على هـذا النحو نفسه على وجـه التقريب • وهـذه القبـائل هى : البيتشوانا والباسوتو والبارونجا والنجونى كما يبدو أن قبيلة « واسانا » التى تسـكن « افريقيا الشرقية البريطانية » تحكيها كذلك • ويحكيها بتغيير طفيف شعب « الهاوسا » الذى لا ينتمى الى قبائل البانتو • ولا تزال قبيلتا « بارونجا » و « نجونى » تكنان الضغينة للحرباء حتى اليوم ،

وهكذا نرى أن الاعتقاد فى أن الاله قد فكر ذات مرة فى أن يمنح الانسان الخلود دون أن تتحقق هذه الفكرة الطيبة نتيجة خطأ اتركبه الرسول الذى عهد اليه الاله بتبليغ البشارة للانسان ـــ قد انتشر فى أفريقيـا انتشارا واسعا •

٣ ـــ حـكاية تغيير الجـلد :

يعتقد كثير من البدائيين أن بعض الحيوانات وبصفة خاصـة الثعابين ، يتجـدد شـبابها ولا تموت أبدا ، بفضـل مقدراتها على تغيير جلدها فى مواسم معينة • وهؤلاء يحكون بسبب تصورهم هذا ، حكايات تبين كيف اكتسبت هـذه الحيـوانات ، بناء على ذلك ، منحة الخـلود ، وكيف حرم الانسان منها •

مثال ذلك ما تحكيه قبيلتنا « وافيبا » و « وابندى » اللتان تسكنان فى « أفريقيا الشرقية » ، من أن الاله الذى يسمونه « ليزا » هبط ذات يوم الى الأرض وسأل الكائنات الحية جميعها قائلا : « من منكم يود

ألا يموت لا » ولسوء الحظ كان الناس نائمين ، وكذلك كل صنوف الحيوان ، فيما عدا الحية التى كانت مستيقظة آنذاك فردت هذه على سؤال الاله قائلة « أنا أرغب فى هذا » • ولهذا فان الانسان وكل صنوف الحيوان فيما عدا الحيات ، يموتون • أما الحية فلا تموت الا اذا قتلت ، فاذا لم تقتل فانها تغير جلدها ، وبذلك يتجدد شبابها كما تتجدد قوتها • وشبيه بهذه الرواية ما يحكيه «الدوسون» سكان « شمال بورينو البريطانية » ، فهم يقولون : ان الخالق — حينما فرغ من خلق كل شىء — سأل الكائنات الحية : « من منكم يستطيع أن يغير جلده ؟ • ان من يفعل هذا لن يموت أبدا » • ولم يطرق هذا السؤال سمع أحد من الكائنات الحية سوى الثعبان الذى أجاب على الفور : « أنا أستطيع أن أفعل هذا » • ولهذا السبب فان الثعابين حتى يومنا هذا ، لا تموت الا اذا قتلها الانسان • أما « الدوسون » فلم يسمعوا سؤال الاله ، ولو أنهم سمعوه لغيروا جلودهم كذلك ، ولأصبحوا خالدين •

وكذلك يحكى « التودجو تورادجا » سكان «سيليبس الوسطى» أن الاله استدعى الناس وصنوف الحيوان ذات يوم لكى يقرر معهم مصيرهم • ومن بين المصائر المختلفة الى قدمها الاله ما قاله لهم : « انكم ستغيرون جلدكم القديم » • ولسوء الحظ أن الجنس البشرى كانت تمثله فى هذه المناسبة المصيرية امرأة عجوز لم يمكنها تدهور قواها العقلية من الاستماع الى هذا الاقتراح المغرى ، فى حين سمعته الحيوانات التى تغير جلدها مثل الثعابين ، وحيوان الجمبرى الذى يعيش فى البحر • وطبيعى ان هؤلاء وافقوا على هذا الاقتراح • ومرة أخرى نجد أن أهالى جزيرة « فواتوم » ، وهى جزيرة تقع فى « أرخبيل بسمارك » يقولون : ان كائنا بعينه يدعى « كونوكونو ميانجى » طلب من غلامين أن يحضرا نارا ، ووعدهما أنهما لن يذوقا طعم الموت ، ان هما لبيا رغبته ، أما اذا لم يلبيا رغبته ، فان جسديهما سيفنيان ، ولن يبقى خالدا سوى ظليهما أو روحيهما • ولكن الغلامين لم يولياه

أذنا صاغية ، فصب عليهما اللعنة قائلا : « لقد كنت أعمل على أن يخلد الجنس البشرى بأسره ، أما الآن فسوف يفنى الى الأبد ، وان ظلت أرواحه خالدة . أما الضب « المونيكيفالوس » والسحلية « فارانوس انديكوس » ، والحية « اينجروس » فسوف تعيش الى الأبد ، لأنها ستغير جلدها القديم على الدوام . « ولما سمع الغلامان هذا بكيا وندما أشد الندم على سلوكهما الأحمق فى عدم تلبية رغبة « كونوكونو ميانجى » واحضار النار له .

ويحكى « الأرواك » سكان غانا البريطانية أن الخالق هبط ذات يوم الى الأرض ليستطلع أحوال مخلوقه الانسان . ولكن الناس كانوا غاية فى الحمق ، الى درجة أنهم حاولوا أن يقتلوا الخالق . ولهذا فقد حرمهم الخالق الخلود ، ومنحه صنوف الحيوان التى تغير جلدها مثل الثعابين والسحالى والخنافس . وتحكى قبيلة « تاماناشير » ، وهى قبيلة هندية تسكن « أورينوكو » ، رواية مختلفة بعض الشىء عن الرواية السابقة . فهى تروى أن الخالق بعد أن مكث بعض الوقت بين الناس ، استقل قاربا ليعبر به الى الشاطىء الآخر من البحر المالح الشاسع الذى كان قد ركبه اليهم . ولم يكد يتجاوز الشاطىء حتى صاح بهم فى نغمة مختلفة وقال لهم : « انكم ستغيرون جلودكم » . وكان يعنى بهذا أن يقول لهم : « انكم ستجدون شبابكم كما تفعل الحيات والخنافس » . ولسوء الحظ أن كانت امرأة عجوز تستمع الى هذه الكلمات ، فصرخت فى نغمة ، ملؤها الشك ، ان لم تكن ملؤها السخرية ، وقالت « آه » . فتضايق الخالق كل الضيق ، وتغيرت نغمة صوته فى الحال وقال غاضبا : « انكم ستموتون » . وهذا هو سبب ابتلاء الناس بالموت .

ويحكى أهالى «نياس» ، وهى جزيرة تقع فى غرب «سومطرة» ، أن كائنا بعينه أرسل من السماء الى الأرض التى كان قد تم خلقها ليضع عليها اللمسات الفنية الأخيرة . وقد كان ينبغى على هذا الكائن أن يكون صائما فى هذه الحالة . ولكنه لما لم يستطع أن يتحمل وخز الجوع ، فقد

أكل بعض الموز • وقد كان اختياره لهذا النوع من الطعام غير موفق ، اذ لو كان قد أكل من سرطان النهــر ، لغير الناس جلودهم كما يفعل هذا الحيوان ، ولعاشوا الى الأبد نتيجة تجدد شبابهم على الدوام • ولكن حيث ان الكائن المعنى قد أكل ثمار الموز ، فقد ابتلى الانســان بالموت نتيجة ذلك [1] • وتضيف رواية أخرى تروى عن أهالي جزيرة « نياس » كذلك ، أن « الحيات ، على العكس ، أكلت السرطان النهرى الذى يغير جلده ولا يموت وفقا لاعتقاد ســكان « نياس » • ولهــذا فان الحيات لا تموت كذلك ، بل تغير جلدها فحسب » ••

ويلاحظ أن خلود الحيــات فى هذه الرواية الأخــيرة يعزى الى أكلها سرطان النهر الذى يجدد شبابه كلما غير جلده ، وبذلك تعيش الى الأبد • وكذلك يعزى خلود السمك الصدف الى السبب نفسه ، وذلك فى رواية « ساموائية » تحكى عن أصل الموت • ففيها يروى أن الآلهة عقدت مجلسا لتقرر مصير الانســان • وأبدى أحدهم اقتراحا هو أن يغير الناس جلودهم كما يفعل السمك الصدف وبذلك يتجــدد شبابهم • ولكن الاله « بالسى » رأى ، على العكس ، أن يغير السمك الصدف جلده فيتجــدد شبابه على الدوام ، فى حين يحتفظ الانســان بجلده حتى يهرم ويموت ، وبينما كانت المداولة تدور ، قبل أن ينعقــد المجلس رسميا ، هطلت الأمطار لســوء الحظ وعطلت مناقشة هــذا الموضوع • وفى الوقت الذى أخذت الآلهة تجرى فيه لتبحث لهــا عن مأوى من المطر ، ووفق على رأى « بالسى » بالاجمــاع • ولهذا السبب فان السمك الصدف ما زال يغــير جلده حتى اليوم ، فى حين يعجــز الانســان عن فعل ذلك •

وهكذا يبدو لنا أن عددا غير قليل من الشعوب ، يعتقد أن هبــة الخلود السعيدة التى تتحقق من خلال عملية بســيطة تتمثل فى تغيير

---

(١) من المعروف ان شجرة الموز الام تنبت الى جانبها شجيرة قبل ان تموت . وقد اصبح الانسان مثل شجرة الموز بعد ان اكل منها هذا الكائن . فهو يترك اولادا من بعده واما هو فيموت . (المترجمة)

الجلد بانتظـام فى فترات ثابتـة ، كانت يوما ما فى متنـاول الجنس البشرى ، ولكنها تحولت عنه الى الكائنات الدنيئة ، نتيجة حدث غير سعيد ، فاكتسبتها نتيجة ذلك الحيـات وسرطان النهـر والسحالى والخنافس • على أن هناك شعوبا أخرى تعتقد أن الجنس البشرى كان يستحوذ بحق فى وقت ما على تلك الهبة التى لا تقدر بثمن ، ولكنه ضيعها بسبب حماقة امرأة عجوز • « فالميلانيزيون » سكان « جزر البانك » ومثلهم سكان جزر « الهبريد الجديدة » يقولون : ان الجنس البشرى لم يكن يموت فى بادىء الأمر على الاطلاق ، بل كان النـاس يغيرون جلودهم حينما يهرمون ، كما تفعل الحيـات وسرطان الماء ، وبذلك كانوا يستعيدون شبابهم • ثم حدث بعد مرور الوقت أن ذهبت امرأة عجوز الى النهر لتغير جلدها فى الماء • وهذه المرأة ، وفقـا لما يقـوله بعض هـؤلاء السـكان ، هى أم البطـل الأسـطورى « كـات » ، فلمـا وصـلت هـذه المـرأة الـى النهـر ، انتـزعت جلدهـا القديم وألقت به فى المـاء • ولكنها لاحظت ، أن جلدها اصطدم ، وهو يهبـط الى قاع النهر ، بعصا • على أنها عادت بعد ذلك الى بيتها حيث كانت قد تركت ابنها • ولما أبصرها الابن رفض أن يعترف بها بوصفها أمه ، وصرخ فى وجهها قائلا : ان أمه كانت عجوزا ولا تمت لهذه المرأة الشابة الغريبة بصلة • فرجعت الأم الى النهر ، واسـتردت جلدها القديم ، لكى تطيب خاطر ابنهـا ، ولبسـته • ومنـذ ذلك اليوم كف الجنس البشرى عن أن يغير جلده ومن ثم أخذ يتعرض للموت •

ويحكى سكان « جزر شورتلاند » وبالمثل قبيلة « كاى » وهى قبيلة من « البابو » تسـكن شـمال شرق « غينيا الجـديدة » ، حكاية شبيهة بهذه الحكاية عن أصل الموت • فقبيلة « كاى » تحكى أن الجنس البشرى لم يكن يموت فى بادىء الأمر ، ولكن النـاس كانوا يغيرون جلودهم • فعندما كانت جلودهم القديمة ذات اللـون البنى تتجعد وتصبح قبيحة الشكل ، كانوا ينزلون الى النهر ، ويخلعونها ، ويرتدون بدلا منها جلودا جديدة بيضـاء تنطق بالشـباب • وفى هذه

الأيام كانت هناك جدة عجوز تعيش مع حفيدها . وفى يوم من الأيام ضاقت الجدة ذرعا بهرمها وذهبت لتستحم فى النهر ، وخلعت عنهـا جلدها الذابل ، وعادت الى القرية جديدة كل الجدة فى جلدها القشيب وبهذه الصورة المتغيرة صعدت السلم ودخلت البيت . وعندما أبصرها حفيدها على هذا النحـو بكى وصرخ . وأبى أن يصـدق أنهـا هى بعينهـا جدته . وفشلت كل محاولاتها معه فى تهدئته واقناعه بأنهـا جدته . وأخيرا عادت فى غضب الى النهر واصطادت جلدها القـديم المجعـد ولبسته ، ورجعت الى بيتها عجوزا شمطاء قبيحة الشـكل . وسعد الولد برؤية جدته مرة أخرى ، ولكنها قالت له : « ان الجراد يغير جلده ، أما نحن البشر فسـوف نموت من الآن فصاعدا » . وقد ابتلى البشر بالموت حقا منذئذ . ويحكى سـكان « جـزر أدميرالتى » هذه الحكاية بعينها مع تغيير طفيف . فهم يقولون انه كان فى سـالف الزمان امرأة عجوز ضعيفة ، وكان لها ولدان خرجا ليصطادا ، بينمـا ذهبت هى لتستحم . وهناك فى الماء خلعت جلدها القديم وارتدت جلدا جديدا ، ورجعت الى بيتها شابة كما كانت منذ زمن طويل . فلمـا عاد ولداها من الصيد وأبصراها دهشا لمنظرها ، فقال أحدهما للآخر : « انهـا أمنا » فرد عليه الآخر قائلا : « ربمـا كانت أمنـا ، ولكننى سأتخذها زوجـة لى » . وسمعت الأم هـذا الحـديث مصادفة ، فسألتهما قائلة : « ماذا كنتما تقولان الآن ؟ » . فرد عليهـا الولدان قائلين : « اننا لم نقل شيئا سـوى أنك أمنا » . فقالت الأم : « انكما تكذبان ، فلقد سمعت حديثكما . ولو أننى ملكت من الأمر شـيئا لكنا نكبر فى السن ــ رجالا ونسـاء ــ ثم نغـير جلودنا فنعـود فتيانا وصبايا . ولكنكما شئتما أن تتبعـا أهواءكما ، ولذلك فسـوف نكبر ونهرم ثم نموت » . وعند ذاك عادت الأم الى الماء وأحضرت جلدهـا القـديم وارتدته فارتدت امرأة عجوزا . ولذا فنحن سـلالتها نكبر ونهرم . ولولا هذان الولدان المتهوران لما كانت هناك نهاية لأيامنا ، ولعشنا الى الأبد .

فاذا ابتعدنا عن « جزر البانك » . فاننا نجد أن قبيلة « توكولاوى »

وهى قبيلة جبلية تسكن « سيليبس الوسطى » تحكى حكاية شبيهة بالحكاية السابقة الى حد كبير • وتروى هذه الحكاية ــ وفقا لما ذكره المبشرون الهولنديون الذين اكتشفوها منتشرة على نطاق واسع ــ على النحو التالى : كانت للناس فى قديم الزمان المقدرة على تغيير جلودهم على نحوما تفعل الحيات وبراغيث البحر (الجمبرى) ، ومن ثم كانوا يستعيدون شبابهم دائما أبدا • وكانت بينهم امرأة عجوز تعيش مع حفيدها • وذهبت الجدة لتستحم ذات مرة ، وخلعت جلدها القديم ، وعلقته على شجرة ، وارتدت جلدا جديدا • ثم عادت الى بيتها وقد استعادت شبابها • ولكن حفيدها لم يستطع أن يتعرف عليها ، ومن ثم لم يكترث بمقدمها ، وأخذ يقول لها : « انك لست جدتى ، لأن جدتى كانت عجوزا وأنت امرأة شابة » • فعادت المرأة توا الى الماء واستعادت جلدها القديم وارتدته • ومنذ ذلك اليوم لم تعد للناس المقدرة على استعادة شبابهم ، ومن ثم صاروا يموتون •

وبينما يعتقد بعض الناس أن الجنس البشرى كان خالدا فى الأزمنة الأولى بفضل المقدرة التى اكتسبها على تغيير جلده بانتظام ، فان هناك آخرين يعزون هذه الخاصية الى تعاطف بين الانسان والقمر • فالانسان يمر بأحوال متعاقبة من النمو والفناء والحياة والموت الى غير نهاية ، مطابقا بذلك أطوار نمو القمر وزواله •

فالانسان وفقا لوجهة النظر هذه ، يموت بحق ، ولكنه سرعان ما يبعث فيما يبدو بوجه عام بعد موته بثلاثة أيام ، وهى المدة التى تفصل بين اختفاء القمر القديم وظهور القمر الجديد ، فقبيلة « منتراس » أو « مانتراس » الهمجية التى تعيش منعزلة فى أحراش شبه جزيرة الملايو ، تزعم أن الناس فى العصور الأولى لخلق العالم لم يذوقوا طعم الموت • بل كانوا يتضاءلون مع تضاؤل القمر ، ثم تعود أجسامهم الى وضعها الطبيعى مع اكتمال نموه • ولم يكن السكان يتحققون من تعدادهم الذى كان يتزايد تزايدا مخيفا • ولكن ابن

الرجل الأول لفت نظر أبيه الى هذا الأمر ، وسأله عما يجب فعله ازاء هذا التزايد المطرد • ورد الرجل ذو الروح البسيطة الطيبة قائلا : « دع الأمور تسير على ما هى عليه» •ولكن الابن الثانى الذى كان ينظر الى هذا الأمر نظـرة أكثر « مالثوسيانية »[1] من ذلك قال لأبيه : « بل لنترك الناس يموتون كما تموت شجرة الموز ، تاركة ذريتها تعيش من بعدها» • وعند ذاك طرح الأمر على الاله العالم السـنى الذى تبنى رأى الابن الثانى • ومنذئذ لم يعد الناس يستعيدون شبابهم من جديد كما يفعل القمر ، بل أصبحوا يموتون كما تموت شجرة الموز •

ويرى أهالى « جزر كارولين » أن الناس لم يكونوا يعرفون الموت فى الأزمنة القديمة ، أو هم بالأحرى كانوا ينظرون اليه بوصـفه فترة نوم وجيزة • فالناس يموتون فى اليوم الذى يصبح فيه القمر محاقا ، ثم يعودون الى الحيـاة مرة أخرى مع ظهور القمـر الجديد ، وكأنهم يستيقظون بعد غفوة يستعيدون بعدها نشاطهم • على أن روحا شريرا دبر بعد ذلك مؤامرة لكى لا يستيقظ الناس قط عندما يغفون اغفـاءة الموت • وقد حكت قبيلة «ووتجوبالوك» وهى قبيلة تسكن جنوب شرق استراليا ، أنه عندما كانت الحيوانات جميعا فى هيئة رجال ونسـاء ، وكان بعضها يموت كان القمر يصيح بها قائلا : « هيا استيقظـوا » • وعند ذاك يعود النـاس الى الحياة مرة أخرى • على أنه حـدث ذات مرة أن قال رجل هرم : « بل ليمت الناس الى الابد » • ومنـذ ذلك الوقت لم يعد أحد الى الحياة بعد الموت ، فيما عدا القمر الذى يموت ويحيـا حتى يومنـا هذا • ويروى عن قبيلتى « أونتماتجـيرا » • و « كايتش » وهما قبيلتان تسكنان وسط استراليا ، أنهم تعودوا أن يدفنوا موتاهم اما فى الأشـجار أو تحت الأرض ، وبعـد ثلاثة أيام يعود هؤلاء الموتى بانتظام الى الحياة • كما تحكى قبيلة «كايتش» عن

---

(١) نسبة الى « مالثوس » الذى عاش فيما بين (١٧٦٦ — ١٨٣٤م) • وهو صاحب النظرية القائلة بأن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق ازدياد الموارد الغذائية وبأن النسل يجب أن يحدد . (المترجمة)

انقضاءهذه الأيام السعيدة ، فتقول : ان هذا حدث نتيجة خطأ ارتكبه رجل ينتسب الى « الكروان » الطـــوطم ، فقد أبصر هذا الرجل بعض الرجال الذين ينتسبون الى « الكنغر الصغير » الطوطم ، وهم يشرعون فى دفن رجل من جماعتهم • ولأمر ما استشاط الرجل الأول غضبا ، وركل الجسد فدفعه الى البحر • وكان من الطبيعى ألا يعــود هذا الرجل الى الحيــاة بعــد ذلك • وهذا هو السبب فى أن موتاهم لا يعودون الى الحياة بعد موتهم بثلاثة أيام كما تعودوا أن يفعلوا هذا من قبل •

وعلى الرغم من أن هذه الحــكاية التى تحكى عن أصــل الموت ، لا تذكر شيئا عن القمر ، فانه من المحتمل ، اذا ما قارنا هذه الحكاية بما سبق من حكايات،أن تكون الأيام الثلاثة التى تعود الميت أن يرقدخلالها فى القبر قبل أن يعود الى الحياة ، هى بعينهــا الأيام الثــلاثة التى « يختفى فيها القمر فى كهفه الشاغر عندها يصبح محاقا » • وبالمثــل ربط « الفيجيون »[1] بين احتمال خلود الانسان وأطوار نمو القمر ، وان لم يذكروا أن الانسان ظل يتمتع بالخلود بحق حقبة من الزمن • فهم يذكرون أن الهين من الآلهة القديمة ، وهما الاله « الفأر » والاله « القمر » تناقشا فى أمر نهاية الانسان على وجه التحديد • فقال الاله « القمر » : لندع مصير الانسان يكون مثل مصيرى ، فيختفى فترة ثم يعود الى الحياة مرة أخرى » • فرد عليه الاله «الفأر» قائلا : « بل ندعه يموت كما تموت الفئران » • وقد كان رأى الاله « الفأر » هو الفائز •

ويحكى « الأوبوتيون » سكان الكنغو كيف أن الانســان فاتته هبة الخلود ، فى حين حصل عليها القمر ، فيقــولون : ان الاله الذى يطلقون عليه اسم « ليبانزا » أرسل ذات يوم فى طلب سكان القمــر وسكان الأرض • فخف سكان القمر الى الاله ، ومن ثم فقد كافأهم الاله

(١) هم سكان جزر « فيجى » وهى مجموعة جزر فى المحيط الهادى . (المترجمة)

جزاء امتثالهم السريع لأمره ، فلقد قال للقمر : « انك لن تموت أبدا ، لأنك جئت الى توا عندما ناديتك•ولن تموت فى كل شهر سوى يومين،لم أقصد بهما الا راحتك ، ثم تعود بعدهما الى الحياة أكثر بهاء » • فلما مثل أهل الارض بعد ذلك أمام الاله « ليبانزا » تحدث اليهم فى غضب وقال : « أما أهـل الأرض ، فلأنكم لم تلبوا ندائى توا • فانـكم ستموتون حتما ، ولن تعودوا الى الحياة مرة أخرى ، الا عندما تبعثون الى » •

ولا يربط « الباهناريون » سـكان شرق « كوشنصين »[1] بين خلود الانسان البدائى وأطوار نمو القمـر ، كمـا أنهم لا يعزونه الى تغيير الانسان لجلده ، بل يعـزونه الى قـدرة شجرة معينـة عـلى الشفاء • فهم يقولون : انه حينما كان الناس فى بداية الحياة يموتون ، كانوا يدفنون عند جذع شجرة تسمى « لونج بلو » ، ثم يبعثـون فى العادة بعد مضى وقت ، لا فى صورة أطفال بل فى صورة رجال ونسـاء مكتملى النمو • وبذلك عمرت الأرض بالناس فى مدة وجيزة ، وكانوا جميعا يسكنون بلدة واحدة يشرف عليها الأبوان الأولان •

وقد أخذ عدد الناس يتزايد تزايدا بالغـا الى درجة أن سـحلية بعينها لم تكن تزحف على وجه الأرض دون أن تطأ قدم أى فرد ذيلها• فتضايقت وقدمت لحفارى القبور نصيحة غادرة وقالت لهـم : « لماذا تدفنوا الموتى عند شجرة « لونج بلوو » ؟ ادفنوهم عند شجرة « لونج خونج » فلا يعودون الى الحياة مرة أخرى • أتركو هم يموتون ميتة واحدة وكفى » وعمل حفارو القبور بهذه النصيحة ومنذ ذلك الوقت لم يعد الأموات الى الحياة مرة أخرى •

ونلاحظ فى هذه الحكاية الأخيرة ، كمـا هو الحـال فى كثير من

---

(١) هو اقليم دلتا نهر ميكونج الذى يقع فى جنوب فيتنام وينتمى هذا الاقليم اليوم الى كمبوديا • (المترجمة)

الحكايات الافريقيــة ، أن ســبب ابتــلاء الانســان بالموت يرجع الى السحلية • ويمكننا أن نحدس أن السبب فى نســبة هذا العمــك الذى يتسم بالغدر الى السحلية ، هو أن السحلية شأنها شــأن الثعبــان ، تغير جلدها فى أوقات معينة من الســنة ، الأمر الذى دعا الانســان البدائى الى أن يعتقد أن السحلية ، مثل الثعبان ، يتجدد شبابها بتغيير جلدها ، ومن ثم فهى تعيش الى الأبد • وعلى ذلك ، فربما كان الدافع وراء نشأة الأســاطير التى تحكى كيف أصبحت الحيــة أو الســحلية

الرسول الشرير الذى حمل رسالة الفناء للانسان ، يرجع الى فــكرة قديمة عن غيرة بعينها وتنافس بين النــاس والمخـــلوقات التى تغير جلدها،وبصفة خاصة الحيات والسحالى،بل ربما افترضنا أن أى حكاية نشأت حول هذا الموضــوع ، كانت تصــور الصراع بين الانســان والحيوان الذى ينازعه الحصول على الخلود ، وهو صراع تم النصر فيه ، سواء كان ذلك نتيجة خطأ أو بسبب تدبير مكيدة ، للحيــوانات التى أصبحت من بعده خالدة • أما الانسان فقد صبت عليــه لعنــة الابتلاء بالموت •

٤ ــ الحكاية التى جمعت بين الرسالة المحرفه وتغيير الجلد :

تجمع بعض الحكايات التى تحكى عن أصل الموت ، بين موضوع الرسالة المحرفة وموضوع تغيير الجلد • فان «الجالا» الذين يسكنون فى شرق أفريقيا يعزون فناء الانسان وخلود الحيات الى خطأ ارتكبه طائر معين ، أو نتيجة مكيدة منه ، فحرف لذلك رسالة الخلود التى عهد اليه بها الاله لكى يبلغها للانسان • والطائر الذى أخطأ هذا الخطــأ الذريع فى حق الانسان ، ذو لون أســود أو أزرق داكن ، وله بقعــة بيضاء على كل من جناحيه ، كما أن له تاجا على رأسه • وهو يحط على رأس قمم الأشجار ويعول عويلا شبيها بثغــاء الشــاة ، ومن ثم فان « الجالا » سمونه « هولاواكا » أى « شاة الاله » وهم يفسرون مايبدو على هذا الطائر من حزن من خلال الحكاية التالية •فقد أرسل الالههذا

الطائر ذات مرة الناس ليخبرهم أنه لا ينبغى لهم أن يموتوا ، وانما ينبغى أن يغيروا جلودهم عندما يبلغ بهم الكبر والوهن مبلغهما ، وبذلك يتجدد شبابهم • ولكى يضفى الاله على هذه الرسالة صفة الشرعية ، وضع فوق رأس هذا الطائر تاجا ليكون علامة على المهمة السامية التى كلفه الاله بها • وطار الطائر على الفور ليبلغ الانسان نبأ الخلود السعيد • على أنه لم يكن قد طار الى مسافة بعيدة عندما صادف حية تأكل جيفة • فنظر الطائر الى الجيفة بشهية بالغة وقال للحية : « اعطينى شيئا من لحم الجيفة ودمها وأنا أفشى لك برسالة الاله الى البشر » • فردت الحية عليه بجفاء وقالت له : « اننى لا أرغب فى سماع فحوى هذه الرسالة » • ثم استأذنت أكلها ، ولكن الطائر أخذ يلح عليها فى أن تستمع الى الرسالة حتى وافقت فى كل شىء من التردد• عند ذلك قال الطائر : « ان الرسالة كالآتى : اذا تقدم السن بالانسان فانه سيموت ، فى حين أنك عندما تهرمين فستغيرين جلدك وتجددين شبابك » • وهذا هو السبب فى أن الناس يموتون بعد أن يبلغ بهم العمر مبلغه ، فى حين أن الحيات بتجدد شبابها على الدوام بتغيير جلدها • وقد عاقب الاله هذا الطائر المهمل أو الأحمق بسبب تحريفه المبالغ للرسالة ، وذلك بأن ابتلاه بداء أبدى وبيل ما زال يعانى منه حتى الآن • وهذا هو السبب فى أن الطائر يقف فوق قمم الأشجار ويعول هذا العويل • وبالمثل يحكى «الميلانيزيون» الذين يسكنون ساحل «شبه جزيرة الغزال » فى نوبريتين » أن « توكامبينا » الروح الطيب كان يحب الناس ويود أن يجعلهم خالدين • فاستدعى أخاه « توكورفوفو » وقال له : « اذهب الى الناس وافش لهم سر خلودهم • قل لهم أن يغيروا جلودهم مرة فى كل عام ، وبذلك يتحصنون ضد الموت ، لأن حياتهم ستجدد بذلك على الدوام وعليك أن تخبر الحيات أنها ستموت حتما من الآن فصاعدا » • على أن كورفوفو » لم يحسن أداء الرسالة ، فقد أمر الناس أن يموتوا ، وأفشى فى الوقت نفسه سر الخلود للحيات • ومنذ ذلك الوقت أصبح الجنس البشر فانيا ، فى حين أصبحت الحيات تغير

جلدها مرة فى كل عام ، ولهــذا فانهــا تعيش الى الأبد • وتروى فى « أنام »•[1] حكايات عن أصل الموت شبيهة بالحــكايات الســابقة • فهناك يقول الأهالى : ان « نحبك هوانج » أرسل رسالة من الســماء الى الناس يقول لهم فيها : انه يتحتم عليهم أن يغيروا جلودهم عندما يهرمون ، وأن يعيشوا بهذه الوسيلة الى الأبد ، أما الحيات فيتحتم عليها أن تفنى عندما تهرم • فلما هبط الرسول الى الأرض أبلغ الناس الرسالة صحيحة بحق • فلقد قال لهم : « ان الانسان سوف يغير جلده عندما يهرم ، أما الحيات فسوف تموت عندما تكبر ، وتوضع فى اللحد» والى هذا الحد سارت الأمور على خير ما رام • ولكن لســوء الحظ ، أنه كان هناك عدد من الثعابين الصغيرة يستمع لهذا القول • فلما علمت الثعابين أن اللعنة قد حلت ببنى جنسها تملكها الغضب وقالت للرسول : « أعد كلامك واعكس العبارة والا لدغناك » • فخاف الرســول وأعاد العبارة وغيرها على النحو التالى : « اذا كبرت الحيات فانها ســتغير جلدها ، أما الانسان فسوف يموت عندما يكبر ويوضــع فى اللحد » • وهذا هو السبب فى أن كل المخلوقات تفنى فيما عدا الحيات ، فانهــا تغير جلدها عندما تكبر ، ولهذا فهى تعيش الى الأبد •

خاتمة :

وهــكذا نرى أن الفليسوف البدائى ــ قياسا على حــكايات القمر أو حكايات الحيوان الذى يغير جلده ــ أشار الى أن كائنا طيبــا قد وعد أبناء الجنس البشرى فى بداية الحياة بهبة القــدرة على تجــديد شبابهم على الدوام ، أو أنهم كانوا يتمتعون بهذه النعمة حقا • ولولا حدوث جريمة أو حادثة أو خيانة لظلوا يتمتعون بهذه النعمة حتى اليوم• أما الشعوب التى تربط فكرة خلود الجنس البشرى بتغيير الحيــات أو الســحالى أو الخنافس أو ما أشــبه ذلك لجلــودها فهى تنظــر بطبيعة الحال الى هذه الحيوانات بوصفها منافسا بغيضا سلبهم الارث

---

(1) يعد هذا الاقليم أصل فيتنام • (المترجمة)

الذى شاء الاله ، أو شاءت الطبيعة أن تمنحنا اياه حقا • ومن ثم فان هذه الشعوب تحكى حكايات تذكر فيها كيف أن هذه الكائنات الدنيئة قد دبرت مكيدة لكى تحرم الانسان من هذا الحق الذى لا يقدر بثمن • وهذا النوع من الحكايات ينتشر انتشارا كبيرا فى أنحاء العالم، وليس غريبا أن نجدها منتشرة بين الشعوب السامية • ويبدو أن قصة سقوط الانسان التى تروى فى الفصل الثالث من سفــر التكوين ، تعد رواية مختصرة لهذه الأسطورة البدائية ، فهى فى حاجة الى قليل من الاضافة حتى يكتمل تشابهها بمثيلاتها التى لا تزال القبائل البدائية تحكيها فى بقاع كثيرة من العالم • فالجزء المحذوف فى الحــكاية العبرية ، وربما كان الجزء الوحيد ، هو الذى يتمثل فى ســكوت القاص عن ذكر أكل الحية من فاكهة شجرة الحيــاة ، وما نتج عن ذلك من حصــول هذا الحيوان الدنىء على الخلود • على أنه ليس من العسير علينا أن نفسر سبب وجود هذه الفجوة فى الحكاية العبرية ، فالاتجاه العقلانى الذى يبدو فى ثنايا قصة الخلق العبرية ، ذلك الاتجاه الذى سلبها كثيرا من الملامح التى تزين الرواية البابلية المطابقة لها ، أو تشوها ، قد شــكل عقبة فى سبيل نسبة فكرة الخلود المزعومة الى الحية • وقد اســتبعد مؤلف القصة فى صيغتها الأخيرة عاقبة الاساءة هذه من طريق المؤمنين عن طريق عملية بسيطة ، هى حذف هذه الحادثة كليــة من القصــة العبرية • ومع ذلك فان هذه الفجوة الواسعة التى أحدثها الكاتب فى القصــة العبرية نتيجة تطفله ، لم تغب عن الدارســين الذين أخذوا يجيلون النظر ، فى غير جدوى ، فى الدور الذى كان يجب أن تلعبــه الحية فى القصة العبرية • واذا كان تفسيرى للقصة العبرية صحيحــا فاننى أدعه للمنهــج المقارن لكى ييسد الفجــوات فى التراث الفنى القديم ، بعد أن مرت عليه آلاف السنين ولكى يحتفظ له ، على ما فيه من سذاجة بدائيــة ، بالألوان البربرية المرحة التى خففت من حدتهــا أو محتها يد الفنان العبرى الماهرة •

الفصل الثالث

علامة قابيـــل

نقرأ فى سفر التكوين أن « قابيل » لفظه مجتمعه عندما قتل أخاه هابيل وأصـــــبح بعد ذلك هائما شريدا على وجه الأرض • ولما كان يخشى من أن يقتله أى فرد يقابله ، احتج على الرب لمـــا آل اليه حظه العثر • وأشفق عليه الرب كل الاشفاق ، الى درجة أن « جعـــل الرب لقابيل علامة لكى لا يقتله كل من وجده »(١) •

فما العلاقة التى ميز بهـــا الرب أول قاتل علـــى وجه الأرض ؟ أو ما الاشارة التى حددها له ؟

من المحتمل كل الاحتمال أن هذه القصة تحتوى على بقايا عادات كان يتبعها القتلة • وعلى الرغم من أنه ليس فى وسعنا أن نأمل فى أن نحدد الشكل الحقيقى لهذه العـــلامة أو الاشـــارة ، فان الموازنة بين العادات التى يتبعها القتلة فى بقاع أخرى من العالم ، ربما أعانتنا على تفهم ملامحها العامة على الأقل •

لقد رأى « روبرتسون سميث » أن تلك العـــلامة التى نتســـاءل عنها ، كانت علامة القبيلة ، وهى شعار يحمله كل فرد من أفراد القبيلة بقصد حمايته ، وذلك عن طريق الاشـــارة الى أنه ينتمى الى جمـــاعة يمكن أن تثأر لقتـــله • ومن المؤكد أن مثـــل هذه العـــلامة مألوفة بين الشعوب التى احتفظت بالنظام القبلى • ومثال ذلك ، هنـــاك شـــعار رئيسى تعرفه القبائل البدوية التى تعيش فى العصر الحاضر يتمثل فى

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ •

طريقة معينة فى تصفيف شعورهم • وفى كثير من أنحاء العالم ، وبصفة خاصة فى افريقيا ، يكون شعار القبيلة وشما أو « شلخا » يحفر فى عضو من أعضاء الانسان•ومن المحتمل أن تكون وظيفة هذه الشعارات هى حماية الفرد الذى ينتمى الى قبيلة ما على نحو ما افترض « روبرتسون سميث » • على أنهينبغى لنا أن نتذكر ، من ناحية أخرى ، أن هذه الشعارات ، على العكس ، ربما زادت من خطورة موقف الفرد اذا ما كان فى بلد معاد لقبيلته ، ذلك لأنها تبرزه بوصفه شخصا معاديا لهم • على أننا اذا سلمنا بأن مهمة هذه الشعارات هى حماية حاملها ، فما زال هذا التفسير ، اذا ارتضيناه بالنسبة لعلامة « قابيل » لا يتلاءم مع موقف « قابيل تماما ، ذلك لأنه تفسير يتسم بالعمومية التامة • فاذا كانت العلامة من شأنها أن تحمى كل فرد من أفراد القبيلة ، سواء أكان قاتلا أم غير قاتل ، فان حوادث قصة قابيل فى مجموعها ، تنحو الى أن تبرز لنا أن علامة قابيل لم يكن يحملهاكلفرد من أفراد جماعة « قابيل ، وانما كانت خاصة بقابيل وحده • ومن ثم فنحن مضطرون لأن نبحث عن تفسير آخر من زاوية أخرى •

فنحن نخلص من حكاية « قابيل » نفسها الى أن قابيل كان معرضا لأخطار أخرى خلاف كونه معرضا لأن يقتله أى فرد يقابله لكونه طريد مجتمعه • فلقد قال الرب : « ماذا فعلت • صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض • فالآن أنت ملعون من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها • تائها وهاربا تكون فى الأرض »(١) ••

ومن هنا يتضح أن دم الأخ المقتول يشكل خطرا طبيعيا على القاتل ، فقد لوث دم القتيل الأرض ، ومنعها من أن تفيض بخيراتها• ومن ثم كان الاعتقاد فى أن القاتل قد بث السم فى منابع الحياة ، ونتيجة لذلك فقدعرض مصدر طعامه ، وربما طعام غيره ، للخطر •

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٠ الى ١٢ •

ومن المسلم به ، بناء على وجهة النظر هذه ، أنه يتحتم معاقبة القاتل وطرده من البلد الذى يشكل وجوده فيه خطرا على الدوام . انه أصبح أشبه بالمبتلى بالطاعون ، ومحاطا بجو من السموم ، ومصابا بعـدوى الموت ، وربما تلوثت الأرض بلمسة من يده . وفى هذه الحال يمكننا أن نفهم نظاما ما بعينه فرضه قانون « أتيكا » ، فالقـاتل الذى نفى من « أتيكا » ، واتهم فى أثناء غيابه بتهمة أخرى ، كان يسمح له بالعودة الى بلده لكى يدافع عن نفسه . ولكنه لا يسمح له بأن تطأ قدمه الأرض ، وانما عليه أن يدافع عن نفسه وهو على ظهر السـفينة . وحتى هذه السفينة لا يسمح لها بأن تلقى مرساها أو تنزل سلمها ، كما لا يسمح للقضاة بأن يتصلوا بالمذنب ، وانما عليهم أن يصدروا حكمهم جالسين عند الشاطىء أو واقفين عليه . ومن الواضح أن الغرض من هذا النظام هو وضع القاتل فى الحجر الصحى . حتى لا يصيب « أتيكا » بآفة ، اذا ما مست قدماه ترابها ، أو حتى اذا اتصل بها بطريق غير مبـاشر عن طريق مرساة السفينة أو سلمها . ومن أجل هذا السبب نفسه ، فان مثل هذا الرجل اذا ما كان عثر الحظ ، وقذف به البحر ، فى أثناء ابحـاره على شاطىء البلد الذى ارتكب فيه جرمه ، فانه ، وان كان يسمح له حقا أن ينصب خيمته على الشاطىء حتى تفد سفينة وتقله معها ، الا أنه كان يتحتم عليه أن يجلس على الشاطىء ويدلى قدميه فى الماء طوال الوقت . حى يبطل مفعول السم الذى يظن أنه غرســه بقـدميه فى التربة اذا ما مستها قدماه ، أو هو على الأقل يخفيه بذلك من تأثيره .

ونظام الحجر الصحى الذى فرضه قانون « اتيكا » على القاتل ، له ما يناظره عند أهالى جزيرة « دوبو » البدائيين ، وهى جزيرة تقع فى أقصى جنوب شرق « غينيا الجديدة » ، فهؤلاء مازالوا يفرضـون العزل على القتلة حتى اليوم . وقد كتب حول هذا الموضوع مبشر أقام فى هذه الجزيرة سبعة عشر عاما ، فقال : « ان الحرب يمكن أن تقـوم ضد أقرباء الزوجة . فاذا قتل شخص فى هذه الحرب ، فانه لا يجوز

أكل لحمه • فاذا قتل شخص أحد أقرباء زوجته ، يحرم عليه بعد ذلك أن يتناول طعاما أيا كان نوعه أو أية فاكهة من قرية زوجته • ولا يجوز لأحو أن يعد له الطعام سوى زوجته • فاذا خبت النار عندها وهى تطهو لزوجها الطعام ، لا يجوز لها أن تحضر شعلة من النار من أى بيت من بيوت قريتها • وعقوبة مخالفة هذا التحريم هو موت الزوج عن طريق تسميم دمه • ويكون التحريم أشد قسوة من ذلك ، اذا ما قتل الرجل أحد أقربائه •

فعندما قتل الزعيم « جاجانومور » أخاه (وهو وفقا لاصطلاحهم ابن خاله) لم يسمح له بالعودة الى قريته ، وكان عليه أن يشـــيد قرية يسكن فيها ، وأن يكون له وعاء خاص به من نبات القرع مطلى بالجير ، كما يكون له سكين فيها ، وأن يكون له ســكين وزجاجة ماء وفنجـــان ، ومجموعة من أوعية الطبخ • كما عليـــه أن يحصـــل على شراب جوز الهنـــد وعلـــى الفاكهـــة من مكان آخر غير قريتـــه • وكان عليـــه أن يظل موقدا ناره أطول وقت ممـــكن ، فاذا ما انطفـــأت لا يمكنـــه أن يعيـــد ايقـــادها من نار أخرى ، بل عليـــه أن يحصـــل على شعلة النـــار عن طريق قدح الزند • فاذا خالف الزعيم هـــذه المحرمات ، فمن الممكن أن يبث دم أخيه القتيل السم فى دمه ، فيتورم جسمه ويمـــوت ميتة رهيبة •

من خلال هذه الأمثلة نرى أن أهالى جزيرة « دوبو » يعتقدون أن دم القتيل يفعل السم فى جسم القاتل ، وذلك اذا ما جرؤ القاتل على أن تطأ قدمه قرية القتيل ، أوحتى ان اتصل بها بطـــريق غير مباشر • فعزله عن جماعته وقاية يحرص عليها لصالحه أكثر من حرصه عليهم لصالح الجماعة التى ينعزل عنها • ومن المحتمـــل أن النظـــام الذى يفرضه قانون « اتيكا » على القاتل ، يمكن أن يفسر على هذا النحو • ومن المحتمل عى أى حال أن النـــاس كانوا يعتقدون فى وجود الخطـــر المتبادل ، وبتعبير آخر ، أنهم كانوا يعتقدون أن كلا من القـــاتل ومن

يتصل به معرض لأن يصاب بتسمم دمه الذى يحدث عن طريق العدوى. ومن المؤكد أن «الاكيكويو» الذين يسكنون «أفريقيا الشرقية البريطانية» يعتقدون فى أن القاتل يمكن أن يصيب غيره بعـدوى ميكروب كريه • فهم يظنون أن القاتل اذا نام فى قرية وتنـاول الطعـام مع عائلة من العائلات فى كوخها ، فانه يصيب الشخص الذى تناول الطعـام معـه بدنس (ثاهو) الأمر الذى يهدد العائلة بحدوث كارثة ، ما لم يتمكن الطبيب من ازالة الدنس فى حينه • فالجلد الذى ينام عليه القـاتل يمتص ما ابتلى به من دنس ، ومن ثم فهو يعرض من ينام عليـه بعد ذلك للاصابة بهذا الدنس ولهذا فان العائلة تستدعى الطبيب لكى يطهر الكوخ وسكانه •

وكذلك « يعد القاتل » عند المغاربة سكان مراكش « شخصا نجسا على نحو ما ، وهو يظل هكذا سائر سنى حياته • فالسم ينضـج من تحت أظافره ، ومن يشرب من الماء الذى غسل فيه يده ، يصـاب بداء وبيل ، كما أن لحم الحيوان الذى يقوم بذبحه لا يعـد صالحا للأكل ، وبالمثل يشارك فى أكله • فاذا وفد على مكان تحفر فيه بئر ، فان المياه تتسـرب فى باطن الأرض فى الحال • وقد أخبرنى أهالى منطقـة « الحياينة » فى بلاد المغرب ، أن القاتل لم يكن يسمح له أن يسير فى حقول الخضر ، أو يدخل حدائق الفاكهة ، أو أن تطأ قدمه مكان درس الحنطة أو يدخل مخزن الغلال أو أن يسير بين الخراف • والقـاعدة المألوفة ، وان كانت لا تتبع بشكل عام ، الا يقوم القاتل بذبح ضحية عيد الأضحى بنفسه • وهناك تحريم مشـابه بهـذا تلتزم به بعض القبائل التى يتحدث أغلبها اللغة البربرية ، وهو تحريم يفرض على من يقتل كلبا ، اذ أن الكلب من وجهة نظرهم حيوانا نجسا ، وكل نقطة من الدم تخرج من جسم الكلب تعد نجسة ومأوى للجن •

على أن دم هابيل فى القصة التورانية ليس هو الشىء الوحيد الذى شخصه القاص • فاذا كان قد صور الدم يصرخ صراخا عاليا ، فقـد صور الأرض فاغرة فاها لتستقبل دم الضحية • وفى ملحمة الاليـاذة

شخص أخيل الأرض على نحو مماثل ، اذ صور الأرض تشرب من دم أغاممنون القتيل • ولكن خلع الصفات الانسانية على الأرض يمتد خطوة أبعد من ذلك فى قصة سفر التكوين ، ذلك أن « الأرض أحلت اللعنة بالقاتل » كما تقول القصة ، وعندما حاول أن يفلحها لم تنبت له خيراتها، لأنه قدر له أن يصبح هائما شريدا على وجه الأرض • والمقصود بذلك فيما يبدو هو أن ارض ، وقد تلوثت بدم القتيل واستاءت لجريمة الدم ، أبت أن تتيح للحب الذى بذره المجرم أن ينمو ويحمل ثمارا ، بل انها طردت القتيل من الارض الخصبة التى شب عليها من قبل ، وأخرجته الى المتاهات القاحلة حيث يهيم فيها بلا مأوى ولا طعام • وليست فكرة أن الأرض كائن حى يصارع ضد ما يرتكبه سكانها من اثم ويطردهم بازدراء من أحضانها ، غريبة فى العهد القديم • فنحن نقرأ فى سفر الأحبار « أن الأرض تقذف سكانها » اذا هم دنسوها كما أن الاسرائيليين قد حذروا تحذيرا رهيبا من ألا يحافظوا على شريعة الرب وأحكامه : « فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم اياها كما قذفت الشعوب التى قبلكم »(١) •

ويبدو أن الاغريق كانوا يصطنعون مثل هذه الأفكار عن تلوث الأرض بدم القتل المسفوح ، أو بدم الأقرباء بصفة عامة ، فقد حكى فى تراثهم كيف أن « الخاميون » كان يطارده شبح أمه « ايريفلى » التى قتلها ، فهام على وجهه فى الأرض فى غير راحة ، حتى لاذ فى النهاية بنبوءة معبد « دلفى » • وهناك أخبرته الكاهنة أن « المكان الوحيد الذى لن يطارده فيه شبح أمه « ايريفيلى » ، هو أكثر الأماكن حداثة ، وهو المكان الذى عراه البحر من بعد أن سفك دم أمه » • أو أن الكاهنة أخبرته وفقا لما ذكره « توسيديد » : « أنه لن يتخلص من فزعه الا اذا عثر على البلد الذى لم تكن قد أشرقت عليه الشمس عندما قتل أمه ، وكان مغمورا بالمياه حتى ذلك الحين ، فيسكنه ، لأن سائر بقاع الأرض قد تلوثت بجريمته » • فرحل « الخاميون » مقتفيا أثر الطريق الذى أخبرته به النبوءة حتى اكتشف عند منبع نهر

---

(١) انظر سفر الأحبار (اللاويين) ١٨ : ٢٨ •

« أشيليوس » جزر « ايخيناديان » الصغيرة العارية التى قيل : ان النهر قد صنعها من الطين الذى جرفه من شواطئه بعد أن اقترب الآثم جريمته ، فاتخذ القاتل هذه الجزر مأوى له • ووفقا لرواية أخرى للأسطورة ، استقر القاتل بعض الوقت فى وادى « بسوفيس » المرتفع الأجرد الذى يقع بين جبال أركاديا المهيبة • ولكن حتى هذه الجزر رفضت أن تقدم خيراتها للقاتل ، ومن ثم اضطر أن يستأنف تجواله المضنى كما فعل قابيل •

والاعتقاد فى أن الأرض ذات الوهية قوية ، يدنسها ويسىء اليها دم الانسان المسفوح ، ومن ثم يتحتم أن تقدم لها التضحيات حتى تهدأ ، عقيدة تنتشر ، أو كانت تنتشر حتى زمن قريب بين بعض قبائل « السنغال الأعلى » ، التى تكفر حتى عن الجراح التى انسكب الدم منها ، دون أن يفضى هذا الانسكاب الى الموت • ففى اقليم « البوبو » يقدم القاتل شاتين وكلبا وديكا لزعيم القرية الذى يقدمها بدوره ضحية للأرض ، بأن يذبحها ويربطها فى خشبة يثبتها فى الأرض • أما أسرة القتيل ، فلا يقدم لها شىء • وبعد هذا يأخذ أهالى القرية ومعهم الزعيم ، نصيبهم من الضحية ، ويستثنى من ذلك أسرة القاتل وأسرة المقتول • أما اذا حدث شجار بين بعض أفراد « لبوبو » ، وجرح بعضهم جراحا لم ينسكب منها الدم ، فانهم لا يقدمون ضحية عند ذلك • أما اذا انسكب الدم ، واستاءت الأرض لمرآة ، لزم تقديم الضحية لها حتى يهدأ غضبها ، فيقدم المذنب لزعيم القرية نعجة وألف محارة [1] • أما النعجة فيقدمها الزعيم ضحية للأرض ، وأما المحار فيوزعه على أكبر رجال القرية سنا ، كما يوزع عليهم لحم النعجة بعد أن يقدم للأرض • وأما أهل القتيل فيهملون كلية فى هذا الاحتفال ، ولا يقدم اليهم شىء ، وهو تصرف منطقى لأبعد حد ، فليس الغرض من هذه الطقوس تعويض أهل القتيل على حساب القاتل ، بل الغرض منه تهدئة سورة غضب

(١) صدفة صفراء كانت تستخدم كعملة وبخاصة فى افريقيا وآسيا •
(المترجمة)

الأرض ، تلك القوة الالهية الجبارة التى استاءت لمنظر الدم المسفوك • ومن ثم فان الطرف الذى لحقت به الاساءة ، لا يمنح شيئا فى هذه الظروف ، وانما يكفى أن تبتلع الأرض روح النعجة حتى يهدأ غضبها • فالأرض عند « البوبو » وغيرهم من الشعوب السوداء ينظر اليها بوصفها الهة عظيمة •

وتتشابه معتقدات قبيلة « ناونوما » وعاداتها ، وهى قبيلة أخرى تسكن « السنغال الأعلى » ، مع معتقدات البوبو وذلك فما يختص بدم القتيل المسفوح • فقد نفت القبيلة قاتلا لمدة ثلاث سنوات وألزمته بدفع دية كبيرة من القطيع والمحار ، لا لتقدم الى عائلة القتيل ، بل الى الأرض والالهة المحليين الذين استاءوا لمرأى الدم المسفوك • ويقوم الكاهن الذى يحمل لقب « سيد الأرض » بتقديم الثور أو الثيران ضحية للأرض الغضبى ، كما يقسم لحم الضحية والمحار معا على أكبر رجال القرية سنا ، ولا تنال أسرة القتيل من ذلك شيئا ، أو هى على أحسن تقدير تأخذ نصيبا مناسبا من اللحم والنقود • أما فى حالة المشاجرات التى لا يقتل فيها أحد ، بل يسيل فيها الدم فحسب ، فان المعتدى يدفع دية تتكون من ثور وشاة وعنزة وأربع دجاجات لتقدم ضحية للالهة المحليين الذين غضبوا لرؤية الدم • ويقدم « سيد الأرض » الثور ضحية للأرض فى حضرة كبار رجال القرية كما تقدم الشاة ضحية للنهر ، والدجاج للصخور والغابة • وأما العنزة فيقدمها زعيم القرية ضحية لحيوانه المبارك (الفتيش) الذى ينتسب هو اليه • واذا لم تقدم كل هذه الدية ، فان الأهالى يعتقدون أن الآلهة ربما قتلت المذنب وجميع أفراد أسرته وهى فى سورة غضبها •

كل هذه الحقائق السابقة تشير الى احتمال أن العلاقة التى يميز بها القاتل لا يقصد بها أولا حماية القاتل نفسه ، بل يقصد بها حماية

الآخرين الذين يصادفهم والا انتقلت اليهم عدوى الدنس اذا ما اتصلوا به ، فيحل بهم غضب الاله الذى استاء لفعلته ، أو يحل بهم غضب شبح القتيل الذى يطارده • أى أن العلامة ، باختصار ، ربما كانت اشارة خطر تحذر الناس من خطر القاتل ، شأنها شأن الرداء الخاص الذى كان يتحتم على المجذوم فى بنى اسرائيل أن يرتديه ليحذر الأصحاء من خطره •

ومع ذلك ، فان هناك حقائق أخرى تنحو الى أن تبين أن العلامة التى يميز بها القاتل ، وكما يفهم هذا ضمنا من قصة هابيل ، كما يعنى بها صالح القاتل وحده • وأكثر من هذا فانها تشير الى أن الخطر الحقيقى الذى تحميه العلامة منه ليس هو غضب أقرباء ضحيته ، بل غضب شبح القتيل • وهنا يتراءى لنا أنه يجب علينا أن نغوص فى أعماق خرافات « أتيكا » كما سبق لنا أن تعرضنا لعادات « أثينا » • فأفلاطون يخبرنا أن شبح الرجل الذى قتل حديثا يغضب من قاتله ، ويسبب له المضايقات • فالشبح عندما يثور لمقتل صاحبه ، يطوف فى الأماكن التى ألف أن يأوى اليها • ومن ثم كان من الضرورى للقاتل ، أن يغادر بلده طيلة عام ، حتى يهدأ غضب الشبح • ولا ينبغى له أن يعود اليه الا بعد أن تكون الضحيات قد قدمت ، وأقيمت احتفالات شعائر التطهير • فاذا صادف أن كان القتيل غريبا عن البلد الذى قتل فيه ، فعلى القاتل أن ينأى بنفسه عن بلد القتيل وبلده معا ، كما أن عليه أن يسير فى الطريق الذى يوصف له ، وهو فى طريقه الى منفاه ، اذ من الواضح أنه لا يسمح له أن يتجول فى البلد وشبح القتيل الغاضب فى أعقابه •

لقد سبق أن رأينا أن قبيلة « أكيكويو » تعتقد أن القاتل مصاب بدنس (ثاهو) يمكن أن يصيب الآخرين عن طريق العدوى • ويتضح من خلال بعض الاحتفالات التى تقيمها هذه القبيلة بقصد التكفير عن

خطيئة القاتل ، أن هذا الدنس يرتبط بشبح القاتل • فشيوخ القــرية يذبحون خنزيرا عند احدى أشجار التين المقدسة التى تلعب دورا كبيرا فى الطقوس الدينية عند هذه القبيلة • وهناك يقيمون وليمة من أجزاء الحيوان الكثيرة اللحم ، ويتركون الأجزاء الدسمة والأمعــاء وبعض العظام لشبح القتيل الذى يعتقــدون أنه يأتى الى هذا المكان فى تلك الليلة بعينها فى صورة قط متوحش ويفترس هذه الأجزاء • فاذا ســد رمقه ، فانه يحجم عن أن يعود الى القــرية ليضايق أهلهــا • وجدير بالذكر أن قبيلة « كيكويو » لا تحتفل بشعائر تطهير دنس القــاتل ، الا اذا قتل أحد أفراد عشيرته • ومن ثم فهى لا تقيم هذه الشــعائر اذا هو قتل رجلا من عشيرة غير عشيرته أو قبيلة غير قبيلته •

ومن عادة قبيلة « باجيسو » التى تسكن جبل « الجــون » الذى يقع فى « أفريقيا الشرقيــة البريطانيــة » ، أنه يتحتم على الرجل أن يغادر قريته ، اذا ما اتهم بالقتل وكان القتيــل من نفس عشيرته ومن قريته ، وأن يبحث له عن مأوى فى مكان آخر • وهو مطالب بأن يصنع هذا كذلك وان استطاع أن يصالح أقرباء القتل •وعليه بعــد ذلك أن يذبح نعجة ، ويلطخ صدره بمحتوى أمعائها ، ويرمى ما تبقى من ذلك على ســطح بيت القتيل « لكى يهدىء من غضب الشــبح » • ويؤدى المحارب فى قبيلته « باجيسو » هذه الشعائر اذا كان قد قتل رجلا فى احدى المعارك • ويحق لنا أن نفترض ، ونحن مطمئنون ، أن الغــرض من اقامة هذه الشعائر ، هو العمل على تهدئة غضب شــبح القتيــل • ويمكن للمحارب بعد ذلك أن يعــود الى قريته ، ولكن بشرط ألا يقضى الليلة الأولى فى بيته ، بل يقضيها فى بيت أحد أصدقائه • وفى مســاء تلك الليلة يذبح شاة أو نعجة ، ويضع محتويات أحشائها فى اناء ، بعد أن يلطخ بها رأسه وصــدره وذراعيــه • فاذا كان له أولاد ، فانهم يلطخون أنفسهم على نحوذلك • حتى اذا ما حصن المحــارب نفســه وأولاده على هذا النحو ، مضى الى بيته فى جرأة ، ولطخ جوانب بابه

بأسماء الحيوان ، ورمى ما تبقى منها على السطح لكى يأكلها الشبح ، فيما يبدو ، لأنه يمر فوق هذا السطح ، ان لم يكن قد استقر فوقه • ولا يجوز للقاتل أن يلمس بيده الملوثة بدم القتيل الطعام مدة يوم كامل ، بل يوصل الطعام الى فمه عن طريق زوج من العصى أعد لهذا الغرض • وفى اليوم التالى تترك له الحرية فى أن يعود الى بيته وأن يستأنف حياته العادية • ولا تلزم زوجة القاتل بهذه القيود ، بل إنه يمكنها أن تشارك أسرة القتيل فى حدادها ، وأن تشترك فى مأتمه • فربما هدأ هذا الحزن المصطنع مشاعر شبح القتيل ، وأغراه بأن يترك زوجها وشأنه •

ويعــزل القاتل فى قبيلة « نيلوتيك كافيروند» ، وهى قبيلة أخرى تسكن فى « أفريقيا الشرقية البريطانية » ، عن أفراد قريته ، ويسكن فى كوخ مع امرأة عجوز تقوم على شــئونه ، وتطهــو له الطعــام ، وتطعمه كذلك ، لأنه لا يجوز له أن يلمس الطعــام بيده • وتستمر هذه العزلة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع يأتى اليه رجل يكون هو نفســه متهما بالقتل ، أو سبق له أن قتل رجلا ، معركة حربية ، ويصطحبه الى نبع ويغسل له جسمه • ثم يذبح هذا الرجل نعجة ، ويطهــو لحمهــا ويضع أربع قطع من اللحم على أربع عصى ، ثم يقدم قطع اللحم الأربع الى القاتل ليأكلها واحدة تلو الأخرى ، ثم يضــع الرجل بعد ذلك أربع كرات معجونة من الثريد على العصى الأربع ، ويقدمها للقاتل لكى يأكلها كذلك • وفى النهاية يقطع جلد النعجة الى أشرطة ، ويلف شريطا منهــا حول رقبة القاتل وشريطا حول كل من معصميه ، وكل هذه الشعائر يؤديها الرجلان منفردين عند النهر • وبعد ذلك يكون القاتل حرا فى أن يعــود الى بيته • وتقول القبيلة : ان شبح القتيل لا يذهب الى المكان الذى يرقد فيــه الميت ، بل يظــل يحلق فوق القــاتل ، حتى ينتهى من تأدية هذه الشعائر •

ولا يخاف القــــاتل فى قبيلة « بولوكى » التى تعيش فى « أعالى الكنغو » ، من شبح من قتله ، اذا كان هذا القتيل ينتمى الى البــلاد المجاورة لبلده ، وذلك لأن المساحة التى يستطيع أن يتجول فيها الشبح

« البولوكى » ، محدودة للغاية . على أن جريمة القتل التى يمكن أن ترتكب فى هذه الحالة دون أدنى خوف انما تخلق موقفا أشد خطورة اذا ارتكبت مع رجل من بلد القاتل نفسه ، فالقاتل يعلم عند ذاك ان الشبح يتجول على مقربة منه ، ومن ثم فان الخوف من انتقامه يؤرقه. وليس هناك لسوء حظه طقوس تذهب عنه الفزع . ولكنه ، رغم غياب هذه الطقوس ، يعلن الحداد على ضحيته ، كما كان القتيل أخاه : فهو يهمل زينته ، ويحلق رأسه ويصوم عن الطعام ، ويبكيه بدموع منسكبة كدموع التمساح ، ومن ثم فان علامات الحزن التى ينظر اليها الأوربى المخلص على أنها دليل على صدق الندم وتأنيب الضمير ، ليست سوى امارات حزن مزيفة يقصد بها خداع الشبح .

ومرة أخرى نجد أن القاتل عند « الهنود الأوماها » الذين يسكنون أمريكا الشمالية ، مطالب بأن يخضع لنظام صارم محدد لمدة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات ، وذلك بعد أن يصفح عنه أهل القتيل ويبقوا على روحه . فعليه أن يسير حافى القدمين وألا يأكل طعاما ساخنا ، ولا يرفع صوته عند الكلام ، ولا ينظر حوله . وعليه أن يلف ثوبه حول جسمه وجعله ملتصقا برقبته ، ولا ينبغى له أن يتركه يتدلى أو يفتحه وان كان الجو حارا . ولا يجوز له أن يحرك ذراعيه جانبا ، بل يحتفظ بهما ملتصقين الى جانبه . كما لا يجوز له أن يمشط شعره ، ولا أن يتركه يتطاير فى الهواء . ولا يسمح لأحد أن يأكل معه ، ولا يبقى معه فى الخيمة سوى واحد من أقربائه . فاذا خرجت قبيلته للصيد ، تحتم عليه أن يضرب خيمته فى مكان سائر القوم بحوالى ربع ميل ، « لئلا يثير شبح الميت ريحا تحدث اضرارا وتعطل الصيد » . وربما قدم انا هذا السبب الذى يفسر ابعاد القاتل عن مخيم الجماعة التى تقوم بالصيد ، المفتاح لفهم ما يفرض على القتلة عند الشعوب البدائية من تعليمات محددة . فابعاد هؤلاء الناس عن المجتمع ليس بدافع النفور الأخلاقى من جرائمهم ، بل تفرضه الدوافع التحفظية التى تتلخص

ببساطة فى الخوف من الشبح الخطير الذى يعتقد فى أنه يقتفى أثر القاتل ويطارده •

ومن عادة « اليابيم » الذين يسكنون الساحل الشمالى الشرقى من « نيو غينيا » أن يضع أقرباء القاتل علامة بالطباشير على جباه أقرباء القتيل ، وذلك اذا قبل أقرباء القتيل دية الدم بدلا من الأخذ بالثأر • والغرض من هذه العلامة هو « تجنب مضايقات شبح القتيل الذى قد يخطف خنازيرهم أو يخلع أسنانهم ، لأنهم فشلوا فى الأخذ بثأرهم » • فأقرباء القتيل هم الذين يعملون وفقا لهذه العادة ، وليس القاتل نفسه ولكن الهدف واحد على أية حال ، اذ من الطبيعى أن يحيل شبح القاتل غضبه الى أقربائه القساة الذين لم يثأروا للدم بالدم • ولكنه فى اللحظة التى ينقض عليهم فيها ليخلع أسنانهم أو ليخطف خنازيرهم أو يقوم بأى عمل آخر يضايقهم ، يفاجأ برؤية العلامات البيضاء مرسومة على جباههم السوداء أو البنية اللون • فهذه العلامة اذن هى بمثابة الايصال الذى يثبت أن الدية قد دفعت كاملة ، وهى دليل على أن أقارب القتيل قد قبلوا تعويضا ماليا عن القتيل وان لم يطلبوا تعويضا دمويا • وبهذا القدر اليسير من العزاء يجب على الشبح أن يكون قانعا ، وأن يكفى أسرته أية مضايقات فى المستقبل • وربما رسمت العلامةنفسها بوضوح على جبهة القاتل لتثبت أنه دفع المبلغ المطلوب من النقود فورا أو دفع ما يساوى هذا المبلغ فوريا وفقا لما يصطلح عليه محليا ، جزاء فعلته • ومن ثم فان الشبح لا يطالبه بشىء بعد ذلك • فهل كانت علامة قابيل من هذا القبيل ؟ وهل كانت اثباتا على أنه دفع دية الدم ؟ وأنها بمثابة الايصال على أنه قد دفع الدية فورا ؟ ربما كان الأمر كذلك ، ولكنه لايزال هناك احتمال آخر ينبغى أن يوضع موضع الاعتبار • من الواضح ــ بناء على النظرية التى أشرت اليها من قبل ــ أن قابيل لم يكن ليميز بعلامة الا اذا كان قد قتل رجلا من قبيلته أو عشيرته ،حيث ان التعويض لم يكن يدفع لأهل القتيل الا اذا كانوا من قبيلته أو عشيرته • على أن خوف الناس

من شبح القتيل العدو ليس أقل من خوفهممن شبح القتيل الصديق • وما الوسيلة اذن لتهدئة غضب الشبح العدو ان لم يكن ذلك عن طريق دفع الدية لأقربائه ؟ • لقد كانت الشعوب تصطنع كثيرا من الوسائل لحماية المحاربين من أشباح الرجال الذين عجلوا بهم الى الموت • ويبدو أنه كان من بين وسائل الحيطة أن يتنكر القاتل حتى لا يتعرف عليه الشبح • ووسيلة أخرى هى أن يحيل شكله الى صورة مفزعة أو كريهة تنفر الشبح فلا تجعله يتحرش به • وربما فسرت هذه الوسيلة أو تلك العادات الآتية التى اخترتها من بين عدد هائل من الأحوال المشابهة لما أشرت اليه •

فقبلة « با ـ ياكا » ، وهى احدى قبائل « البانتو » التى تسكن فى « ولاية الكنغو الحرة » ، » تعتقد أن الرجل الذى قتل فى احدى المعارك ، يرسل روحه لكى تأخذ بثأره من الرجل الذى قتله • غير أن القاتل قد يهرب من هذا الانتقام بأن يضع على رأسه ريشا أحمر من ريش ذيل الببغاء ، وأن يصبغ جبهته باللون الأحمر » • ويعتقد « الثنجاويون » الذين يسكنون جنوب شرق افريقيا ، أن الرجل الذى قتل عدو له فى معركة معرض لخطر جسيم من قبل شبح ضحيته الذى يطارده ، وربما أصابه مس من الجنون • ولكى يقى القاتل نفسه شر شبح القتيل ، يتحتم عليه أن يعيش فى عزلة فى عاصمة بلاده عدة أيام لا يذهب فى أثنائها الى زوجته ، ويرتدى الملابس القديمة ، ويستعمل ملاعق وأطباقا خاصة به • وقد كانت من عادة « الثونجاويين » فى الازمنة السالفة ، أن يصنع القاتل فيما بين حاجبيه وشما وأن يضع دواء فى مكان حفر الوشم ، فتبرز أثر ذلك نتوءات تجعله يبدو كالجاموسة العابسة • « واذا قتل المحاربون « الباسوتو » [1] أعداء لهم ، وجب تطهير هؤلاء المحاربين • فيقوم زعيم القبيلة بغسلهم ويقدم

---

(١) قبيلة من أكبر قبائل « البانتو » فى جنوب أفريقيا .
(المترجمة)

ثورا ضحية فى حضرة الجيش كله . كما أن المحاربين يدهنون أجسامهم بمرارة النور ، الأمر الذى يمنع شبح العدو من تعقبهم بعــد ذلك » .

ومن عادة قبائل « البانتو » التى تســكن فى اقليم « كافيراندو » الذى يقع فى أفريقيا الشرقية البريطانية » ، أن الرجل اذا قتل عدوا له فى معركة ، فانه يحلق شعره عند عودته الى بيته كما يدلك له أصدقاؤه جسمه بدواء يتكون من روث البقر ، وذلك لكى يمنعوا روح الميت من مضايقته . أما عند قبائل « نيلوتيك » التى تسكن فى اقليم « كافيراندو » كذلك ، « فان المحارب يعزل عن قريته اذا هو قتل شخصا آخر فى احدى المعارك ، حيث يقيم فى كوخ حوالى أربعة أيام . وهناك تطهو له امرأة عجوز طعامه ، وتطعمه كما يطعم الطفل ، اذ أنه لا يسمح له بأن يلمس بيده أى نوع من الطعام . وفى اليوم الخامس ، يرافقه رجل ويذهب معه الى النهر ، فيغسل له جسمه ، ويذبح له نعجة بيضــاء ويطهوها ويطعمه لحمها . أما جلد النعجة فيقطعه الى شرائح تلف حول معصمه وحول رأسه . ثم يعود القاتل الى منزله المؤقت ، ويبيت فيه تلك الليلة. وفى اليوم التالى يأخذه الرفيق الى النهر مرة أخرى ، ويغسل له جسمه ويقــدم له دجاجة بيضاء يذبحها القاتل بنفسه ، ويقوم الرفيق بطهيها له واطعامه لحمها . وعندئذ يعلن طهره ويسمح له أن يعود الى بيته . وقد يحــدث فى بعض الأحيان أن يصيب المحارب رجــلا بسهامه فى احــدى المعارك ، فيموت بعد وقت متأثرا بجراحه ، وعند ذاك ، يذهب أقرباء المصاب بعــد أن توافيه منيته ، الى المحارب ويحملون اليه نبأ وفاة المصــاب ، وعندئذ يعزل المحارب فى الحال عن مجتمعه حتى يتم اجراء الطقوس السالف ذكرها . ويقول الناس : ان هــذه الطقوس من الضرورة بمكان ، لأنها تحرر المحارب من شبح قتيله الذى يظــل ملازما له ، ولا يفارقه الا بعــد تأدية هــذه الطقوس . فاذا رفض المحارب أن يؤديها فان الشبح يسأله : « لماذا لم تؤد الطقوس وتتركنى وشأنى ؟ » فاذا أصر المحارب على عدم الاذعان لمطلب الشبح ، أمسك الشبح برقبته وخنقه .

لقد سبق أن رأينا أن القاتل عند قبائل « نيوليتيك » التى تسكن اقليم « كافيريندو » عليه أن يؤدى طقوسا مشابهة لهذه الطقوس من أجل الغرض نفسه ، وهو أن يخلص نفسه من شبح القتيل ، فان هو لم يفعل هـذا ، ظل شبح القتيل يطارده •

وهذا التشابه التام بين الطقوس فى هاتين الحالتين ، بالاضـافة الى دوافعها التى عبرت عنها القبائل صراحة ، يلقى الضوء على الهدف من طقوس التطهير التى يتحتم على القاتل أن يؤديها ، محاربا كان أم غير محارب ، ويتلخص هذا الهـدف ببسـاطة فى تخليص القاتل من شبح قتيله حتى يتجنب ما يمكن أن يصيبه الشبح به من أذى • وربما كان الغرض من لف شرائح جلد النعجة حول معصم القاتل ورأسـه ، هو اخفاء القاتل عن الشـبح • وعلى الرغم من أن النصـوص التى نستشهد بها لا تذكر شيئا عن شبح القتيل ، يمكننا أن ندعى ، ونحن مطمئنون لسلامة ادعائنـا : أن الغرض من طقـوس التطهـير التى يؤديها المحاربون ، أو تؤدى لهم ، هو تهدئة الأرواح الغاضبة أو ابعادها عن قتلة أصحابها ، أو خداعها • فمن عادة « النجونيين » الذين يسكنون « افريقيا الوسطى البريطانية » أنه عندما يقترب الجيش المنتصر من القرية الملكية ، يقف عند شاطىء مجرى مائى ، ويطلى المحاربون الذين قتلوا أعداء لهم فى المعركة أجسامهم وأذرعهم بالجص • أما المحاربون الذين لم يكونوا هم البادئين بالقتل ، بل كانوا عونا لاخوانهم فى الاجهاز على أعدائهم فيطلون أذرعهم اليسرى فقط بالجص • وفى هذه الليلة ينام القاتلون فى حظيرة مكشوفة مع القطيع ، ولا يجرءون على الاقتراب من بيوتهم • وفى الصـباح الباكر ينزلون النهر ليزيلوا عن أجسامهم الجص • ثم يحضر الطبيب الساحر ويقـدم لهـم جرعة من الدواء السحرى ، ويطلى أجسامهم مرة أخرى بطبقة من الجص • وتتـكرر هذه العملية ستة أيام على التوالى حتى يتم تطهيرهم • وعند ذاك تحلق رءوسهم ويسمح لهم بالعودة الى بيوتهم ، بعد التأكد من طهرهم من كل دنس • ومن عادة « الجالا » من سكان « بورانا » أنهم عنـدما

يعود المحاربون الى القرية ، تقوم النساء بغسل أجسام المنتصرين الذين قتلوا بعض أعدائهم بمزيج من الدهن والزبد ، كما تطلين وجوههم بطلاء أحمر وأبيض • أما المحاربون من « الماساى » فانهم عندما يقتلون بعض الهمجيين فى معركة ، يطلون النصف الأيمن من أجسامهم باللون الأحمر والنصف الأيسر باللون الأبيض • وبالمثل يفعل الرجل من قبيلة « نانديى » اذا قتل رجلا من قبيلة أخرى ، فهو يطلى أحد جانبى جسمه باللون الأحمر والجانب الآخر باللون الأبيض ، وهو يعد نجسا مدة أربعة أيام بعد قتله القتيل ، لا يسمح له فى أثنائها بالعودة الى بيته ، بل يتحتم عليه أن يشيد لنفسه مأوى بجانب النهر ، ويعيش فيه ، ولا يسمح له أن يختلط بزوجته أو بعشيقته ، ولا يأكل الا الثريد ولحم البقر والماعز • وفى مساء اليوم الرابع يتحتم عليه أن يزيل عن نفسه الدنس بتناول شراب قوى مسهل مستخرج من شجرة « السيجيتيت » ولبن الماعز الممزوج بدم ثور مخصى • واذا قتل رجل من قبيلة « واجوجو » التى تسكن « افريقيا الشرقية » عدوا له فى معركة ، فانه يرسم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ، ودائرة سوداء حول عينه اليسرى •

ومن المألوف عند الهنود « الطومسونيين » الذين يسكنون كولومبيا البريطانية ، أن يطلى الرجال الذين يقتلون أعداءهم وجوههم باللون الأسود • فاذا أهملوا هذا الاجراء الاحتياطى ، أصابتهم أرواح القتلى ، ووفقا لاعتقاد هؤلاء الهنود ، بالعمى • وكان الفرد من الهنود « البيماويين » اذا قتل رجلا من أعدائه القدامى وهم « الاباتشيون » ، اتبع على نحو منتظم أسلوبا صارما فى العزلة والتطهير يدوم ستة عشر يوما • ولا يسمح له طيلة هذه الفترة أن يمس لحما أو ملحا ، أو أن ينظر الى نار متوهجة ، أو يتحدث مع أى كائن حى • كما كان يقيم وحده فى غابة ، حيث تقوم على رعايته امرأة عجوز ، فتحضر له حصته الزهيدة من الطعام • كذلك كان يغطى رأسه معظم الوقت بطبقة من الطين ، ولا يجوز له أن يلمسها بأصابعه •

وقد حـدث أن قتلت عصابة من « الهنود التينيهيين » جماعة مستضعفة من الاسكيمو عند نهر « كوبر » ، وعند ذاك عـدت نفسها مصـابة بالدنس ، وكان على أفرادها بنـاء على ذلك ، أن يقوموا على أثر ذلك ببعض الالتزامات الغريبة لفترة ليست بالقصيرة ، فهؤلاء الذين قتلوا أعدائهم بأيديهم ، يمنعون كلية من أن يطهوا لأنفسـهم أو لغـيرهم الطعام • وكذلك لم يكن يسمح لهم أن يشربوا أو يدخنوا الا من وعاء أو غليـون يمتلكونه • وكذلك كان يحرم عليهم أكل اللحم المسلوق ، على حين كان يسمح لهم بأكل اللحم النيىء أو المشـوى على النار أو المجفف فى الشمس • وكان عليهم فى كل وجبـة قبـل أن يأكلوا أول لقمة ، أن يطلوا وجوههم باللون الأحمر الوردى فيما بين الأنف والذقن ، وبين الأذنين عبر الخـدين •

وكان من عادة « الهنـود التشينوكيين » الذين كانوا يسـكنون « أوريجون » و « واشـنطون » أن يسـود القـاتل وجهه بالفحم المعجون فى الشحم ، ويضع حول رأسه ورسغيه وركبتيه ومعصـميه حلقات من لحاء شجر السدر ، وبعد خمسة أيام ، يغسل وجهـه ليزيل الطلاء الأسود ويطليه مرة أخرى بطلاء أحمر • وفى أثناء هذه الأيام الخمسة لا يسمح له بأن يستغرق فى النوم ، بل له أن يرقد للراحة ، كما لا يسمح له بأن ينظر الى طفل أو الى أناس وهم يأكلون • وبعد أن تنتهى طقوس التطهير ، يعلق الحلقات التى كان يضعها حول رأسه على شجرة من المفروض أن تجف نتيجة لذلك فيما بعد •

ويعد قتل الهندى وقتل الحوت عملا رائعا عنـد الاسكيمو الذين يسكنون « خليج لانجتون » ، فمن يقتل منهم أحـد الهنود يوشم من الأنف حتى الأذن ، وأما من يقتل حوتا فيوشم من الفم حتى الأذنين • وكلا البطلين يمسك عن عمل مدة خمسة أيام كما يمتنع لـمدة عام عن تناول أطعمة بعينها وبخاصة رأس الحيـوان وأمعائه • وعنـدما تعود جماعة من قبيلة «أرونتا » التى تسكن وسط استراليا من بعثة انتقامية

يكونون قد أجهزوا فيها على عدو لهم ، فانهم يخشون شبح القتيل ، لأنهم يعتقدون أنه يتعقبهم فى هيئة طائر صغير يصيح صياحا حزينا • ولهذا فانهم يسكتون بضـــعة أيام بعد عودتهم عن الحديث عن فعلتهم ، ويطلون كل جزء من جسمهم بمسحوق الفحم ، ويزينون أنوفهم وجباههم بفروع الشجر الخضراء • وفى نهاية الأمر يطلون أجسامهم ووجوههم بألوان براقة ، ويحل لهم بعد ذلك أن يتحدثوا فى حرية عن فعلتهم • ومع ذلك فهم يستيقظون فى هدوء الليـــل ويصغون الى شكوى الطـــائر الذى يتوهمونه صوت ضحيتهم •

واذا قتل المحارب عند « الفيجيين » عدوا له فى المعركة ، تخلع عليه صـــفة القدسية ، أى يصبح محرما ، وعند ذاك يطلى الملك جسمه ، بالكركم من قمة رأسه الى أخمص قدميه • ثم يبنى له كوخ ليقضى فيه الليالى الثلاث التالية لذلك • ولا يسمح له فى هـــذه الليالى أن ينام مستلقيا بل ينام جالسا • كما لا يسمح له أن يغير رداءه أو يزيل الكركم عن جسمه ، أو يدخل بيتا فيه امرأة ، حتى تنقضى الليالى الثلاث •

وهناك عادة « فيجيانية » أخرى تشعر بأن هـــذه النظم التى تتبعها قبيلة « فيجى » كان يقصـــد بها حماية المحارب الفيجيانى من شبح قتيله ، وان لم تؤكد ذلك • فعندما كان هؤلاء الهمجيون يقومون بدفن رجل حيا ، كما كانوا يفعلون هـــذا كثيرا ، كانوا يحدثون ضجيجا فى هدوء الليل ، مستخدمين فى ذلك مزامير القصب والطبول المصـــنوعة من الأصـــداف البحرية ، الى غـــير ذلك من الوســـائل التى تحـــدث صخبا ، وذلك بقصد افزاع الشبح حتى لا يحاول العودة الى مسكنه القـــديم • كما أنهم يجردون هـــذا المســـكن من معالمه ويغطونه بكل ما يمكن تغطيته به ، فيبدو على هذا النحو منفرا للغاية ، فلا يجتـــذب شبح صاحبه اليه • وقد تعود هنود أمريكا الشمالية كذلك أن يتجولوا فى القرية وهم يصرخون صرخات مزعجة ويضربون على الأثاث وحيطان الأكواخ وأسطحها لكى يطردوا شبح العدو الغاضب الذى عذبوه حتى

الموت • ولا تزال مثل هذه العادة تتبــع فى بقاع كثــيرة من « غينيا الجديدة » و « الأرخبيل البسماركى » •

وبناء على ذلك فربما كان القصــد من تعليم قابيل بعــلامة هو اظهاره للشبح بمظهر كاذب • أو ربما كان الغرض منها اظهاره فى صورة منفرة أو مفزعة حتى لا يتعــرف عيله شبح القــاتل ، أو على الأقل يتجنبه • وقد سبق أن افترضت فى مكان آخر ، أن عادات الحــداد فى العموم ، كانت فى الأصــل وسيلة للتنكر تصطنع بقصــد حماية أقرباء الميت الأحياء من شبحه الذى انفصــل عنه حديثا بموته • وسواء كان هذا الافتراض صحيحا أم غير صحيح ، فمن المؤكد أن الأحياء يظهرون فى بعض الأحيان بمظهر مخادع حتى يهربوا من مراقبة شــبح الميت اياهم • ففى الأحيــاء الغربية من « تيمور » ، وهى جزيرة كبيرة تقع فى « الأرخبيل الهندى » ، تقف زوجات الميت ، قبل أن يوضــع زوجهن فى اللحــد ، وتبكينه ، كما يتحتم أن تقف بجانبهن رفيقاتهن فى القرية « وقد أسدل الجميــع شعورهن على وجوههن حتى لا يتعرف عليهن « نيتو » الميت ، أى شبحه » • وعندما يكون المريض عند « الهيريرو » الذين يسكنون « أفريقيا الجنوبية الغربية » فى ساعة الاحتضار ، فانه فى بعض الأحيان يسأل أحد الذين لا يحبهم ويقول لهم : « متى جئت الى هنا ؟ اننى لا أرغب فى رؤيتك فى هــذا المكان ؟ » • وعنــد ذاك يضغط على أصابع يد الرجل اليسرى بطريقة معينة بحيث يبرز طرف أصبع الابهام من بين أصابعه • وعنــد ذاك يعرف هــذا الرجل أن المحتضر قد قرر أن يأخذه معه بعيدا (أوكوتوايريرا) ، بعــد موته ، أى أنه سوف يموت كذلك • على أن مثل هــذا الرجل يمكنه ، فى كثير من الأحيان أن يتجنب خطر الموت الذى يهدده به الشخص المحتضر ، وذلك بأن يترك المكان الذى يرقد فيه المريض المحتضر فى سرعة ، ويبحث عن « أو نجانجا » ومعناه « الطبيب الساحر » ؛ لكى يخلع عنه ملابســه ويغسل له جسمه ويدهنه ويلبسه ملابس أخرى • وعند ذاك يهــدأ خوفه من تهديد الشخص المحتضر اياه بالموت ، ويقول : « الآن لم يعد

شيخنا يعرفنى » (نامبانو تاتى كى نديى اى) ومن ثم فليس هنـاك أدنى سبب يجعله يخاف الموت بعد ذلك •

ويمكننا أن نفترض على نحو هـذا أن قابيل قد هـدأ روعه بعد أن علمه الرب بعلامة ، معتقداً بذلك أن شبح أخيه الذى قتله لن يتعرف عليه ويضايقه • على أنه ليست لدينا وسيلة لأن نعرف بهـا على وجه التحديد شكل العلامة التى علم بها أول قاتل على وجه الأرض ، ومن ثم لا يمكننا سوى أن نطرح فرضا عفويا حول هذا الموضـوع • فاذا كان من حقنا أن نحكم على هـذه العلامة مستعينين بعادات البدائيين المشابهة لذلك فى الوقت الحاضر ، فان الرب يكون بذلك قد علم قابيل بعلامة حمراء أو بيضـاء أو سوداء ، وربما مزج بين هـذه الألوان ليكون منها لونا مناسبا فعلمه به • وربما لون جسمه كله بلون أحمر كما يفعل « الفيجيانيون » على سبيل المثال ، وربما لونه بلون أبيض كما يفعل « النجونيون » أو بلون أسود كما يفعل « الارونتانيون » ، وربما لون نصـف جسمه باللون الأحمر ونصفه الآخر باللون الأبيض كما يفعل « الساى » و « النانديون » • واذا كان الرب قد قصر جهده الفنى على وجه قابيل ، فربما رسـم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ودائرة سوداء حول عينه اليسرى على نحو ما يفعل « المواجوجيون » • أو أنه زين وجهه فيما بين الأنف والذقن ، وما بين الفم والأذنين ، بظل خفيف من اللون القرمزى كما يفعل « الهنـود التينيهيون » أو ربما غطى رأسه بطبقة من الطين كما يفعـل « البيمايون » • أو أنه غطى جسمه كله بروث البقر كما يفعل « الكافرينديون » • أو ربما وشـمه فيما بين الأنف والأذنين كما يفعل « الاسكيمو » • أو أنه فعل كما يفعل « الثنجاويون » ، فوشمه فيما بين الحاجبين ، بحيث يبدو كالجاموسة العابسة • وربما استطاع هذا الحـداد الأول (كلمة قابيل «قايين » Cain معنـاها الحـداد Smith) أن يتجـول فى بقاع الأرض القاحلة ، مزينا بهـذه الألوان ، دون أن ينتابه أدنى خـوف من أن يتعرف عليه شبح أخيـه ويتعقبه •

ان تفسير علامة قابيل علی هذا النحو من شأنه أن يخلص القصة التوراتية من السخف الواضح فيها ، فان تفسير العلامة بأن الرب علم قابيل بها لكي يحول بينه وبين أن يقتل على يد أى انسان آخر ، فيه اغفال لحقيقة أنه لم يكن على وجه الأرض من يقتله ، حيث ان الأرض لم يكن يعمرها آنذاك سوى القاتل ووالديه • أما اذا تبينا التفسير الذي مؤداه أن العدو الذى كان يخشاه القاتل هو شبح القتيل وليس انسانا حيا ، فاننا نتجنب بذلك التهاون الوقح الماثل فى اتهام الرب بزلة فى ذاكرته ، الأمر الذى لا يتلاءم كلية مع صفات الرب العالم بكل شىء • ومن ثم يؤكد المنهج المقارن مرة أخرى أنه دفاع قوى فى حق الرب •

الفصل الرابع

الطـــوفان الكبـير

١ ــ مقـــدمة :

عنـدما دعانى « مجلس المعهد الملكى للأنثروبولوجيا » لكى ألقى محاضرة « هكسلى » السنوية ، قبلت الدعوة شاكرا • وقد رأيت فى ذلك شرفا كبيرا لى ، أن أتصـل بشخص أكن له تقديرا عميقا بوصفه مفكرا وانسانا معا ، كما أتعاطف معه قلبيا فى موقفه ازاء مشـكلات الحيـاة الكبرى • ان أعمال هذا الرجل ستظل تحتفظ له بذكرى نضرة • ومن الملائم أن يكون علمنا بمثابة أكليل من الزهر يوضـع سنة بعـد أخرى على قبر أحـد الذين يحظون بأبلغ تقدير لنصرتهم هذا العلم •

وبينما كنت أجيل الفكر فى موضوع مناسب للمحاضرة ، تذكرت أن هكسلى فى أيامه الأخيرة ، كان قد كرس جزءا كبيرا من وقت فراغه الثمين فى فحص التراث الذى يتصـل بعصور الحيـاة الأولى كما هو مدون فى سفر التكوين • ومن ثم فقد فكرت فى أن أتخـذ من هـذا التراث موضوعا ملائما لمحاضرتى • وهـذا الموضـوع هو القصـة المألوفة عن الطوفان الكبير • وكان هكسلى نفسه قد ناقش هذه القصة فى مقال تثقيفى عام كتبه بكل ما عرف عن أسلوبه من سحر فى سلاسته ووضـوحه ، وقد كان هـدفه أن يبين أن هذه الحكاية التى ينظر اليها بوصفها سجلا لحادثة الطوفان الذى أغرق العالم كله ، وكل ما كان يعمره على وجه التقريب من انسان وحيـوان ، تتعارض مع مبادىء الجيولوجيا البسيطة ، ومن ثم ينبغى رفضـها ، على أساس أنهـا أسـطورة • على أننى لن أحاول أن أدعم رأيه والنتيجة التى انتهى

اليها ، أو أن أرفضــها ، لسبب بسيط هو أننى لست جيولوجيا • كما أننى أرى أن ابداء الرأى حول هــذا الموضوع يعد خارجا عن نطاق البحث • ومن ثم فقد تناولت هــذه القصــة من زاوية آخرى ، اى بوصفها تراثا شعبيا • ومن المعروف منذ زمن طويل أن أساطير الطوفان الكبير الذى هلك فيه كل الناس على وجــه التقريب ، تنتشر انتشارا كبيرا فى جميع أنحاء العالم • وبناء على ذلك فقد حاولت أن أجمــع الروايات المختلفة لهــذه القصة ، وأن أقارن بينها ، لكى أرى ما تسفر عنه هذه المقارنة من نتائج • أى أن دراستى لهذه الروايات ، باختصار ، هى دراسة فى علم الفولكلور المقارن • وهــدفى من ذلك هو أن أستكشف نشأة هــذه الحكايا ت، وأن أتبين كيفيــة انتشارها فى جميع أنحــاء العالم ، ولم يعننى فى المقــام الأول أن أتساءل عن صــدقها أو كذبها ، وان كان لا ينبغى اهمال هذا السؤال عند البحث عن موضوع نشأتها • على أن تحديدنا لهذا الموضوع على هــذا النحو ليس بجــديد ، فكثيرا ما حاول الباحثون بحث هــذا الموضــوع من زاوية التراث الشعبى بخاصة فى السنين الأخيرة • وقد استفــدت أيما استفادة • باقتفائى أثر هذه الأبحاث ، من أعمال الذين سبقونى فى هــذا المجال ، بخاصة هؤلاء الذين ناقشوا هذا الموضوع بعلم واســع وكفاية ممتازة • وانى مدين بصــفة خاصة للعالم الألمانى الجغرافى والأنثروبولوجى المرموق الدكتور الراحــل « ريتشارد أندرى » الذى يعــد بحثه فى التراث الشعبى حول قصة الطوفان ، شأنه شأن سائر كتاباته ، نموذجا للدرس الرصين والادراك الحصيف ، بالاضافة الى وضوح وايجاز بالغين •

واذا صرفنا النظر عن أهميــة هــذه الأساطير فى حــد ذاتها ، بوصفها سجلا للكارثة التى قضت دفعة واحــدة على الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فانها لا تزال تستحق الدراسة لاحتوائها على سؤال عام يناقشــه الأنثروبولوجيون اليوم مناقشة جادة • وهــذا الســؤال هو : كيف يمكننا أن نفسر وجوه التشابه الكثيرة القوية بين

معتقدات الأجناس المختلفة وعاداتها ، تلك الأجناس التى تسكن فى بقاع متفرقة متباعدة من أنحـاء العالم ؟ فهل يرجع هذا التشابه الى انتقال المعتقدات والعادات من جنس بشرى الى جنس آخر ، اما عن طريق الاتصال المباشر فيما بينهم أو عن طريق الاتصـال غير المباشر ؟ أم أن هـذه المأثورات والمعتقدات المتشابهة نشـأت مستقلة عند كثـير من الأجناس ، نتيجة تماثل الفكر البشرى فى ظروف فكرية متماثلة ؟ واذا كان لى أن أبدى رأيا فى هذا الموضوع الذى طال الجدل حوله ، فاننى أقول توا ، ان هذا السؤال يبدو لى نوعا من العبث ، اذا ما وضع موضع الجـدل بين وجهات النظر الخاصة المتبادلة • فـكل التجارب وكل الاحتمالات ، بالقدر الذى أستطيع أن أحكم به فى هذا الموضوع ، تخدم النتيجة التى توصلنا اليها ، وهى أن كلتا الوجهتين قد عملت فى قوة وعلى نطاق واسع لايجاد هذا التشابه الملحوظ بين عادات الأجناس البشرية المختلفة وتقاليدها • وبتعبير آخر نقول : ان كثيرا من وجوه التشابه يمكن أن تفسر من خلال عملية الانتقال البسيطة من شـعب لآخر ، وما يعترى هـذه المأثورات والمعتقدات من تغيير قليل أو كثير فى أثناء عملية الانتقال • وكذلك فان كثيرا من وجوه التشابه هذه يمكن أن تفسر بأنها قد نشأت مستقلة نتيجة لتماثل حركة التفكير فى العقل البشرى ، الذى يعد استجابة لظروف التطور المتماثلة • فاذا كان هذا قد حـدث حقا ، وأنا أميل لأن أرى فيـه الرأى الوحيـد المعقول والمحتمل ، فانه يتبع هـذا ، أنه عندما نتعرض لحالة خاصة من التشابه يمكن أن نقتفى أثرها فى عادات الأجناس المختلفة ومعتقداتها ، يكون من العبث أن نلجأ الى المبدأ العام ، سواء فى انتشارها أو فى نشوئها مستقلة ، اذ أن كل حالة ينبغى أن يحكم عليها فى حدودها الخاصة بعد أن تفحص الحقائق فحصا منصـفا ، وبعد أن نرجعها الى هذا الأساس أو الى ذاك ، وربما الى الأساسين معا ، حسبما يميل ميزان الشواهد الى هذا الجانب أو ذاك ، أو يقف فيما بنهما عندما تتوازن كفتاه •

ويؤكد الفحص الدقيق للروايات الخاصـة بحكاية الطوفان هذه

النتيجة العامة التى تسلم بمبدأى الانتشار والنشوء المستقل ، بوصفهما مبدأين صحيحين وسليمين ، وذلك فى نطاق حدود معينة • ذلك أنه من المؤكد أن أساطير الطوفان الكبير قد عثر عليها منتشرة بين شعوب مختلفة تعيش فى بقاع نائية على وجه الأرض • ويمكننا أن نستدل — وذلك فى حدود الاستدلال الممكن فى مثل هذه الأمور — على أن التشابه الذى لا يخطئه الباحث بين هذه الروايات ، يرجع من ناحية الى انتقالها المباشر من شعب الى آخر ، ومن ناحية أخرى الى تجارب مشابهة ، وأن تكن مستقلة تماما ، ونعنى بها تجارب الشعوب مع حوادث الفيضانات الكبيرة التى حدثت فى بقاع مختلفة من العالم • ومن ثم فان دراسة هذه الروايات الشعبية ، بصرف النظر عن النتائج التى ننتهى اليها فيما يتعلق بصدقها التاريخى ، ربما حققت غرضا نافعا ، اذا ما استطاعت أن تخفف من حدة النقاش الذى كان يحتدم حولها فى بعض الأحيان ، وذلك باقناع الجانبين المتطرفين المتعصبين لكلا الأساسين بأن الحقيقة لا تقع كلية فى هذا الجانب أو ذاك ،بل تقع فى مكان ما بينهما •

٢ — حكاية الطوفان الكبير البابلية :

تعد أسطورة الطوفان البابلية ، أو بالأحرى السومرية ، أقدم أساطير الطوفان المدونة فى الأدب • ذلك أننا نعلم أنه على الرغم من قدم الرواية البابلية ، فانها لا تزال مستمدة من أسلافهم السومريين الذين استمد منهم سكان بابل الساميون ، فيما يبدو ، العناصر الأساسية لحضارتهم •

وقد تعرف الدارسون الغربيون على حكاية الطوفان الكبير البابلية التى عرفتها العصور القديمة ، حيث ان المؤرخ البابلى الأصل « بيروسوس » الذى كتب عن تاريخ بلاده فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد كان قد دون هذه الحكاية • وقد كان « بيروسوس »

يكتب مؤلفاته باللغة اليونانية • على أن هــذه المؤلفات لم تصــلنا كاملة ، بل وصلتنا مقتطفات منها حفظها لنا المؤرخون الاغريق المتأخرون• ولحسن الحظ أن هــذه المقتطفات تحتوى على حكاية الطوفان البابلية التى تجرى على النحو التالى :

لقد حدث الطوفان فى عهد الملك « اكسيسوثروس » ، الملك العاشر الذى حكم بابل • وقد ظهر الاله « كرونوس » لهذا الملك فى رؤياه ، وحذره من أن طوفانا سيغمر الأرض ويهلك الناس جميعا ، وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر « دايسيوس » ، وهو الشهر الثامن من السنة المقــدونية • ولهذا حثه الاله على أن يكتب تاريخ العالم منــذ بداية الخلق ، وأن يدفن ما يكتبه فى « سيبار » ، بلد الشمس ، حتى يظل فى مأمن من الطوفان ، كما طلب منه أن يبنى فلكا يأوى اليه هو وأقرباؤه وأصحابه وأن يختزن فيه زادا من اللحم والشراب ، كمــا يأخذ معه فيه الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع • فاذا ما فرغ من اعداد كل شىء ، كان عليه أن يبحر بفلكه • عنــد ذاك سأل الملك « اكسيسوثروس » الاله قائلا : « ولكن الى أين أبحــر بالفلك ؟ » فأجابه الاله : « الى الآلهة ، ولكن بعد أن تصلى من أجل خير الناس »• فأطاع الملك أمر الاله ، وابتنى فلكا طوله مائة وألف ياردة ، وعرضه أربعمائة وأربعون ياردة • وبعد أن جمع كل ما يحتاج اليه ، اختزنه فى الفلك ، ثم جعل أولاده وأصدقاءه يركبون فيه• وبعد أن أغرق الطوفان الأرض ثم انحسر عنهــا فور ذلك ، أطلق « اكسيسوثروس » سراح بعض الطيــور • ولكن الطيور لم تجــد طعاما تأكله أو مكانا تستقر فوقه ، فعادت الى الفلك • وبعــد بضــعة أيام ، أطلق سراحها مرة أخرى ، فعادت هذه المرة الى الفلك وأرجلها ملوثة بالطين • فلما أطلقها للمرة الثالثة طارت بعيدا ولم تعــد الى الفلك • عند ذاك عرف الملك أن الماء قد انحسر عن الأرض ، فرفع من الفلك بعض ألواحه الخشبية ، ونظر من الفتحة فأبصر الشاطىء • عند ذاك سار بالفلك حتى استقر عند جبل ، فنزل منه هو وزوجته وابنته وقائد الدفة ، وسجد للأرض

وابتنى مذبحا • وبعد أن فرغ من تقــديم الضحية للآلهة ، اختفى هو ومن معه • فلما رأى الذين كانوا لا يزالون داخل الفلك أن الملك ومن كانوا فى رفقته لم يرجعوا اليهم ، نزلوا من الفلك كذلك وأخذوا يبحثون عنهم وينادون الملك باسمه ، ولكنه لم يكن ليرى فى أى مكان • غير أنهم سمعوا صوتا يدوى فى الهواء ويطلب منهم أن يخشوا الآلهة ، ويكفوا عن البحث عن الملك لأن الآلهة قد اختارته لكى يســكن الى جوارها ، كما شاركته زوجته وابنته وقائد الدفة هذا الشرف • ثم أمرهم الصوت أن يعودوا الى بابل ويستخرجوا الكتابات التى كانوا قد دفنوها هناك ويوزعوها فيمــا بينهم • وكذلك أخبرهم الصــوت أن الأرض التى يقفون عليها هى أرمينيا • وبعد أن سمع ركاب الفلك كل هذا الحديث قدموا الضحية للآلهة ، ورجعــوا راجلين الى بابل • أما الفلك الذى استقر عند جبال أرمينيا فلا يزال جزء منه مطروحا على هــذه الجبال حتى اليوم ، وما زال بعض الناس يزيلون عنه القار ويستخدمونه فى تعاويذهم • أما ركاب الفلك فقد عادوا الى بابل واستخرجوا الكتابات المدفونة فى « سيبار » ، وشيدوا مدنا كثيرة ، وأعادوا بنــاء الأمكان المقدسة وعمروا بابل بنسلهم •

ووفقا لما رواه «نيقولاوس الدمشقى» الذى كان معاصرا وصديقا « لأغسطس » و « وبيرودس العظيم» ، أن هناك فى « منياس » التى تقع فى أرمينيا جبلا ضخما يسمى جبل « باريس »، وهو الجبل الذى أوى اليه كثير من الناس ، كما تذكر حكاية الطوفان البابلية ، هربا من الطوفان ، وبذلك نجوا بحياتهم • وقد قيل كذلك : ان رجلا بعينه كان يبحر فى الفلك حتى رسا عند قمة هــذا الجبل • وقد ظل حطام الفلك مطروحا على الجبل زمنا طويلا • وربما كان هذا الرجل هو ذلك الذى ذكره موسى واضع شريعة اليهود • على أن الشك يساورنا فيما اذا كان « نيقولاوس الدمشقى » قد استقى هــذه الأخبار من التراث البابلى أو العبرى ، ولكن ذكر نيقولاوس لموسى على كل حال يشــير الى أن نيقولاوس كان يعرف حكاية سفر التكوين التى ربما تعلمها فى يسر من رفيقه « هيرودس » •

وقد ظل الباحثون الأوربيون قرونا طويلة لا يعرفون رواية أخرى للحكاية البابلية عن الطوفان الكبير الا تلك التى احتفظت بها مقتطعات « بيروسوس » التى كتبت باللغة اليونانية . وقد ظلت الحكاية البابلية معروفة على هذا النحو لدى العلماء حتى العصر الحديث ، الى أن اكتشفت طويلة ، فقد حالف الحظ المستكشفين الانجليز ، الذين قاموا بعمليات
طويلة فقد حالف الحظ المستكشفين الانجليز ، الذين قامـوا بعمليات
الحفائر فى « نينوى » ، تلك الحفائر التى كانت من المعالم الرائعة فى القرن التاسع عشر ، والتى بدأت عصرا جديدا لدراسةالتاريخ القديم ، فى استكشاف بقايا هائلة من مكتبة الملك العظيم «آشوربانيبال» ،الذى حـكم من عام ٦٦٨ ق . م . حتى عام ٦٢٦ ق . م . فى آخر عصر الامبراطورية الآشورية الزاهر .

وفى خلال تلك الفترة بسط « آشوربانيبال » نفوذه حتى شواطىء النيل ، وزين عاصمته بأبهى العمارات ، وجمع فيها من البلاد النائيـة والقريبة مجموعة كبيرة من الكتب فىالتاريخ والعلم واللغة والدين لكى تستنير عقول شعبه . أما كتب الآداب التى استمدت جزءا من مادتها من أصول بابلية ، فقد دونت بنقوش الكتابة المسمارية على ألواح من الطين الطرى ، وكانت تحرق فى الافران بعد تدوين الكتـابة عليها ثم تودع فى مكتبة العاصمة . ويبدو أن المكتبة كانت مرتبة فى طابق علوى من القصر الذى حطمه الحريق فى حوادث النهب الأخيرة التى تعرضت لها المدينة فى آخر أيامهـا . وكان نتيجـة هذا أن تهشمت الألواح . ولا يزال كثير منها مشدوخا قد لفحته حرارة الخرائب المحترقة . وفى العصور المتأخرة نهب جامعو الآثار القديمة الذين كانوا معـاصرين لـ « ووسترز ويفل » ، والذين كانوا يبحثون ، لا عن العلم المدفونة ، بل عن كنوز الذهب ، نهبوا ما تبقى من آثار ثمينة فى حطـام المدينة ، كما نهبها عمالهم الذين اشتركوا معهم فى تحطيم السـجلات الثمينـة وتكسيرها . ثم هطلت الأمطار بعد ذلك فأكملت تحطيم هذه السجلات ، فقد كانت الأرض تمتص أمطار كل ربيع ، فتمتصها السجلات بدورها بما كانت تحتوى عليه من المـواد الكيماوية التى كانت تتبلور فى شدوخ

الألواح وشقوقها • ومع تراكم هذه المواد المتبلورة تهشمت الألواح التى كانت محطمة من قبل وأصبحت قطعا متناثرة • ومع ذلك فقد استطاع « جورج سميث » الذى كان يعمل بالمتحف البريطانى ، استطاع بالعمل المضمنى أن يجمع القطع المتناثرة الكثيرة بعضها الى بعض ، ويستعيد شكل ملحمة جلجامش التى ذاع صيتها حتى اليوم ، مكتوبة فى اثنى عشر نشيدا أو بالأحرى لوحا ، ومحتوية على حكاية الطوفان الكبير فى لوحها الحادى عشر • وقد أعلن مستر « سميث » هذا الاكتشاف الهائل فى اجتماع « جمعية الآثار الانجيلية » الذى عقد فى الثالث من ديسمبر عام ١٨٧٢ م •

لقد كان « سير هنرى رولينسون » بارعا فى فرضه أن الأناشيد الاثنى عشر فى ملحمة جلجامش تشير الى الاثنى عشرة علامة التى تميز الدائرة الفلكية ، بحيث أن مجرى الملحمة يسير وفق دورة الشمس فى أثناء شهور السنة • وتتأكد هذه النظرية الى حد ما بالمكان الذىيشار اليه فى أسطورة الطوفان فى النشيد الحادى عشر • وهذا النشيد مخصص للاله « رومان » اله العواصف ، واسمه يعنى فيما يقال « شهر المطر الملعون »(١) ، لأن الشهر الحادى عشر من السنة البابلية يتفق مع دورة موسم الأمطار • وكيفما كان هذا الرأى ، فان حكاية الطوفان على ما هى عليه : تعد حادثة فرعية أو استطرادا يفتقر الى الرابط العضوى بسائر أجزاء الملحمة • وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى ••••

فقد جلجامش ، بطل الملحمة المسماة باسمه ، صديقه أنجيدو عندما توفى وحزن لفقده حتى أسلمه الحزن الى المرض • ثم قرر آسفا لما حدث لصديقه وشغوفا بمعرفة ما سيحدث له فى المستقبل ، أنيبحث عن جده « أوتنابشتيم » ابن « أوبارا ـ توتو » الذى يسكن فى مكان

---

(١) رمان : معناه فى اللغتين البابلية والآشورية اله الرعد ، والكلمة هى التى تقابلها فى العربية « رنان » وفى ديانات الساميين الغربيين ، الكنعانيين خاصة صار اسمه رمون أو بعل رمون . (وهذا المعنى يبدو واضحا فى تلخيص المؤلف لملحمة جلجامس هذه ، ص ٥٢) .

بعيد ، ليسأله كيف يمكن للانسان الفانى أن يكون خالدا ، اذ كان يعرف يقينا أن « أوتنابشتيم » على علم بهذا السر ، حيث أن الآلهة قد رفعته الى مصافها وجعلته يسكن بعيدا فى مكان ما متمتعا بنعمة الخلود • وكان على جلجامش أن يتجشم القيام برحلة مضنية خطيرة حتى يصل اليه ، فمر بالجبل الذى يحرسه رجل وامرأة ، فى شكل ثعبان ، كما اخترق طريقا مظلما مفزعا لم تطأه قدم انسان فان من قبل • ثم عبر بحرا مترامى الأطراف ، كما عبر بحر الموت عن طريق جسر ضيق • وفى النهاية وجد نفسه فى حضرة « أوتنابشتيم » • ولكنه عندما طرح عليه سؤاله عن كيفية حصول الانسان على الخلود ، كانت اجابة جدة الكبير عن سؤاله غير مرضية ، فلقد أخبره هذا الانسان الحكيم أن الانسان لم يقدر له الخلود • ولما تعجب جلجامش من هذه الاجابة التى صدرت عن شخص كان هو نفسه انسانا فانيا ثم أصبح خالدا فيما بعد ، كان من الطبيعى لجلجامش أن يطلب من جده الجليل أن يشرح له كيف استطاع هو نفسه أن يهرب من النهاية المحتمة لكل انسان • ولكى يجيب « أوتنا بشتيم » عن ذلك ، أخذ يقص على جلجامش قصة الطوفان الكبير التى تجرى على النحو التالى :

تحدث « أوتنابشتيم » الى جلجامش وقال : « سأكشف لك ياجاجامش عن كل كلمة خبيئة ، وسأفشى لك غرض الآلهة من وراء منحها اياى الخلود : فأنت تعرف مدينة « شوريباك » ، تلك المدينة القديمة التى تقع على شاطىء الفرات • لقد حثت الآلهة التى كانت تسكن تلك المدينة ، كبار الآلهة على أن يرسلوا طوفانا الى الأرض • وقد كان مجمع الآلهة يضم « آنو » أبا الآلهة ، « وانليل » مستشارهم الحربى ، « ونينيب » رسولهم ، « وأنوجى » أميرهم ، كما كان يجلس معهم كذلك رب الحكمة « ايا» الذى ردد نداءهم الى كوخ البوص قائلا : « أيها الكوخ المصنوع من البوص ••أيها الكوخ المصنوع من البوص •• ويا أيها الحائط • يا أيها الحائط استمع الى واصغ الى أيها الحائط • ويا رجل «شوريباك» ، ابن « أوبارا ــ توتو » • أهدم بيتك

وابتن سفينة ، واهجر ممتلكاتك ، واستمع لندائى انقاذا لحياتك .. فقد استقر رأى الآلهة على أن تنقـذ حياتك . فانج بنفسك وخذمعك فى السفينة كل نوع من أنـواع الحبـوب . أما عن السـفينة التى ستبتنيها ، فينبغى أن تبنى بدقـة محكمة ، بحيث يـكون طولها وعرضها متناسقين ، لأنك ستبحر بها فى عرض المحيط . عند ذاك انتبهت الى الهى « ايا » وقلت له : ان الأمر يا الهـى الذى أمرتنى به سأحترمه وأنقذه ، ولكن ماذا أقول للناس ولشيوخ قومي؟ ففتح «ايا» فاه وتحدث الى أنا العبد وقال : « اذا سألك قومك عن هذا الأمر فقـل لهم : ان « انليل » يكرهنى ، ولذلك لن أبقى بينكم بعد اليـوم ، ولن أدع رأسي يستقر على أرض « انليـل » ، بل يتحتم على بعد اليوم أن أغوص فى قاع البحـر وأسكن هنـاك مـع الهى « ايا » . وأطـاع «أوتيابشتيم » أوامر الإله «ايا» وأخذ يجمع الأخشاب وكل ما يحتاج اليه لبناء السفينة . وفى اليوم الخامس صنع هيكل السفينة فى شكل سفينة بضائع وبنى فى وسطها مسكنا بلغ ارتفاعه مائة وعشرين ذراعا ، وقسمه الى ستة طوابق ، فى كل طابق تسع حجرات ، ثم ربط بالسفينة مصارف للمياه وطلاها من الخرج بالقطران ومن الداخل بالقار . ثم أمر باحضار الزيت وذبح الثيران والخراف وملأ الدنان بنبيذ السمسم وزيته ونبيذ العنب . ثم أخذ الناس يشربون النبيذ كما لو كانوا يشربون من نهر . وأقام وليمة شبيهة بوليمة العام الجديد . وبعد أن جهـز السفينة بكل شيء ، ملأها بكل ما لديه من ذهب وفضة ، وكل ما لديه من حبوب . ثم أدخل فيها أفراد أسرته وخدمه وكل ما معه من قطعان الماشية والوحوش وأصحاب الحرف . وأخذ «أوتنابشتيم» ينتظر الوقت المحدد الذى عينه اله الشمس « شمس » عندما قال لأوتنابشتيم : ان اله الظلام سيرسل الى الأرض مطرا غزيرا ، فاذا حان هذا الوقت ، فأدخل سفينتك وأوصـد بابها » . وأخذ الوقت المحدد يقترب ، وفى المساء أرسـل اله الظـلام المطر الغـزير . ولما هبت العاصـفة عرفت أن البـداية قد حانت ، ولكننى كنت خائفـا من أن أنظر الى العاصـفة . وعنـد ذاك دخلت الى السفينة وأوصدت بابها ، وسلمت القصر (العائم) بكل ما فيه الى

ربان لسفينة وبحارها « بوزور أمورى » • وعندما بزغ الفجر ظهرت فى الافق سحابة سوداء يدوى فى وسطها صـوت الاله « رمان » وأمامه يسير الالهان « موجاتى » و « لوحال » • وكان الثلاثة يمرون كالملائكة فوق الجبال والأرض • ومزق « اراجال » سـارية السـفينة • ثم جاء « نينيب » وفجر العاصفة ، كمـا حمل « أنوناكى » • شعلات النـار الملتهبة ، فأضاء الأرض ببريقها • ثم صعدت زوبعـة « رمان » الى السماء وتحولت الأضواء جميعا الى ظلام » • لقد ظلت العاصفة تهب نهارا كاملا ، وارتفعت المياه حتى وصلت الى قمم الجبال ، « ولم يعد الرجل يبصر أخاه ، ولم يعد الرجال يعرف بعضهم بعضا • وانتـاب الفزع الآلهة وهى قابعة فى سمائها ، فتراجعت وصعدت الى السـماء « آنو » ، وربضت كما تربض الكلاب ، وجثمت الى جانب الحيطان • وصرخت « عشتروت » صراخ المرأة التى جاءها المخاض ، وأخذت ملكة الآلهة تعول بصوتها الجميل وتقول : اللعنة على ذلك اليوم الذى أمرت فيه مجتمع الآلهة أن يحل الشر بالشر •• ولكننى حين أمرت بدمارهم ، أردت أن يتم هذا عن طريق القتال • فأين هذا الذى قد أمرت به ؟ انهم يملأون البحر كبيض السمك » • وبكى آلهة « أنوناكى » معها ، وخروا ساجدين وهم يبكون وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض وأخذت الريح تهب ستة أيام وست ليال ، وأغرق الطوفان الأرض وشملتها العاصفة • وعند اقتراب اليوم السابع ، أخذت تهدأ العاصفة والزوبعة والطوفان ، بعد أن كانت تحارب جميعا محاربة الجيش لأعدائه • ثم سكن البحـر وهبطت مياهه كما خمدت الزوبعة والفيضان تماما • ونظرت الى البحر ، فاذا هو ساكن واذا بالناس قد تحولوا الى كتـل من الطين • وأبصرت المستنقعات أمامى وقد استقرت مكان الحقـول • فلمـا فتحت نافذة السفينة ، سقط النور على وجنتى ، فخررت ساجداً وبكيت حتى انساب الدموع على خدى ، ونظرت الى العـالم فاذا كل شىء قد تحـول الى بحر • وبعد مرور اثنى عشر يوما برزت جزيرة وسط المياه ، فأبحرت بالسفينة فى اتجاه أرض « نيسير » ، والتصقت السفينة بجبل «نيسير» ولم تنزلق • ومر اليوم الأول والثانى والسفنة ملتصقة بالجبل • ومر

اليوم الثالث والرابع والسفينة لا تزال ملتصقة بالجبل ، ثم مر اليـــوم الخامس والسادس وكان الجبل لا يزال ممسكا بالسفينة • وفى اليوم السابع أطلقت حمامة من السفينة • وأخذت الحمامة تطير هنا وهناك . ولما لم تجد مكانا تستقر عليه عادت الى السفينة • فأطلقت من بعدها طائر السنونو فطار هنا وهناك ولم يجد كذلك مكانا يستقر عليه وعاد الى السفينة • ثم أطلقت غرابا فى المرة الثالثة • وأبصر الغـــراب أن الميـــاه قد انحسرت عن الأرض ، فغاص فى الطين وأخذ ينبش بمنقـــاره ويأكل ، ونعق ولم يعد • عند ذاك أطلقت الطيور جميعا لتطير فى الجهات الأربع ، وقدمت الضحية للآلة على قمة الجبل وسكبت عليها الخمـــر •

وفى اليوم السابع أعددت أوعية الطهى وأشعلت تحتها الغـــاب وخشب السدر والرند • واشتمت الآلهة الرائحة الطيبـــة ، فاجتمعت حولها كالذباب واشتركت فى تقديم الضحية • واقتربت ملكة الآلهة ، ورفعت الجواهر العظيمة التى كان « آنو » قد صنعها لها وفقا لرغبتها ، وقالت :« أيتها الآلهة ، كما أننى لن أنسى حلى اللازورد التى ارتديها حول عنقى ، فاننى سوف أذكر هده الأيام بحق ولن أنســـاها أبدا • فدعوا الآلهة تحضر لتقدم الضحية ، ولكن « انليل » لن يشترك معها ، لأنه لم يشارك الآلهة الرأى فى أمر الطوفان وأرســـله الى الأرض فتسبب فى دمار شعبى » • فلما اقترب انليـــل من الآلهة وقال : « من ذا الذى نجا بحياته ؟ اننى لن أسمح لانسان أن يعيش بعد هذا الدمار » • عند ذاك فتح « نينيب » فمه وقال للمحـــارب « انليـــل » : ومن ذا الذى يمكنه أن يفعل هذا خلاف الاله « ايا » ؟ ان « ايا » هو الذى له علم بكل الأمور » • ففتح « أيا» فمه وقال للمحارب «انليل » : انك أيها المحارب رئيس الآلهة ، ولكنك لم تستشر الآلهة فى موضوع الطوفان . وأرسلته إلى الأرض من تلقاء نفســـك • وكان ينبغى أن يلقى الآثم جزاء اثمه والمذنب جزاء ذنبه • فلتعمل الآن ما يحول دون القضاء على الجنس لبشرى بأجمعه ، ولتكف عن احلال اللعنة بكل شىء • لقـــد كان فى وسعك أن ترسل الى الأرض أسدا بدلا من الطوفان فيلتهم الناس •

وكان من الممكن أن ترسل اليهم نمرا أرقط فيفترسهم جميعا، وكان من الممكن أن ترسل الى الأرض مجاعة فلا تتركها الا خرابا ، أو ترسل اليها اله الوباء فيقضى على الجنس البشرى • على اننى بعد كل هذا لم أكتشف بنفسى ما تنوى فعله ، بل جعلت « أتراكهاسيس » «أثرخاسيس» يرى رؤيا ، فاستمع فى رؤياه الى ما تنوى الآلهة فعله »•

واستقر رأى « انليل » إثر هذا الحديث على قرار ، فصعد الى ظهر السفينة وأخذ بيدى ، وأحضرنى أنا وزوجتى وجعلها تركع الى جانبى ••

ثم اتجه الينا ووقف بيننا وباركنا (قائلا) : « ان أوتنابشتيم » كان يعد انسانا حتى هذه اللحظة ، أما الآن فقد أصبح « أوتنابشتيم » وزوجته شبيهين بالآلهة ، حتى بنا نحن • والآن دعوه يسكن هو وزوجته بعيدا عند منبع الأنهار » • وعند ذاك أخذت الآلهة بيدى وسارت بى بعيدا عند منبع الأنهار ، وتركتنى أعيش هنا فى هذا المكان » •

هذه هى قصة الطوفان التى تدخل فى نسيج ملحمة جلجامش • ولعله يتضح لكل دارس ، أن هذه القصة لم تكن لها فى الأصل صلة بالملحمة • وقد احتفظ لوح مكسور بجزء من رواية أخرى لهذه القصة• وقد عثر على هذا اللوح مع سائر ألواح ملحمة جلجامش بين أنقاض مكتبة « آشوربانيبال » فى « نينوى » • وهذا اللوح يحتوى على جزء من الحديث الذى قيل انه دار بين الاله « أيا » ونوح البابلى قبل أن يحدث الطوفان • ونوح البابلى هنا يدعى « أثرخاسيس » وهو اسم أطلق عليه فى الملحمة ، لأنه فى غير هذا المكان من الملحمة لا يسمى « أثر خاسيس » ، بل «أوتنابشتيم » • ويقال : ان «أثر خاسيس» هو الاسم البابلى الأصلى •

وقد ورد نص « بيروسوس » عن أسطورة الطوفان تحت اسم « اكسيسوثروس » • وقد أمر الاله « ايا » فى الرواية الثانية التى احتفظ بها كذلك لوح مكسور تلك التى أشرنا اليها وشيكا ، أمر

« أتراكهاسيس » قائلا : أدخل السفينة وأغلق بابها دونك ، وخذ معك غذاءك وبضاعتك وممتلكاتك (وزوجتك) وأسرتك وعمالك وقطيعـك ووحوش حقلك ، بقدر ما تأخذ من صنوف الحيوان آكلة العشـب » . وعند ذاك رد البطل على الاله بأنه لم يسـبق له أن ابتنى سـفينة ، وتوسل اليه أن يرسم له على الأرض خطة السفينة لكى يستعين بهـا عند بنائها .

وبناء على ذلك فان الروايات البابلية لأسطورة الطـوفان ترجع فقط الى عصر « آشور بانيبال » أى أنها ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد . ويمكننا أن نتصور أن هذه الروايات ترجع الى رواية أصـلية أكثر قدما من الرواية العبرية ومنقولة عنها . وعلى كل فان الشـواهد القاطعة للآثار القديمة الهائلة لأسـطورة الطـوفان البابليـة تؤيدها الكتابات المدونة على لوح مهشم اكتشف فى مدينة « أبو حبـة » التى تقع الآن مكان مدينة « سيبار » القديمة ، وذلك فى أثناء عمليات الحفر التى قامت بها الحكومة التركية . ويحتوى هذا اللوح على رواية مشوهة كل التشويه ، ومدون عليها تاريخ كتابتها على وجه التحديد . فهناك فى نهاية الخطوط كلمات أو حاشية تذكر أن اللوح قد كتب فى الثـامن من شهر « شباطو » (وهو الشهر الحادى عشر من السنة البابلية) فى السنة الحادية عشرة من حكم الملك « عمى صـادوقا » أى حوالى عام ١٩٦٦ ق . م . ولسوء الحظ أن هذا اللوح عبارة عن كسر كثيرة متفرقة لا يستطيع الباحث أن يستخلص منها سوى مادة ضئيلة . ولكن اسم « أثرخاسيس » يرد فى ثناياها ، بالاضافة الى اشـارات الى المطـر الغزير وكذلك الى السفينة فيما يبدو ، ودخول الأفراد الذين أنقـذوا فيها .

بل هناك رواية أخرى لأسـطورة الطوفان قديمـة كل القـدم ، اكتشفت فى « نيبور » فى أثناء عمليات الحفر التى قامت بهـا جامعـة بنسيلفانيا . وهذه الرواية مدونة على كسرة من الفخار غير المحترق . وقو رأى الأستاذ هـ . و . « هيلبرخت » . مرتكزا على أسلوب كتابة

هذه الرواية ، وعلى المكان الذى عثر عليها فيه ، أن هذه الرواية لم تدون بعد سنة ۲۱۰۰ ق • م • وقد ورد فى هذه الرواية أن الاله ظهر ليذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشرى فى الحال ، وحذر من هذا الطوفان شخصا بعينه ، فطلب منه أن يبتنى سفينة كبيرة ذات سقف قوى لينجو فيها بحياته ، وأن يأخذ معه فيها صنوف الحيوان الأليفة وطيور السماء •

هذه الروايات المختلفة عن قصة الطوفان قد دونت باللغة السامية، البابلية والأشورية • لكن هناك رواية أخرى مكتوبة باللغة السومرية • وهذه الرواية مكونة من مقتطعات متفرقة عثر عليها علماء الآثار الأمريكيون فى « نيبور » ، وقد فكت رموزها أخيرا • ومعنى هذا أن هذه الرواية قد دونت بلغة غير سامية كان يتكلم بها الشعب الذى يبدو أنه كان يعيش فى بابل قبل الساميين ، وأسس فى وادى الفرات الأدنى ذاك النظام الحضارى المرموق الذى نسميه عادة بالحضارة البابلية • وقد كانت مدينة « نيبور » التى عثر فيها على هذه الرواية أكبر مدينة مقدسة ، وربما أكبر مركز دينى فى بابل • كما كان « انليل » اله المدينة ، رئيس مجمع الآلهة « البانثيون » البابلى • ويبدو من طابع الكتابة التى كتبت بها الأسطورة المدونة على هذا اللوح أنها كتبت فيما يقرب من عصر الملك الشهير « حمورابى » ملك بابل ، أى أنها دونت فى حوالى سنة ۲۱۰۰ ق • م • على أنه من المؤكد أن الحكاية نفسها ترجع الى عصر أقدم من ذلك • ذلك أنه فى بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، وهو الوقت الذى كتب فيه هذا اللوح ، لم يكن هناك وجود للسومريين بوصفهم عنصرا مستقلا ، اذ كانوا قد ذابوا فى الشعب السامى • كما أن لغتهم الأصلية كانت قد أصبحت من قبل لغة ميتة ، وذلك على الرغم من أن الكهنة والكتاب الساميين كانوا لا يزالون يدرسون الأدب القديم والنصوص المقدسة المحفوظة فى ثنايا الآداب ، ويعيدون كتابتها • من ثم فان اكتشاف رواية قصة الطرفان السومرية يدعو الى افتراض أن الاسطورة نفسها يرجع تاريخها الى زمن سابق

على احتلال الساميين لوادى الفرات ، هؤلاء الساميون الذين أخذوا هذه الأسطورة فيما يبدو ، بعد هجرتهم الى وادى الفرات ، عن السومريين الذين سكنوا بابل قبلهم • ومن الطريف أن نلاحظ أن الرواية السومرية لقصة لطوفان تكون تكملة لحكاية عن خلق الانسان عثر عليها ، لسوء الحظ ، فى شكل مقتطعات متفرقة • ووفقا لهذه الحكاية خلقت الآلهة الانسان قبل الحيوان • ومن ثم فان الحكاية السومرية تتفق مع الحكاية العبرية فى سفر التكوين ، من حيث أن كلتيهما تعالج موضوع خلق الانسان وحادثة الطوفان بوصفهما حادثتين حدثتا فى فجر تاريخ الحياة ، وترتبط احداهما بالأخرى كل الارتباط وأكثر من هذا فان القصة السومرية تتفق مع المصدر اليهودى • وتعارض المصدر الكهنوتى فى الوقت نفسه ، من ناحية أن الاله خلق الانسان أولا قبل خلقه صنوف الحيوان •

وعلى الرغم من أن الباحثين لم يعثروا الا على النصف السفلى من اللوح الذى نقشت عليه قصة الخلق السومرية ، فان هذا القدر يكفى مع ذلك لأن يمدنا بالخطوط الأساسية لقصة الطوفان • ففى هذا الجزء نقرأ أن « زيو جيدو » أو بالأحرى « زيود سودو » كان ذات يوم ملكا كاهنا للاله « انكى » ، وهو الاله السومرى الذى يوازى الاله « ايا » السامى • وقد كان هذا الملك الكاهن ينشغل كل يوم بخدمة الاله ، ويكب على خدمته فى خشوع ، ويطيل النظر الى المكان المقدس • ولكى يكافئه الاله « انكى » على ورعه ، فقد أخبره بأنه قد تقرر فى مجمع الآلهة ، بناء على طلب الاله « انليل » ، أن ترسل الآلهة الى الأرض عاصفة ممطرة تقضى على أصل الجنس البشرى • وقبل أن يتلقى الكاهن هذا التحذير فى حينه ، طلب منه صديقه الاله أن يقف بجانب حائط وقال له : « قف عند الحائط الذى يقع على جانبى الأيسر وعند هذا الحائط سأسر اليك بكلماتى » • ومن الواضح أن هذه الكلمات تتصل بالعبارة الغريبة فى الرواية السامية ، وهى تلك العبارة التى بدأ بها الاله « ايا » تحذيره الى « أوتنابشتيم » وقال له : « أيها الكوخ

المصنوع من البوص ، أيها الكوخ المصنوع من البوص ، ويا أيها الحائط . استمع الى أيها الكوخ وأنصت الى أيها الحائط » .

وكلتا العبارتين تشير الى أن الاله الطيب الذى لم يشأ أن يفشى قرار الآلهة للانسان الفانى بطريق مباشر اصطنع حيلة افشاء السر الى حائط البوص الذى كان على « زيود سودو » أن يقف بادىء الأمر عند جانبه الآخر . وبذلك علم الانسان الطيب بالسر الخطير عن طريق استراق السمع . فى حين استطاع الاله أن يدعى فيما بعد أنه لم يفش القرار الذى اتخذته الآلهة فى مجتمعها . وتذكرنا هذه الحيلة بالحكاية المشهورة التى تحكى أن خادم الملك « ميداش » اكتشف أن لسيده أذنين كأذنى الحمار . ولما لم يستطع أن يكتم هذا السر فى نفسه ، فقد أسر به الى جحر فى الأرض ، ثم غطى الجحر بالتراب . وفى الحال نما حوض من نبات البوص فوق الجحر ثم هبت الرياح فأذاع حفيف البوص عيب الملك على الملأ . وقد فقد شطر اللوح الذى كان من المحتمل أنه يصف بناء السفينة ولجوء « زيوو سودو » اليها . ومن ثم فنحن ننتقل فجأة من موضوع تحذير الاله للانسان الى موضوع الطوفان ويصف المخطوط العاصفة والأمطار وقد ثارت جميعا . ثم تستمر الرواية بعد ذلك فتقول : « وبعد أن هبت العاصفة الممطرة على الأرض سبعة أيام وسبع ليال ، وبعد أن حمل الريح العاصف السفينة على المياه المضطربة ، ظهر اله الشمس وهو يسكب الضوء على السماء والأرض » . وعندما اخترقت أشعة الشمس وقدم ثورا وشاة ضحية له . ثم يلى ذلك فجوة فى المخطوط ، وبعدها نقرأ أن الملك « زيود سدو » خر ساجدا للالهين « آنو » و « انليل » . ويبدو أن غضب الاله انليل من الجنس البشرى قد هدأ بعد ذلك ، لأنه يقول موجها حديثه الى « زيودسودو » « لقد منحته حياة كحياة الآلهة ، وخلقت له روحا خالدا كروح الآلهة . وهذا يعنى أن بطل أسطورة الطوفان ، أى نوحا السومرى قد وهب الخلود ، ان لم يكن قد اكتسب هبة الألوهية . ثم خلعت عليه الآلهة بعد ذلك لقب « الشخص الذى حافظ على سلالة

الجنس البشرى » ، كما جعلته يسكن جبلا يبدو أنه جبل « ديلمـــون » ذلك ان اسم الجبل غير واضح على وجه التأكيد • أما نهاية الأسطورة فمفقودة •

وهكذا نرى أن قصـــة الطوفان الســـومرية تتفق فى ملامحهـــا الأساسية مع قصة الطوفان التى تحتوى عليها ملحمة جلجامش ، تلك القصة التى تتميز عن أختها السومرية بطولها البالغ وكثرة حوادثها • ففى كلتا القصتين قرر اله كبير (« انليل » أو « بل ») أن يهلك الجنس البشرى عن طريق اغراق الأرض بالأمطار • وفى كلتيهما حذر اله آخر (هو « انكى » أو « ايا ») رجلا من حدوث الكارثة ، وقد أنقذ هذا الرجل الذى قبل النصح بأن لجأ الى السفينة التى أمره الاله ببنائها • وفى كلتا الحكايتين بلغ الفيضان ذروته فى اليوم السابع • وفى كلتيهمـــا قدم الانسان ضحية للآلهة بعد أن انتهى الطوفان • ثم رفعتـــه الآلهـــة بعد ذلك الى مصافها •

أما الاختلاف الجوهرى الوحيد بين الروايتين فيتمثل فى اســـم البطل فيهما • فهو فى الرواية السومرية يدعى « زيود سودو » • وفى الرواية السامية يدعى « أوتنابشتيم » أو « أثر خاسيس » • والاسم السومرى « زيود سودو » يشبه اسم « اكسسوثروس » وهم الاسم الذى أطلقه « بيروسوس » على البطل الذى أنقذ فى حادثة الطوفان • فاذا كان الاسمان متشابهين حقـــا ، فان هذا يجعلنـــا نعجب لاخلاص المؤرخين البلبليين فى اقتناء أقدم الآثار المدونة •

ان اكتشاف هذا اللوح ذى الأهمية البالغة بما يحتوى عليـــه من قصتين مترابطتين هما قصة الطوفان وقصة الخلق ، يجعل الاحتمـــال كبيرا فى أن القصص الذى يحتوى عليه سفر التكوين عن فجـــر تاريخ الحياة ، لم ينشأ أصلا عند الساميين ، بل استمدة الساميون من الذين سبقوهم فى الحضارة ، هؤلاء الذين وجدتهم الجماعات السامية النازحة من الجزيرة العربية مستحوذين على أرض الفرات الأدنى الغنية والذين

تعلمت منهم ــ سلالة هؤلاء البدو البدائيين ــ تدريجيا طرز الحضارة وتقاليدها على النحو الذى اكتسب به برابرة الشمال مظاهر الحضارة بعدما استقروا فى الامبراطورية الرومانية •

٣ ــ قصة الطوفان الكبير العبرية •

يجمع نقاد العهد القديم على أن أسطورة الطوفان العبرية كما هى مدونة فى سفر التكوين تجمع بين قصتين متميزتين فى أصلهما ومتناقضتين تناقضا جزئيا • وقد مزج المؤلف بين القصتين لكى يكون منهما قصة واحدة متجانسة من ناحية الشكل • ومع ذلك فقد مزج المؤلف بينها بطريقة فجة للغاية ، بحيث لا يفوت القارىء ما فيهما من تكرار وتناقض ، حتى وان كان القارىء غير مدقق فى قراءته ••

واحدى روايتى الأسطورة اللتين جمع بينهما المؤلف بطريقة مصطنعة هى مستقاة مما يطلق عليه نقاد العهد القديم المصدر الكهنوتى Priestly Document أى القانون ، (ويشار اليه عادة بالحرف p أما الرواية الثانية فمستقاة مما يطلقون عليه المصدر اليهودى Iehovistic Document (ويشار اليه فى العادة بالحرف J) نسبة للاسم المقدس «يهوه»•وكلا المصدرين يختلف عن الآخر اختلافا بينا فى أسلوبه وطبيعته كما أنهما ينتميان الى عصور مختلفة •فبينما يعد المصدر اليهودى هو الأقدم ، كما يرجح ذلك النقاد ، فان المصدر الكهنوتى يؤخذ على أنه أحدث المصادر الأربعة الرئيسية التى جمع بينها لتكون أسفار العهد القديم الستة الأولى • ويعتقد الباحثون أن المصدر اليهودى قد كتب فى أرض الميعاد فى العصور الأولى من الحكم العبرى : أى أنه كتب فى القرن الثامن أو التاسع على وجه لاحتمال •

أما المصدر الكهنوتى ، فيرجع تاريخه الى ما بعد عام ٥٨٦ق•م عندما استولى « يختصر » ملك بابل على أورشليم وأخذ اليهود أسرى معه الى بابل • فكلا المصدرين تاريخى فى شكله ، ولكن بينما نجد

مؤلف المصدر اليهودى يهتم اهتماما حقيقيا بشخصية الرجال والنساء الذين يصفهم ، كما يهتم بمغامراتهم ، فان كاتب المصدر الكهنوتى يهتم بهم فى حدود استخدامهم وسيلة لخدمة فكرة « العناية الالهية » التى يقصد بها تزويد بنى اسرائيل بمعرفة الهية ، وبنظم اجتماعية ودينية ، شاء بها الرب أن ينظم شعبه المختار حياته عن طريقها • فالتاريخ الذى كتبه مؤلف هذا المصدر تاريخ مقدس وكهنوتى أكثر منه دنيوى ومونى ، ذلك أنه يهتم بإسرائيل بوصفها أمة دينية لا بوصفها دولة • ومن ثم فانه بينما يسهب الى حد كبير فى وصف حياة شيوخ بنى اسرائيل وأنبيائهم الذين اختارهم الرب ليظهر لهم ، نجده يمر مر الكرام على أجيال كاملة من البشر العاديين الذين لا يذكر أسماءهم الا عابرا ، كما كانوا مجرد حلقات تربط عصرا دينيا بعصر دينى آخر ، أو مجرد خيط تنتظم فيــه على مسافات متبــاعدة ، جواهر الوحى الرائعــة • وموقفه من الماضى تفسره كل التفسير أحداث العصر الذى كان يعيش فيه ، فقد كان عصر بنى اسرائيل الذهبى قد ولى كما انتهى عصر اســتقلالها وانتهت مع ذلك آمالهــا فى البهــاء والرخاء الدنيــوى • أما أحلام الامبراطور المزدهرة ، تلك التى علقت بقلـــوب الناس بتأثير ذكرى حكمى داود وسليمان ، التى ربمــا عاشت مع النــاس فترة من الزمن حتى بعــد اضمحلال حكم الملوك كأنهــا سحب الصباح ، فسرعان ما تلاشت مع سحب المساء فى حياة أمة ، بتأثير واقع الحــكم الأجنبى الكئيب • ولما كانت كل الطرق التى تؤدى الى الطموح الدنيوى الخالص قد ســدت دون الشعب الاسرائيلى ، فقــد وجدت مثاليــة المزاج الوطنى التى لا تخمد متنفسا لها فى اتجاه آخر ، كما اتخذت أحلامها شــكلا آخر • فإذا كانت أبواب الأرض قد أغلقت دون آمال هذا الشعب ، فان أبواب السماء كانت لا تزال مفتوحة • ومن ثم فقد نصب الاسرائيلى الحالم سلما وراء السحب لكى يهبط عليه حشد من الملائكة يرعون روحه الهائم ويواسونه ، على نحو ما فعل يعقوب عند « بيت ايل » ، والأعداء من قدامه ومن ورائه • باختصار فإن قادة بنى اسرائيل كانوا يبحثون عن سلوى وتعويض لأمنهم فى مقابل المذلة التى كانت تعانيها فى حياتهــا

الدنيوية ، وذلك عن طريق رفعها الى درجة عالية من الروحانية • ولكى يحقق القادة هذا الغرض فانهم وضعوا ، أو بالأحرى — أحكموا وضع نظام من الطقوس الدينية يستهدف احتكار الرحمة الالهية الاستئثارية بها ، وبذلك تصبح « صهيون »[1] المدينة المقدسة — مركزا لملكة الرب فى الأرض وموئل بهجتها •

وبهذا الطموح وتلك الأهداف أخذ نفوذ رجال الدين يتزايد فى الحياة اليومية كما أصبحت اهتمامات الحياة تتجه نحو بيوت العبادة . وأصبح تأثيرها السائد روحانيا ، فقد حل الكاهن الأكبر محل الملك ، بل ان هذا الكاهن كان يرث من سالفه الأردية الأرجوانية والتاج الذهبى • وأصبحت الثورة ، التى استبدلت بعدد من الحكام المدنيين فى أورشليم عدد من الأحبار ، شبيهة بثورة روما فى العصور الوسطى التى حولتها من نظام القياصرة الى نظام حكم البابوات •

هذه الحركة الفكرية ، وهذا التيار من الطموح الدينى ، اللذان اتجها بعنف وجهة كهنوتية ، انعكسا ، أو بالأحرى تبلورا ، فى المصدر الكهنوتى ، فقد انعكست الأبعاد الأخلاقية والفكرية لهذه الحركة فيما ماثل هذا من أبعاد أخلاقية وفكرية لدى الكاتب • فهو لم يهتم الا بالجانب الشكلى للدين • وهو لا يستشعر المتعة الحقيقية،الا عندما يتعرض لتفاصيل الطقوس والاحتفالات وتفصيل الأثاث والملابس الدينية • أما الجانب العميق من الدين ، فهو بالنسبة اليه كتاب مغلق ، اذ قلما ينظر الى الجوانب الأخلاقية والروحية لهذا الدين ،كما أنه لا يسبر على الاطلاق أغوار مشكلات الخلود وأصل الشر • تلك المشكلات التى أثارت النفوس المتسائلة عنها فى جميع العصور • فقد كان الكهنوتى — باستغراقه فى تفاصيل الطقوس التافهة ، وعدم اكتراثه بالشئون الدنيوية الخالصة ، وولعه بالتقويم والأنساب والتواريخ والأرقام ، أو اهتمامه على الجملة بالهيكل العظمى للتاريخ أكثر من

---

(١) بيت المقدس . (المترجمة

اهتمامه بدم هذا التاريخ ولحمه ــ كان أشبه بأحد الرهبان المؤرخين فى العصور الوسطى ، الذين كانوا ينظرون الى الحياة العريضة من خلال كوة صومعة الدير ، أو من خلال زجاج نافذة الكاتدرائية ذى الألوان المتعددة • ولقو ضاق أفق تفكير المؤرخ الكهنوتى ، كما تلونت نظـرته للأحداث وفقا للوسيلة التى كان ينظر من خلالها اليها • فقد صور مباهج المعيد المتنقلة فى القفار ، تلك المباهج التى كانت تغيب عن كل العيـون سوى عينه هو ، صورها كما لو كانت تلوح لخيـاله الدافىء من خلال الأضواء الأرجوانية التى يعكسها شباك ذو زجاج وردى ، أو من خلال الألواح الزجاجية الرائعة لمشربية تتماوج منها الأضـواء • بل انه لم يكن يرى العمليات الطبيعية البطيئة أو الكوارث المفاجئـة ، تلك التى شكلت مادة الكون أو غيرتها ، لم يكن يرى فيها أكثر من كونها امارات ومعجزات من الرب يعلن بها عن ظهور حقب جديدة من حياة الشرائع الدينية • وكذلك لم تكن عملية الخلق بالنسبة اليه سوى تمهيد كبير ليوم الراحة والعبادة عند اليهود وهو يوم لسبت ، كمـا أن قبو السـماء المتلالىء بالأضواء الساطعة لم يكن سوى طبق مستدير رائع مقسم الى درجات ، تتحرك عليه أصابع الرب الى الأبد لتشير الى مواسم الأعياد الصحيحة المثبتة فى التقويم الدينى • وأما الطوفان الذى قضى عـلى الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلم يكن سوى مناسبة خلقهـا الرب النادم ليقيم عهدا بينه وبين الأحياء البؤسـاء الذين نجـو من الطوفان • كما لم يكن قوس قزح الذى يستطيع باشعاعاته المتلونة بين السحب المعتمة سوى الخاتم الالهى المذيل لهذا العهـد ضمانا لأصالته وصفته الملزمة •

ولأن المؤرخ الكهنوتى كان محاميا بقدر ما كان كاهنا ، فقـد بذل جهدا مضنيا لاثبات أن علاقات المحبة بين الرب وشـعبه ترتكز عـلى أسس شرعية صارمة ، حيث انها قد وثقت بمجموعة من العهـود التى قبلها الطرفان بكل ما تتطلبـه من التزامات • وهو لا يكون فى أحسـن حالاته الا عندما يعرض لهذه العهود ، وهو كذلك لا يكل على الاطلاق

من ذكر مجموعات صكوك التمليك الاسرائيلية الطويلة • ولا يجد هذا الرجل الاثرى الجاف ، والطقوسى الجامد مجالا يسترخى فيه استرخاء معقول من صرامته المألوفة ، ولا يجد مجالا يسلك فيه مسلكا خاليا من التوتر والتحفظ ، الا عندما يسهب فى موضوعات العهود ووثائق التمليك الملائمة لمزاجه • ومن المسلم به أن تحفة قصصه التاريخى هى حكاية مفاوضة ابراهيم الأرمل مع أبناء الحيثيين لكى يحصل على قبو عائلى يدفن فيه زوجته • ولم تخفف الطبيعة المحزنة لهذا العمل من حيوية القاص الحرفية ، كما أن الصورة التى صور فيها هذه القصة تجمع بين لمسات لا تنقصه البراعة ، والدقة البالغة لكاتب حجج متمرن • ولايزال المنظر الكلى لتلك الحقبة البعيدة من الزمن يمر بحذافيره أمام أعيننا ، وكما يمكن أن تشاهد اليوم فى الشرق عندما يتطاحن شيخان عربيان من أصل طيب فى براعة حول عمل من الأعمال ، وهما يراعيان مراعاة دقيقة الشكليات الرسمية ، وآداب الدبلوماسية الشرقية •

ولكن مثل هذه الصور نادرة بحق فى معرض صور هذا الفنان ، فهو قلما يحاول وصف المناظر الطبيعية ، كما أن صور أشخاصه غير متقنة وتنقصها مشخصاتها الفردية والحياة والألوان • وفيما يتصل بتصويره لموسى الذى خصه بأكبر قدر من عناية ، فان صورة هذا القائد الكبير لا تفوق صورة التمثال الأصم الا فى قليل ، كما أن وظيفته تقتصر على توزيع اللباس وغطاء الرأس الكهنوتيين •

على أن الصور التى وصلتنا من زمن حكم الشيوخ عن طريق مؤلف المصدر اليهودى تختلف عن تلك التى وصلتنا عن مؤلف المصدر الكهنوتى كل الاختلاف ، فليس هناك ما يبزها فى الأدب ، أو يقف معها على قدم المساواة ، فى صفاء شكلها واشراق لمساتها ورقتها ودفء ألوانها • وان أقل لمسات من ريشة فنانها ، لتحدث أجمل تأثير • ذلك أن كل لمسة منها انما تصدر عن أستاذ فى فنه يعرف بالغريزة على وجه التحديد ما يدعه وما يبقيه ، فبينما يبدو لنا أنه يركز كل التركيز فى مقدم الصورة حول الشخوص الانسانية التى تبرز من الصورة وهى

تنبض بالصدق : اذا به فى الوقت نفسه يحتال على الأمر ليبرز الطبيعة من خلف هذه الشخوص بقليل من الرشاقة الفنية ولمسات تكاد لاتحس، وذلك لكى ينجز صورة منسجمة تعلق بذاكرتنا الى الأبد • فمنظر يعقوب وراحيل عند البئر ، على سبيل المثال ، وقد استلقى حول البئر قطيع الخراف فى حرارة الظهيرة القائظة ، هو منظر ينبض بالحياة من خلال ألفاظ الكاتب كما تنبض صورة رفائيل من خلال ألوانه •

والى جانب اختيار الكاتب بعناية لما يستحق التصوير من صور الحياة الانسانية ، يضفى على أوصافه للرب براءة جذابة وطابع البساطة القديمة • ذلك أنه يحملنا الى الزمن القديم الذى لم يكن يعتقد فيه الانسان بأن هناك هوة شاسعة تفصله عن الرب • ففى صفحاته تقرأ كيف أن الرب شكل الانسان الأول من الطين كما يشكل صبى صورة لطفل من قطعة الطين ، وكيف أنه مشى الى الجنة فى المساء الرطب ، وصاح بالأبوين اللذين كانا قد ملأهما الخزى من فعلتيهما ، واختفيا وراء الأشجار ، وكيف صنع لهما ملابس من الجلد لكى يخفيا بها عورتها بدلا من أوراق التين الهزيلة ، وكيف أنه أغلق باب السفينة بعد أن دخلها نوح ، وكيف أنه اشتم رائحة الضحية المشوية ، وكيف أنه هبط من السماء لينظر الى برج بابل ، لأنه ، فيما يبدو ، لم يكن يتمكن من رؤيته من على • وكيف أنه تحدث الى ابراهيم عند باب خيمته فى الحر القائظ وفى ظل شجرة السنديان الهامسة ، وباختصار فان عمل هذا الكاتب الممتع كله يفيض بنفحات شاعرية تمتزج بشىء من عبير الزمن القديم ونضرته ، مما أكسب عليه سحرا خالدا يفوق كل وصف •

وتتميز العناصر التفصيلية التى تتألف منها قصة الطوفان فى سفر التكوين ، والتى أسهم فى كتابتها كلا الكاتبين : اليهوى والكهنوتى — يتميز بعضها عن بعض من حيث اللفظ والمادة • فاذا بدأنا بوجوه الاختلاف الشكلية فان أول ما يلفت النظر هو اختلاف اسم الرب فى كلا المصدرين ، فهو فى المصدر اليهوى « يهوه » وهو فى المصدر الكهنوتى

« الوهيم » ، وكلا الاسمين نقلتها « الترجمة الانجليزية المعتمدة » على التوالى الى كلمتى « السيد » و « الرب » • والمترجمون الانجليز فى استبدالهم كلمة « سيد » بكلمة « يهوه » ، انما يفعلون فعل اليهود الذين يستبدلون — عندما يقرءون كتابهم المقدس بصوت عال — بكلمة « يهوه » كلمة « أدوناى » أو « السيد » ، أينما صادفهم اسم «يهوه» مكتوبا فى النص • ومن ثم يمكن للقارىء الانجليزى أن يدعى ، كقاعدة عامة ، أنه ما دامت كلمة « السيد » يقصد بها الرب فى « الرواية الانجليزية » ، فان الكلمة البديلة لها فى النص العبرى المطبوع هى « يهوه » • أما الكاتب الكهنوتى فانه يتجنب فى قصة الطوفان وفى خلال سفر التكوين استخدام اسم « يهوه » ويستبدل به اسم«الوهيم»، وهو الاسم المألوف للرب عند العبريين • والسبب الذى دفع الكاتب الكهنوتى الى هذا هو أن اسم « يهوه » وفقا لرأيه ، هو الاسم الذى أوحى به الرب لموسى لأول مرة • ومعنى هذا أن الرب لم يكن يسمى فى العصور الأولى السابقة على عهد موسى • أما الكاتب اليهودى فلا يتبنى من ناحية أخرى مثل هذا الرأى فيما يتصل بكون الرب قد أوحى الى موسى باسم « يهوه » ، ومن ثم فهو يسمى الرب بهذا الاسم فى رواياته ، منذ بدء الخليقة دون أن يساوره شك فى هذا الاسم • والى جانب هذا الاختلاف اللفظى الجوهرى بين المصدرين ، هناك اختلافات لفظية أخرى لا تبدو واضحة فى « الترجمة الانجليزية المعتمدة » • فهناك مجموعة من الألفاظ تستخدم فى المصدر اليهوى للدلالة على الذكر والأنثى(١) ، ومجموعة أخرى تخالفها تماما تستخدم فى المصدر الكهنوتى فى نفس الدلالة • كما أن الكلمات التى تنقلها « الترجمة الانجليزية

---

(١) فى المصدر اليهوى يكثر قوله « الشخص وزوجه » (مثلا : التكوين ٧/٢) وفى المصدر الكهنوتى يقول فى مكان ذلك « الذكر والانثى » (مثلا : التكوين ١٩/٦ ، ٩/٧ ، ١٦) •

المستمدة » الى كلمة « يخرب » (١) مختلفة فى كلا المصدرين ، وبالمثل الألفاظ التى تنقلها الترجمة الانجليزية الى «يموت » (٢) و « جف »٠٠

على أن الاختلافات المادية بين الحكايات اليهوية والكهنوتية لا تزال تلفت النظر الى أكثر من ذلك ٠ وحيث ان هذه الاختلافات تصل فى بعض الحالات الى حد التناقض القاطع ، فان اثبات أن هذه الحكايات مستمدة من مصدرين منفصلين يصل الى حد اليقين٠فالحكاية اليهوية عن الطوفان تميز بين الحيوانات الطاهرة والحيوانات النجسة ، وبينما أخذ نوح معه فى الفلك سبعا من كل صنف من صنوف الحيوان الطاهر ، لم يأخذ معه سوى زوج من صنف الحيوان النجس ٠ أما الكاتب الكهنوتى فلم يميز ، من الجهة الأخرى بين صنوف الحيوان على هذا النحو ، بل جعلها تدخل الفلك وهى على قدم المساواة مع بعضها البعض ٠ وان كان قصر عددها بدون تحيز على زوج من كل صنف ٠ والسبب فى هذا الاختلاف البين ، هو أن الكاتب الكهنوتى لم يفرق بين ما هو طاهر من الحيوان وما هو نجس ، على أساس أن هذه التفرقة قد أوحى بها الرب لموسى لأول مرة ، ومن ثم فان نوحا لم يكن يعرفها ٠ أما الكاتب الذى لم يتعب نفسه بالتفكير فى هذا الموضوع ، فقد ادعى أن التفرقة بين صنوف الحيوان على أساس الطهارة والنجاسة كانت معروفة لدى الجنس البشرى منذ العصور الأولى ، كما لو كانت هذه التفرقة ترتكز عى أساس طبيعى واضح كل الوضوح بحيث لا يخطئها أحد ٠

ثم ان هناك اختلافا جوهريا آخر بين الكاتبين يتعلق بدوام مدة

---

(١) فى المصدر اليهوى « محا » (التكوين ٦/٧ ، ٧/٤ ، ٢٣) وفى المصدر الكهنوتى « دمر » (التكوين ٦/١٣ ، ١٧ ، ٩/١١ ، ١٥) ٠

(٢) الفعل مات يترجمه العرب عن العبرية بهذا اللفظ وهو من المصدر اليهوى . اما ما يقوله فريزر أن معناه جف فهو من المصدر الكهنوتى ، ويترجمه عادة بالفعل « هلك » .

الفيضان ، فقد ظلت الأمطار تهطل فى قصة الكاتب اليهوى مدة أربعين يوما وأربعين ليلة ، ثم ظل نوح فى فلكه بعد ذلك مدة ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من الرسو بسفينته • ووفقا لهذا الحساب فان الفيضان يكون قد دام واحدا وستين يوما • أما فى الحكاية الكهنوتية ، فقد أخذ الطوفان يهطل مدة مائة وخمسين يوما ، وبعدها أخذت المياه فى الانخفاض • أما مدة الطوفان فى العموم فقد استغرقت اثنى عشر شهرا وعشرة أيام • وحيث أن الشهور العبرية كانت شهورا قمرية فان الاثنى عشر شهرا تقدر بثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما • واذا أضفنا الى هذا الرقم عشرة أيام أخرى فان المدة تكون حينئذ سنة شمسية كاملة ، أى ثلاثمائة وأربعة وستين يوما • وحيث أن الكاتب قد حسب مدة الفيضان بما يساوى سنة شمسية ، فانه يمكننا أن ندعى ونحن مطمئنون ، أن هذا الكاتب قد عاش فى الزمن الذى استطاع فيه اليهود أن يصححوا الخطأ فى التقويم القمرى عن طريق مراقبتهم للشمس •

ومرة أخرى يختلف الكاتبان فى مصدر الفيضان ، فبينما يعزوه الكاتب اليهوى الى الأمطار ، يعزوه الكاتب الكهنوتى الى تدفق المياه الباطنية الى جانب سقوط الأمطار الغزيرة •

وأخيرا فان الكاتب اليهوى يحكى عن بناء نوح للهيكل وتقديمه الضحية للرب شكرا له على انقاذه من الطوفان ، فى حين أن الكاتب الكهنوتى لا يذكر شيئا عن بناء الهيكل أو تقديم الضحية • وسبب هذا بدون شك هو انه لم يكن هناك هيكل سوى هيكل أورشليم من وجهة نظر القانون اللاوى الذى انشغل به الكاتب الكهنوتى • كما أن تقديم الضحية من قبل رجل عادى مثل نوح يعد عملا غير لائق لم يحدث من قبل ، كما يعد تعديا كبيرا على حقوق رجال الدين لم يفكر الكاتب الكهنوتى لحظة فى أن ينسبه الى الشيخ المبجل •

وبناء على ذلك فان الموازنة بين الحكايات اليهوية والكهنوتية تؤكد

بصورة واضحة النتيجة التى توصل اليها النقــاد وهى أنهمــا كانا فى الأصل مستقلين، وأن الحكايات اليهودية تعد أقدم بحق من الحــكايات الكهنوتية • على أنه من الواضح أن الكاتب اليهودى كان يجهل قانون المكان المقدس الواحد الذى يحــرم تقــديم الضحيــة فى أى مكان غير أورشليم • ولما كان هذا القانون قد أعلنه الملك « يوشــيا » لأول مرة ، ونفذه عام ٦٢١ ق•م• فانه يترتب على هذا أن المصدر اليهوى قد ألف قبل هذا التاريخ بزمن يحتمل أن يكون طويلا • وهذا السبب نفسه يؤكد أن المصدر الكهنوتى قد ألف بعد هذا التاريخ بزمن ليس بالقصير فيما يبدو ، حيث أن الكاتب يعترف ضمنا بقانون المكان المقــدس الواحد ؛ حينما رفض أن ينسب الى نوح عملا يخالفه • ويترتب على هذا أنه بينما يكشف الكاتب اليهوى عن لون بعينه من البساطة القديمة ، حيث أرجع بكل بساطة النظم الدينية فى عصره وطبيعــة هذا العصر الى عصــور الحياة الأولى ، فان الكاتب الكهنوتى يكشف عن انعكاسات عصرمتأخر تحددت فيه نظرية فى التطور الدينى طبقهــا الكاتب الكهنوتى علــى التاريخ تطبيقا دقيقا •

وربما كانت المقارنة الســطحية بين حــكايتى الطــوفان العبرية والبابلية كافية لأن تؤكد لنــا أن كلتا الحــكايتين لم تنشــأ فى أصــل مستقلتين ، بل من المؤكد أن احداهما اعتمدت على الأخرى ، أو أنهما استمدا معا من أصل واحد • وتتعدد وجوه الاتفاق بين الحكايتين حتى تشمل التفصيلات الجزئية ، بحيث لا يمكننا أن نرجع هذا الى محض الصدفة • ففى كلتا الحكايتين قررت القــوى الالهيــة أن تقضى على الجنس البشرى بأن ترسل الى الأرض طوفانا عظيما • وفى كلتيهمــا أفشى الاله هذا السر الى رجل قبل اغراق الأرض بالطوفان • وقد أرشد الاله هذا الرجل الى بناء فلك كبير لكى يأوى اليه فينقذ نفسه وينقــذ معه صنوف الكائنات الحية جميعا • ومن المحتمل أنه ليس من قبيــل الصدفة أن يكن البطل الذى أنقذ من الطوفان فى الحــكاية البابلية ــ وفقا لرواية « بيروسوس » ــ هو ملك بابل العاشر ، وأن يكون نوح فى

الحكاية العبرية هو الرجل العاشر فى نسل آدم • وفى كلتا الحكايتين ابتنى الرجل المختار ، بعد تحذير الاله اياه ، سفينة ضخمة مكونة من عدة طوابق ، وطلاها بالقار والقطران حتى لا تتسرب اليها المياه ، وأدخل فيها أسرته وحيوانات من كل صنف • وفى كلتيهما هطلت الأمطار الغزيرة فتجمع الطوفان بمقدار كبير ودام أياما يختلف عددها قلة أو كثرة • وفى كلتيهما غرق الجنس البشرى جميعه فيما عدا البطل وأسرته • وفى كليتهما أرسل الرجل الذى أنقذ ، طائرين غرابا وحمامة ليرى عن طريقهما ما اذا كانت مياه الطوفان قد انحسرت عن الأرض • وفى كليتهما عادت الحمامة الى السفينة لأنها لم تجد مكانا تستقر فيه ، أما الغراب فلم يعد فى كلتا الحكايتين ، وفى كلتيهما رست السفينة على جبل • وفى كلتيهما اشتمت الآلهة رائحة الشواء الطيبة فسكن غضبها •

وهكذا تتعدد وجوه الشبه بين الحكايتين البابلية والعبرية فى مجموعهما • فاذا شئنا بعد ذلك أن نتعمق التفصيلات : فاننا نجد أن الحكاية البابلية أقرب الى الحكاية اليهوية منها الى الحكاية الكهنوتية • فكل من الرواية اليهوية والبابلية تعطى أهمية للعدد سبعة •

فقد حذر نوح ، فى الرواية اليهوية ، من حدوث الطوفان سبعة أيام على التوالى • كما أخذ معه فى السفينة سبعا من كل صنف من صنوف الحيوانات الطاهرة • ثم ان المسافة الزمنية بين اطلاقه طائرا وآخر كانت سبعة أيام • وبالمثل دام الطوفان فى الرواية البابلية حتى بلغ قمته سبعة أيام • كما أن البطل فيها وضع مجموعات من أوعية التضحية فوق الجبل ، وكانت كل مجموعة تتكون من سبعة أوعية • وتؤكد كل من الروايتين البابلية واليهوية أن باب السفينة أوصد بعد أن دخلها الرجل وأسرته وصنوف الحيوانات التى اختارها •

وفى كلتيها صورت الحادثة المثيرة ، حادثة ارسال الحمامة ثم الغراب من السفينة • كما أن الضحية قدمت فى كلتا الحالتين ، وقد اشتمت

الآلهة فيهما رائحة الشواء يسكن غضبها • على أننا نجد من ناحية أخرى أن الحكاية الكهنوتية فى سفر التكوين تقترب من الحكاية البابليه فى بعض التفصيلات المحددة ، أكثر من اقتراب الرواية اليهوية • ففى كل من الروايتين الكهنوتية والبابلية أصدرت الآلهة تعليمات محددة الى البطل لبناء السفينة • وبناء على هذه التعليمات ، بنيت السفينتان فى كل من الروايتين من عدة طوابق وقسم كل طابق الى عدة حجرات كما أنها طليت فى كل منها بالقار أو القطران ، ورست كل منهما على جبل ، واستقبل البطلان بركة الاله عند خروجهما •

فاذا كانت الحكايتان العبرية والبابلية عن الطوفان تتشابهان الى هذا الحد ، فكيف يمكننا أن نفسر هذا التشابه ؟ ان الرواية البابلية لا يمكن تكون مستمدة من الرواية العبرية ، حيث ان الرواية البابلية أقدم من الرواية العبرية بما يقرب من أحد عشر أو اثنى عشر قرنا • وفضلا على ذلك ، « فان الحكاية العبرية فى جوهرها • كما لاحظ « تسيمرن » ، تقضى بأن يكون البلد المشار اليه قابلا لحدوث الفيضانات مثل بابل ، الأمر الذى لا يدع مجالا للشك فى أن الحكاية « نشأت أصلا فى بابل ، ثم انتقلت بعد ذلك الى فلسطين » • ولكن اذا كان العبريون قد أخذوا حكاية الطوفان الكبير عن البابليين ، فمتى وكيف تم ذلك ؟ • اننا لا نملك أدنى قدر من المعلومات عن هذا الموضوع ، ومن ثم فان الاجابة عن هذا السؤال لا يكون الا عن طريق التخمين • وقد افترض بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة أن اليهود قد عرفوا هذه الحكاية فى فترة أسرهم فى بابل ، وبناء على ذلك لا يرجع تاريخ الرواية العبرية الى أقدم من القرن السادس قبل الميلاد • وقد تكون وجهة النظر هذه سليمة لو أن الرواية العبرية كانت متمثلة فى الأثر الكهنوتى المنقح وحده • ذلك أن الاحتمال يؤيد ، كما رأينا ، أن المصدر الكهنوتى قد ألف فى أثناء الأسر أو بعده •

ومن المحتمل كل الاحتمال أن كتاب هذا المصدر قد تعرفوا على التراث البابلى ، اما عن طريق الروايات الشفوية أو المدونة ، وذلك

فى أثناء أسرهم أو ربما بعد عودتهم الى فلسطين • ويحق لنا أن نفترض أن العلاقة الوثيقة بين البلدين التى مهد لها الغزو البابلى لفلسطين ، ربما أدت على نحو ما الى انتشار الأدب البابلى فى فلسطين ، كما أدى السبى الى انتشار الأدب اليهودى فى بابل • وبناء على وجهة النظر هذه فان بعض التفصيلات التى تختلف فيها الرواية الكهنوتية عن الرواية اليهوية ، وتتفق فيها مع الرواية البابلية ، ربما نقلها الكتاب الكهنوتيون مباشرة عن المصادر البابلية • وهذه التفصيلات تتعلق ببناء السفينة وطلائها بالقار أو القطران الذين يعدان بصفة خاصة من منتجات بابل • على أن احتمال معرفة العبريين لحكاية الطوفان الكبير قبل أن يؤخذوا فى الأسر بزمن طويل ، وقرب حكايتهم فى شكلها من الحكاية البابلية ، هذا الاحتمال تؤيده كل التأييد الحكاية اليهوية فى سفر التكوين التى يمكن أن ترجع الى القرن التاسع قبل الميلاد والتى لا يمكن أن تتأخر بحال من الاحوال عن القرن الثامن •

فاذا افترضنا أن العبريين فى فلسطين كانوا يعرفون أسطورة الطوفان البابلية منذ زمن مبكر ، فانه ما زال علينا أن نتساءل ، كيف ومتى عرف العبريون هذه الأسطورة ؟ لقد سبق للباحثين أن قدموا اجابتين على هذا السؤال : الاجابة الأولى هى أن العبريين ربما نقلوا هذه الحكاية معهم عندما هاجروا من بابل الى فلسطين قبل ميلاد المسيح بما يقرب من ألفى عام • وأما الاجابة الثانية فهى أن العبريين فيما رأى البعض ، ربما أخذوا الحكاية بعد أن استقروا فى فلسطين ، عن الكنعانيين ، سكان البلاد الأصليين الذين ربما عرفوها بدورهم عن طريق الأدب البابلى فى حوالى الألف الثانى قبل الميلاد • على أننا لا نستطيع أن نقرر فى الوقت الراهن أى الرأيين هو الصواب ، هذا اذا افترضنا أن أحدهما يحتمل الصحة •

وقد نعب الخيال اليهودى فى العصور المتأخرة بحكاية الطوفان فأضاف اليها تفاصيل جديدة تميل فى الغالب الى المغالاة ، وذلك فيما يبدو ، بقصد اشباع شغف العبريين فى عصر انحطاطهم ، أو مداعبة

مزاجهم فى هذا العصر ، ذلك المزاج الذى لم يكن يقتنع ببساطة بحكايات سفر التكوين النبيلة •

ومن بين هذه الزخارف الرخيصة أو الاضافات الغريبة التى أضيفت الى الأسطورة القديمة ، تصوير الناس وهم يعيشون فى دعة قبل أن يحدث الطوفان ، فقد كانوا يجنون من زراعة واحدة محصولا يكفى حاجاتهم طيلة أربعين عاما • كما كانوا بفنونهم السحرية ، يسخرون الشمس والقمر لخدمتهم • ولم تكن الأجنة تمكث فى بطون أمهاتها سوى بضعة أيام بدلا من تسعة شهور • وبمجرد أن يولد الأطفال يكونون قادرين على الكلام والسير على الأقدام ، بل أنهم يتحدون الشياطين ويستهزءون بهم •

ولقد كانت هذه الحياة السهلة المرفهة هى السبب فيما وصل اليه الناس من ضلالة ، كما كانت دافعا لهم الى ارتكاب الآثام ، وبخاصة الفسق والسلب ، الأمر الذى أثار غضب الرب وجعله يقرر أن يقضى على العاصين بأن يغرقهم فى الطوفان • ومع ذلك فقد أمهلهم الرب عندما أمر نوحا بأن يعظهم حتى يرجعوا عن هذه الطريق ، وهددهم بأن الرب سيغرقهم فى الطوفان جزاء جورهم • وقد أخذ نوح يعظهم طيلة مائة وعشرين عاما ، بل ان الرب منحهم مهلة أسبوع آخر فى نهاية هذه المدة • وفى هذا الأسبوع جعل الرب الشمس تشرق كل صباح من المغرب ، وتغرب فى المساء فى المشرق • ولكن هذا كله لم يحرك هؤلاء العاصين للرجوع الى التوبة ، بل انهم على العكس أخذوا يسخرون من نوح الورع ويستهزئون عندما أبصروه يبنى الفلك ، وكان نوح قد تعلم بناءه عن طريق كتاب مقدس كان قد سلمه الملاك «رزائيل» الى آدم ، وكان يحتوى بين ثناياه على العلم الدينى والدنيوى جميعا • وقد كان هذا الكتاب من الياقوت الأزرق وقد وضعه نوح فى صندوق ذهبى أحكم اغلاقه وأخذه معه فى الفلك ، فقام مقام الساعة فى التمييز بين الليل والنهار فى أثناء فترة الفيضان التى لم تكن تسطع فيها الشمس أو يبزغ فيها القمر • أما الطوفان فقد تسبب عن التقاء المياه المذكرة

التي هطلت من السماء بالمياه الأنثوية التي تدفقت من الارض • قد تدفقت مياه السماء من تجاويف صنعها الرب بأن انتزع نجمين من برج الثريا فتركا مكانهما تجويفا • وعندما شاء الرب بعد ذلك أن يسكت الأمطار الهاطلة من السماء ، عاد فسد التجويفين بنجمين أخذهما من برج الدب • وهذا هو السبب فى أن برج الدب ما زال يلاحق برج الثريا حتى اليوم مطالبا بأولاده ، ولكنه لن يحصل عليهم الى الأبد •

وبعد أن أعد نوح الفلك ، بدأ يجمع اليه صنوف الحيوان • وجاءت الحيوانات جماعات فى أعداد كبيرة للغاية ، الى درجة أن نوحا لم يستطع أن يدخلها جميعا فى الفلك ، وكان عليه أن يجلس عند بابه ليختار بعضها ، فأدخل فى الفلك الحيوانات التى كانت تجلس عند الباب ، وأبعد تلك التى كانت واقفة•وحتى بعد أن نفذ نوح هذا المبدأ من الاختيار الطبيعى بصرامة ، كان عدد أنواع الزواحف التى دخلت الفلك لا يقل عن ثلاثمائة وخمس وستين صنفا ، كما بلغ عدد أنواع الطيور اثنين وثلاثين نوعا • ولم يحص نوح عدد أنواع الحيوانات الثديية ، أو أن الكاتب على الأقل لم يدون عددها ، ولكن الكثير منها كان ينتشر بين ركاب الفلك كما سنرى وشيكا • وقبل أن يحدث الطوفان كان عدد الحيوانات النجسة يفوق عدد الحيوانات الطاهرة ، ولكن هذه النسبة انعكست بعد حدوث الطوفان ، اذ أن نوحا أدخل فى الفلك سبعة أزواج من كل نوع من أنواع الحيوانات الطاهرة ، فى حين أدخل زوجين أثنين فقط من الحيوانات النجسة • وكان هناك حيوان ضخم هو الريم لم يجد له مكانا فى الفلك لضخامته • ولهذا فقد قيده نوح بحبل طويل ربطه فى الفلك ، وأخذ الحيوان يخب من ورائها • وبالمثل كان المارد « عوج » ملك « باشان » من الضخامة بحيث لم يجد مكانا فى الفلك ، فجلس على ظهره وبذلك أنقذ • أما عن الناس الذين كانوا مع نوح فى الفلك فهم زوجته « نعمة » ابنة « أنوش » وأولاده الثلاثة وزوجاتهم •

وهناك أيضا زوج غريب وجد له مكانا فى الفلك وهو النفاق والخيبة • وقد جاء النفاق وحده أول الأمر ووقف عند باب الفلك ، ولكن

نوحا منعه من الدخول لأنه لم يكن يسمح بالدخول سوى للمتزوجين • فانصرف النفاق وتقابل مع الخيبة فأقنعها أن يكون زوجا لهـا ويرحل معها الى الفلك ، وبذلك قبلا معا بالسفينة • فلما اجتمع هؤلاء جميعـا داخل السفينة ، وبدأ الطوفان يغمر الأرض ، اجتمع العصاة من حول الفلك فى حشد بلغ عدده ما يقرب من سبعمائة ألف شخص ، وأخذوا يتضرعون ويتوسلون لكى يقبلوا فى الفلك • فلما رفض نوح فى صرامة أن يقبلهم ، اندفعوا نحو باب الفلك كما لو كانوا يريدون تحطيمه • ولكن الحيوانات المتوحشـة التى كانت مكلفة بحمـاية الفلك هاجمتهم وابتلعت بعضهم • أما الوحوش التى هربت فقد غرقت فى الطـوفان الذى أخذ يعلو تدريجيا • وأخذت السفينة تطفـو على الماء طيلة عام كامل وهى تترنح وتتخبط وسط الأمواج المتراكمة ، وكل ما فيها يتأرجح بداخلها ، كما يتقلب العدس داخل الوعاء • ثم أخذت الأسـود تزأر والثيران تخور والذئاب تعوى وسـائر صـنوف الحيـوانات تصرخ بأصواتها ، كل حسب طبيعة صوته • على أن مشكلة المشاكل التى كان على نوح أن يواجههـا فى الفلك هى مشـكلة توزيع المؤن • وقد حكى « سام » ولد نوح بعد ذلك بزمن إلى « اليعازر » خادم ابراهيم عن المشقة التى كان نوح يعانيها فى سـبيل اطعـام جيش الوحوش داخل الفلك ، فقـد كان المسـكين يصعد ويهبط داخل الفلك ، عدة مرات فى الليل والنهار ، اذ كان عليه أن يطعم حيوان النهار نهارا ، وحيوان الليل ليلا • كما كان يقدم الطعام للمارد « عوج » من خلالثقب فى سقف السفينة • وعلى الرغم من أن الأسد كان هادئا نسبيا ، اذ كان يعـانى طوال الوقت من آلام الحمى ، فانه كان فظا للغاية ، وعلى استعداد لأن يزأر لأقل اثارة • وذات مرة لم يقـدم له نوح الغذاء الكافى ، فضربه الحيوان النبيل بكفه ضربة عنيفة أصابته بالعرج سـائر أيام حيـاته ، فأصبح بعد ذلك غير قادر على أن يقوم بعمله بوصفه كاهنا • وفى اليوم العاشر من شـهر تموز أطلق نوح الغـراب ليسـتطلع الأمر ويقـدم له تقريرا عن الطوفان • ولكن الغراب وجد جسما يطفو على الماء فأسرع وراءه ليلتهمه • ونسى أن يعود الى نوح ليقدم له التقرير • فأطلق نوح

بعد ذلك بأسبوع الحمامة ثلاث مرات • وفى المرة الثالثة عادت وعلى منقارها ورقة من شجرة الزيتون كانت قد انتزعتها من فوق جبل الزيتون فى أورشليم ، ذلك أن الطوفان لم يكن قد أغرق المدينة المقدسة • وبعد أن خرج نوح من الفلك بكى عند رؤية المساحات الشاسعة التى كان الطوفان قد أغرقها • ثم قدم « سام » للرب قربان الشكر لنجاتهم من الطوفان ، ذلك أن نوحا لم يتمكن من القيام بهذا الواجب الدينى ، اذ كان لا يزال يعانى من أثر ضربة الأسد •

وقد ذكرت رواية أخرى متأخرة لحكاية الطوفان بعض التفصيلات المثيرة الخاصة بنظام الفلك الداخلى ونظام توزيع الركاب ، فقد سكنت القطعان والوحوش جوف السفينة ، كما سكنت الطيور الدور الاوسط منها ، وخص نوح سطح النزهة فى السفينة له ولأسرته بعد أن عزل الرجال عن النساء، فأقام نوح وأولاده فى الجانب الشرقى من هذا السطح ، كما أقامت الزوجات مع أولادهن فى الطرف الغربى منه ، وكان الحاجز بين هؤلاء وهؤلاء جثة آدم التى كانت قد انتشلت من قبر غمرته المياه • وهذه الرواية التى تخبرنا بعد ذلك بأبعاد الفلك على وجه التحديد بالذراع ، كما تذكر لنا اليوم والشهر الذى ركب فيه الركاب الفلك — هذه الرواية مستمدة من مخطوط عربى عثر عليه فى مكتبة دير سانت كاترين فى جبل سيناء • ويبدو أن مؤلف هذا المخطوط كان عربيا مسيحيا عاش فى فترة الفتح الاسلامى • هذا وان كان تاريخ المخطوط متأخرا •

٤ — الحكايات الاغيرقية القديمة عن الطوفان الكبير :

فى أثناء قراءتنا للأدب الاغريقى القديم ، تصادفنا حكايات عن الطوفان الكبير الذى هلك فيه الجنس البشرى كله على وجه التقريب • وحكاية الطوفان الاغريقية كما رواها « أبولودوروس » جامع الأساطير تجرى على النحو التالى : كان « دويكاليون » ابنا « لبروميثيوس » •

وكان يحكم بوصفه ملكا ، على بلد تقع بالقرب من « فيثيا » ، كما كان متزوجا من «بيرها » ابنة « ابيميثيوس » و « باندورا » أول امـرأة خلقتها الآلهة • وعنوما شاء « زيوس » أن يهلك أهل العصر البرونزى ، صنع « دويكاليون » بناء على نصيحة « بروميثيوس » ، تابوتا أو ابنتى فلكا • وبعد أن جمع كل ما يلزمه ، دخل الفلك هـ وزوجته • ثم أسقط « زيوس » مطرا غزيرا من السماء أغرق جزءا كبيرا من بلاد الاغريق وغرق مع هذا الجزء كل الناس فيماعدا قليل منهم لجأوا الى الجبال العالية القريبة • ثم انفصلت جبال « ثيسالى » وغمرت المياه البلاد التى كانت تقع وراء « استموس » و « بيلوبونيز » • أما « دويكاليون » فقد سارت سفينته على سطح الماء وهو بداخلها تسعة أيام وتسع ليال الى ان رست على جبل « بارناسيوس » • فلما انقطعت الأمطار ، نزل من السفينة وقدم الضحية للاله « زيوس » ، اله النجاه • ثم أرسـل « زيوس » الرسول « هرمس » الى « دويكاليون » وسمح له أن أن يختار الجنس الذى يعمر الارض معه ، فاختار « دويكاليون » الذكـور • فأمـره « زيوس » أن يلتقط أحجارا ويرمى بهـا وراء ظهـره • وفعـل « دويكاليون » هذا وتحولت الاحجار الى رجال • أما الاحجار التى رمتها زوجته «بيرها» فقد تحولت الى نساء • وهذا هو السبب فى أن الشعب الاغريقى اسـمه « لاوى » (Laoi) ، وهو اسم مشـتق من لاس (Laas) ومعناه حجر •

ولا ترجع هذه الحكاية الاغريقية من حيث شكلهـا الى أقدم من منتصف القرن قبل الميـلاد ، أما من حيث المـادة فهى أقـدم من هذا بكثير • ذلك لانها قد رويت عن « هيلانسـيوس » وهو مؤرخ اغريقى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد • وقد ذكر هذا المؤرخ أن سفينة « دويكاليون » لم ترس على جبل « بارناسيوس » ، بل رست عند جبل « أوثريس » فى « ثيسالى » • وهناك رواية أخرى للحكاية الاغريقية رويت عن الشاعر « بندار » الذى ترجع مؤلفاته الى القرن الخامس قبل الميلاد ، قبل « هيلانسيوس » ، ذلك أن هذا الشاعر حكى

عن « دويكاليون » و « بيرها » ، عندما هبطا من جبال « بارناسيوس » وأعادا خلق الجنس البشرى من الحجر .

وقد رأى البعض أن المدينة الأولى التى أسسها « دويكاليون » بعد انتهاء الطوفان هى مدينة « أوبوس » التى كانت تقع فى سهل « لوكريان » الخصيب بين الجبال وخليج « أويتويك » . على أنه روى أن « دريكاليون » كان يسكن فى « سينوس » ميناء « أوبوس » ، بعيدا عن السهل بعدة أميال . وقد كان الأهالى يطلعون المسافرين على قبر زوجته فى مستهل التاريخ الميلادى ، كما يقال : إن رماد جسد الزوج يرقد فى اثينا . ووفقا لرأى أرسطو الذى كتب مؤلفاته فى القرن الرابع ق.م. فان الدمار الذى لحق بالبلاد بسبب الطوفان الذى حدث فى عصر « دويكاليون » ، شعر به سكان هيلاس القديمة بوضوح ، تلك المدينة التى كانت تقع على مقربة من «دودونا » ونهر « أشيلوس » ذلك أن هذا النهر قد غير مجراه فى أماكن عدة . وفى هذه الأيام كان يسكن هذه المنطقة « السيليون » ، كما كان يسكنها الشعب الذى كان يسمى « الاغريق » (جرايكوى) ، ويطلق عليه الآن اسم « الهيلينيين »

وقد كان بعض الناس يعتقدون آن ضريح « زيوس » المقدس فى « دودونا » قد شيده « دويكاليون » و « بيرها » اللذان كانا يعيشان بين « المولوسيين » سكان هذا البلد . قد ذكر أفلاطون كذلك فى القرن الرابع ق.م. الطوفان الذى حدث فى زمن « دويكاليون » و « بيرها » دون أن يصفه . وكذلك حكى عن الكهنة المصريين أنهم كانوا يسخرون من الاغريق الذين كانوا يعتقدون أنه لم يحدث سوى طوفان واحد فى حين أن الطوفان قد أغرق الأرض أكثر من مرة . أما المؤرخ « البارياني » الذى دون الأحداث التاريخية وفقا لتسلسلها الزمنى عام ٢٦٥ ق.م. فقد ذكر أن طوفان « دويكاليون » قد حدث قبل عصره بألف ومائتين وخمسة وستين عاما ، أى أنه حدث وفقا لحسابه عام ١٥٣٩ ق.م .

وهناك أماكن مختلفة فى بلاد اليونان تدعى شرف صلتها على نحو ما بدويكاليون والطوفان الكبير • ومن بين سكان هذه الاماكن ــ كما يمكن أن نتوقع ذلك ــ سكان أثينا الذين يتباهون بالعصور القديمة التى سكنوا فيها بلاد « أتيكا » • وليس عند الاثينيين مانع ان يزوروا عندما تكون المسألة متعلقة بدويكاليون وطوفانه • وهم عندما يشرحون صلتهم بهذا الحادث يتذرعون بذريعة ، مؤداها أن السحب حينما تجمعت فى كثافة حول قمة جبل « بارناسيوس » ، وهطلت الأمطار فى شكل سيول جارفة فى « ليكوريا » حيث كان « دويكاليون » يحكم بوصفه ملكا ، لاذ « دويكاليون » بأثينا ، وشيد عند وصوله اليها هيكلا لاله المطر « زيوس » ، كما قدم ضحية الشكر على نجاته • وهذه الأسطورة فى شكلها الموجز على هذا النحو ليس فيها ذكر للسفينة ، ويبدو أنه قد ترك لنا أن نحدس أن البطل قد هرب من الطوفان سائرا على قدميه • ومهما يكن الامر ، فان « دويكاليون » ، كما قيل قد شيد هيكلا « لزيوس الأولبى » وأنه دفن فى اثينا • وقد ظل المرشدون الاثينيون المحليون ، حتى القرن الثانى الميلادى ، يشيرون بفخر وطنى الى ضريح نوح الاغريقى • بجانب هيكل « زيوس الأولبى » الأحدث والاكثر فخامة من ضريح « دويكاليون » الذى يتوج حطام أعمدته فى بهاء فريد المدينة الحديثة • ومازال هذا المعبد يلفت الانظار من بعد ويحمل شهادة صامتة ، وان تكن بالغة الدلالة على عظمة الاغريق القدماء

وليس هذا الضريح وحده هو الذى كان يشير اليه المرشدون الاغريق فى ذكرى الطوفان المهول • بل كانوا كذلك يرشدون المسافر المحب للاستطلاع داخل أرباض اثينا التى يحجبها هيكل « زيوس » المترامى الارجاء الى ربض أصغر من « البقعة الاولبية » ، حيث كانوا يشيرون الى شق فى الارض ، عرضه ذراع واحدة ، ويؤكدون أن مياه الطوفان كانت تجرى داخل هذا الشق • ومن ثم فهم يرمون فى هذا الشق كعكا مصنوعا من دقيق القمح والعسل • ويبدو أنه كان ينظر الى هذا الكعك بوصفه كعكا روحيا صنع للأرواح

الفقيرة التي هلكت في الطوفان الكبير • ذلك أننا نعلم ان طقوسا تذكارية ، أو صلاة جنائزية كانت تقام في أثينا في كل عام تكريما لهؤلاء الشهداء • وكانت هذه الاحتفالات تسمى « بعيد الطفو على الماء » • ولا توحي هذه التسمية بأن ذوي القلوب الرحيمة لم يكونوا يرمون في الشــق الأرضي الكعك فحسب ، بل كانوا يصبون فيه المياه كذلك ، وبذلك يسدون جوع أشباح العالم آخــر ، بمقدار ما يطفئون ظمأهم

وهناك مكان آخر كان الناس يحتفلون فيه بذكرى الطــوفان على نحو ما سلف ، هذا المكان هــو «هيرابوليس » الذى كان يقــع عــلى نهر الفرات•وهناك فى هذا المكان كانت الآلهة السامية تقدس حتى القرن الثانى قبل الميلاد بطريقة فرضتها الحضارة الاغريقية الاســـمية التى انتشرت فى الشرق بتأثير فتوحات الاسكندر الأكبر • وبمقتضى هــذه الطريقه ، كان الناس يخلعون على هذه الآلهه أردية تنكرية شــفافة ، فكانت أشبه بالتماثيل القديمة التى ترتدى أردية فضفاضــة • وقــد كانت الالهة « عشتروت » تحتل مكانا بارزا بين هذه الآلهة القديمــة وهى تلك الالهة التى كان يعبدها الاغريق متخفية تحت اسم « هيرا » وقد خلف لنا « لوسيان » وصفا قيما للغاية لمعبـــد « عشـــتروت » والطقوس التى كانت تقام فيه • فهو يخبرنا أن المعبد وفقـــا للرأى السائد ، بناه « دويكاليون » الذى حدث فى عهده الطوفان الكبير • وعند ذكـــر دويكاليون وجد « لوســـيان » فرصـــــة لكى يحكـــى أسطورة الطوفان الاغريقية التى تجرى على النحو التالى : ان جيـــل الرجال الحالى ، كما يقول « لوسيان » ليس هو جيل الجنس البشرى الأول ، بل سبقه جيل آخر فنى عن آخره • أما نحن البشر الذين نعيش اليوم على وجهالبسيطة، فننتمى الى الجيل الثانى الذى تكاثر بعـــد عصر « دويكاليون » • وأما الناس الذين كانوا يعيشون قبل الطوفان ، فيقال انهم كانوا قد تجاوزوا الحد فى الاستهتار والحماقة ، فلم يكونوا يحفظون ايمانهم أو يكرمون الغرباء ، أو يلقون بالا لطالبى المعـــونة قد كان جزاؤهم أن أصابتهم هذه الكارثة الكبرى ، فتدفقت المياه من

جوف الارض ، وهطلت الأمطار فى شكل سيول جارفة ، وفاضت الأنهار وغمر البحر البلاد بحيث لم تعد العين تبصر سوى المياه فى كل مكان • أما الناس فقد غرقوا عن آخرهم ، فيما عدا « دويكاليون » الذى عاش بسبب حكمته وورعه ، وكان الحلقة بين جيله وجيل الناس من بعــده •

وقد تم انقـــاذ « دويكاليون » على النحو التـــالى : لقد كان « دويكاليون » يملك فلكا كبيرا لجأ اليه هو وزوجته واولاده هربا مــن الطوفان • وفى الوقت نفسه جاءته الخنازير والخيول والاسود والثعابين وسائر حيوانات الارض أزواجا ، فاستقبلها « دويكاليون » جميعا ، ولم تحدث له أى أذى • أجل ، لقد دبت بينها ، بعون الاله روح الصداقة العميقة ، وأبحرت جميعا فى سفينة واحدة حتى انتهى الطوفان • ثم يقول « لوسيان » بعد ذلك : ان هذه هى حكاية طوفان « دويكاليون » الاغريقية • ثم يستأنف حديثه قائلا ان سكان « هيرابوليس » يحكون حادثة غريبة • فهميقولون: ان خندقا انفتح فى بلدهم وتسربت اليــه مياه الطوفان عن آخرها • فشيد « دويكاليون » أثر ذلك الهياكل كمــا شيد معبدا مقدسا للآلهة « هيرا » بجوار الخندق وهو عبارة عن خندق صغير يقع أسفل المعبد • ولست أدرى أكان هــذا الخنــــدق كبيرا فى الازمنة السالفة ثم انكمش على مر الزمن ، فان ما رأيته كان خندقــا صغيرا ما فى ذلك شك •

وفى ذكرى أسطورة الطوفان يقوم الناس بالاحتفالات الآتية ؛ يحضرون كمية من مياه البحر الى المعبد مرتين فى الســــنة • ولا يقوم الكهنة وحدهم باحضار المياه ، بل يشاركهم فى ذلك السوريون والعرب ، بل الناس الذين يسكنون فيما وراء نهر الفرات • وتصب كل هذه المياه فى الخندق • وعلى الرغم من صغر حجم الخندق ، فانه كان يتســـع لهذه الكمية الهائلة من المياه • ويعلق الناس على هذا بقــــولهم : انهم انما يتبعون نظام الطقوس الذى كان « دويكاليون » يؤديه فى المعبــد فى ذكرى الطوفان وفى ذكرى رحمة الآلهة بالناس • وفضلا على ذلك فقد كان هناك عمودان أو بالأحرى مسلتان عند المدخل الشمالى لهذا المعبد

العظيم ، يبلغ طول كل منها ثلاثمائة وستين قدما • وقد كان من المألوف أن يصعد رجل احدى هاتين المسلتين مرتين فى كل عام ، ويظل سبعة أيام جالسا فى الهواء على قمتها • وتختلف الآراء فى سبب صعود هذا الرجل وفى هدف هذا العمل ، ولكن أغلب الناس يعتقد أنه عندما يصعد الى هذا الارتفاع الشاهق يكون قريبا من الآلهة فى السماء ، فتستمع بوضوح الى الصلوات التى يؤديها باسم أهل سوريا جميعا • على أن البعض الآخر يرى أنه انما كان يصعد الى قمة المسلة ليبين للناس كيف كان لناس يصعدون الى قمم الجبال وأعالى الاشجار لكى يهربوا من طوفان « دويكاليون » •

هذه الرواية الاغريقية المتأخرة لاسطورة الطوفان تشبه الى حد كبير الرواية البالبلية • وقد أضاف « بلوتارك » عنصرا آخر من عناصر التشابك بين الراويتين عندما ذكر أن «دويكاليون » أطلق حمامة من السفينة حتى يستطيع أن يعرف من رجوعها أو عدم رجوعها الى السفينة ما اذا كانت العاصفة الممطرة ما تزال مستمرة أم لا • وبهذا تكون الرواية الاغريقية فى شكلها هذا قد تلونت بدون شك ، أن لم تكن قد امتزجت ، بتأثير سامى ، اسرائيليا كان أو بابليا •

وهناك مدينة أخرى فى آسيا الصغرى ، كانت تزهو ، فيما يبدو ، بارتباطها بحادثة الطوفان الكبير • واسم هذه المدينة هو « أباميا سيبوتس » ، التى كانت تقع فى اقليم « فريجيا » • ولقب « سيبوتس » الذى تحمله هذه المدينة ، هو الكلمة الاغريقية التى تعنى التابوت أو الفلك • وتبدو على عملات هذه المدينة التى صكت فى عصر « سيفيروس » و « ماكرينوس » و « فيليب الأكبر » ،صورةالسفينة الطافية على الماء وبداخلها راكبان يبدو الجزء الأعلى من جسميهما • والى جانب السفينة هناك شكلان آخران ، أحدهما لرجل والآخر لامرأة وأخيرا هناك صورة طائرين يجثمان فوق السفينة ، قيل : أن أحدهما صورة غراب والآخر حمامة تحمل فرع زيتون • وقد نقش اسم « نوح » كما لو أنه أريد بذلك ازالة كل شك فى سبيل التعريف على الأسطورة

ومما لاشك فيه أن الشكلين يشيران الى نوح وزوجته ، مرة وهما بداخل السفينة ، ومرة أخرى وهما خارجها • وهذا النموذج من العملات يثبت بدون شك أن سكان « أباميا » كانوا يعرفون فى القرن الثالث الميلادى حكاية طوفان نوح العبرية فى الصورة التى حكيت بها فى سفر التكوين • وربما عرف السكان هذه الحكاية من المواطنين اليهـود الذين كانوا فى القرن الأول قبل الميلاد كثيرين للغاية ، أو كانوا أغنياء كل الغنى الـى درجة أنهم تبرعوا لاورشليم فى مناسبة واحدة بما لايقل عن مائة رطل من الذهب • على أن الباحثـين لم يتفقـوا على ما اذا كانت حكايـة « أباميا » عن الطوفان يهودية الأصل أو أنها تعتمد على أسطورة محلية قديمة عن الطوفان •

وعلى الرغم من أن رواية الطوفان الاغريقيـة التى ترتبط باسم « دويكاليون » هى أكثر الروايات شهرة وذيوعا ، فانها ليست الرواية الوحيدة المدونة فى التراث الاغريقى • فالعلماء يميزون فى الواقـع بين كوارث ثلاث كبيرة اصابت العالم فى أحقاب مختلفة ، الكـارثة الاولى حدثت ، فيما يروى ، فى عهـد « أجيجيس » ، والثانيـة فى عهـد « دويكاليون » ، والثالثة فى عهد « داردانوس » • وقـد قيل : أن « أجيجيس » أو « أجيجوس » ، كما ينطـق الاسـم كذلك فى بعض الأحيان ، نشا وحكم فى طيبة فى « بيوتيا » • وتعد طيبة ، وفقا لرأى العلامة « فارو » ، أقدم بلاد الاغريق ، حيث انهـا كانت قد بنيت فى عصور ما قبل حوادث الطوفان • وصلة « أجيجـوس » « ببيوتيـا » بصفة عامة ، وبطيبة بصفة خاصة ، يؤكدها اطلاق اسمه على البلد وعلى المدينة وعلى احدى بوابات هذه المدينة •

ويخبرنا « فارو » أن « طيبـة البوتيانية » قد بنيت قبل الزمن الذى كان يكتب فيه كتاباته بما يقرب من ألفين ومائة عام • وقد كتب « فارو » كتاباته عام ٣٦ ق•م• أو ما يقرب من هذا التاريخ • وحيث ان الطوفان ، بناء على رأيه ، حدث فى عهد « أجيجوس » بعـد أن أسس طيبة ، فاننا نستول من ذلك على أن الطفان قد حدث وفقا لرأى

« فارو »عام ٢١٣٦ ق٠م٠ أو بعد هذا التاريخ مباشرة ٠ أما وفقا لرأى مؤرخ الكنيسة « أويسيبيوس » فقد حدث الطوفان الكبير فى عهـــد « أجيجوس » بعد طوفان نوح بما يقرب من الفين ومائتى عام ، وقبل طوفان « دويكالين » بمائتين خمســين عاما ٠ ومن الطبيعى حقــا ان يكون شرفا للمسيحيين الأولين أن يدعوا أن قدم قصة الطوفان المدونة فى كتبهم المقدسة يكسبها من التقدير ما تفوق به تلك الروايات المدونة فى الكتابات الدنيوية ٠

وقــد جعـــل « يوليوس أفريكانوس » ، المؤرخ المســـيحى « أجيجوس » يعيش فى عصر موسى لا فى عصر نوح ٠ وكذلك وضـــع « ايزيدور » اسقف « أشبيليه » العالم ، طوفان نوح على رأس قائمة حوادث الطوفان المختلفة ويليـــه حسب الترتيب الزمنى طـــوفان « أجيجوس » ثم طوفان « ديوكاليون » وقد كان « أجيجوس » ، من وجهة نظره ، معاصرا ليعقوب ، فى حـــين كان « دويكاليون » معاصرا لموسى ٠ وقد كان أسقف « أشبيليه » فيما أعلم ، أول الكتـــاب الذين لجأوا الى البقايا الحيوانية المدفونة فى الجبال النائية بوصفها شاهدا على حقيقة حكاية نوح المروية ٠٠

فاذا كان « أجيجوس » بطلا بيوتيانيا ، لا بطلا أتيكيا ، وهذا هو المرجح ، فان قصة الطوفان الذى حدث فى عصره ، تتاكد بالتغير الذى طرأ على بحيرة « كوبياك » التى كانت فى الازمنة السالفة تشغل مساحة كبيرة فى وسط « بيوتيا » ٠ فحيث انه لم يكن للبحيرة منبع خـــارجى على سطح الارض ، كانت تعتمد فى مصدر مياهها كلية على الخنادق والممرات الجوفية التى كانت المياه قد حفرتها فى الصخور الجيرية على مر الزمن لتجرى فيها ٠ وقد كان مستوى البحـــيرة يرتفع وينخفض بنـــاء على انسداد هذه المجارى الجوفية أو خلوها من أى عائق ٠ وربما لم يحدث لبحيرة من البحيرات أن تعرضت للتغيرات السنوية بشكل منتظم واضح كما حدث لبحيرة « كوبياك » ٠ فبينما تملؤها عيدان البوص فى الشتاء وتكون مأوى لآلاف الطيور البرية ، تصبح فى الصيف فى كثير أو قليل سهلا

مستنقعا ترعى فيه القطعان ، وتزرع فيه المحاصيل وتنمو • ولكن مياهها كانت معرضة لأن ترتفع عن مستواها العادى ، بسبب اختلاف النسبة غير العادية ، قلة أو كثرة ، للامطار الشتوية ، أو بسبب اختلاف النسبة الجوفية أو خلوها من العوائق • كما أننا نقرأ فى الكتب القديمة عن مدن كانت تقع على مشارف هذه البحيرة ثم غرقت ، فان المسافر فى العصر الحديث يحكى عن مزارعين اضطروا الى أن يهاجــــروا قبل أن يعم الفيضان قراهم ، وعن مزارع العنب وحقول القمح التى اختفت تحت المياه • وربما كان من بين هذه الفيضانات فيضان أعنف وأكثر دمارا من سائر الفيضانات التى سبقته ، ارتبط « أجيجوس » به ، وظل مرتبطا به دائما بدا •

وهذه النظرية التى يمكن أن تفسر طوفان « أجيجوس » الكبـــير بفيضان بحيرة « كوبياك » غير العادى ، يدعمها الى حد ما ، ما حدث فى « أركاديا » • فقد راينا فى الاسطورة الاغريقية ، أن الطوفان الثالث الكبير ارتبط باسم « داردانوس » • و « داردانوس » هذا ، وفقـــا لاحدى الروايات حكم « أركاديا » أول ما حكم ، بوصفه ملكا ، ولكنه ترك هذه البـــلاد عنـــدما غمـــر الطوفان الاراضى المنخفضة وجعلها غير صالحة للزراعة لمدة طويلة • أما السكان فقد لجأوا الى الجبال وكافحوا من أجل الحياة بما استطاعوا أن يدبروه من الطعام • ولكنهم عندما أدركوا أن الأرض التى انحسر عنها الطوفان لم تكن كافية لامدادهم بالمحاصيل قرروا تركها • على أن بعضـــهم بقوا فيهـــا مع « ديمـــاس » ابن « داردانوس » واتخذوه ملكا عليهم ، فى حين هاجر البعض الآخر تحت قيادة « داردانوس » نفسه الى جزيرة « ساموثراسى » • ووفقا لرواية اغريقية قبلها « فادوا » الرومانى أن المكان الذى ولد فيه « داردانوس » هو «فينيوس» الذى كان يقع فى شمال «أركاديا» • وهذا المكان ذو شهرة ذائعة • فباستثناء منطقة « كوبياك » لم يعرف فى بلاد اليونان واد تعرض للفيضانات على نطاق واسع ولأزمنة طويلة ، مثل وادى « فينيوس » • وتتشابه الأحوال الطبيعية فى هذين المكانين تشابها جوهريا ، فكلاهما

أشبه بحوض وسط مناطق حجرية وليس لهما مصدر مائى فوق سطح الارض • وكلاهما تصب فيه الأمطار المنحدرة من الجبال المحيطة • وكلاهما يعتمد فى مياهه على المجارى الجوفية التى نحتتها المياه أو فجرتها الزلازل فى الصخور • فاذا ترسب الطمى فى هذه المنافذ ، أو اعترضتها أية عوائق أخرى ، فان المكان الذى يكون سهلا فى الأحوال العادية يتحول الى بحيرة فى هذه الظروف • ولكن على الرغم من هذا التشابه القوى بين المكانين ، هناك وجوه اختلاف جوهرية بينما • فعلى حين نجد حوض « كوبياك » أرضا منبسطة شاسعة ترتفع فوق مستوى صخور منخفضة أو منحدرات هينة ، نجد حوض « فينيوس » واديا ضيقا مرتفعا ، تحيط به من كل جانب جبال جهمة منحدرة ، تغلف منحدراتها المرتفعة غابات الصنوبر الدكناء ، وتغطى الثلوج قممها الشاهقة معظم شهور السنة • والنهر الذى يمد هذا الحوض بالمياه عن طريق مجرى جوفى هو نهر « لادون » وهو أكثر أنهار بلاد اليونان سحرا جمالا • فلقد عاش « ملتون » بخياله على شواطىء نهر « لادون » الرملية التى تنمو فيها أزهار السوسن » • بل ان الكاتب « باوزانياس» ادعى أن هذا النهر لا يدانيه نهر آخر ساء فى بلاد اليونان أو خارجها وليس هناك ما يثيرنى من بين الذكريات التى تركها فى نفسى بلاد الاغريق ، مثل تلك الايام التى قضيتها وانا أقتفى أثر النهرمن منبعه عند البحيرة الجميلة ثم منابعه التى تقع على الجانب البعيد من الجبل ، حتى الأخدود العميق الصخور فى شكل ملاءات من الزبد الأبيض المائل لونه الى الاخضرار ، حتى تلتحم بنهر « ألفيوس » المقدس • على أن الزلازل أخذت تسد من وقت لآخر مجرى نهر « لادون » الذى ينبع من وادى « فينيوس » ، وكانت النتيجة أن كف النهر عن الجريان • وعندما كنت أزور منابع هذا النهر عام ١٨٩٥ ، اخبرنى فلاح لحظة وصولى انه منذ سنتين كفت مياه النهر عن الجريان مدة ثلاث ساعات اثر هزة أرضية عنيفة ، وتعزى الخندق الذه يقع فى قاع البحيرة وشوهد السمك وهو يرقد على الارض الجافة • وبعد ثلاث ساعات أخذ النبع يتدفق بعض الشىء • وبعد ثلاثة أيام سمع انفجار صوت يدوى أعقبه تدفق المياه

بكميات هائلة • وقد رويت في الزمن القديم والجديث معـــا حكايات شبيهة بهذه الحكاية التى تحكي عن توقف النهر لبعض الوقت • وحيثما كانت تدوم عوائق المجرى الجوفي ، كانت تحتل وادي « فينيس » بحيرة تختلف في اتساعها وعمقها باختلاف حجم عوائق المجاري الجوفية • وقد اعترت هذا الوادى ، وفقا لرأى « بلينى » ، حتى يومنا هذا خمســة أحوال من التغير الذى كان يحيله من البلل الى الجفاف ، ومن الجفاف الى البلل ، وجميع هذه الأحوال المتغيرة تسببت فى حدوثهـا الزلازل • وفى زمن « بلوتارك » ارتفع الفيضان ارتفاعا كبيرا حتى اغرق الوادى كله • وقد عزا الشعب الورع هذا الحادث الى غضب « أبوللو » من هرقـل الذى كان قد سرق من الاله منذ ألف عام مرجله من « دلف » وحمله الى فينيوس • ومعنى هذا أن غضب أبوللو من هرقل قد ظهر متأخرا • على أن المياه انخفضت بعد هذا فى نفس القـرن ، لان الرحـــالة الاغريقى « بوزانياس » أبصر قاع الوادى جافا ، ولم يكن يعلم بوجد البحيرة الا من خلال الروايات •

وليس من اليسير اهمال الروايات التى تتصل بالطوفان الكبـير فى واد عاش ظروفا كثيرة التغير ، تراوحت بين الجفاف والبال وبين ظهور بحيرة واسعة ظرفا كثيرة التغير ، تراوحت بين الجفاف والبلل وبين ظهور بحيرة واسعة ذات مياه زرقاء ، وأرض زراعية شاسعة ينبت فيها الذرة الاصفر • بل ان كل شيء فى هذا المكان يؤكد على العكس احتمال روايتها ، ومن ثم فربما كانت الحكاية التى رددت أن « داردانوس » أحد اهالى « فينيوس » ، قد اضطره الطوفان الـذى غطى الاراضى المنخفضه وأغرق الحقول ،الى أن يهجر بلاده ، كما اضطر الاهالى الى أن يتركوا بلادهم ويلجأوا الى المنحدرات العليا فى الجبال — ربما كانت هذه الحكاية ترتكز بحق على أساس ثابت من الحقائق • وكذلك تصدق الحكاية التى دونها « باوزانياس » عن الفيضان الذى علا وأغرق مدينة « فينيوس » القديمة التى كانت تقع عند الطرف الشمالى من البحيرة •

وقد قيل : أن « داردانوس » المهاجر قد اتخذ طريقه من مسكنه فى الأماكن العالية فى « أركاديا » الى جزيرة « ساموثراس » •

ووفقا لاحدى الروايات أنه طفا على لوح من الخشب • ووفقـا لرواية لزاوية أخرى أن الفيضان لمباغته فى أركاديا بل فى جزيرة «ساموثراس» وأنه هرب على جلد منتفخ طافيا على سطح الماء حتى رسا على جبل «ادا» حيث شيد مدينة « داردانيا » أو « طروادة » •• ومن المؤكد أن أهل « ساموثراس » الذين كانوا يرتبطون بآثارهم القديمة كل الارتباط قد ادعوا أن طوفانهم حدث قبل أى طوفان آخر على وجه الأرض • فقـد روى عنهم أنهم قالوا : آن مياه البحر ارتفعت وغطت مساحة كبيرة من الارض المنبسطه فى جزيرتهم ، وأن الاحياء لجأوا الى الجبال الشاهقة التى لا تزال تكسب جزيرة « ساموثراس » أكثر الملامح شهرة فى شمال منطقة بحر « أيجه » ، ولاتزال تبدو واضحة للناظر اليها من طـروادة فى الجو المشرق • ثم أخذ البحر يقتفى أثر الهاربين فى أثناء لجوئهم الى الجبال ، فأخذوا يتضرعون للآلهة لكى تنقذهم فلما أنقذوا نصبوا فى كل مكان من اجزيرة معالم تشهد على انقاذ الآلهة اياهم ، كما شيدوا المعابد التى ظلوا يقدمون فيها الضحايا حتى زمن متأخر • وقد ظل الصيادون بعد حدوث الطوفان بقرون عدة يجرون فى شباكهم بين الحين والآخر أحجار العمد الرئيسية التى تشهد على وجود المدن الغريقة فى أعماق البحر • أما الأسباب التى يرجع سكان « ساموثراس » الطوفان اليها ، فهى جديرة بالملاحظة • فقد حدثت الكارثة وفقا لروايتهم ، لا بسبب سقوط الأمطار الغزيرة ، بل بسبب ارتفاع غريب مفاجىء لمياه البحر ، نجم عن تحطم الحواجز التى كانت حتى ذلك الحين تفصل البحر الاسود عن البحر الابيض • فى هذا الوقت حطمت كميات الميـاة الهائلة تلك الحواجز التى كانت مختزنة وراءها ، وشقت طريقا فى الأرض المواجهة لها مكونة بذلك المضيقين اللذين يعرفان اليوم باسم البوسفور والدردنيل • ومنذ ذلك الوقت أخذت مياه البحر الأسود تتدفق فى البحر الأبيض المتوسط • وبينما كان هذا السيل الجارف يقتحم العيون الجـديدة التى فتحت فى

السد ، اغرقت المياه جزءا كبيرا من ساحل آسيا كما أغــرقت الاراضى المنبسطة فى جزيرة « ساموثراس » •

وقد أكد علم طبقات الأرض فى العصر الحديث الى حد ما ، صدق هذه الرواية « الساموثراسية » • فقد ذكر « هكسلى » أنه حتى زمن ليس بالبعيد جدا ، كانت آسيا الصغرى مرتبطة بأوروبا عن طــــريق الموضع الذى يقع فى مكانه اليوم خليج البوسفور • وقد كان هذا الموضع حاجزا يبلغ ارتفاعه عدة مئات من الأقدام ، يحتجز أمامه مياه البحــر الأسود • ومعنى هذا أن مساحة كبيرة من « أوروبا الشرقية » و « آسيا الوسطى الغربية » كانت تكون خزانا ضخما على طول مجمع المياه العربى الحالى لنهر « أوبى » الذى يصب فى المحيط المتجمد الشمالى • وقــد كانت أكثر فتحات هذا الخزان انخفاضا • تعلو ، فيما يبدو ، ســطح البحر بحوالى مائتى قدم • وفى هذا الحوض كانت تصب أكبر أنهار أوروبا مثل نهر الدانوب والفولجا ، كما كانت تصب فيه كذلك أنهــار ، آسيا الكبيرة آنذاك مثل « أوكسوس » و « كســارتس » وكل ما كان يتصل بها من روافده • وفضلا عن ذلك فان هذا الحوض كان يستقبل فائض بحيرة « بالكاش » التى كانت آنذاك اوسع مما هى عليه الآن بكثير ، ومن المحتمل أنه كان يستقبل كذلك مياه البحر الداخلى فى منغوليا • وفى هذا الوقت كان مستوى بحر « أرال » يعلو مستواه الحالى بما لايقل عن ستين قدما • وقد كان فى مكان البحر الأسود وبحــر قــزوين وبحــر « أرال » ، تلك البحار المنفصلة بعضها عن بعض ، كان هناك بحر واحد هو بحر « بونتو ــ أرال المتوسط » • ولابد أن هذا البحر الواحد كان يمتد فى الوقت الحاضر أحضان أودية نهر الدانوب المنخفضة ونهر لفولجا الذى عثر فيه فى الوقت الحاضر على القواقع القوقازية ، وبالمثل فى نهر «كاما» ونهر آرال وسائر الأنهار الجارية فى حين كانت هذه الأنهار تصب فائض مياهها شمالا عن طريق حوض « أوبى » الحالى • ويبدو أن هذا الخزان الهائل أو هذا البحر الداخلى الشاسع الذى كان يحجزه ويدعمه خزان طبيعى عال يربط آسيا لصغرى بشـــــبه جزيرة البلقان ، كان

يوجد منذ عصر البلايستوسين • كما أنه يعتقد أن تآكل ممر الدردنيل الذى وجدت المياه المحتجزة فى النهاية من خلاله طريقها الى البحر المتوسط قد حدث فى نهاية عصر « البلايستوسين » أو بعد ذلك ولكنه من المؤكد أن الانسان لم يسكن أوروبا فى عصر « البلايستوسين » بل يرى البعض أنه سكنها فى عصر « البليوسين » أو حتى فى عصر « الميوسين » • ومن ثم فانه يبدو محتملا أن سكان « اوروبا الشرقية كانوا يحتفظون حقا برواية مأثورة تتصل ببحر « بونتو أرال » الداخلى الشاسع ، وعن جفافه الجزئى الذى نجم عن تحطم الخزان الذى كان يفصله عن البحر المتوسط ، أو — بعبارة أخرى — تتصل بانشقاق بوغازى البوسفور الدردنيل • اذا كان هذا الفرض صحيحا ، فان الرواية « الساموثراسية » تكون قد احتوت على عناصر كثيرة من الحقائق التاريخية فيما يختص بالاسباب التى ذكرتها لحدوث الكارثة •

ويبدو أن علم الجيولوجيا من ناحية أخرى ، لم يدعم رواية الكارثة هذه فى حد ذاتها • ذلك أن الشواهد تنحو الى اثبات أن بوغاز الدردنيل لم ينشق فجأة كما ينفجر سد بسبب ضغط المياه أو بسبب هزة أرضية ، بل تكون هذا البوغاز ، على عكس ذلك ، عن طريق عملية النحات البطيئة التى لابد أنها استغرقت قرونا بل آلافا من السنين ، ذلك أن البوغار تحيط به طبقات أرضية لم تتغير يبلغ سمكها أربعين قدما وترجع الى عصر البلايستوسين • وفى خلال هذه الطبقات أخذ البوغاز ينحت طريقه فى هدوء • وبناء على ذلك فان من العسير تماما أن يكون مستوى بحر « بونتو — أرال » قد هبط الى مستى البحر البيض المتوسط فجأة وعلى نحو مفاجىء ، محدثا فيضانا هائلا عبر سواحل آسيا واوروبا • بل الاكثر احتمالا أن يكن هذا البحر قد تغير تدريجيا وفى بطء ، بحيث ان كمية المياه التى تدفقت منه خلال جيل واحد فقط لا يحسها المراقبون العاديين ، بل لا يحسها المراقبون المدققون غير المزودين بأجهزة دقيقة • ومن ثم فانه يبدو من الاسلم أن ندعى أن هذه الحكاية « الساموثراسية » قد رواها أحد الفلاسفة المبكرين على سبيل الظن • وقد استطاع هذا الفيلسوف ان يتكهن بحق بما كان عليه

بوغازا الدردنيل والبوسفور دون أن يكون قادرا على أن يتصور البطء البالغ لعملية النحت الطبيعية ، ذلك بدلا من أن ندعى أن هذه الحكاية احتفظت بذكرى حقيقية عن الطوفان الذى تدفق نتيجة انشقاق بوغاز الدردنيل • قد أكد هذا الرأى فى الواقع « ستراتو » صاحب الفلسفة الطبيعية المرموق الذى خلف « ثيوفراست » فى زعامة مدرسة المشائين عام ٢٨٧ ق • م • وقد دعم « ستراتو » هذا الرأى على أساس نظرى بحت ، عندما رفض أن ينظر الى هذه الحادثة بوصفها رواية شعبية ، واعتمد فى مناقشتها على ملاحظاته للملامح لطبيعية للبحر الأسود (١) • فقد أشار الى كميات الطمى الهائلة التى كانت تقذفها الأنهار الكبيرة فى « أويكسين » ، واستنتج أنه لولا مخرج بوغاز البوسفور لامتلأ البحر بالغرين مع مرور الوقت • وأبعد من هذا فقد افترض أن هذه الأنهار بعينها قد شقت لنفسها طريقا فى الأزمنة السالفة خلال بوغاز البوسفور ، فتسربت مياهها المتجمعة الى « بزوبونتوس » ومنه الى البحر المتوسط عبر بوغاز الدردنيل • وقد تصور « ستراتو » بنفس الطريقة أن البحر المتوسط كان فى سالف الزمن بحرا داخليا ، وأن اتصاله بالمحيط الأطلنطى قد نجم عن تدفق المياه المختزنة شقها لمضيق جبل طارق • ويحق لنا أن ننتهى بناء على ذلك الى أن السبب الذى فسرت به الحكاية « الساموثراسية » حدوث الطوفان الكبير مستمد من تأمل ذكى أكثر من كونه مستمدا من رواية شعبية قديمة •

وهناك أسباب تدعونا لأن نعتقد أن حكاية الطوفان الأغريقية التى ارتبطت بشخصيتى « دويكاليون » و « بيرها » ، لم تكن كذلك صدى لحادثة حقيقية ، بمقدار ما كانت استدلالا ارتكن على ملاحظة حقائق طبيعية بعينها • فقد رأينا فى احدى الروايات الاغريقية أن

(١) كان البحر الأسود يعرف فى الزمن القديم باسم Pontus Exinus ، اى البحر الكريم •

جبال « فيسالى » قد انشقت بتأثير طوفان « دويكاليون » كما رأينا فى رواية أخرى أن سفينة « دويكاليون » قد جرفها الفيضان وهو بداخلها حتى رست على جبل « أوثريس » فى « ثيسالى » • وهذه الاشارات تميل الى أن تبرز « ثيسالى » بوصفه المكان الاصـلى فى الأسطورة • وهذه الاشارات تدعمها بشكل قاطع وجهة النظر التى تبناها القـدماء فى تفسير تشكيل ملامح البلد الطبيعية • فهيرودوت يحكى رواية مؤداها أن « ثيسالى » كانت فى العصور القديمة بحيرة أو بحرا داخليا تحيط به جبال « أوســـا » و « بيليون » و « أوليمبوس » و « بنووس » و « أوثريس » الشاهقة • ولم يكن بهذه الجبال فتحة تسمح لميــاه الأنهار المختزنة أن تتسرب الى أى مكان • ثم حدث بعد ذلك ، وفقا لما رواه سكان « ثيسالى » أن شق اله البحر « بوزايدون » الذى يتسبب فى حدوث الزلازل ، مخرجا للبحيرة فى الجبال بأن شق خندق « تيمبى » الضيق الذى يروى عن طريقه نهر « بينيوس » سهل « ثيسالى » منذ ذلك الحين • وبهذا يصرح هيرودوت ، المؤرخ الطيب باعتقاده فى واقع الرواية المحلية • فهو يقول : « أن من يعتقد أن « بوزايدون » يهـز الأرض ، وأن الاخوار التى تسببها الزلازل من صنع يديه ، فانه يقول عند رؤيته لخندق « بينيوس » أن « بوزايدون » قد صنعه بنفسه ، ذلك أنه لم يساورنى شك فى أن الانفصال الذى حدث فى الجبال انما هو نتيجة زلازل » •

وقد قبل علماء الآثار القديمة الذين جاءوا بعد هيرودوت ، وجهة نظر أبى التاريخ بصورة قاطعة ، وان أرجع أحدهم نشأة الأخـدود ، ومصاريف البحيرة الى البطل « هرقل » الذى ألف الناس أن يعدوا من بين أعماله النافعة للجنس البشرى خلقه لمصادر المياه على نطاق واسع للغاية • أما الكتاب الاكثر حذرا أو الأبعد فلسفة فى التعبير عن وجهات نظرهم ، فقد أرجعوا نشأة المضيق الى زلزال أرضى بسـيط ، دون أن يعبروا عن أى رأى يشير الى احتمال احداث اله أو بطل لهذا الاضطراب الخطير •

على أنه لاينبغى لنا أن نعجب من أن الرأى الشـــعبى يميل فى تفسير هذه الظاهرة الطبيعية الى نظرية الوساطة الالهية أو البطولية • ذلك لأن الملامح الطبيعية لمر « تيمبى » فى الحقيقة ، كفيلة بأن تثير فى النفس رهبة دينية ممتزجة بالاحساس بوجود قوة أولية مهولة أبرزت بعملياتها الخارقة ، التناقض الكبير بين أعمالها وأعمال الانسان الضئيلة • فالمسافر الذى يهبط فى الصباح من جهة الغرب فى هذا الممر الضـيق ، يرى فوق رأسه ثلوج جبل الاولمب تتلألأ فى بريق ذهبى تحت أشعة الشمس الساطعة • فاذا سار هابطا مع الممر ، تختفى عن عينيه قمم الجبال ، ولا يبصر حوله من كل ناحية سوى حائط جسيم من المنحدرات القوية التى تنطلق الى أعلى فى عظمة رائعة وتتقارب من بعضها البعض فى بعض الأحيان تقاربا شديدا حتى تكاد تلتقى تاركة فقط مكانا للطريق وللنهر فى اسفلها ، وشريطا من زرقه السماء فى أعلاها • وتعد الصخور على جانب جبل « الأولمب » التى يراها المسافر دائما أمام عينه طالمـا انحدر فى الطريق نحو الشاطىء الجنوبى أو الأيمن من النهـر (1) ، تعد بحق أكثر المناظر روعة وتأثيرا فى بلاد الاغريق • وتظل أبعد تأثيرا فى الجو الممطر عندما تتساقط المياه على جوانبها لتصب فى تيار النهـر الهادى المنتظم • وتصل روعة هذا المنظر الى قمتها عند حوالى منتصف الممر حيث تنتصب صخرة ضخمة فى الهواء بجسامتها ، وتتوج قمتهـا المرتفعة فى الجو أطلال القلعة الرومانية • ففى بعض أجزاء هذا المضيق تتراجع الصخور تراجعا كافيا بحيث تترك مسطحات من المراعى عنـد سفحها ، حيث الأدغال الدائمة الخضرة ، مثل الغار والرند والزيتون البرى والمشمش البرى والفلفل الكذاب تزينها فروع الكـــرم البرى والعليق ، وتدبجها أزهار الدفلى القرمزية ، وأزهار الياسمين والقصاص الذهبية ، بينما تعطر الجو الرائحة الذكية التى تنبعث من كتل النباتات

---

(1) يعنى الضفة الغربية لهذا النهر .

والازهار العطرية • وحتى فى اكثر الاماكن ضيقا ، تغطى شاطىء النهر أشجار الدلب المنتشرة التى تمتد جذورها وفروعها المتدلية فى النهر ، وتتراكم أوراقها بحيث تكون أشبه بستار يحجب الشمس • أما واجهات المنحدرات الصخرية المتشققة فتكسوها أشـجار البلوط القصـيرة والشجيرات • وحيثما وجد مكان خال بين الاشجار ، فان اخضرارها يبرز فى حيوية التبايق بينه وبين الصخور الجيرية البيضاء العادية بينما يبرز هنا وهناك على حائط الجبل مشهد مكشوف لغابات السـنديان الضخم والصنوبر الداكن تكسو المنحدرات الحادة • ويزداد المسافر تأثرا بهذه الخضرة الوافرة التى تنتشر ظلالها ، عندما ينتقل الى الوهدة فى حر الصيف القائظ بعد مسيرة شاقة فى سهول « ثيسـالى » المتربة الخانقة ، دون أن يجد شجرة تحميه من أشعة شمس الجنوب الحامية ، أو يحس نسيما يرطب جبينه ، ودون أن يصادف تنـوعا فى المناظر الطبيعية اللهم الا بعض التلال والوديان التى تخفف من رتابة الطبيعـة الكئيبة • ولا عجب بعد هذا فى أن ينشغل الانسان المتامل بأصل هـذه الوهده الرائعة الجميلة ، ولاعجب فى أن يرجع الدين والعلم البدائيان سبب نشأتها الى طوفان أولى مهول ، أو انفجار مروع مفاجىء لقوة بركانية ، بدلا من أن يرجعاها الى السبب الحقيقى وهو تآكل الصخرر الذىيحدث تدريجيا وفى أزمنة طويلة •

ومن ثم يمكننا أن ننتهى بشىء من الثقة ، الى أن الأخـدود الموجود فى جبال « ثيسالى » الذى قيل ان طوفان « دويكاليون » قد أحدثه ، لم يكن سوى مضيق « تيمبى » •• حقا انه يمكننا أن نذهب الى أبعد من هذا فى غير اسراف ، ونتكهن بأن حكاية الطوفان نشـأت بدافع الرغبة فى تفسير أصل هذا الأخدود العميق الضـيق • ذلك أن الناس حينما تصوروا أنه كانت توجد بحيرة كبيرة تختزن فيهـا المياه وتحيط بها سلسلة جبال « ثيسالى » ، كان من الطبيعى أن يحدو بهم التفكير الى ذلك الطوفان المهول الذى لابد أن يعقب انفجار الخـزان عنـدما تدفقت المياه فى شكل سيل جارف بعد أن أنشق لها الطريق

الجديد ، وأغرقت الأراضى المنخفضة وجرت فى اثرها الخراب والدمار . واذا كان هذا التكهن ينطـوى على شىء من الصـحة ، فان الحكاية « الشمالية » عن طوفان « دويكاليون » وبالمثل الحكاية « الساموثراسية » عن طوفان « داردانس » ، تقـومان على أسـاس فرض واحد : فكلتاهما لم تكن سوى مجرد استنتاج مستخلص من الحقـائق الجغرافية الطبيعية ، ولم تحتو احداهما على أى ذكـر للحـوادث الواقعية . أى أنهما باختصار يندرجان تحت ما سماه « سير ادوارد تايلور » بأساطير الملاحظة ، أكثر من اندرجهما تحت صنف المأثورات التاريخية .

٥ ــ الحكايات الهندية القديمة عن الطوفان الكبير :

ليس هناك ذكر لاسطورة عن الطوفان فى أناشيد الفيدا ، وهى أقدم تراث أدبى هندى ألف فيما يبدو فى أزمنة مختلفة تقع بين سنة ١٥٠٠ ، ١٠٠٠ ق.م. فى الوقت الذى كان فيه الآريون لا يزالـون مستقرين فى البنجاب ، قبل أن ينتشرون شرقا فى وادى نهر الكنج .. ولكن الأدب السانسكريتى المتأخر احتوى على حكاية شـهيرة عن الطوفان ، ترد فى صور مختلفة مع احتفاظها بالملامح العامة واختلافها فى بعض التفصيلات . وربما كان كافيا أن نشير الى أقدم رواية معروفة لهذه الحكاية ، وهى تلك التى نصادفها فى « ساتاباتا براهمانا » وهى رسالة مهمة باللغة النثرية عن الطقوس المقدسة . ويعتقد الباحثون ان هذا المؤلف قد كتب قبل ظهور البوذية بزمن غير طويل . ومعنى هذا أنه ليس متأخرا عن القرن السادس قبل الميلاد . ثم احتل الآريون بعـد ذلك الوادى الأعلى من نهر «الكانج» ، كمـا احتلوا وادى نهـر « الهندوس » ، ولكنهم كانوا فيما يبدو آنذاك قليلى التأثر بحضارة آسيا الغربية وحضارة بلاد الاغريق . ومن المؤكد أن تيار الأفـكار الاغريقية ، والفن الاغريقى جاءا متأخرين بعد ذلك بقرون مع غـزو الاسكندرية عام ق٣٢ ق.م. وتروى حكاية الطوفان الكبير كما هى مدونة فى « ساتاباتا براهمانا » كالآتى :

فى الصباح أحضروا الماء « لمانوا » كى يغتسل ، كما تعود الناس أن يحضروا الماء لغسل الأيدى . وبينما كان « مانو » يغتسل ، أمسكت يده بسمكة قالت له : « استمع الى فسوف أنقذك » . فسألها « مانو » من أى شىء سوف تنقذيننى ؟ فأجابته السمكة : « سوف يأتى طوفان يحمل معه كل هذه المخلوقات ، ومن هذا الطوفان سوف أنقذك » . فسألها « مانو » : « ولـكن كيف يمكننى أن أنقـذك أنت من الطـوفان » ؟ فأجابت : « مادمنا نحن على هذا النحو من ضآلة الجسم ، فان الهلاك يلحق بنا ، فالسمكة تبتلع أختها السمكة . ولهـذا فعليك أن تحفظنى داخل وعاء ، فاذا كبرت لم يعد الوعاء يتسع لجسمى ، فاحفر حفرة فى الأرض خبئنى بداخلها . فاذا كبرت بعد ذلك فخذنى واطرحنى فى البحر وهناك أكون بعيدة عن عـوامل الهـلاك . وكبرت السمـكة وأصبحت « غاشا » (أى سمكة كبيرة) ، لان هذه السمكة تكبر حتى يفوق حجمها أى نوع آخر من السمك . وعند ذاك قالت السـمكة « لمانو » : « أن الطوفان سيحدث فى سنة كذا وكذا ، وعنـد ذاك تحضر الى راكبـا سفينة تعدها لهذا الغرض . فاذا علا الطـوفان فعليك أن تدخل الى السفينة ، وعلى أن أنقذك منه » .. وبعد أن أنقذها « مانو » على نحو ماشرحت له ، أخذها وطرحها فى الماء ، ثم حدث الطوفان فى السنة التى حددتها له . وعند ذاك أعد « مانو » السفينة وفقا لنصيحة السـمكة . ولما علا الطوفان دخل فى السفينة . وجاءت اليه السمكة سابحة ، فربط حبل السفينة فى قرنها وأبحرت به السفينة على هذا النحو فى اتجـاه الجبال الشمالية . ثم قالت له السمكة « هأنذا قد أنقـذتك ، فاربط السفينة فى شجرة ولاتدع المياه تجرفها وأنت مستقر فيها على الجبل . وعندما تنحسر المياه ، يمكنك أن تهبط منها على مهل » . فهبط « مانو » من السفينة وهى راسية على الجبل ، ولهذا سمى منحدر الجبل الشمالى « مهبط مانو » . أما سائر المخلوقات فقد أغرقها الطوفان ولم ينج منه سوى « مانو » .

لما كان « مانو » يود أن تكون له ذرية ، فقد عكف على العبادة ،

والزم نفسه بالتقشف • كما كان يقوم فى أثناء ذلك بتقديم ضـــحية « الباكا » : فكان يمزج الماء بالزبد الصافى واللبن الرائب والشيراز وماء الجبن • وفى خلال عام تكونت امرأة من هذا المزيج • ولما تماسـكت عجينتها هبت واقفة وقد تجمع الزبد النقى فى أثر قدميها • ثم قابلتها «مترا» و «فارونا» وسألاها : «من أنت ؟» فردت عليهما قائلة « اننى ابنة مانو • فقالا لها : « بل قولى انك ابنتنا » فأجابت : « لا ، بل اننى ابنته وهو الذى خلقنى » • فرغبا فى أن يكون لهما نصيب فيها ولكنها لم تعلن موافقتها أو رفضها لذلك وتركتهمـــا ورحلت الى « مانو » فسألها : « من أنت ؟ » فأجابته : « اننى ابنتك » ؟ فسألها : « وكيف تكون ابنتى على هذا النحو من الجمال الرائع » ؟ فأجابت : « لقـد شكلتنى من الماء الذى مزجت به الزبـد النقى واللبن الرائب ومـاء الجبن والشيراز • اننى أنا البركة وعليـك أن تنتفـع بى فى تقـديم الضحية • فان فعلت هذا فستصبح غنيا فى نسلك وحرثك ، فأية بركة تطلبها من الالهة عن طريقى ستمنح لك • فاستخدمها « مانو » بنـاء على ذلك كما تستخدم البركة وسط الضحية • ذلك أن ما يتوسط ما قبل الضحية وما بعدها يكون وسط الضحية • ثم أخذ يصطحبها معه فى عبادته ومراسم تصوفه متضرعا الى الآلهة أن تمنحه الذرية • وقد منحته الالهة منها الذرية وهى ذرية « مانو » وكان كلما طلب بركة من خلالهـا ، منحتها اياه الآلهة » •

٦ ـــ حكايات هندية حديثه عن الطفان الكبير :

تحكى قبيلة « بهيل » وهى قبيلة متوحشة تسكن أحراش « الهند الوسطى » ، أنه كان فى سالف الزمن رجل ورع « ذوبى » ، اعتاد أن يغسل ملابسه فى النهر • فحذرته سمكة من قرب حدوث طوفان كبير ، وأخبرته بأنها جاءته لتحذره من هذا الطوفان وتحثه على أن يصـــنع تابوتا كبيرا يهرب فيه من الطوفان ، جزاء له على سلوكه الانسانى فى اطعام السمك على الدوام • فصنع الرجل الورع التابوت ، بناء على

ذلك ، ودخل فيه هو وأخته ومعهما ديك • وبعد أن انتهى الطوفان ، أرسل الاله « راما » رسله ليستطلع شئون الناس • وسمع الرسول صياح الديك ، وبذلك اكتشف الصندوق • فأمر باحضاره وسأل الرجل عمن هو وعن كيفية هروبه على هذا النحو • فقص عليه الرجل الورع قصته • فأدار « راما » وجهه الى الشمال والى الشرق والى الغرب وأقسم على أن المرأة التى معه هى أخت الرجل بحق • فأجاب بأنها بحق اخته • فأدار «راما » وجهه مرة أخرى الى الجنوب ، فاذا بالرجل يناقض نفسه ويقول ان المرأة زوجته • وعند ذاك سأله راما عمن دله على الهروب • ولما علم منه أنها السمكة ، أمر توا بأن يقطع لسانها ايلاما لها ، وبذلك أصبح هذا النوع من السماك بدون لسان حتى اليوم • وبعد أن نفذ راما حكمه على السمكة لافشائها السر ، أمر الرجل بأن يعمر الأرض الخراب • وبناء على ذلك تزوج الرجل أخته وأنجب منها سبعة بنين وسبع بنات • ومنح « راما » الابن الاول حصانا هدية • ولكنه لما لم يستطيع ركوبه ، تركه فى السهول وذهب ليقطع الخشب من الغابة وبذلك أصبح حطابا كما صار نسله « البهيليون » يقطعون الخشب من الغابات حتى اليوم • ويشبه تحذير السمكة لصانع الجميل فى الحكاية البهيلية ، الحادثة المقابلة لها فى الرواية السنسكيرتية عن الطوفان شبها كبيرا ، بحيث يصعب النظر اليها مستقلة عنها • ويحق لنا أن نتساءل عما اذا كان « البهيليون » قد أخذوا هذه الحكاية عن الغزاة الآريين ، أم أن الآريين عرفوها عن السكان الأصليين الذين اختلطوا بهم فى أثناء غزوهم للبلاد • وهناك ما يؤيد وجهة النظر الثانية ، وهى أن حكاية الطوفان لم ترد فى أقدم الآداب السنسكرتية بل وردت فى كتب دونت بعد أن استقر الآريون فى الهند فى بزمن طويل •

ويحكى « الكارميون » ، وهم قبيلة درافيدية صغيرة تسكن مقاطعة « رايبور » والولايات المتجاورة لها فى أقاليم الهند الوسطى ، يحكون الحكاية التالية عن الطوفان الكبير : فهم يقولون أن الاله خلق رجلا وامرأة فى بداية الحياة ، وأنجبا بعد كبرهما ابنا وبنتا • ثم أرسل

الاله الى الارض طوفانا لكى يغرق ابن آوى لانه كان قد أغضبه • فلما علم الزوجان الهرمان بقدوم الطوفان ، وضعا ابنيهما فى جذع شجرة مجوف • ووضعا معهما مئونة تكفيهما حتى انتهاء الفيضان ، ثم اغلقا عليهما الجذع • وفى الحال فاض الماء ودام فيضانه اثنتى عشرة عاما • وغرق الرجل والمرأة وسائر مخلوقات الأرض جميعا ، فى حين ظل جذع الشجرة طافيا على صفحة المياه • وبعد اثنى عشر عاما خلق الاله طائرين وأطلقهما ليبصرا ما اذا كان ابن آوى عدو الاله قد غرق • فانطلق الطائران الى كل ركن من أركان العالم ، ولكنهما لم يبصرا سوى كتلة من الخشب تطفو على سطح الماء • فاستقرا فوقها ، وسرعان ما سمعا أصوتا خافتة رقيقة تنبعث من داخلها ، فقد كان الطفلان يقول أحدهما للآخر ان المئونة لن تكفيهما سوى ثلاثة أيام أخرى • وعند ذلك طارا وأخبرا الاله بما سمعاه ، فجعل الطوفان ينحسر فى الحال ، وأخرج الطفلين وسمع منهما قصتهما • فرباهما الاله حتى تزوجا ، وسمى كل ولد لهما باسم السلالة التى تناسلت عنه • ومن هذه الاولاد جميعا تناسل الجنس البشرى الذى يعيش على وجه الأرض • ونلاحظ ان حادثة الطائرين فى هذه الحكاية تذكر بحادثة الغراب والحمامه فى حكاية الكتاب المقدس التى ربما وصلت الى « الكاماريين » بتأثير المبشرين •

وتحكى « حوليات أسام » أن الطوفان فاض على العالم فى سالف الازمان ، وأغرق الناس جميعا عدا رجل وامرأة كانا قد هربا الى قمة تل « لينج » وتسلقا شجرة واختفيا بين فروعها • وكانت الشجرة تنمو بجوار بحيرة كبيرة مياهها زرقاء بلون عين الديك • وقضى الرجل والمرأة الليل جاثمين على الشجرة • وفى الصباح فوجئا لدهشتهما بأنهما قد تحولا الى نمر ونمرة • ولما أبصر الخالق واسمه « باثيان » ما حل بالأرض من دمار ، أرسل رجلا وامراة من كهف يقع على تل ليعمرا الأرض الغرقى بالناس وفزع الزوجان عند خروجهما من الكهف لرؤيتهما النمر والنمرة المهولين ، فخاطبا الخالق قائلين ة « يا أبانا ، لقد أرسلتنا

الى الارض لنعمرها ولكننا نعتقد أننا لن نستطيع أن نحقق مأربك مادامت الارض غريقة تحت المياه ، وما دام المكان الوحيد الذى يمكننا أن نستقر عنده يعيش فيه وحشان مفترسان يتأهبان لافتراسنا . فامنحنا القوة لكى يقضى عليهما » . ثم تمكن الزوجان بعد ذلك من قتل الوحشين ، وعاشا سعيدين ، وانجبا البنين والبنات الذين عمروا الأرض الغرقى بنسلهم فيما بعد .

٧ ـ حكايات الطوفان الكبير فى شرق آسيا :

يحكى « الكارينيون » سكان بورما أن الارض أصابها طوفان فى قديم الزمان ، وتمكن أخوان من الهروب منه على رمث فوق الماء . ثم أخذت المياه تعلو حتى وصلت الى السماء . وأبصر الاخ الاصغر شجرة مانجو تتدلى من قبو السماء ، فتسلقها وهو على وعى كامل بما يفعله ، وأكل من ثمارها . ولكن الطوفان انحسر فجأة تاركا الأخ الأصغر معلقا فى الشجرة . والى هنا تنتهى الحكاية فجأة ، وقد تركتنا نحدس كيف تخلص الأخ الأصغر من هذا المأزق الخطير . وبالمثل يروى « الشينجبوريون » أو « السينجفو » الذين يسكنن شمال بورما حكاية عن الطوفان الكبير . فهم يقولون : انه عندما أصاب الطوفان الأرض ، استطاع رجل يدعى « بوبر نان ـ تشونج » وأخته التى تدعى « تشانج ـ هكو » أن يهربا من الطوفان فى مركب كبير ، وأن يأخذا معهما تسع ديوك وتسع ابر . وبعد سقوط الامطار وهبوب العواصف ببضعة أيام ، أطلقا من المركب ديكا ، ورميا ابرة . ولكن الديك لم يؤذن ، كما لم يسمع للابرة صوت وهى تصطدم بقاع الماء . وعند ذاك ترك الأخ وأخته المركب وأخذ يتجولان فى الارض حتى وصلا الى كهف يسكنه جنيان أو غولان (نات) أحدهما ذكر والآخر أنثى . فتوسلا اليهما أن يمكثا معهما ويستغلا وجودهما فى ازالة الأحراش ، وفلاحة الارض ، وقطع الأخشاب ، واحضار المياه . ففعل الأخ وأخته ذلك ، ثم لم تلبث الأخت أن ولدت طفلا . وقد تعودت الجنية أن ترعى الطفل فى أثناء غياب الوالدين . وعندما كان الطفل يبكى كانت تهدده بأنها ستفرم لحمه

عند مكان تتشعب منه تسعة طرق ، اذا لم يكف عن بكاءه • حتى كان يوم ضاقت الجنية فيه بالطفل ذرعا ، فانتزعته فى غضب ، وأسرعت به الى المكان الذى تلتقى عنده الطرق التسعة ، وقطعته اربا ، ونثرت دماءه ، ورمت أشلاءه فى الطرق التسعة وفى البلد التى تحيط بها • ولكنها حملت معها بعض قطع جسده وصنعت منها بهارا هنديا شهيا • ثم وضعت قطعة من الخشب فى سرير الطفل • فلما عادت الأم من عملها وسألت عن طفلها ، قالت لها الجنية : « انه نائم ، وتناولى أنت طعـــامك من الأرز » فاكلت الأم الارز والبهار ثم عادت الى سرير ابنها • ولكنها لم تجد بالسرير سوى قطعة من الخشب • فلما سألت الأم عن ابنها اجابتها الساحرة فى غلظة وقالت لها : « لقد أكلته أنت » • فهربت الام المسكينة من البيت وأخذت تصرخ وتولول عند مفترق الطرق ، وهى تتوسل للروح الكبير أن يرجع لها ابنها أو ينتقم من قاتله • فظهر لهــا الروح وقال لها : « ليس فى وسعى أن استجمع أشـــلاء ابنك المتناثرة وأعيده اليك كما كان • ولكنك ستصبحين أما لرجال العالم ، بعد أن كنت أما لابن واحد » • ثم برز أثر ذلك الشانيون من طريق ، والصينيون من طريق ثان ، والبورميون من طريق ثالث ، والبنغاليون من طـــريق رابع ، وسائر أجناس الأرض من بقية الطرق التسعة • وادعت الام بنوتها لهؤلاء جميعا لأنهم نشأوا من أشلاء ابنها المتناثرة فى الطــرق التسعة •

ويحكى « الباهناريون » ، وهم قبيلة فى الهند الصينية ، كيف أن حدأة تشاجرت ذات يوم مع سرطان البحر ونهشت جمجمته فى عنف الى درجة أنها أحدثت فيها فتحة لا تزال ترى حتى اليوم • ولكى ينتقم سرطان البحر من هذا الحادث • جعل البحار والانهــار تفيض ، حتى وصل الماء الى السماء ، وهلكت الكائنات الحية جميعا عدا أخا وأختــه استطاعا أن يهربا من الفيضان داخل تابوت كبير بعد أن أخذوا معهما زوجا من كل نوع من أنواع الحيوان ، ثم أحكما أغلاقه عليهما وعاما به على سطح الماء سبعة أيام وسبع ليال • ثم سمع الأخ ديكا يصيح خارج الصندوق • وكانت الأرواح قد أرسلت هذا الديك الى جدينا لكى

يعرفا أن الطوفان قد انحسر حتى يتمكنا من مغادرة التابوت • وعند ذاك أطلق « الاخ الطيور ، ومن بعدها الحيوانات الأخرى ، ثم خرجت الأخت وسارت على الأرض • ولم يتمكن الاخ وأخته أن يعيشا على وجه الارض لان مئونتهما كانت قد نفذت عن آخرها • ولكن نملة سوداء أحضرت لهما حبتين من الأرز فزرعهما الاخ • وفى الصباح التالى كانت السهول تمتلىء بالارز • وبهذا أنقذ الاخ وأخته من الجوع •

وتحكى قبيلة « بنوا — جاكون » وهى قبيلة بدائية أصلية تسكن ولاية « جوهور » فى شبه جزيرة الملايو — تحكى أن الارض التى نقف عليها ليست جامدة ، بل هى مجرد غطاء من الجلد يغطى لجة الماء • وقد حدث فى قديم الزمن أن شق الاله « بيرمان » هذا الجلد فتسربت المياه وفاضت على الارض ودمرتها • على أن « بيرمان » عاد فخلق رجلا وامراة ووضعهما فى سفينة مصنوعة من خشب « البولاى » ثم أحكم اغلاقها بحيث لم يكن فيها منفذ واحد • وظل الزوجان فى داخل السفينة وهى تتخبط بهما على سطح الماء • ثم رست السفينة • فخرج منها الزوجان وسارا على الارض الصلبة ، وتصوروا أن العالم كله هو ما امتد أمام أعينهما الى الأفق • وقد كان الكون مظلما فى بادىء الأمر ، اذ لم يكن هناك صباح أو مساء ، لان الشمس لم تكن قد خلقت بعد • فلما أشرقت الشمس أبصرا سبع شجيرات من اشجار الدفلى وسبعة أكوام من الحشائش التى تسمى « السامبو » • ثم قال أحدهما للآخر : « يا له من منفى كئيب ذلك الذى نعيش الآن فيه بلا أبناء ولا احفاد » • ولكن المرأة حملت بعد حين فى بطنى ساقيها ، وأنجبت من بطن ساقها اليمنى ذكرا ومن بطن ساقها اليسرى انثى • ولما كبر هذان الوليدان تزوجا ، اذ لو كانا ولدا من بطن واحدة لما صح زواجهما • ومن هذين الزوجين تناسلت الأجناس البشرية جميعا على وجه الأرض •

وتلعب أسطورة الطوفان دورا كبيرا فى أغانى « اللوليين » الشعبية ، وهم جنس أصلى يحتل أكثر الجبال رسوخا وشموخا على وجه التقريب فى « يونان » ومناطق أخرى فى جنوب غرب الصين ، حيث

نجحوا فى توطيد استقلالهم ضد الزحف الصينى • وهم أبعد ما يكونون عن الهمجية ، اذ انهم اخترعوا طريقة للكتابه هى أصلها كتابة تصويرية دونوا بها أساطيرهم وأغانيهم وأنسابهم وطقوسهم الدينية ، وتوارثوا هذا التراث المدون جيلا بعد جيل بعد نسخه عدة مرات • ويعتقد شعب « لولو » فى وجود شيوخ يعيشون فى السماء حتى اليوم ، وكانوا من قبل يعيشون فى العالم الارضى حيث عمروا تسعمائة وستين عاما ، بل ربما تسعمائة وتسعين عاما ، وبذلك فاقوا فى تعميرهم « متوشالح » (١) نفسه • وكل أسرة فى هذا الشعب تضم افرادا يجمعهم اسم واحد تدفع ضريبة الولاء لشيخ بعينه • ومن أشهر هذه الشخوص الأسطورية شخص يدعى « تسى ـ جو ـ وريه » الذى يتمتع بكثير من الصفات الالهية ، فهو الذى أصاب الجنس البشرى بالموت عندما فتح الصندوق الخطير الذى يحتوى حبوب الفناء ، وهو الذى تسبب أيضا فى حدوث الطوفان • وقد حدثت كارثة الطوفان على النحو التالى بعد أن أصبح سكان الأرض آثمين ، ارسل « تسى ـ جو ـ دزيه » اليهم رسولا يطلب سكان الارض آثمين : ارسل « تسى ـ جو ـ دزيه » اليهم رسولا يطلب بعض اللحم والدم من انسان فان ، فلم يكترث أحد لمطلبه عدا رجلا واحدا أسمه « دو ـ مو » • فأغلق « تسى ـ جو ـ دزيه » فى غضبه بوابات المطر التى تتدفق اليها المياه • فتسربت المياه الى الارض وأخذت تعلو إلى السماء • أما « دو ـ مو » الذى عمل بنصيحة الاله ، فقد أنقذ هو وأبناؤه الاربعة بأن لجأوا الىتجويف فى كتلة من الخشب من شجرة « البيريس » ، وأخذوا معهم ثعالب البحر والبط البرى وسمك الشلق •وقد تناسل من هؤلاء الأبناء الاربعة فيما بعد الشعوب المتحضرة التى تعرف الكتابه مثل « الصينيين » و « اللولوبين » أما السلالة الامية فتنتسب الى الاشكال الخشبية التى كان قد صنعها « دو ـ مو » بعد أن انتهى الطوفان لكى يعمر بهم الارض الخراب •

---

(١) ظهر هذا الاسم فى الخطوطات العبرية القديمة بوصفه كاهنا عبريا ، وهو أكثر شخصية عمرت فى الكتاب المقدس ، اذ يتراوح عمره بين ٥٢٧ ، ٩٢٩ عاما . وفقا للتاريخ العبرى أنه توفى عام الطوفان .
(المترجمة)

ولا تزال الواح الاجداد التى يعبدها « اللولوبون » فى أيام معينة من السنة وفى كل مناسبات حياتهم المهمة ، ما تزال تصنع حتى اليوم من نفس نوع الشجرة التى لجأ جدهم الاكبر « دو ـ مو » الى تجويفها هروبا من الطوفان • وتكان تبدأ كل أسطير « اللولوبين » على وجه التقريب باشارة الى هذا الجد أو الى الطوفان الكبير • وينبغى لنا أن نذكر فيما يختص بأصل هذا الطوفان أن « اللولوبيين » عموما يتخذون من اليوم السابع فى الاسبوع يوم راحة لهم ، فيمتنعون عن فلاحة الارض كما لا يسمح للنساء فى بعض الجهات بحياكة الملابس أو غسلها • ويبدو أن هذه العادة ، بالاضافة الى تراثهم عن شيوخهم وعن الطوفان ، تكشف عن تأثير مسيحى • وربما كان « أ • هنرى » على حق فى أن يعزو هذا كله الى تعاليم المبشرين النسطوريين ، فقد كانت الكنائس النسطورية تنتشر فى « يونان » فى القرن الثالث عشر عندما كان « ماركوبولو » يقوم برحلته هناك ، كما قيل ان « ألوبين » النسطرى وصل الى الصين فى زمن مبكر حوالى ٦٣٥ ب•م•

ويروى عن « الكامشاداليين » رواية عن الطوفان الذى أغرق العالم كله فى بداية الحياة • وقد نجت البقية الباقية من الناس بأن طفوا على كتل خشبية من سيقان الاشجار ربط بعضها البعض الاخر ، بعد أن حملوا معهم متاعهم ومئونتهم وكانوا يدلون الاحجار فى الماء بعد أن يربطوها بأحزمة لتقوم مقام المرساة حتى لا يجرفهم الفيضان الى الماء • فلما انحسر الطوفان خلف وراءه الناس وكتلهم الخشبية على قمم الجبال وقد جفت •

وفى دائرة معارف صينية صادفتنا الفقرة التالية : « اقليم التتار الشرقى » (١) اذا اتجه المسافر من شاطىء البحر الشرقى الى « شى ـ لو » فانه لا يصادف أنهارا أو بحيرات فى هذه المنطقة على الرغم من أن الجبال تخترقها والوديان • ومع ذلك فاننا نجد فى الرمال فى مناطق بعيدة كل البعد عن البحر ، الاصداف البحرية وهياكل السرطان البحرى • ويحكى « المنغولويون » الذين يسكنون هذا المكان أنه قد

---

(١) وهو المعروف كذلك باسم منغوليا الخارجية (المترجمة)

بلغهم عن سالف الازمنة أن طوفانا أغرق بلادهم فى عهد سحيق فلما انحسر الطوفان ترك الاماكن التى كانت تغطيها المياه مكسوة بالرمال » •

٨ ــ حكايت عن الطوفان الكبير فى الارخبيل الهنوى :

يحكى « الباتاكيون » سكان سومطرة أن الخالق الذى يسمونه « ديباتا » أرسل طوفانا الى الارض ليهلك كل ما عليها من كائنات حية ، وذلك بعد أن هرمت الارض وصارت دنسة • وقد تمكن آخر زوجين بشريين فيها أن يهربا الى قمة أكثر الجبال ارتفاعا ، وكانت المياه قد ارتفعت حتى وصلت الى ركبتيهما ، عندما عدل « رب الجميع » عن رأيه فى القضاء على الجنس البشرى عن آخره ، فأخذ حفنة من التراب وعجنها وربط العجينة فى خيط دلاه على صفحة المياه ، فخطا الزوجان على العجينة وبذلك أنقذا • وكان كلما تكاثر نسل هذين الزوجين ، كبرت العجينة الطينية فى حجمها حتى تكونت الارض التى نعيش عليها اليوم •

ويحكى سكان « انجانو » ، وهى جزيرة فى غرب سومطرة ، حكاية عن الطوفان الكبير • فهم يقولون ان موج البحر ارتفع ذات يوم حتى غمر الجزيرة وأغرق كل ما عليها من كائنات حية عدا امرأة واحدة • وقد نجت هذه المرأة اثر حادثة سعيدة وهى أن شعرها أمسك بشجرة شائكة ، بينما كان التيار يجرفها ، وبذلك تمكنت من تسلق الشجرة • فلما انحسر الماء هبطت من أعلى الشجرة • ولكنها رأت لحزنها البالغ أنها قد تركت وحدها فى هذا العالم • ولما بدأت تشعر بالجوع ، أخذت تتجول فى الجزيرة بحثا عن طعام • ولما لم تجد شيئا تأكله ، رجعت الى الشاطىء وقد ملأها النغم آملة أن تصطاد سمكة • ولقد أبصرت بالفعل سمكة حاولت أن تمسك بها ، ولكن السمكة تسربت واختبأت فى أحد الاجساد الطافية على الماء ، أو فى أحد الاجساد التى كانت ترتمى على الشاطىء • وحتى لا تضيع المرأة الفرصة منها التقطت حجرا وضربت به الجسد ضربة عنيفة • ولكن السمكة انسلت من مخبئها فى الجسد الملقى على الشاطىء وتسربت الى الجثة الطافية على الماء •

فتبعتها المرأة ، ولم تكد تخطو بضعة خطوت حتى أبصرت لدهشتها رجلا حيا • ولما كانت المرأة تعلم أنها هى البشر الوحيد الذى أنقذ من الطوفان فقد بادرته بالسؤال عما كان يفعله هناك • فأجابها بأن شخصا ركل جسده المتوفى ، فكانت النتيجة أن عادت الحياة اليه • وعند ذاك قصت عليه المرأة قصتها ، وانتهيا الى أن يحاولا اعادة الحياة الى الموتى على هذا النحو بضرب أجسادهم بالحجارة • فلما فعلا هذا عادت الارواح الى الاجساد بتأثير الضرب ، وبذلك عمرت الجزيرة بالناس مرة أخرى •

« والابانيون » أو « دياكيو البحر » (١) الذين يسكنون « ساراواك » فى « بورنيو » مغرمون برواية حكاية تحكى كيف نجا الجنس البشرى من الطوفان الكبير ، وكيف اهتدى أجدادهم الى طريقة لاشعال النار • والحكاية تجرى على النحو التالى ة فى ذات مرة خرجت بعض النساء الدياكيات ليجمعن براعم الخيزران للأكل • فلما جمعنها سرن خلال الادغال حتى وصلن الى شكل حسبنه شجرة هاوية ، فجلسن فوقها ، وأخذن يقشرن براعم البامبو • ولشدة دهشتهن لاحظن أن الشجرة تقطر دما كلما قطعن البراعم بالسكين • وفى تلك اللحظة ظهر بعض الرجال الذين أبصروا فى الحال أن ما يجلس عليه النسوة ليس شجرة بل ثعبان أصلة هائل فى شبه غيبوبه • فقتلوا الأصلة فى الحال وقطعوها اربا وحملوا لحمها معهم الى بيتهم • وبينما كانوا منشغلين بشواء اللحم ، سمعوا أصواتا غريبة تنبعث من وعاء التحمير ، وأخذ المطر الغزير يهطل ، ولم يكف عن السقوط حتى غطت المياه التلال ماعدا أعلاها ، كما غرقت الأرض جميعا • وقد حدث كل هذا بسبب قتل هؤلاء الأشقياء للأصلة وشوائهم لحمها •

---

(١) هم مجموعة من الشعوب وكانوا يسكنون بين دولة رومانيا الحالية وبامير أى كانوا يسكنون وسط روسيا وبرارى قزوين .
(المترجمة)

وقد أهلك الطوفان جميع الكائنات الحية عدا امرأة واحـــدة وكلبا وفأرا وبعض الحشرات الصغيرة التى تمكنت من الهــروب الى أعــلى قمم الجبال • ثم لاحظت هذه المرأة وهى تبحث لنفســها عن مــأوى من الأمطــار الهاطلة ، أن الكلب قد وجد مــكانا دافئا تحت نبات متسلق كان يتأرجح فى الهــواء يمنة ويسرة لكى يدفىء نفســه عن طــريق احتكاكه بســاق الشجرة • فأدركت فى الحال كيف يمكن أن تتــولد النــار ، فأخذت قطعة من الخشب وحكتها بشــدة فى النبات المتسلق فتولدت النــار لأول مــرة • وبهــذا اهتدى النــاس الى طريقــة اشعال النار عن طريق الزناد بعــد حــدوث الطوفان • ولمــا لــم يكن للزوجــة رجل ، فقد اتخــذت من الزناد زوجــا لهــا ، وولدت منه ابنا كان يدعى « شيمبانج ــ امبانج » ولم يكن هذا الابن ، وفقــا لما يعنيه اســمه ، ســوى نصف رجل ، حيث أنه لم يكن له ســوى ذراع واحــدة ، وســاق واحدة ، وعين واحدة ، ووجنــة واحــدة ، ونصف جسم ونصف أنف • وقد اســتاء رفاقه من الحيوانات لهــذه العيوب الخلقية • ولكنه استطاع فى النهاية أن يتخلص من هذه العيوب بأن استغل فرصة أن روح الريح كان قد بعثر أرزا كان « سيمبانج ــ امبانج » قد نشره ليجف ، فســاومه على تعويضــه عن هذا الضرر ولو بشىء زهيد • ولكن بعد أن قهــر « سيمبانج ــ امبانج » روح الريح فى عدة مبارزات ، وافق على أن يمنحه الأجــزاء الناقصة من جســمه حتى يصبح رجــلا كاملا ، وذلك بدلا من تعويضه بالنقود أو بأشياء أخرى ثمينة لم يكن « شيمبانج ــ امتانج » يمــلك منهــا شيئا بحق • ووافق « شيمبانج ــ امبانج » فى سعادة بالغة على هذا الاقتراح ، ومنذ ذلك الوقت أصبح للانسان أعضــاء كاملة مثل أعضاء « شيمتانج ــ امبانج » •

وهناك رواية « دياكية » أخرى لهذه الحكاية تحــكى أن رجــلا بعينه يدعى « ترو » صنع ، عندما بدأ الطوفان ، ســفينة من هاون خشبى ضخم كان يستخدم حتى هذا الوقت فى سحق الأرز • ثم ركب

السفينة مع زوجته واصطحب كلبا وخنزيرا ودجاجة وقطة وبعض الكائنات الحية الأخرى ودفعها الى الماء • فأخذت السفينة تجرى فى جنون مع التيار حتى انتهى الطوفان • وعند ذاك ترك « ترو » السفينة ومعه زوجته وحيواناته • ثم واجهت « ترو » مشكلة تعمير الأرض بالناس بعد أن أهلك الطوفان الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلجأ الى وسيلة تعدد الزوجات لكى يحل لنفسه هذه المشكلة ، فصنع زوجات من الأحجار والأخشاب ومن سائر المواد التى كانت تقع فى يده • وسرعان ما ظفر بعائلة كبيرة تعلمت فلاحة الأرض ، وتناسلت عنها القبائل الدياكية المختلفة •

وكذلك يحكى « الترودجانيون » الذى يتحدثون اللغة البارية ويسكنون ــ « سيليبس الوسطى » ، أن الأرض ابتليت ذات مرة بطوفان مهول غطى الجبال العالية عدا قمة جبل « واومتياباتو » • وهم يشيرون الى القواقع البحرية التى توجد على قمم التلال التى تعلو سطح البحر بألفى قدم أو أكثر ، وذلك لكى يؤكدوا صحة روايتهم • ولم ينج من هذا الطوفان سوى امرأة حبلى وفأرة حبلى ، بأن جلسا فى مزود خنزير وعاما به على سطح الماء وهما يجدفان بمغرفة بدلا من المجداف ، حتى انحسر الطوفان وأصبحت الأرض صالحة للسكنى • وبينما كانت المرأة تبحث عن حبات من الأرز لتزرعها ، أبصرت حزمة من الأرز تتدلى من شجرة اجتثت من جذرها وجرفها التيار حتى استقرت عند المكان الذى كانت تقف عنده المرأة • فتسلقت الفأرة الشجرة وأحضرت لها حزمة الأرز ، وبذلك تمكنت من أن تزرع الأرز بمعونة الفأرة • وكانت الفأرة قد أخذت عليها عهدا ، قبل أن تسلمها حزمة الأرز ، أن يكون للفئران الحق فى أكل جزء من المحصول وهذا هو السبب فى أن الفئران تحضر كل عام الى الحقول لتأخذ نصيبها فحسب من الأرز الناضج دون أن تترك الحقول جرداء • ثم ولدت المرأة ابنا بعد فترة من الزمن • فلما كبر اتخذته زوجا

لهـا حتى تنجب أولادا آخرين • وقد أنجبت منـه ولدا وبنتا تناسـل عنهما الجنس البشرى كله فيما تعد •

ويحكى سـكان « روتى » ، وهى جزيرة صغيرة تقـع فى جنوب غرب « تيمو » أن البحـر فاض على الأرض فى قديم الزمان ، فأغرق الناس جميعا كما أغرق الحيـوان وأهلك النبـات والأعشـاب ولـم يترك بقعة على سـطح الأرض الا غطاها بالماء • وحتى الجبال الشامخة غطاها الطـوفان ، عدا قمـة جبـل « لاكيمولا » الـذى يقـع فى « بلبا » ، التى برزت وحـدها فوق الأمواج • والى هذه القمـة لاذ رجـل وزوجته وأولادهمـا هروبا من الطوفان • وقد ظل الطـوفان يرتفع بعد ذلك شيئا فشيئا لعـدة شـهور حتى كاد يصـل الى هذه القمة ، مما أفزع هذه الأسرة التى توقعت أن يصل المـاء اليهـا بعد حين • فأخذت تتوسـل الى البحـر حتى يعـود الى وضـعه الطبيعى ، فرد عليها البحـر قائلا : « اننى على اسـتعداد لان ألبى رغبتكم اذا قدمتم لى حيوانا أعجز عن عد شعره • فطرح الزوج اليـه خنزيرا أعقبه بعنزة وكلب ودجاجة ، ولكن دون جدوى ، اذ اسـتطاع البحر أن يعـد شـعر كل منها ، ومن ثم فقد اسـتمر فيضـانه • وفى النهـاية طرح الرجـل فيه قطة لم يسـتطع أن يعـد شـعرها ، ولهذا فقد انحسر على الأثر •• وبعد هـذا ظهر عقـاب البحـر ونثر بعض التراب الجاف على المـاء • فهبط الرجـل وزوجته وأولادهمـا عليه ، وأخذوا يبحثون عن مسـكن جديد • عند ذلك أمر الآله عقـاب البحر أن يحضر للرجـل كل أنواع الحبـوب مثل الذرة والقمح والأرز والسمسم وبذور البطيخ ، لكى يبذرها فى الأرض ، ويعيش هو وأسرته على محصـولها • وهذا هو السبب فى أن الناس فى « روتى » يضعون فى نهـاية الحصاد حزمة من سيقان الأرز فى مكان طلق فى القـرية ، على سبيل الضحية لجبـل « لاكيمولا » • كمـا أن كلا منهم يطهـو الأرز ويحضره مع ثمار النخيل الهندى وجوز الهنـد والتبـغ والموز والخبز المصنوع من الفاكهة ويقدم كل هذا قربانا للجبل • وهناك يجتمع

الناس ويقيمون الولائم ويرقصون كل أنواع الرقص تعبيرا عن ولائهم للجبـل ، ثم يتوسـلون اليه أن يمنحهم محصـولا وافرا فى العـام التـالى كذلك ، حتى يجـد الناس ما يشبعهم •

ويحكى البدائيون سكان جزر « أندامـان » التى تقع فى خليج البنغال ، حكاية عن الطوفان يمكننا أن نشير اليها فى هذا المجـال ، على الرغم من أن هذه لا تنتمى على وجه التحـديد الى مجموعة الجـزر الهندية • فقد حدث ، وفقا لرواية الأهالى ، أن أصبح الناس ، بعـد مضى فترة من خلقهم عاصين وغير مبالين بأوامر الخالق التى حثهم على اتباعهـا عند خلقهم • فأرسـل عليهم وهـو فى ثورة من الغضـب طوفانا كبيرا أغرق الأرض جميعا عدا قمة جبـال « ساول » التى يسكن عندها الخالق نفسـه • وهلكت فى الطـوفان الكائنات الحية جميعـا عدا رجلين وامرأتين كانوا لحسـن حظهم راكبين زورقا وقت حـدوث الطـوفان • فلما انخفضت الميـاه ، رست الجمـاعة بقاربهـا على الشـاطىء • لكنهم وجدوا أنفسـهم فى موقف لا يحسـدون عليه ، اذ كانت كل الكائنات الحية قد غرقت فى الطوفان • على أن الخـالق الرحيم واسـمه « بولوجا » قدم لهم المسـاعدة بأن أعاد لهم خـلق الطيـور والحيـوانات • ثم بقيت مشـكلة اشـعال النار ، اذ كان الطوفان قد أطفأ شـعلة كل موقد ، وأصبح كل شىء رطبا غير قـابل للاشتعال • وهنا ظهر لهم شبح أحـد أصـدقائهم الغرقى ، لينقذهم فى اللحظة المناسبة • فلما أبصر ما هم عليه من غم ، طار الى السـماء فى صـورة طائر القاوند حيث وجد الخالق جالسـا وبجانبه النار • فأخذ يحرك النار المشتعلة لكى يحملها بمنقـاره الى أصدقائه الـذين يعيشون على الأرض بلا نار • ولكنه ، فى اضطرابه وسرعته ، أسـقط شعلة النار على شخص الخالق المهيب نفسه ، الـذى تهيج لحقـارة الطائر ولما ألم به من ألم ، وطوح بشعلة النار فى سرعة نحـو الطائر • ولكن الشعلة أخطأت الهدف وهوت محـدثة صفيرا من السـماء الى الأرض ، حيث كان الناس يجلسـون يئنون ويرتجفـون من البرد • وعلى هذا النحو استعاد الانسان النار بعد حدوث الطوفان • وبعد أن

استدفأ هؤلاء ، ولم يشغل بالهم شيء محدد ، استعادوا ما حـدث لهم من أحداث وبدأوا يتذمرون من قضاء الخـالق على الجنس البشرى • وبلغ بهم التذمر مبلغه حتى استقر رأى الأشخاص الأربعـة على أن يقتلوا الخالق • ولكن الخالق نفسه نصحهم بأن يعدلوا عن محاولتهم الجاحدة ، وقال لهم فى وضوح بالغ : انه أولى بهـم ألا يفكروا فى القيام بهذه المحاولة ، لأنه صلب صـلابة الخشـب ، ولن تؤثر فيـه سـهامهم • ولو أنهم جرؤوا بعد ذلك على أن يمسوه بأصابعهم ، فانه سيلوثهم بدماء كل ابن وبنت تولد لهم • وقد كان لهذا التهـديد أثره فيهم ، فرضخوا لمصيرهم • وتنازل الخالق الذى هدأت ثورة غضـبه بعد ذلك فشرح لهم فى أسـلوب هادىء أن الناس هم الذين جلبـوا الطوفان لأنفسهم بعصيانهم أوامره • واذا هم كرروا هذه الاسـاءة فى المستقبل ، فانه سيقابلها بعقاب ملائم لها • وقد كانت هذه هى المرة الأخيرة التى ظهر فيها الخالق للبشر وخاطبهم وجها لوجـه ، فمنـذ ذلك الوقت لم ير سكان جزر « أندمان » الخالق قط ، ولكنهم واظبوا على طاعته منذ ذلك اليوم فى ورع وخوف •

٩ ــ حكايات استرالية عن الطوفان الكبير :

تحكى قبيلة « كورناى » ، وهى قبيلة استرالية أصلية تسـكن فى « جيبلاند » فى ولاية « فيكتوريا » ، أنه منذ زمن سحيق حدث طوفان أغرق البلاد جميعا ، كمـا أغرق الشـعب الزنجى بأسره عدا رجـلا وامرأتين أو ثلاثا • وقد لاذ هؤلاء بجزيرة موحلة تقع بالقرب من ميناء « ألبرت » ، وكانت المياه تحيط بهم من كل مكان • وفى هذا الوقت كان طائر البجع ــ أو « بونجيل بورون » كما يسـميها « الكورنانيون » تسير فى قاربها بالقرب منهم ، عنـدما أبصرت ما كان عليـه هؤلاء من غم ، فأسرعت لتقـدم لهم العون • وقد كانت من بين النسـاء امرأة جميلة للغاية الى درجة أن أغرم بها الطائر ، فأخذ ينقـل هؤلاء واحدا تلو الآخر فى قاربه الى بلدهم الأصلى ، عـدا المرأة الجميلة التى كانت

كلما خطت الى القــارب قال لهــا : « ابقى أنت ، فان دورك لم يأت بعد » ، وهكذا ظلت وحدها فى الجزيرة • ولما خشيت أن يعود اليهــا الطائر ، فتمكث معه بمفردها ، لم تنتظر رجوعه من رحلته الأخــيرة وسبحت الى الشــاطىء وبذلك هربت منــه • ولكنها قبــل أن تترك الجزيرة ، ألبست قطعة من الخشب دثارها المصنوع من جلد الحيوان « الأوبوســـوم » ، ووضعتها بجوار النار ، بحيث أصبح هذا الشـــكل يشبهها تماما • وعندما وصــل الطائر لينقلهــا الى الشــاطىء صرخ بهــا قائلا : « والآن قد أتى دورك » • ولكن قطعة الخشب لم تعــره جوابا • فتملكه الغضب واندفــع الى الشــكل الــذى حســبه امرأة وركله بشدة • وطبيعى أنه لم يؤذ ســوى رجله • ويالهما من ألم وغم انتابا الطــائر عندما أدرك أن الخدعة قد تمت عليه • عند ذاك أخذ يلون نفســه بلون أبيض حتى يتنــكر به ومضى ليحــارب زوج تلك المرأة الفاجرة الوقحــة التى خدعته • وبينمــا كان يستعد للمعركة ، ولــم يكن قد لون ســوى نصف ريشه ، ظهر لــه طائر بجع آخــر • ولمــا لم يستطع هــذا الطائر الجديد أن يتعرف على هذا المخلوق الغــريب الذى كان نصفه أبيض ونصفه أســود ، فقد أخــذ ينهشه بمنقــاره حتى قتله ، وهذا هو الســبب فى أن طائر البجــع يتــوزع لونه بين الأبيض والأسود ، فى حين أن لونه قبل الطوفان كان أسود فحسب •

أما السكان استراليا الأصــليون الذين يســكنون حول بحــيرة « تيريس » ، فى ولاية « فيكتوريا » فيروون حكاية الطوفان على النحو التالى : حدث ذات مرة أن شربت ضفدعة مهولة مياه العــالم جميعها بحيث لم تترك لأحد جرعة من المياه يروى بها ظمأه • وقد شق هــذا الأمر على الكائنات الحية بخاصة الســمك الذى أخــذ يتجول لاهثا فى الأرض الجافة وهــو يتوق الى قطــرة مــاء • وعنــد ذاك اجتمعت الحيوانات وتدبرت أمرها معا ، واستقرت على أن الطريقة الوحيــدة التى تدفع الضفدعة الى أن تمج المــاء ، هى مداعبة خيالها فتضطــر الى الضحك • ومن ثم فقد اجتمعت صنوف الحيوان أمام الضــفدعة

وأخذت تتصرف بحماقة وتمزح بطريقة تجعل الشخص العادى يغرق فى الضحك ، ولكن الضفدعة لم تصطنع حتى الابتسامة ، بل جلست هادئة متجهمة تحملق بعينيها الجاحظتين وخديها المتورمين ، صارمة القاضى • وعند ذاك وقف الثعبان على دنبه ، ليحاول المحاولة الأخيرة ، وأخذ يتلوى ويرقص بطريقة تثير الضحك • وكان هذا المنظر أكثر مما تحتمله الضفدعة فانفرجت أساريرها وضحكت حتى جرت الدموع على خديها ، وتدفقت المياه أثر ذلك من فمها • على أن الحيوانات نالت نصيبا من المياه أكثر مما كانت تنتظر ، حيث أن المياه التى مجتها الضفدعة كانت من الكثرة بحيث تحولت الى طوفان أغرق كثيرا من الناس • وقد كان مصير الناس جميعا الى الهلاك لو لم تكن البجعة قد رحلت فى قاربها والتقطت من كان لا يزال منهم على قيد الحياة •

حكايات عن الطوفان الكبير فى نيوغينيا وميلانيزيا

يحكى أهالى مقاطعة « كابادى » فى « غينيا الجديدة البريطانية »، أن رجلا بعينه يدعى « لوهيرو » غضب هو وأخوه الأصغر من الناس ، ووضعا عظمة انسان فى مجرى مائى صغير • فتدفقت المياه فى سرعة ، وأغرقت الأرض ، فاندفع الناس الى الجبال وأخذوا يصعدونها شيئا فشيئا حتى وصلوا الى أعلى قمم الجبال ارتفاعا • وهناك استقروا حتى انحسر الطوفان • وعند ذاك هبط بعضهم الى السهول ، فى حين ظل البعض الآخر يسكن منحدرات الجبال وابتنوا البيوت وفلحوا الأرض • ويحكى « الفالمانيون » سكان « ميناء برلين » الذى يقع على الساحل الشمالى فى « نيو غينيا » ، أن زوجة رجل طيب رأت ذات يوم سمكة كبيرة تسبح فى اتجاه الشاطىء • فصاحت بزوجها الذى لم يتمكن من رؤية السمكة لأول وهلة • فسخرت منه زوجته وأخفته وراء شجرة موز حتى يتمكن من أن يرمق السمكة من وراء الأشجار • فلما أبصرها تملكه الخوف

وارسـل الى ابنـه وابنتـه وأطلعهـم على السـمكة ومنعهـم من اصطيادها وأكل لحمها • ولكن أناسـا آخرين أخذوا سهما ورمحـا وخيطا وأصابوا السمكة وجروها الى الشاطئ • وعلى الرغـم من أن الرجل الطيب حـذرهم من أكل لحـم السـمكة ، فانهـم لم يكترثوا لتحذيره • فلما رأى الرجل ما هم عليه من عناد ، أسرع وجعل زوجـا من كل نوع من أنواع الحيوان يتسـلق شجرة ثم تسـلق هو وعائلته فى النهاية شجرة جوز الهنـد • أما الناس الأشرار ، فما كادوا يلتهمون لحم السمكة ، حتى تدفقت المياه من باطن الأرض فى قوة بالغـة الى درجة أن أحـدا لم يجد الوقت الذى ينقذ فيـه نفسـه ، ومن ثـم فقد غرق الناس والحيوانات جميعا • وما كاد يصـل ارتفاع المياه الى مسـتوى أعلى شجرة حتى انخفضت فى سرعة ، كما كان قد سـبق لها أن ارتفعت فى سرعة • وعند ذاك هبط الرجل الطيب مع أسرته من أعلى قمم الأشجار وعمر الأرض وفلحها •

وقد قيل أن سكان نهـر « ماسبرانو » الذى يقـع فى « غينيـا الجديدة » التابعة لهولندة ، يرون حكاية عن الطوفان الذى تسبب عن فيضـان هذا النهر الذى ارتفعت مياهه حتى غطت جبـل « فانيسا » ولم ينج منـه سـوى رجل وزوجته ومعهمـا خنزير وطـائر الشبنم وحيوان الكانجرو وحمامة • وقد تناسـل عن الزوجين الجنس البشرى ، كما تناسلت عن هذين الحيوانين والطـائرين سـائر أنواع الطيـور والحيوانات • ولا يزال هنـاك على جبـل « فانيسا » بقايا عظـام الحيـوانات الغـرقى •

ويحتفظ « الفيجانيون » برواية عن الطـوفان الذى يسـمونه « فالافو — ليفو » • وبينما يحكى بعضهم أن الطـوفان غمر جـزءا من الأرض ، فان البعض الآخر يحكى انه غمر الأرض جميعـا • وقد حدثت الكارثة على النحو التالى : كان للاله الكبير « ندينجاى » طـائر مهـول اسمه « توروكاو » • وقد اعتاد هذا الطـائر أن يوقظـه فى

ميعــاد محدد كل صباح • وذات يوم صــوب أحــد حفيديه ، سواء عن طريق الصدفة أم عمدا ، سهامه الى الطائر فأرداه قتيلا ، ثم دفنه ليخفى معالم جريمته • وفى اليوم التالى لذلك ، نام الاله طويلا ولــم يستيقظ فى ميعاده المحدد • وغضب الاله كل الغضب لاختفــاء طائره المحبب اليه ، وأرسل رسوله « أوتو » ليبحث عنه فى كل مكان ، ولكن دون جدوى • وأبلغ الرسول الاله بأنه لم يعثر للطائر على أثر • ولكن عندما عاود الرســول البحث مرة ثانية ، اكتشفت الجريمة عند عتبــة باب حفيدى الاله • ولكى يجنب الحفيدان نفسيهما عاقبة غضب الاله الثائر ، هربا الى الجبــال واحتميا عنــد قبيلة من النجارين تطوعت أن تبنى حاجزا منيعا تعيش بداخله مع الحفيدين ، لكى يحــول بينهم جميعا وبين الاله « ندينجاى » وأتبــاعه ، فــلا يجعلهم يتجاوزون الخليج • وقد كانت القبيلة عند وعدها حقا ، فشــيدت الحاجز الذى وقف عنــده الاله وأتباعه يحــاولون اقتحامه دون جدوى • ولما يئس الاله من غزو القبيلة بوسائل الحرب العادية ، سرح جيوشــه وفــكر مليا فى اجراء عمل انتقامى حاســم • فأمر السحب الدكناء بأن تتجمع وتفجر ما فيها من أمطار غزيرة وتسقطها بغزارة على الأرض الملعونة • وأغرقت الأمطــار البلاد ومن بعدها التلال ثم الجبال • ومع ذلك فقد ظل المتمردون ينظرون الى أسفل من قلعتهم المنيعة غير مكترثين بارتفاع المياه • ولكن عندما حطمت الأمواج سورهم الخشبى واقتحمت الميــاه قلعتهم ، صــاحوا باله من الآلهة أن يقدم لهم العون • فأرشــــدهم أحــد الآلهة ، وفق احدى الروايات ، الى أن يصنعوا منصة عائمة من ثمار شجر الليمون الهندى ، أو أنه أرســل لهم ، وفقا لرواية أخرى ، قاربين لنجاتهم ، أو انه علمهم كيف يبنون مركبــا يهــربون فيه من الطوفان • وقد كان هذا الاله الــذى خف لنجدتهم هو « روكورو » ، وكان قد جاء فى صحبة كبير رجاله « روكولا » • وبعــد هذا أبحــر الحفيــدان فى قاربين كبيرين ، وأخــذا يلتقطان أجســاد الغــرقى • ويحتفظان بها فى مركبيهما حتى انحسر الطوفان • على أن هناك رواية تذكر أن الأحياء قد أنقذوا بأن وضعوا أنفسهم فى أوعية كبيرة طفــوا

فيها على سطح الماء • ومهما تعددت روايات الأسطورة « الفيجيانية » ، فانها تتفق جميعا فى أن الطوفان أغرق الأرض وأخذ يرتفع حتى غطى أكثر الأماكن ارتفاعا ، وأن من أنقذ من الجنس البشرى هرب فى مركب من نوع ما ترك فى جزيرة « مبينجها » بعد أن انحسر الطوفان • وقد بلغ عدد الأفراد الذين انقذوا ثمانية أفراد • وقد فنيت قبيلتان عن آخرهما فى الطوفان • وقد كانت احدى هاتين القبيلتين تتكون من النساء فقط ، فى حين كان أفراد القبيلة الثانية لهم أذناب كأذناب الكلاب • وحيث ان الذين أنقذوا كانوا قد استقروا بعد الطوفان على جزيرة « مبينجها » ، فان سكان هذه الجزيرة يدعون أنهم أعلى مرتبة من سائرالفيجيانيين كما يدعون أن زعمائهم كانوا يقومون على الدوام بدور بارز فى تاريخ « الفيجيانيين » • وهؤلاء يسمون أنفسهم « رعايا السماء وحدها » • وقد قيل : ان « الفيجيانيين » كانوا فى سالف الزمن يحتفظون على الدوام بقوارب كبيرة استعدادا لحدوث أى طوفان آخر ، ولم يكفوا عن اتباع هذه العادة الا فى الزمن الحاضر ••

ويحكى « الميلانيزيون » سكان جزر الهيبريد الجديدة أن بطلهم الأسطورى الكبير « كات » قد اختفى من الوجود مع الطوفان الذى أغرق العالم • وهم يشيرون على وجه التحديد الى المكان الذى أبحر منه فى رحلته الأخيرة ، وهو عبارة عن بحيرة كبيرة تقع فى وسط جزيرة جاوة • وقد كانت هذه البحيرة فى عهد البطل « كات » سهلا فسيحا تكسوه الغابات • وكان « كات » قد قطع أطول شجرة فى الغابة وصنع من جذعها مركبا • واقترب منه أخوته وأخذوا يرقبونه وهو عاكف على بناء المركب والعرق يتصبب منه سواء كان جالسا أو واقفا فى ظلال الغابات الاستوائية الكثيفة • ثم سألوه فى سخرية « كيف يمكنك أن تجر هذ المركب الكبير الى البحر وسط الغابات الكثيفة ؟ » ولكن « كات » لم يكن يرد عليهم سوى بقوله : « انتظروا حتى تروا ما أفعله » • فلما أتم صنع المركب ، وضع فيه زوجته وأخوته ، وكل الكائنات الحية التى تعيش بالجزيرة حتى أصغر النمل حجما ، وصنع

للمركب غطاء أغلقه دونه ودون أسرته والكائنات التى جمعها • وبعــد ذلك أخذت الأمطار تهطل بغزارة ، فامتلأ تجويف الجــزيرة بالمــاء ، وأخذت المياه تتدفق خلال سلسلة التلال فى المكان الذى لا تزال شلالات جاوة تتدفق فيه فى اتجاه البحر ، محدثة هديرا صاخبا وسط ستار من الرذاذ • وهناك انزلق مركب « كات » على المياه المتدفقة عبر حواجز التلال ومنها الى البحر حيث اختفى عن الابصار • ويقول الأهالى : أن البطل « كات » قد أخذ معه من كل شىء أجوده عندما اختفى عن الاعين ومازالوا ينتظرون عودته السعيدة حتى اليوم •

١١ ــ حكايات عن الطوفان فى « بولاونيزيا » و « ميكرونيزيا » :

وتنتشر اساطير الطوفان الكبير الذى اغرق حشدا هائلا من الناس بين أهالى مجموعات الجزر التى يجمعهــا اســما « بولونيزيا » و « مكرونيزيا » وتنتشر انتشارا كبيرا فى الباسفيك • وقد قيل لنا : « أن الروايات المختلفة التى تنتشر بين مجموعات السكان المختلفــة تتفق فى عناصرها الأساسية ، وان اختلفت فى عدد من الاتفصــيلات • فتحكى مجموعة من هذه المجموعات أن الاله « تا أورا » (وهو خالق العالم وفقا لاساطيرهم) غضب فى العصور الأولى على الناس لعصيانهم أوامره ، فحول العالم الى بحر غرقت الأرض تحته عدا بعض النتوءات البارزة (أوروس) التى ظلت فوق سطح الماء مكونة مجموعات الجزر الأساسية • وأما ما يحتفظ به سكان ولايات « أيميو » من ذكــرى هذه الحادثة ، فهو أن رجلا رسا بقاربه بعد أن انحسر الطوفان بالقرب من بلــده « تياتاييوا » التى تقع فى جزيرتهم ، وشــيد معبــدا أو (ماراى) تكريمــا لآلهــه •

وتروى أسطورة الطوفان فى تاهيتى ، على النحو التالى : لقــد حدث أن اغرق البحر « تاهيتى » عن آخرها ، بحيث لم يعش فيهــا رجل أو خنزير أو كلب أو دجاجة • وقد اطاحت الرياح بحدائق الاشجار والاحجار وقلبت باطن الارض ظاهرها • ولم ينج من هــذا الدمار

سوى رجل وامرأة ، فعندما بدأ الطوفان يزحف الى البلاد ، حملت المرأة أفراخها الصغيرة • وكلبها الصغير وقطتها الصغيرة ، فى حين حمل الزوج معه خنزيره الصغير (وهذه هى كل انواع الحيوانات التى كان يعرفها الأهالى قديما • وحيث أن كلمة « فاتاوا » أى الصغير تستعمل للمفرد والمجمع ، فان عدد الحيوانات هنا قد يكون فردا وقد يكون جمعا •) وقد اقترح الزوج على زوجته أن يأوى الى جبل « أوروفينا » ، وهو جبل عال فى « تاهيتى » ، حيث ان هذا الجبل ، كما قال لها ، شاهق لا تصله مياه البحر • فعارضته الزوجة فى ذلك ورأت أنه من الافضل أن يأويا الى جبل « أوبيتوهيتو » حيث يكونان فى مأمن من الطوفان ، لان المياه يمكن أن تصل الى جبال « أوروفينا » • فامتثل الرجل لرأى زوجته التى كانت على حق فى تصورها ، اذ أن المياه غمرت جبل « أورفينا » بحق ، فى حين وقف جبل « أوبيتو هيتو » شامخا فى عرض المياه ، واصبح ملاذهم • وهناك أخذا يرقبان الفيضان ثمانى ليال حتى بدأ الجزر وبرزت قمم الجبال فوق الأمواج • فلما تراجع البحر الى مكانه الأصلى ، ترك الارض يبابا بلا محصول أو اناس ، بل أن السمك كان قد هرب الى الكهوف والجحور التى بالصخور • وقد كانت من الامثلة التأهينية المشهورة : « أحفر جحرا للسمكة فى الماء » • فعندما سكنت الريح وأصبح كل شىء هادئا ، وأخذت الأشجار والأحجار تتساقط من عل حيث كانت الريح قد أطاحت بها هناك • ذلك أن الزوابع كانت قد مزقت الأشجار وحملتها الى أعلى فى شكل دوامة • ونظر الاثنان من حولهما ، وقالت المرأة للرجل : «لقد نجينا من البحر ولكن هاهى ذى الحجارة المتساقطة تحمل الينا الموت ، فالى أين نلجأ الآن ؟ وعند ذاك حفر الاثنان حفرة وفرشاها بالحشائش وغطياها بالأحجار ، ثم زحفا الى داخلها ، وقبعا فيها وهما يستمعان الى صوت الصخور الساقطة من السماء • وهى تهدر وتتصادم • ثم أخذ سقوط الاحجار يقل تدريجيا بعد ذلك،سوى بعض الصخور التى كانت تسقط بين الحين والآخر،أعقبها سقوط أحجار متناثرة حتى كفت كلية عن السقوط • وعند ذاك قالت المرأة للرجل: « لا لن أخرج حتى لا تردينى الاحجار قتيلا » • ثم انتظرا يوما وليلة •

وفى الصباح التالى لذلك قال الزوج لزوجته : « لقد سكنت الريح حقا وكفت الأحجار وجذوع الاشجار عن السقوط ، كما أنه لم يعد يسمع للأحجار صوت » فبرحا جحرهما وأبصرا أكوام الأشجار والاحجار المتساقطة وكأنها جبل صغير • أما الأرض فلم يبق منها سوى التراب والصخور ، كما لم يعد هناك أثر للاشجار ان كان البحر قد دمرها ثم هبطا الجبل ونظرا من • ونهيا فى دهشة عندما لم يريا أثرا للبيوت أو لاشجار جوز الهند والنخيل أو لثمار الخبز أو لنباتات الخبيزة أو للحشائش ، اذ كان البحر قد أتلفها عن آخرها • وعاش الزوج مع زوجته وانجبا ابنا وابنة • وانتابهما الحزن اذ لم يجدا طعاما • وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت المرأة تنجب أطفالا • ولكن لم تلبث أشجار جوز الهند وثمار الخبيزة أن أينعت وكذلك سائر الأشجار الأخرى• ولم تمض ثلاثة أيام حتى كانت الأرض قد غطيت بكافة أنواع الأطعمة ، ثم امتلأت على مر الايام بالناس الذين تناسلوا عن هذا الاب وتلك الام •

وقد حدث الطوفان فى رواية سكان جزيرة « راياتيا » وهى أخذى جزر « ليوارد » فى مجموعة الجزر التاهيتية ، بعد ان عمرت الارض بنسل « تا آتا » بقليل • فقد كان الاله « رواهاتا » يخلد الى الراحة بين شعب المرجان فى أعماق المحيط عندما أقض مضجعة صياد كان يجدف فى قاربه فوق المكان الذى كان ينام فيه الاله ، ثم أدلى خطاطيفه وهو غافل أوجاهل بوجود الاله وسط الشعب المرجانية التى تقع فى قاع المياه الرائعة الشفافة • فاشتبكت الخطاطيف بشعر الاله ، بحيث لم يستطع الصياد أن يخلصها من خصلات شعر الاله المعطرة الا فى صعوبة بالغة ، وأخذ يسحبها فى رفق شيئا فشيئا • وغضب الاله لانه لم يجد راحته فى النوم وصعد الى السطح وهو يرغى ويزبد ، ورفع رأسه فوق سطح الماء وأخذ يعنف الصياد لقلة ورعه، وهدده بأنه سوف يدمر الأرض انتقاما من فعلته • وتملك الصياد الفزع وخر ساجدا أمام الاله واعترف له بجريوته ، وتوسل اليه أن يعفو عنه وان يغير الحكم الذى نطق به أو على الأقل ينقذه هو من هذا الدمار • وحركت توبة الرجل وكثرة

الحاحه مشاعر الاله « رواهاتو » وطلب منه أن يعود الى زوجتـــه وولده ويصطحبهما الى « تواماراما » ، وهى جزيرة صغيرة تقع بين الصخور فى الجانب الشرقى من «را آتيا » ووعده بأن يحميه هناك من الدمار الذى سوف يلحق بالجزر المحيطة به • وأسرع الرجل الى بيته واصطحب زوجته وولده ولجـــأوا الى الجزيرة • ويقول البعض أنه اصطحب معه كذلك صديقا له كان يسكن معه تحت سقف احد ، كما أخذ معه كلبا وخنزيرا وزوجا من الطيور ، بالاضلفة الى الحيوانات الاليفة التى كان يعرفها أهل هذه الجزر آنذاك • ووصل الجميع الى المرسى وقد أوشك النهار على الانتهاء • وعندما غربت الشمس أخذت مياه المحيط تعلو حتى اضطر السكان المجاورين لشاطىء المحيط ان يتركوا مساكنهم ويلوذوا بالجبال • وظلت مياه المحيط ترتفع طوال الليل ، وفى الصباح لم يكن يبرز من البحرالشاسع سوى قمم الجبال العــالية التى اختفت فيما بعد ، وقد هلك سكان الجزر جميعا • ثم أخذت المياه تتراجع بعد ذلك • وعند ذاك ترك الصياد ورفاقه المكان الذى كانوا قد لاذوا به ، ورحلوا الى بلادهم ، وعنهم تناسل سكان الجزر الحاليون •

ولا يبلغ ارتفاع الجزر المرجانية التى لجأ اليها أجــداد الجنس البشرى فى كثر اجزائها ارتفاعا أكثر من قدمين فوق ســطح البحر ، بحيث يصعب علينا أنتصور كيف أن الطوفان لم يغرقها ، فى حين أنه غمر الجبال الشاهقة التى ترتفع قممها آلاف الاقدام عن شاطىء هذه الجزر المجاورة • ولكن هذه المشكلة لم تكن تمثل حجر عثرة فى سبيل ثقة الشعب بتراثه ، فهم لا يميــلون الى مناقشـــة هذه الآراء المتشــككة وانما يشيرون ، بقصد تأكيد حكايتهم ، الى الشعب المرجانية والقواقع وغير ذلك من المواد التى يلفظها البحر ، تلك التى عثر عليها بين الفينـــة والفينة على سطح قمم جبالهم الشاهقة ، ويؤكدون فى اصرار أن هذه الفضلات ، لابد أن يكون البحر قد لفظها عندما أغرق الجزر •

ومن الملاحظ ، كما سنرى فيما بعد ، أن الاساطير التاهيتية عن الطوفان تعزو حدوثه الى فيضان البحر وحده ، ولاتعزوه الى سقوط

الأمطار التى لم يرد ذكرها على الاطلاق فى هذه الأساطير • ويعلق « وليم اليس » الذى ندين له بتدوينه لهذه الاساطير ، يعلق على ذلك بقوله « وكثيرا ما تحدثت مع الناس ، سواء كانوا من سكان الشمال أو من سكان الجنوب ، حول هذا الموضوع ، ولكننى لم أسمع منهم رواية قط عن انفتاح نافذة السماء ، أو سقوط المطر فى أى شكل من الاشكال • وانما يعزى الطوفان فى كل من أسطورة « رواهاتو » و « تواماراما » فى تاهيتى ، و « كاى كاهينارى » فى « هاواى » الى فيضان البحر • كما أنها جميعا تعزو هذا الفيضان الذى أغرق العالم وأهلك الجنس البشرى ، الى غضب الاله على الناس » •

وعندما كان « اليس » يعظ فى سكان « هاوى » عام ١٨٢٢ م ، ويتحدث اليهم غن قصة طوفان نوح ، روى له الاهالى حكاية شبيهة بحكاية نوح قد توارثوها أبا عن جد ، « فقالوا له ان آباءهم حكوا لهم أن البحر غمر الارض جميعا ذات يوم ، سوى جزء من ذروة جبل « أموناكيا » ، حيث كان شخصان يأويان اليها هروبا من الطوفان الذى أغرق من عداهم • ولكنهم قالوا انهم لم يسمعوا من قبل قط عن سفينة أو عن نوح نفسه ، حيث انهم تعودوا ان يطلقوا على الحكاية عنوان « كاى كاهينارى » (أى بحر كاهينارى) » •

ويروى عن « الماوريين » سكان نيوزيلنده أسطورة طويلة عن الطوفان • فهم يقولون انه عندما تكاثر الناس على وجه الأرض وتعددالقبائل انتشرت الشرور فى كل مكان ، فقد تنازعت القبائل فيما بينها واشتعلت بينها الحروب ، وأهمل الناس عبادة الاله الكبير « تانى » الذى خلق أول رجل وامرأة ، وأنكروا تعاليمه جهرا • حقا انه كان هناك نبيان يعظان الناس ويرشدانهم الى العقيدة الصادقة التى تتصل بانفصال السماء عن الأرض ، ولكن الناس سخروا منهما واتهموهما بأنهما معلمان مزيفان ، اذ أن السماء والارض متصلتان على نحو ما يرون منذ بداية الخلق • وقد كان اسما هذين النبيين هما « بارا وهنوا » ، و « توبو —

نوى آ ــ أوتا » • وقد استمر النبيان فى وعظهما الى أن لعنتهما القبائل قائلة لهما : « انكما تستطيعان أن تلوكا ألفاظ تاريخكما كما تلوكان طعامكما ، وتأكلان رءوس ألفاظ هذا التاريخ » • واستاء النبيان لسماع هذه العبارة الحمقاء « أنكما تأكلان الرءوس » وأخذ يهويان بفأسيهما الحجريتين على الاشجار وجرا جذوع الاشجار الى منبع نهر « توهينجا » وربطا بعضهما ببعض عن طريق خيوط النباتات المتسلقة والحبال حتى صنعا منها قاعدة عريضة ، ابتنيا عليها بيتا واختزنا فيه الطعام الكثير ، وجذور نبات السرخس والبطاطا كما أخذا معهما فيه بعض الكلاب • وبعد ذلك أخذا يتلوان التعاويذ ويبتهلان الى الاله الكبير « تانى » حتى يسقط الأمطار بكميات هائلة بحيث تقتنع الناس بوجوده وقوته ، وترشدهم الى ضرورة العبادة ان شاءوا أن يعيشوا فى سلام • ثم دخلا بيتهما ذاك وأخذا معهما رجلين أحدهما يدعى « تيو » والاخر « ريتى » ، وامرأة تدعى « واى ــ بونا ــ هاو » بالاضافة الى نساء أخريات • وقام « تيو » بدور الكاهن وأخذ يصلى وينطق بالتعاويذ حتى يسقط المطر • واستجابة لدعواته ، سقط المطر بكميات غزيرة ، وأخذ يهطل مدة أربعة أو خمسة أيام • ثم تلا الكاهن تعاويذه مرة أخرى ، حتى يكف المطر عن السقوط ، فسكنت الامطار ، ولكن الفيضان استمر فى الزيادة حتى وصل فى اليوم التالى الى بيتهم العائم ، فرفعته المياه فوق سطحها ، وأخذ التيار يجرفه حتى وصل به الى نهر « توهينجا » • وحتى هذا الوقت كان الفيضان فى انتشاره كبحر كبير يتأرجح فوقه البيت العائم ذات اليمين وذات الشمال • وبعد أن مرت سبعة أشهر قمرية على هذه الحال قال لهم الكاهن ، « اننا لن نهلك وسوف ترسو حتما على الأرض » وبعد أن انقضى الشهر القمرى الثامن قال لهم : « لقد انكمش البحر وأخذ الطوفان ينحسر » • فسأله النبيان : « وكيف عرفت ذلك ؟ « فأجاب : « أن مقياسى المدرج قد دلنى على هذا » • ذلك أن الكاهن كان قد وضع معبده على جانب من سطح القاعدة العائمة ، وهناك كان يقوم بطقوسه ويكرر تعاويذه ويراقب مقياسه المدرج • ثم قرأ علامات المقياس وقال لرفاقه :

« لقد هدأت الرياح العاتيه التى هبت فى الشهور الماضية ، كما سكنت الرياح التى هبت هذا الشهر ، ومن ثم فقد سكن البحر » • وفى خلال الشهر الثامن لم يترنح البيت كما كان يفعل من قبل ، وانما أخذ ينزلق الى جانب ترنحه فى بعض الاحيان • وعند ذاك عرف الكاهن أن البحر قد انخفض ، وأنهم كانوا يبحرون بالقرب من الارض • فقال لرفاقه : « اننا سنرسو على الارض الجافة فى خلال هذا الشهر القمرى، لان مقياسى المدرج اطلعنى على أن البحر ينخفض تدريجيا « فأخذت الرفقة تكرر تعاويذها طوال الوقت وتحيى الطقوس تكريما للاله « تانى » • وفى نهاية الامر رسا البيت العائم على أرض جافة فى « هاوايكى » • وقد كانوا يحسبون أنهم سيقابلون بعض الاحياء ، وأن الارض ستبدو لهم كما كانت قبل الطوفان ، ولكن كل شىء كان قد تغير فقد تشققت الارض وتصدعت فى بعض الاماكن ، وانقلبت ظهرا على عقب فى بعض الاماكن الاخرى • أما الكائنات الحية فلم يكن لها أثر على وجه الارض ، وكان هؤلاء الاحياء الذين نجوا هم الذين انقذوا من بين القبائل التى كانت تعيش على وجه الارض • فلما رسا البيت بهؤلاء ، كان أول ما فعلوه أن قاموا بتأدية الشعائر واعادة التعاويذ : وعبدوا الاله « تانى » والسماء (رانجى) والاله « راهو » ، وسائر الآلهة الاخرى • وقدموا لكل اله فى اثناء العبادة قدر ابهامين طولا من حشيش البحر • وقد كان كل اله يعبد على حدة فى مكان مختلف ، كما كان لكل اله معبد تتلى فيه التعاويذ ، عبارة عن جذر من الحشائش أو جذر شجيرة أو شجرة أو خصلة من خيوط الكتان ، فقد كانت معابد الآلهة على نحو هذا فى ذلك العصر • واذا سارت مجموعة من أفراد قبيلة من القبائل بجوار هذه المعابد فى العصر الحاضر ، فان الطعام الذى بداخل معدتهم يتضخم ويقتلهم ، ولا يسمح لاحد أن يذهب الى هذه الامكنة المقدسة سوى الكاهن • أما اذا زارها عامة الناس ثم ظهوا الطعام بعد ذلك فى قراهم ، فان الشخص الذى يتناول هذا الطعام يموت، ذلك أن اللعنة تحل بالطعام من جراء ارتكاب الناس الاثم فى تدنيسهم

قدسية هذه المعابد ، ويكون عقاب آكلي الطعام بسبب اثمهم هو الموت وبعد أن قام الناس الذين نجوا بكل الشعائر اللازمة لازالة الدنس الذى أثقلوا به ، أشعلوا النار عن طريق الاحتكاك باحدى الاماكن المقدسة ، ثم أشعل الكاهن قطعة من الحشائش ، ووضع كل حزمة مشتعلة عند كل معبد بجوار قطعة النبات المخصصة للاله • وبعد ذلك قدم الكهنة للآلهة أعشاب البحر شكرا لها على انقاذهم من الطوفان وعلى حفظ حياتهم فى البيت الذى طافوا فيه ••

وكما دونت حكاية الطوفان فى « بولونيزيا » ، فقد دونت كذلك فى « ميكرونيزيا » • فيحكى « البيلوريون الايسلنديون » ، أن رجلا صعد ذات يوم الى السماء ، حيث تنظر الآلهة بعيونها البراقة — وهى النجوم — كل ليلة الى الارض ، وسرق أحد هذه النجوم وحمله معه الى الارض • ومن هذه العين البراقة صنع « البيلوويون الايسلنديون » نقودهم منذ ذلك الحين • ولكن الآلهة غضبت لهذه السرقة ، ونزلت الى الارض لتسترد ممتلكاتها المسروقة وتعاقب السارق • ولكى تفعل هذا تنكرت فى شكل عامة الناس ، وأخذت تتنقل من بيت الى بيت تسأل الناس طعاما ومأوى ولكن الناس كانوا افظاظا فى سلوكهم معها وطردوها دون أن يقدموا اليها عشاء أو كسرة خبز • ولكن امرأة عجوزا أحسنت استقبالها ، وقدمت لها أطيب ما عندها من طعام وشراب • وعند خروج الالهة من كوخ المرأة العجوز ، نصحتها أن تصنع لوحا من خشب المامبو بحيث يكون معدا عند اكتمال القمر التالى وتنام عليه فى الليلة بعينها التى يكتمل فيها القمر • فصنعت المرأة العجوز ما نصحت به • فلما كانت ليلة اكتمال القمر ، هبت عاصفة وهطلت الأمطار ، وأخذت مياه البحر ترتفع تدريجيا حتى أغرقت الجزر ، وطوقت الجبال ، وهدمت مساكن الناس الذين لم يعرفوا كيف ينقذون أنفسهم ، فهلكوا عن آخرهم • أما المرأة العجوز الطيبة فقد راحت فى سبات عميق على لوح الخشب وطفت على سطح الماء وجرفها التيار حتى تشابكت خصلات شعرها بفروع شجرة كانت تقع على قمة جبل « أرميليميو » • وهناك استقرت

حتى انحسر الطوفان وانخفضت المياه تدريجيا حتى وصلت الى سفح الجبل • وعند ذاك هبطت الالهة من السماء لتبحث عن المرأة العجوز الطيبة التى تعهدت بحمايتها ، ولكنها وجدتها ميتة • فاستدعت الالهة امرأة من بين شعبهم النسائى الذى يسكن السماء ، فتوغلت هذه المرأة فى جسد العجوز المتوفاة وأحيتها • ثم أنجبت الالهة بعد ذلك خمسة أطفال عن طريق هذه المرأة العجوز التى بعثت الى الحياة ، وبعدها عادت الالهة الى السماء وكذلك المرأة الالهة التى تطوعت وأعادت الحياة الى المرأة العجوز بعد أن توفيت • وقد عمر الاولاد الخمسة الذين ولدوا من آباء الهيين وام انسانية جزر « بيلو » ، ومنهم تناسل سكان هذه الجزر الحاليين •

١٢ ــ حكاية عن الطوفان الكبير فى امريكا الجنوبية :

كان هنود البرازيل ، وقت أن اكتشفوا فى المكان الذى تقع فيه اليوم مدينة « ريو ــ دى ــ جانيرو » يروون أسطورة عن طوفان أغرق العالم ولم ينج منه سوى أخوين مع زوجتيهما • وقد اغرق هذا الطوفان وفقا لاحدى روايات هذه الأسطورة جميع بقاع العالم وأهلك الناس جميعا فيما عدا اجداد هؤلاء الهنود الذين تسلقوا شجرة عالية • ووفقا لرواية أخرى ، نجا هؤلاء من الطوفان فى قارب •

أما الحكاية التى رواها « أندريه تيفيه » الفرنسى ، الذى زار البرازيل فى منتصف القرن السادس عشر ، نقلا عن الهنود الذين كانوا يسكنون بالقرب من « كيب فريو » فتجرى على النحو التالى : كان لطبيب عظيم اسمه « سوماى » ولدان ، أحدهما اسمه « تاميتدونارى » والاخر اسمه « أريكونت » • أما « تاميندونارى » ، فكان يقوم بفلاحة الارض ، وكان أبا وزوجا صالحا ، وله زوجة وأولاد • وأما الابن الثانى فلم يكن يهتمبشىء من هذه الامور ، بل كان منصرفا الى الحرب • وقد كان الشىء الذى يجلب السرور الى نفسه ، هو اخضاع القوم المجاورين له لسطوته ، بل اخضاع أخيه الشقيق • وذات يوم ، أحضر هذا المحارب

الشرس لاخيه المسالم ذراعا مبتورة لاحد قتلاه فى معركة من المعارك ، وقال له فى الوقت نفسه فى كبرياء : « اغرب عن وجهى أيها الجبان ، اننى سآخذ منك زوجك وأولادك ، حيث انك غير قادر عن الدفاع عنهم» . فنظر اليه أخوه الطيب آسفا لعنجهيته ورد عليه فى سخرية لاذعه وقال له : « اذا كنت على هذا النحو من الشجاعة ، فلم لم تحضر معك بقية رمم أعدائك » ؟ . وعند ذاك رمى «أريكونت » الذراع المبتورة على عتبة باب أخيه ، وهو ساخط على تعنيفه اياه . وفى هذه اللحظة انتقلت القرية التى يسكنها الأخوان الى السماء ، ولم يبق على الارض سوى الاخوين . فلما أبصر « تاميندونارى » ما حدث ، دق الارض برجله فى عنف بدافع الدهشة أو الغضب ، فتدفق نبع من المياه ، وأخذت المياه تعلو حتى غطت قمم التلال وكادت تصل الى سحب السماء . ثم استمرت فى تدفقها حتى غطت الارض جميعا . فلما رأى الاخوان أن الخطر قد أحدق بهما ، أسرعا وصعدا الى أعلى قمم الجبال ارتفاعا ، ثم أخذا يتسلقان الاشجار هروبا من الماء مع زوجتيهما . أما « تاميندونارى » فقد تسلق شجرة تسمى شجرة « بيندونا » وهى تلك التى رأى الرحالة الفرنسى منها نوعين ، أحدهما ثماره أكبر وأوراقه أعرض من النوع الاخر . ولم يأخذ « تاميندونارى » معه سوى زوجة من زوجاته فى أثناء هروبه من الطوفان . أما الاخ الثانى « أريكونت » ، فقد تسلق هو وزوجته شجرة أخرى تسمى شجرة « جينيير » . وهناك على قمة هذه الشجرة قدم « أريكونت » بعض الثمار لزوجته وقال لها : « اكسرى هذه الثمار وارمى بها فى الماء » . فلما فعلت أدركوا من صوت رشاش الماء أن المياه لا تزال عالية ، وأنه لم يحن الوقت بعد لكى يهبطوا الى الوادى . ويعتقد الهنود أن الناس جميعا غرقوا فى هذا الطوفان فيما عدا الاخوين وزوجتيهما . ومنهما تناسل شعبان مختلفان هما شعب « توناسيرى » وكنيته « توبنامبو » وشعب « تونايتزهويانا » وكنيته « تومينى » . وكلا الشعبين فى حرب على الدوام مع بعضهما البعض . ويميل شعب « توبينامبو » الى أن يعلى من قدره فوق أقرانه وجيرانه فيقول : « اننا

من نسل « تاميندوناري » أما انتم فمن نسل « أريكونت » • وهم يعنون بذلك أن « تاميدوناري » كان أفضل من أخيه « أريكونت » •

وقد روى الاب اليسوعى « سيمون دى فاسكونسلوس » رواية أخرى لهذه الاسطورة تختلف بعض الشىء عن الرواية السالفة • ففى رواية الاب اليسوعى نجت أسرة واحدة من الطوفان • كما أنه ليس بها ذكر لاخ شرير • وتحكى هذه الرواية أنه كان فى سالف الزمن طبيب ماهر أو عراف يدعى « تاماندوار » ، أفشى اليه الاله بسر قدوم طوفان كبير يغرق الارض ، ثم يظل يعلو حتى يغطى الاشجار وقمم الجبال فيما عدا قمة واحدة توجد عليها شجرة نخيل تطرح ثمارا كثمار جوز الهند • وقد نصح الاله الطبيب بأن يلوذ بهذه الشجرة مع اسرته فى فى ساعة الشدة • ولم يتوان « تاماندوار » لحظة ولجأ الى المكان المذكور مع أسرته • وما كاد يستقر هناك حتى بدأت الامطار تهطل حتى أغرقت الارض ، ومن بعدها وصلت الى قمم الجبال • وعند ذاك تسلق الرجل وأسرته شجرة النخيل وظلوا هناك طوال مدة الطوفان يعيشون على ثمارها • فلما انحسر الطوفان هبطوا الى الارض وأنجبوا أولادا وأحفادا عمروا الارض التى كان الطوفان قد تركها خرابا •

وبالمثل تروى قبيلة « كاينجانج » أو « كورودو » التى تقطن فى اقليم « ريو جرانوى دى سول » ، الذى يقع فى أقصى جنوب البرازيل حكاية عن الطوفان الكبير الذى أغرق الارض التى كان يسكنها اجدادهم من قبل • ولم يبرز فوق سطح الماء سوى قمة سلسلة الجبال الساحلية التى تسمى « سيرا دو مار » وقد سبح أفراد القبائل الهندية الثلاث وهى قبيلة « كاينجانج » وقبيلة « كايوروكرى » وقبيلة « كامى » ، فى اتجاه هذه الجبال ، وهم يحملون شعلات من النار بين أسنانهم • وسرعان ما شعر أفراد قبيلتى « كاينجانج » ، و « كامى » بالتعب ، فغاصوا تحت الأمواج وغرقوا وفارقتهم أرواحهم لتسكن الجبال • أما أفراد قبيلة « كايوروكرى » وبعض أفراد قبيلة « كوروتون » فقد شقوا طريقهم بين الامواج الى الجبال ، وهناك اتخذوا

لأنفسهم مأوى ، بعضهم فى الجبال وبعضهم بين فروع الأشجار •
ثم مرت بعد ذلك عدة أيام دون أن تنخفض المياه ،كما لم يجد هذا الحشد فى أثنائها ما يأكله • وبينما كان الجميع يتمنى الموت ، سمعوا غناء طيور « ساراكورا » ، وهى نوع من الطيور المائية ، وقد جاءتهم بسلال مملوءة بالتراب • ثم رمت الطيور بهذه الاتربة ، فهبطت الى قاع الماء بطبيعة الحال • وعند ذاك صاح الناس على الطيور أن تسرع ، كما نادت الطيور بدورها البط ، وأخذ الجميع يعمل معا لتهيئة مكان يعيش فيه كل الناس غير أولئك الذين كانوا استقروا على الاشجار ، وقد تحول هؤلاء فيما بعد الى قردة • وعندما انحسر الطوفان هبطت قبيلة « كاينجانج » واستقرت عند سفح الجبل • أما أرواح الغرقى من قبيلتى « كايوروكرى » و « كامى » ، فقد تسربت من أحشاء الجبل الذى كانت سجينة فيه • فلما خرجت الى الخارج أشعلت النيران ، وصنع أحد افراد قبيلة « كايوروكرى » من رمادها أشكالا للنمور ، وحيوانات التابير وآكلى النمل والنحل وغير ذلك من صنوف الحيوان ، ثم بث فيها الحياة وأرشدها الى الطعام الذى تأكله • ثم جاء أحد أفراد قبيلة « كامى » وقلده وصنع أشكالا لسبع الجبل والحيات السامية والذنابير لكى تتصارع مع الحيوانات التى صنعها أحد أفراد القبيلة الاولى ، على نحو ما تتصارع معها اليوم •

وبالمثل يروى عن قبيلة « كارايا » وهى قبيلة هندية برازيلية تسكن وادى نهر « أرجواى » الذى يكون مع نهر « توكانتينز » ، أهم الانهار الشرقية التى تصب فى الفروع الجنوبية لنهر « الامازون » ، حكاية عن الطوفان الكبير • ويقال : ان هذه القبيلة تختلف عن جيرانها فى الاخلاق والعادات ،كما تختلف عنها فى خصائصها الفيزيائية ، بل ان لغتها ليست لها علاقة — فيما يبدو — باللغات الاخرى المعروفة التى يتحدث بها الهنود البرازيليون • وتجرى حكاية قبيلة كاديا عن الطوفان على النحو التالى • خرج « الكاراياهيون » ذات يوم ليصطادوا الخنازير المتوحشة ، فاختبأت الخنازير فى مغاراتها وعند ذاك حاولوا ان يخرجوها من مخبأها ، فكانوا كلما أخرجوا خنزيرا

قتلوه فى الحال • وفى اثناء اخراجهم للخنازير ، اعترضهم غزال وحيوان التابير ، وغزال أبيض • فلما توغلوا داخل الكهف اعترضتهم قدم انسان وأفزعهم هذا المنظر ، وراحوا يبحثون عن ساحر قدير له علم بصنوف حيوانات الغابة • وجاء هذا الساحر واجتهد فى اخراج صاحب القدم من التراب • وكان اسم هذا الرجل « أناتيرا » وكان نحيـــلا وان كان ذا بطن ضخم•

أخذ « أناتيو » يغنى ويقول : « أنا أناتيوا ، أحضروا لى دخانا كى ادخن » ولكن القبيلة لم تفهم لغته واسرع أفرادها الى الغابـــــة وأحضروا له أنواع الزهور والثمار ولكنه رفضها جميعـــا وأشار الى رجل كان يدخن • فعرفوا مطلبه فى الحال وأحضروا له الدخان • فتناوله منهم وأخذ يدخن حتى سقط مغشيا عليه • فحملوه فى قاربهم ورجعوا به الى قريتهم • وهناك أفاق من غفوته وأخذ يرقص ويغنى • ولـــكن مسلكه ولغته الغريبة أخافت قبيلة « كارايا » ، فحملت امتعتها ورحلت من القرية ، مما أغضب « أناتيوا » ودفعـــه لان يحول نفســـه الى « بيرانها » ، وأن يلحق بهم على هذا النحو حاملا معه ثمار القــــرع المجوفة بعد أن ملأها بالماء • ثم صاح بأفـــــراد القبيلة أن يتوقفوا ، ولكنهم لم يكترثوا لندائه • وعند ذاك هشم ثمرة من ثمار القرع التى كانت معه وفى الحال تدفق الماء وأخذ يعلو فى الوقت الذى كانت فيـــه القبيلة تواصل هروبها • فهشم « أناتيوا » ثمار القرع واحدة تلــــو الاخرى • وكان كلما هشم ثمرة ، ازداد ارتفاع الماء حتى أغرق الارض جميعا ، ولم يعد بارزا منها فوق سطح الماء ســـــوى قمم الجبال التى تقع عند نهر « تابيرابى » • فلاذت القبيلة بقمتين من قمم هذه السلسلة الجبلية • وعند ذاك صاح « أناتيوا » على كل أنواع السمك أن يجرف هؤلاء الناس الى الماء • فحاول سمك « الباهو » و « البنتادو » ، و «الياكو » أن يفعل هذا دون أن ينجح فى اغراقهم • وفى النهاية حاولت ســـمكة « بيكودو » (وهى ســـمكة ذات منقـــار طويل كالخـــرطوم) أن تتسلق الجبل من الخلف ، وقذفت بأفراد القبيلة فوق قمة الجبال الى

الماء • ومازال هناك مستنقع كبير يشـير الى المكان الذى سقط أفـراد قبيلة « كارايا » فيه • ولم يبق فوق قمة الجبل سوى بعض الافراد الذين لم يهبطوا منه الا بعد أن انتهى الطوفان • وقد علق الكاتب الذى دون هذه الحكاية عليها بقوله « على الرغم من أن الفيضـانات التى تحدث بانتظام ، مثل فيضانات نهر أراجواى ، لا ينشأ عنها فى العموم حكايات عن الطوفان ، كما أشار أندريه الى هذا بحق ، الا أن الظروف المحلية لوادى نهر أراجواى مناسبة لان ينشأ عنها مثل هذه الحكاية • فالمسافر الذى يجد نفسه فجأة ، بعد رحلة طويلة بين شواطىء النهـر المنخفضة الممتدة الى غير نهاية ، أمام تلك الجبال الصلبة ذات الشكل المخروطى التى تقع عند نهر « تابيرى » ، والتى تعلو أمامه فجـأة بين السهول ، يستطيع أن يفهم فى يسر الظـروف التى دفعت قبيلـة « كاراياس » ، التى عانت كثيرا من الفيضانات ، لان تحكى مثل هذه الحكاية • وربما كانت هذه الجبال بحق بمثابة ملجأ لسكان الاحيـاء المجاورة » • ثم يضيف الكاتب الى ذلك قوله : « وكما هو الحال فى معظم أساطير الفيضان فى أمريكا الجنوبية ، فان هذا الفيضان الغريب الذى تحكى عنه هذه الاسطورة ، لم يحدث نتيجة سقوط الامطار ، بل حدث نتيجة تحطيم أوعية كانت ممتلئة بالمياه •

وبالمثل يحكى « الباماريون » و « الابيديريون » و « الكتاوشيون » الذين يسكنون عند نهر « بوروس » أنه قد حدث فى زمن من الازمنـة أن سمع الناس صوت قعقعة ينبعث من فوق الارض ومن تحتها ، ثم استحال لون الشمس والقمر الى لون أحمر وازرق واصفر ، واختلطت الوحوش فى غير فزع بالناس • وبعد مضى شهر ، سمع لناس هديرا ، كما أبصروا الظلمة تصعد من الارض الى السماء تحت المياه ، وفقد بعض الناس كمامات بعضهم ، دون أن يعرف الناس سببا لهذا ، اذ كان كل شىء فى حالة اضطراب مفزعة • ثم ظلت المياه ترتفع حتى لم يعد بارزا من الارض سوى فروع الاشجار الشاهقة • وعند ذلك أخـذ الناس يبحثون عن مأوى لهم ، وهلكوا من البرد والجوع وهم جاثمون بين فروع الاشجار ، ذلك أن الظلام كان يعم الكـون طوال الوقت ، كما

كانت الامطار تسقط بصفة مستمرة • ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل يدعى « أوآسو » مع زوجته • فلما هبط هذان من أعالى الاشجار بعد أن انتهى الطوفان ، لم يجدا أثرا لجسد انسان ، اللهم الا كومة من العظام البيضاء • وبعد ذلك انجب هذان عددا كبيرا من الابناء • ثم قال أحدهما للاخر : « هيا نبتنى بيوتنا فوق الماء ، فاذا علا الماء طفت بيوتنا على سطحه ونحن بداخلها واصبحت متماسكة • ومع ذلك فان « الباماريون » مازالوا يبنون مساكنهم فوق الماء حتى اليوم •

ويرى « الموراطيون » وهم فرع من « الجيباريين » الذين يسكنون فى « أكوادور » ، حكاية خاصة بهم عن الطوفان ، يقولون فيها ان موراطيا هنديا خرج ليصطاد فى مجرى نهر « باستازا » الضحل • فابتلع تمساح صغير الطعم من سنارته ، فقتل الصياد التمساح أثر ذلك • فغضبت أم التمساح أو بالاحرى أم التماسيح ، وأخذت تضرب الماء بذيلها حتى فاضت المياه وأغرقت ضواحى النهر ، وغرق الناس جميعا عدا رجل واحد استطاع أن يتسلق نخلة ومكث هناك بضعة أيام كان الظلام يخيم فيما على الكون كله • وكان الرجل يقذف بين الحين والاخر بثمرة من ثمار النخلة فى الماء ، ولكنه كان يسمع لها على الدوام صوت ارتطام قوى • وفى اليوم الاخير رمى ثمرة على الارض فأحدثت صوتا مصمتا ، فادرك لحينه أن الماء قد انحسر • فهبط من الشجرة وابتنى بيتا وأخذ يفلح له حقلا • وقد كان الرجل بدون زوجته ، لكنه سرعان ما صنع لنفسه واحدة بأن قطع جزءا من جسمه وغرسه فى الارض ، فأخصبت التربة هذا الجزء ونمت منه امرأة تزوجها فيما بعد •

ويحكى « الاروكانيون » سكان شيلى حكاية عن الطوفان الذى لم ينج منه سوى بضعة أشخاص • وكان هؤلاء الاحياء المحظوظون قد لجأوا الى قمة جبل شاهق يسمى جبل «ثجثج» ومعناه الجبل المرعد أو المتلالىء وقد كان لهذا الجبل ثلاثة نتوءات ، كما كان له خاصية الطفو على الماء • « ومن ثم كان من الممكن الاستدلال » ، كما يقول مؤرخ أسبانى ، « على أن هذا الطوفان قد حدث نتيجة بعض الانفجارات البركانية التى

صحبتها هزات أرضية شديدة • فهو طوفان يختلف فيما يبدو عن طوفان نوح • وأينما تحدث هذه الهزات الأرضية العنيفة ، فان الناس يهربون، طلبا للأمان ، الى هذه الجبال التى يحسبونها طافية ، ومن الطبيعى أنها تتصف حقا بخاصية الطفو على الماء ، ووفقا لتصورهم • وسبب هذا أن الناس يخافون بعد حدوث هزة أرضية ، أن البحر يفيض مرة أخـرى ويغرق العالم • وفى مثل هذه الحالات يأخذ كل فرد معـــه مقدارا من الزاد ، وأطباقا خشبية يضعها فوق رأسه لكى تحميه من حرارة الشمس ذلك لان المياه عندما ترفع جبال « ثجتج » نتيجة ارتفاع المياه ، فمـن الطبيعى أن الجبال تقترب عندئذ من الشـــمس • فـاذا قيل لهم ان الأطباق المصنوعة من الطين أكثر ملاءمة لهذا الغرض من تلك المصـنوعة من الخشب التى قد تحترق بتأثير حرارة الشمس ، فان جوابهم المألوف عن هذا بأن أجدادهم قد فعلوا هذا من قبل •

ويحكى « الأكاويون » سكان « جيانا البريطانية » حكـــاية عن الطـوفان الكبير غنية بتفصـــيلاتها • فهم يقولون : أن الروح الكبير « ماكونيما » خلق فى بداية الحياة الطيور والوحوش ، ثم عين ابنـه « سيجو » حاكما عليها • وفضلا على هذا فقد أنبت فى الأرض شجرة ضخمة رائعة تحمل على كل فرع من فروعها ثمارا مختلفة ، بينما كان ينبت حـول جذعهـــا الموز والطلح والكاســـافا والذرة والقمح فى وفرة ، كما انتشر نبات اليام حول جذورها • وباختصار ، فقد ازدهرت فوق تلك الشجرة العجيبة أو حولها أو أسفلها كل النباتات التى تنمـو على سطح الأرض • ولكى يعم خير الشجرة العالم أجمع ، قرر « سيجو » أن يقطع تلك الشجرة وأن يغرس بذورها وشظاياها فى كل مكان • وقد فعل هذا بمساعدة كل الوحوش والطيور باستثناء القـــرد ذى اللون البنى ، الذى رفض بسبب كسله وولعه بايذاء الناس ، أن يساهم فى هذا العمل الكبير • ولهذا فقد أرسل « سيجو » هذا القرد ليحضر الماء من النبع فى سلة مخرمة لكى يصرفه عن التفكير فى أى عمل شرير ، اذأنه قدر أن هذا العمل يستغرق حيويته لبعض الوقت ، تلك الحيوية التى

يستنفذها خلاف هذا فى الاعمال الشريرة • وفى أثناء هذا انشغل « سيجو » بقطع الشجرة ، واكتشف أن بطن الشجرة كان مجوفا وممتلئا بالماء الذى يسبح فيه كل أنواع السمك • وعند ذلك رأى « سيجو » الطيب أن يمد أنهار وبحيرات العالم أجمع بكميات وافرة من هذه الأسماك ، حتى يتوالد فى كل مياه كل نوع من أنواع هذا السمك • ولكن هذا العمل الطيب لم يتم كما كان متوقعا ، لان المياه المخزونة فى بطن الشجرة بدأت تتدفق لانها كانت متصلة بخزان كبير فى جوف الأرض • ولكى يحول « سيجو » دون تدفق المياه ، سد الجزء الباقى من الشجرة بعد قطعها ، بسلة محكمة النسج ، فتوقفت المياه حقا عن التدفق • ولكن لسوء الحظ جاء القرد خلسة الى مكان الشجرة ، بعد أن تعب من العمل الذى كلف به ، وأثارت هذه السلة المقلوبة فضوله ، وتصور انها يمكن ان تخفى طعاما طيبا ، فرفعها فى حذر واختلس النظر بداخلها ، واذا بالماء يتدفق فى قوة مكتسحا القرد أمامه وأغرق الارض جميعها • وعند ذلك جمع « سيجو » صنوف الحيوان التى لم يغرقها الطوفان ، وقادها الى أعلى مكان فى البلد حيث تنبت بعض أشجار جوز الهند الطويلة ، ثم ترك الطيور والحيوانات القادرة على التسلق تصعد أكثر هذه الاشجار ارتفاعا • أما تلك الحيوانات التى لم تكن تتمكن من تسلق الاشجار وليست من الانواع المائية أو البرمائية ، فقد حبسها فى كهف ذى مدخل ضيق غطاه بالشمع بعد أن سلم الحيوانات شوكة طويلة تثقب بها الشمع لكى تتأكد من انحسار الطوفان • وبعد أن اتخذ « سيجو » هذه الاحتياطات لضمان سلامة هذه الحيوانات الضعيفة ، تسلق مع الحيوانات الأخرى شجرة النخيل ، واحتجب بين فروعها ، وأخذ يقاسى معها آلام البرد والجوع بسبب الظلام الدامس وهبوب العاصفة التى أعقبت تدفق الفيضان • أما سائر الحيوانات فقد تحملت متاعبها فى رباطة جأش • أما القرد الأحمر ، فقد أخذ يصرخ من الألم صرخات مفزعة حتى انتفخت رقبته ولا تزال له حتى اليوم طبلة ناتئة العظام فى رقبته • وفى هذه الاثناء ، كان « سيجو » يقذف بين الحين والآخر بثمار شجرة النخيل فى الماء ليختبر من صوت ارتطامها به عمق

المياه•فكلما انخفضت المياه، كانت تزداد المسافة الزمنية بين سقوط الثمرة وارتطامها بالماء • وفى النهاية سمع صوتا مصمتا بدلا من صوت الارتطام وأخذ يستعد مع من معه من الحيوانات والطيور للهبوط من أعلى الشجرة• على أن الطائر النافخ كان فى عجلة من أمره فى أثناء هبــوطه ، بحيث اقتحم عش نمل • فهجم النمل الجائع عليه وأخذ ينهش رجليه وعراهما من اللحم • وهذا هو السبب فى أن الطــائر النافخ ما زالت له رجلان عاريتان من اللحم حتى اليوم • واتعظت الكائنات الأخرى بفعله هذا الطائر ، فهبطت فى حذر وخوف • وبعد ذلك أخذ ســيجو قطعتين من الخشب ، وحك احديهما بالأخرى لكى يولد النار • وما كادت تتطــاير الشرارة الأولى ، وكان « ســيجو » قد ولى وجهه عنها صــدفة ، حتى أخطأها الديك الرومى وابتلعها وطار • فأحرقت الشرارة رقبته • وهذا هو السبب فى أن الديك الرومى له غبب أحمر حتى يومنا هــذا • وكان التمساح يقف فى هذا الوقت الى جانب الديك الرومى دون أن يتسبب فى ايذاء أحد • ولكن لما كان سلوكه فى هذا الوقت لسبب ما غير عادى ، فقد اتهمته الحيوانات الأخرى بسرقة الشرارة وابتلاعها • ولكى يسترد « سيجو » الشرارة من بين فكيه فتح فمه ومزق لسانه • وهذا هو السبب فى أن التماسيح الأمريكية لم يعد لها ألسنة منذ ذلك اليوم •

ويعتقد « الأراوكيون » سكان « جيانا البريطانية » أن الحيــاة أصيبت بالدمار مرتين منذ خلقها ، مرة بسبب النار ومرة بسبب الفيضان وكلا الدمارين أحدثهما « أيومون كرنوى » ساكن السماوات العليا » ، بسبب فساد الجنس البشرى • على أنه أنذر الناس قبل حدوث الدمار الأول ، فأخذ القوم الذين استمعوا لتحذيره ، يســتعدون للهروب من النار الكبيرة ، بأن أخذوا يحفرون تحت جبل رملى • وابتنوا لانفسهم مسكنا تحت الارض ذا سقف خشبى ويقوم على أعمدة خشبية • ثم غطوا سقف المسكن بالتراب وطبقة سميكة من الرمل • وبعد ذلك لجأوا اليه بعد أن أبعدوا عنه كل المواد القابلة للاشتعال • وهناك مكثوا فى هدوء حتى خمدت ألسنة النيران التى اكتسحت أمامها كل شىء عــلى

سطح الأرض • أما الدمار الثانى الذى حل بالأرض ، فقد تسبب عن الطوفان • وقد كان زعيم حكيم ورع يدعى « ماريريوانا » يعلم به قبل وقوعه ، من ثم فقد نجا مع أسرته فى مركب كبير • ولما كان يخشى أن يجرف التيار مركبه بعيدا عن الشاطىء وبعيدا عن مسكن آبائه ، فقد صنع حبلا طويلا من الألياف وربط به مركبه فى جذع شجرة ، فلما انحسرت المياه ، لم يجد نفسه بعيدا عن مكان الأصلى •

ويحكى « الماكوسيون » الذى يسكنون « جيانا البريطانية » أن الروح الطيب « ماكونيما » الذى يعنى اسمه « الذى يعمل بالليل » ، خلق فى بداية الحياة السماء والأرض • وبعد أن ملأ الأرض بالاشجار والنباتات ، هبط من مسكنه فى السماء وتسلق شجرة وأخذ يكشط لحاء الشجرة بفأس حجرية كبيرة ، فتساقط اللحاء فى النهر عند جذر الشجرة وتحول فى الحال الى صنوف من الحيوان • وبعد أن فرغ من خلق الحيوان شرع فى خلق الرجل • وراح الرجل الذى خلقه فى سبات عميق ، فلما استيقظ وجد امرأة تقف الى جواره • على ان الروح الشرير سيطر على الارض بعد ذلك • لهذا فقد أرسل «ماكونيما» الروح الطيب طوفانا الى الارض لم ينج منه سوى رجل واحد هرب فى مركب • ثم بعث هذا الرجل فأرا فيما بعد ليعرف ما اذا كان الطوفان قد انحسر عن الارض ، فرجع الفأر اليه بحفنة من القمح • فلما تراجعت المياه الى منسوبها الطبيعى ، عمر هذا الرجل الارض على نحو ما فعل « دويكاليو » و « بيرها » ، بأن كان يرمى الأحجار من وراء ظهره فتتحول الى شخوص • وتتضمن هذه الحكاية وجوها من الشبه يثير الشك بينها وبين حكاية الكتاب المقدس • وتتمثل وجوه الشبه هذه فى خلق المرأة على هذا النحو الغريب ، وفى ذكر الروح الشرير ، وحادثة ارسال الفأر لاستكشاف عمق الطوفان • وربما كان مرد هذا التشابه الى تأثير المبشرين المسحيين ، أو الى تأثير أوربى بصفة عامة • على أن الطريقة التى خلق بها الذين نجوا من الطوفان الجنس البشرى بعد أن انتهى الطوفان ، تشبه الحادثة المماثلة لها فى القصة الاغريقية عن « دويكاليون » و « بيرها » ، مما

يصعب النظر الى الحكايتين بوصفهما مستقلتين احداهما عن الاخرى ..

ويروى «هنود أورينوكو» كذلك أساطير عن الطوفان الكبير . وقد دون « هومبولت » ملاحظاته حول هذا الموضوع فقال : ولا يمكنى أن أترك هذه السلسلة الأولى من جبال « انكماردا » دون أن أذكر واقعة لم يكن يعرفها الاب « جيلى » وكثيرا ما كانت تحكى لى فى أثناء اقامتى مع الجماعات الارسالية فى « أورينكو » . فقد احتفظ سكان هذه البلاد الأصليين بعقيدة تتلخص فى أن أمواج البحر ارتطمت بصخور جبال « انكماردا » فى أثناء فترة الطوفان الكبير الذى هرب منه آباؤهم فى قوارب بحثا عن النجاة . ولا تعيش هذه العقيدة منفصلة بين شعب « التاماناكويين » وحدهم ، انما تكون جزءا من تراث تاريخى اكتشفت مقتطفات متفرقة منه بين « المايبويين » سكان الشلالات الكبيرة ، وبين الهنود الذين يسكنون عند شلالات « رير اريفانو » التى تصب فى نهر « كاورا » ، وبين كل القبائل على وجه التقريب التى تسكن أعالى « أورينوكو » . فاذا سئل « التاماناكوييون » عن الوسيلة التى هرب بها الجنس البشر من هذا الطوفان الكبير أو من « عصر الماء » كمايسميه المكسيكيون ، فانهم يجيبون بأنه لم ينج من هذا الطوفان سوى رجل واحد وامرأة واحدة لاذا بجبل شاهق يسمى جبل « تاماناكو » ويقع عند شواطىء نهر « أزيفيرو » . وبينما كان هذا الرجل وهذه المرأة يرميان بثمار شجرة نخيل « ماورينيا » من وراء ظهورهما ، أبصرا رجالا ونساء يخرجون من بذور الثمار ، وهؤلاء هم الذين عمروا الأرض بعد الطوفان ، وكانا قد ملأهما الاسى للخراب الذى حل بالعالم . أما بذر الثمار التى رماها الرجل فقد تحولت الى ذكور وأما بذور الثمار التى رمتها المرأة فقد تحولت الى اناث .

ويحكى « الكناريون » وهم قبيلة تسكن فى اكوادور ، أن طوفانا كبيرا حدث فى عهد مملكة « كرينو » القديمة ، ونجا منه أخوان بأن هربا الى جبال شاهقة للغاية تسمى جبال « هواكا ــ لينان » . وكانت

كلما ارتفعت المياه ، ارتفعت معها الجبال ، وبذلك لم يصل الماء قط الى الأخوين • فلما انخفضت المياه وكانت مئونتهما قد نفذت ، هبطا من أعلى الجبل وأخذا يبحثان عن طعام لهما بـين التلال والوديان • ثم ابتنيا بيتا صغيرا عاشـا فيه وكانا يحتـالان على الحياة بتناول طعام شحيح من الاعشاب وجذور النباتات ، ومن ثم فقد قاسـيا كثيرا من آلام الجوع والتعب • وذات يوم رجعا الى بيتهما بعد بحث مضنى عن الطعام فوجدا به طعاما ، كما وجدا به « الشيشة » ، دون أن يعلما شيئا عمن أعد لهم ذلك أو أحضره لهم • وتكرر حدوث هذا عشرة أيام متتالية أخذايفكران من بعدها فى وسيلة للتعرف على هذا الشخص الذى يقوم بهذا العمل الطيب فى تلك الأيام القاسـية • فاختفى الاخ الاكبر فى مكان ما ، واذ به يبصر ببغاوين قادمين يرتديان زى الكناريين• فلما دخلا البيت أخذا يعدان الطعام الذى أحضراه معهما • ولما أبصر الاخ الاكبر ما هما عليه من جمال ، وأن لهما وجهى امرأتين ، خرجا من مخبئهما • فلما وقع بصر الطائرين عليهما ، غضبا وطارا دون أن يتركا لهما شيئا يأكلانه • فلما عاد الاخ الاصغر من بحثه عن الطعام ، ولم يجد الطعام معدا كما كان يحدث فى الأيام السابقة ، سأل أخاه الاكبر عن سبب هذا التغير فقص عليه ما حدث ، فجلسا معا مكتئبين • وفى اليوم التالى قرر الاخ الاصغر أن يختفى بالمثل ويرقب قدوم الطائرين • وبعد ثلاثة أيام عاد الطائران وأخذا يعدان الطعام • فتريث الاخوان حتى فرغ الببغاوين من اعداد الطعام ، وأغلقا الباب عليهما • فغضب الطائران أشد الغضب لوقوعهما فى الشرك ، وتمكن الطائر الكبـير من الهروب ، بينما وقع الطائر الصغير فى الفخ • فتزوج الاخوان هذا الطائر وأنجبا منه ستا من البنين والبنات تناسلت عنهم قبيلة « كانارى » • ولهذا فان الهنود يعدون تل « هواكا ــ ايان » الذى سكنه الاخوان بعد أن تزوجا الطائر ، مكانا مقدسا ، كما أنهم يقدسون الببغاء الأمريكى ويقدرون ريشه تقديرا عاليا ويستخدمونه فى احتفالاتهم •

ويحكى هنود « هواروشيرى » وهو اقليم فى « بيرو » يقـع فى

« الاندس » فى الشرق من « ليما » ، أن العـــالم فى سالف الزمان كاد أن يفنى عن آخره ، فقد حدث أن هنديا ترك بقرته ترعى فى مكـــان غنى بالمرعى ، لكن البقرة رفضت أن تأكل وأخذت تئن فى حزن على نحو ما تفعل الابقار • وعند ذاك قال لها صاحبها : « ايتها الحمقاء • لماذا تئنين وترفضين الطعام ؟ ألم أتركك ترعين فى مكان يطيب فيـــه المرعى ؟ » فأجابته البقرة قائلة : « وماذا تعرف أنت أيها الاحمق عن هذا الامر ؟ اننى لا أحزن بدون سبب يستدعى الحزن ، ففى خلال خمســـة أيام سيفيض البحر ويغرق الارض جميعا ويخـــرب كل ما عليهـــا • وتعجب الرجل من سماعه الحيوان يتكلم على هذا النحو ، وسألها ما اذا كانت هناك وسيلة تنقذهما من الطوفان • عند ذاك طلبت منه البقرة أن يأخذ معه مئونة تكفيه خمسة أيام وأن يتبعها الى قمة جبل « فيلسا ــ كوتو » الذى يقع بين بيعة « سان داميان » بيعة « سان جيرونيمو » • فحمل الرجل مئونته على ظهره وتبع البقرة • وعندما وصل الى قمة الجبـــل المعنى ، وجد أنواعا متعددة من الطيور والحيوانات مجتمعـــة هناك • وما كاد يصل الى هذا المأوى حتى أخذت مياه البحر ترتفـــع وتفيض حتى أغرقت الوديان وغطت قمم التلال جميعا عدا قمة جبل « فيلسا ــ كوتو » ، بل ان الامواج كانت تتلاطم بالقرب من هذه القمـــة ، الى درجة أن الحيوانات تزاحمت فى مساحة ضيقة ، ولم يجد بعضها مكانا لارجله • وانغمس طرف ذيل الثعلب فى الماء ، فأسود لونه • وهـــذا هو السبب فى أن أطراف ذيول الثعالب سوداء حتى اليوم • وفى اليوم الخامس من الفيضان أخذت المياه تتراجع ، وعاد البحر الى حالته الاولى بعد أن أغرق الناس جميعا عدا الهندى الذى تناسلت منه جميع الامم التى تعيش على وجه الارض •

وكذلك روى عن « الانكاسيين » الذين كانوا يسكنون فى « بيرو »

رواية عن الطوفان .فقد حكى هؤلاء أن المياه فاضت وغمرت أعلى الجبال المستقرة على وجه الارض ، فهلك الناس جميعا وكل كائن على وجـه الارض . ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل وامرأة طفـوا داخل صندوق على سطح المياه . وبعد أن انحسر الطوفان ، جرفت الرياح الصندوق والرجل والمرأة بداخله ، وقذفت به عند « تاهواناكو » التى تبعد عن « كوزكو » بما يقرب من سبعين فرسخا .

وقد حكى المؤرخ الاسبانى « هيريرا » أسـاطيرا من « بيرو » عن الطوفان الكبير ، فقال : « لقد ذكر الهنود القدماء أنهم حفظوا هذه الاساطير عن أجدادهم ، فقد حدث طوفان كبير قبل أن يظهر أى فرد من « الانكاويين » فى « بيرو » . وبعد سنوات وعندما كانت البلاد مزدحمة بالسكان ، حطم حواجزه وغمر الارض بالمياه وأهلك الناس جميعا . ويضيف « الجرانكيون » سـكان وادى « اكسـوكسا » وأهالى « تشيكوينو » الذين يسكنون اقليم « كالاو » ، الى ذلك ، أن بعض الناس لجأوا الى جحر وكهوف فى أكثر الجبال ارتفاعا ، وهؤلاء هم الذين عمروا الارض بعد أن أهلكها الطوفان . ويؤكد قوم آخـرون من سكان الجبال ، ان الناس جميعا هلكوا فى هذا لطوفان عدا ستة أفراد طافوا على عوامات . ومن هؤلاء تناسل سكان هذا البلد . ويمكننا أن نصدق أنه قد حدث فى هذا البلد فيضان على نحو ما ، لان كل سـكان الاقاليم المتعددة يتفقون حول هذا الخبر » .

وتحكى قبيلة « تشريجوانو » الهندية التى كانت تتمتع ذات يوم بنفوذ قوى فى جنوب شرق « بليفيا » ، الحكاية التالية عن الطوفان الكبير . حدث أن كائنا مهولا شريرا بعينه كان يدعى « أجوارا تونبا » ، أعلن الحرب على الاله الحقيقى « تونبايتى » خالق « التشريجوانيين » . ولا يعرف سبب اعلان هذا الكائن الحرب على الاله ، وان كان يعتقد أن هذا يرجع الى مجرد ضغينة أو الى مجرد اختلاف فيما بينهما . ولكى يضايق هذا الكائن الاله الحقيقى « تونبايتى » ، فقد أشعل النار فى

كل المروج فى بداية الخريف أو فى منتصـــفه ، بحيث هلكت النباتات والاشجار وهلكت معها الحيوانات التى كان يعتمد عليها الهنــود فى معيشتهم ، كما أخذوا يتراجعون أمام ألسنة النيران الى شـــواطىء الأنهار • ولما كانت الارض لا تزال مغلفة بدخان النيران ، فقد بذلوا قصارى جهدهم فى اصطياد السمك من الانهار لكى يتغذوا به • وتحير « أجوارا ــ تونبا » عندما رأى أن بنى الانسان أوشكوا على الهروب من مخالبه ، وعمد الى حيلة أخرى يحقق بها دسيسته اللعينة ضد الجنس البشرى ، فجعل الامطار تهطل من السماء ، على أمل أن يغرق كل أفراد قبيلة « تشيريجوانو » وكاد « أجورا ــ تونبا » أن ينجح فى مهمته • لولا أن سعى التشيريجوانيون لحسن حظهم ، فى احباط محاولته • فقد أخذوا يبحثون ، بناء على اشارة تلقوها من الاله الحقيقى «تونبايتى» ، عن ورقة عريضة من نبات « الماتى » ووضعوا فوقها طفلين من أم واحدة أحدهما ذكر والاخر أنثى وجعلوا القارب الصغير يطفوا بنزلائه فوق صفحة الماء • واستمرت الامطار تهطل فى غزارة ، فعلا الفيضان حتى غمر الارض الى مسافات بعيدة ، وأغرق « الشيريجوانيين » عن آخرهم عدا ورقة نبات الماتى التى كان يطفو فوقها الطفلان • على أن المطـــر كف عن السقوط بعد ذلك ، وانخفض الفيضـــان • تاركا وراءه كتلا من الطين • وعند ذاك ترك الطفلان قاربهما الصغير ، لانهما لو كانا قد ظلا يطفوان فوقه ، لكانا قد هلكا من البرد والجــوع • ومن الطبيعى أن الطوفان لم يغرق السمك وسائر الحيوانات المائية ، بل انهـا ظلت تسبح فوق الماء ، وأصبحت ملائمة لان تكون طعاما شهيا للطفلين • ولكن كيف كان يتسنى للطفلين أن يطهيا السمك الذى اصطاداه ؟ هذه كانت مشكلتيهما ، لان كل النيران كانت قد خمدت بسبب الطوفان • على أن الضفدع البرى جاء لنجدتهما فى اللحظة الحاسمة • وقد كان هذا الحيوان الحكيم قد اتخذ حيطته قبل أن يغرق الطوفان الارض ، ولجأ الى جحر بعد أن أخذ فى فمه بعض قطع الفحم المتقــدة ، وظل ينفخ فيهــا طوال الوقت حتى تظل مشتعلة • فلما رأى أن سطح الارض قد جف مرة اخرى ، قفزمن جحره والفحم المتقد فى فمه ، وجــاء مباشرة الى

الطفلين وقدم لهما هدية النار • ومن ثم تمكن الطفلان من شــواء السمك واستدفأ جسماهما المرتعشان من البرد وكبر الطفـــلان على مر الزمن وأنجبا أطفالا تناسلت منها قبيلة « تشيرينجوانو » بأسرها ••

ويحكى أهالى « تيراديل نيجو » التى تقع فى أقصى جنوب أمريكا الجنوبية حكاية غريبة وغامضة عن الطـوفان الكبير •فهم يقولون : ان الشمس غطست فى الماء ففاضت المياه بشدة حتى أغرقت الارض جميعا عدا جبلا واحدا شاهقا للغاية • والى هذا الجبل لجـــأ قلة من الناس استطاعت أن تنجو من الطوفان •

١٣ ــ حكايات عن طوفان كبير فى امريكا الوسطى والمكسيك :

وقد عرف الهنود الذين سكنوا بالقرب من « باناما » حكاية طوفان نوح على نحو ما ، وقالوا ان رجلا واحد هرب من هذا الطوفان فى مركب مع زوجته وأولاده • قد تناسل الجنس البشرى كله من هذه الاسرة وعمر الارض » كما اعتقد هنود « نيكاراجوا » أنه بعد أن تمت عملية خلق الكون ، ابتلى العالم بطوفان أصابه بالدمار ، فاضطرت الآلهة أن تخلق الانسان والحيوان مرة أخرى •

ويقول المؤرخ الايطالى « كلافيجيرو » ، « ان المكسيكيين ، شأنهم شأن الامم المتحضرة الاخرى ، لهم تراثهم الروائى الواضح عن خلق العالم ، وعن الطوفان الذى أغرق العالم ، وعن اختلاط الالسنة وتفرق الناس ، وان يكن هذا التراث ينحو منحى خرافى • وقـد صـــور المكسيكيون كل هذه الحوادث بحق فى فنهم التصويرى • فقد رووا أن الطوفان أغرق الجنس البشرى كله ، لم ينج منه سوى رجل واحد كان يدعى « كوكس كوكس » ، (ويطلق عليه البعض اسم « تيوسيباكتيلى ») وامرأة واحدة توعى « اكسوشيكوتزال » • وقد نجا هذان من الطوفان بعد أن لجآ الى مركب صغير ذى ثلاثة صوار • وبعد أن استقر هذان على قمة جبل يسمى جبل « كولهواكان » أنجبا أولادا ، ولكنهم كانوا جميعا مصابين بالصمم • وظلوا على هذا النحو حتى جـاءهم طائر

من شجرة عالية ، وحمل اليهم لغات كانت مختلفــة كل الاختلاف الى درجـــة أنه لم يكن بعضـــهم يفهم البعض الآخر • وقـد ادعى « التلاسكالانيون » أن الناس الذين نجوا من الطوفان مسخوا فى شكل قردة ولكنهم أخذوا يستعيدون بعد ذلك لغتهم ومداركهم تدريجيا •

وقد رويت كذلك عن أهالى « ميشوواكان » وهو اقليم فى المكسيك حكاية عن الطوفان ذكر فيها أن رجلا كان يدعى « تيزبى » لجـأ الى سفينة كبيرة مع زوجته وأولاده عندما بدأ الطوفان يفيض عل ىالبلاد ، وأخذ معه عددا من الحيوانات وكمية من الحبوب تكفى لتزويد الحياة بالخير بعد انتهاء الطوفان • وبعد أن انحسر الماء ، أطلق الرجل نسرا فى الفضاء • فلما صادف النسر رمما أثارت شهيته ، لم يعد الى السفينة مرة أخرى • فأطلق الرجل طيورا أخرى ، ولكنها لم تعد كذلك • وفى النهاية أطلق طائرا رنانا ، فعاد وفى منقاره فرع أخضر • ومن الواضح تماما أن اطلاق الطيور خارج السفينة بعد انتهاء الطوفان ، يعد أثرا لحكاية نوح وارساله الغراب والحمامة ، تلك الحكاية التى ربما سمعها الاهــالى عن المبشرين الاجانب •

وكذلك يروى الهنود « الهويشوليون » الذين يســكنون المنطقة الجبلية الواقعة بالقرب من « سانت كاترينا » فى غرب المكسيك أسطورة عن الطوفان • فهم يقولون ان هنديا من قبيلتهم كان يقطع الاشجار ليعد حقلا للزراعة ، ولكنه كان يصاب بكدر فى اليوم التالى عندما يجــد أن الاشجار التى قطعها بالامس قد نمت مرة أخرى على النحو الذى كانت عليه • فاستشاط الرجل غضبا ، كما أنه مل هذا العمــل الذى لم يكن يؤدى الى نتيجة • ولكنه قرر فى اليوم الخامس أن يعاود المحاولة ، وأن يستكشف حقيقة هذا الامر • وفى الحال برزت له امرأة عجـــوز من وسط الغابة تحمل فى يدها عصا • ولم تكن هذه المرأة سوى « الام الكبرى ناكاوى » ، وهى الهة الارض التى تنبت كل نبات أخضر من باطن الارض المظلم • على أن هذا الرجل لم يكن يعرفها • وأخذت المــرأة العجوز تشير بعصاها ذات اليمين وذات الشمال ، والى أعلى والى أسفل

وفى الحال نهضت الاشجار الهاوية وانتصبت كما كانت • وعند ذاك أدرك الرجل السبب فى نمو الاشجار مرة أخرى ، رغم كل محاولاته فى ازالتها وتطهير الارض منها • وعند ذاك قال الرجل لتلك المـــرأة فى غضب : « أأنت اذن الذى تضيعين جهودى هباء طوال الوقت ؟ » فأجابته المرأة قائلة « نعم أنا الذى أفعل هذا ، لاننى أود أن أتحـدث اليك » • ثم أخبرته أنه يقوم بعمل لا جدوى وراءه ، لان هناك فيضانا كبيرا سوف يغمر الارض فى خلال خمسة أيام على الاكثر • وسوف تصحب الطوفان رياح حادة حدة الفلفل الحار وتسبب لك السعال • فاصنع لك تابوتا من خشب شجرة التين فى قدر قامتك واجعل له غطاء محكما • ثم خذ معك خمس حبات من الذرة من كل لون ، ومثلها من البقول ، وخذ معك كذلك شعلة من النار ، وخمسة فروع من الغضا لتغذيتها ، وخذ أيضا كلبة سوداء » • وفعل الرجل ما نصحته به المرأة ، وفى خلال خمسة أيام كان قد أعدالصندوق ووضعفيه الاشياء التى ذكرتهـــا له المرأة ، ثم دخل الصندوق بصحبة الكلبة السوداء • وعنـــد ذاك غطت المرأة الصـــندوق وسدت شقوقه بالغراء ، وطلبت منه أن يشير الى الشقوق التى يراها من الداخل حتى تسدها بالغراء كذلك قبل أن يطفو الصندوق فوق الماء • وبعد أن أحكمت المرأة طلاء الصندوق بحيث لم يعد ينفذ فيه الماء والهواء صعدت الى سطحه وجلست فوقه بعد أن وضعت ببغاء على كتفها • وظل الصندوق يطفو فوق سطح الماء على هذا النحو طيلة أعوام خمسة • ففى العام الاول طفا جهة الجنوب ، وفى العام الثانى طفا جهة الشمال ، وفى الثالث طفا جهة الغرب وفى الرابع طفا جهة الشرق • فلما كان العام الخامس استقر الصندوق فوق الماء بعد أن غمـر الطـوفان الارض جميعا • وفى العام التالى لذلك انحسر الطوفان ، ورسا الصندوق على جبل بجوار « سانتا كاترينا » حيث لايزال يمكن رؤيته حتى اليوم • وعند ذلك رفع الرجل غطاء الصندوق فوجد أن الارض مازال يغرقها الطوفان • على أن الببغاوات بدأت تعمل فى همة فى نقر الجبال بمناقيرها حتى حفرت فيها أودية تدفقت اليها المياه التى تشعبت الى خمسة بحور • فلما جفت الارض ، أخذت الاشجار والحشائش تنمو مرة أخرى ، أما المرأة فقد

تحولت الى ريح واختفت • ثم استأنف الرجل عمله الذى كان قد اعترضه الطوفان وأخذ يقتلع الاشجار لكى يعد حقلا للزراعة ، وهناك عاش مع الكلبة فى كهف واحد ، فكان يخرج كل صباح الى العمل ويعود الى كهفه فى المساء • أما الكلبة فلم تكن تغادر الكهف طول الوقت • وعندما كان يعود الرجل الى بيته كان يجد الكعك معدا له ، فدفعه الشغف لان يعرف صانع هذا الكعك • وبعد مضى خمسة أيام ، اختبأ وراء بعض الشجيرات بجوار الكهف وأخذ يراقب ما يحدث • فرأى أن الكلبة خلعت جلدها وعلقته ، وركعت وهى فى هيئة امراة وأخذت تطحن الحب لتصنع منه الكعك • فاقترب الرجل خلفها خلسة وانتزع الرداء ورماه فى النار • فصرخت المرأة وأخذت تعول كالكلاب وهى تقول : الان « لقد حرقت ردائى » • ولكن الرجل أخذ بعض الدقيق الممزوج بالماء الذى كانت المرأة قد أعدته للكعك ، وغسل لها رأسها فيه • وتزوجها الرجل وأنجب منها أولادا كثيرين تزوجوا بعد ذلك • وبذلك عمرت الارض بالناس الذين سكنوا الكهوف •

ويحكى « الهنود الكوراويون » ، وهم قبيلة تدين بالمسيحية اسما وتتاخم حدودها حدود « الهويشوليون » فى الغرب ، حكاية شبيهة بالحكاية السالفة ، اذ وردت فيها حادثة قاطع الاخشاب الذى حذرته امرأة من حدوث الطوفان ، والذى تزوج كلبة تحولت الى امرأة بعد أن انحسر الطوفان • ووجه الاختلاف بين الروايتين هو أن الرجل فى الرواية الثانية طلب منه أن يأخذ معه فى السفينة طائر النقار ، وطائر زمار الرمل وببغاء الى جانب الكلبة • وعندما بدأ الطوفان ، استقل الرجل سفينته عند منتصف الليل • فلما انحسر الطوفان ، مكث الرجل فى السفينة خمسة أيام أخرى ، وأرسلزمار الرمل ليرى ما اذا كان من الممكن السير على الارض • فطار الطائر وعاد وهو يصرخ « أى — وى — وى » • ففهم الرجل من عبارة الطائر أن الارض لا تزال مبتلة فانتظر خمسة أيام أخرى ، ثم أرسل طائر النقار ليرى ما اذا كانت الاشجار قد جفت وتماسكت• فطار الطائر ووقفعلى شجرة ، ودفع منقاره فى خشبها وأخذ

يهز رأسه يمنة ويسرة ، لكن الخشب كان مبتلا بالمـــاء بحيث انه لم يستطع أن ينتزع منقاره من الخشب • وأخيرا شد منقاره فى عنف الى درجة أنه فقد توازنه وسقط على الارض • ثم عاد الى السفينة وهو يصيح « تشو بى ــ تشو بى » • ففهم الرجل من عبارته أن الارض لا تزال مبتلة• فانتظر خمسة أيام أخرى أطلق من بعدها زمار الرمل المرقط ، وكانت الارض قد جفت هذه المرة بحيث لم تغص أرجل الطائر فى الطين• فعاد وأخبر الرجلبأن كل شىء اصــــبح على ما يرام • فترك الرجل السفينة وخطا بحذر خارجها حتى أطمـــأن الى أن الارض أصبحت مستوية وجافة •

وتحكى رواية أخرى تروى عن « الهنود الكوراييين » وتقـــع فى مقتطفات ، عن هرب الذين نجوا من الطوفان فى قارب •فلما انحسر الطوفان اطلق الاله النسر ليرى ما اذا كانت الارض قد جفت • ولكن النسر لم يعد الى القارب لانه انشغل بافتراس أجساد الغرقى • فغضب الاله من فعلة النسر ، وأحل به اللعنة ، فجعل لونه أسود بعد أن كان أبيض ، ولم يترك له سوى علامة سوداء فى طرفى جناحيه حتى يتعرف الناس منها على اللون الذى كان عليه قبل حدوث الطوفان • ثم أرسل الاله بعـــد ذلك حمامة مطوقة لكى تستكشف أحوال الارض • فعادت الحمامة وأخبرته بأن الارض قد جفت وان كانت الانهار لا تزال تفيض • عند ذاك أمر الاله صنوف الحيوان أن تبتلع المياه • فجاءت الطيور والحيوانات جميعا لتشرب من المياه ، عدا الحمامة الباكية (بالومــا الورونا) التى تخلفت عنها • ولهذا فان هذه الحمامة لاتزال تخرج كل يوم عند المساء لتشرب ، لانها تخجل من أن يبصرها أحد وهى تشرب فى وضح النهار ، أما طوال اليوم فهى تنوح وتبكى • ويبدو أن موضوع الطيور فى هذه الاساطير الكورايية ، وبصفة خاصة ذلك الذى يحكى عن دور النسر والغراب فى هذه الحادثة ، يكشف بوضوح عن تأثير التعاليم التبشيرية •

١٤ ــ حكايات عن الطوفان الكبير فى أمريكا الشمالية :

ويحكى « البابـاجو » الذين يسكنون فى جنوب غرب « أريزونا » أن

« الروح الكبير » خلق الارض وسائر الكائنات الحيـــة قبل ان يخلق الانسان • ثم هبط الى الارض وأخذ يحفر فى الارض فعثر على بعض الاوانى الفخارية ، فحملها معه الى السماء وجعل يقذفهــا من عل فى الجحــر الذى قــد حفــره • فجــاءه البطل « مونتيزوما » على الفور كما جاءت القبائل الهندية تباعا لمعـــاونته • وأخـــيرا جـــاء « الاباتشيون » يسرعون الخطى وهم فى هيئتهم على نحو ما خلقوا • فى هذه الايام الاولى لخلق الكون كان الناس يعيشون فى سعادة وسلام وقد كانت الشمس أقرب الى الارض مما هى عليه الان • ولذلك فقد كانت فصول السنة متساوية ، كما كان الناس فى غير حاجة الى الملابس وقد كان الناس والحيوانات يحب بعضهم بعضا ، اذ جمعت بينهم لغة واحدة فى رباط من الاخوة • ثم حدثت بعد ذلك كارثة مفــزعة وضعت حدا لهذه الايام السعيدة ، فقد حل بالارض طوفان أغرق كل كائن حى فيما عدا البطل « مونتيزوما » وصديقه الذئب اللذين تمكنا من الهرب • ذلك أن الذئب كان قد تنبأ بحدوث الطوفان قبل وقـــوعه ، وأخبـــر « مونتيزوما » بذلك فصنع الاخير مركبا ووضعه معدا للطوارىء على قمة جبل « سانتاروزا » ، وكذلك صنع الذئب قاربا له ، بأن أخذ يقضم قصبة من الخيزران عند شاطىء النهر ودخل فيها بعد أن طلاها بالمطاط • فلما أخذت الميــاه ترتفع اســتقل كل منهما مركبه وبذلك أنقــذا • فلما انتهى الطوفان تقابلا على الارض الجافة • ولما كان الرجل شغوفا لان يعرف حجم الارض التى جفت ، فقد أرسل الذئب ليستعلم له عن هذا الامر • وبعد فترة عاد وأخبره بأنه لم يجد أثرا للماء جهة الشمال على الرغم من أنه أخذ يتجول حتى أعياه التعب ، فى حين أنه رأى البحر جهة الشرق والمغرب والجنوب • وفى هذه الاثناء كان الروح الكبير قد عمر الارض بمساعدة « مونتيزوما » بالانسان والحيوان •

وتحكى قبيلة « بيما » ، وهى قبيلة مجاورة « للباباجويين » وترتبط بهم بصلة قرابة ، أن شخصا بعينه يدعى « تشيووتماهكى » ومعنـاه « نبى الارض » ، خلق الارض والانسان • وكان لهذا الخالق ولد يدعى « سيزويكها » كان يعيش فى وادى « جيلا » ، بعد أن اصبحت الارض تغص بالناس • وكان يسكن فى هذا الوادى نفسه وفى ذلك الوقت بعينه نبى عظيم نسى اسمه فيما بعد • وذات ليلة بينما كان هذا النبى نائما ، سمع صوتا خارج بابه أيقظه من نومه • فلما فتح الباب لم يجد أمامـه سوى نسر كبير خاطبه قائلا : « هيا استيقظ وانظر حولك ، فلقد حـل الطوفان بالارض » • ولكن النبى ضحك مستهزئا به ، ولف رداءه حوله ونام مرة اخرى • ومرة أخرى جاءه النسر وحذره ، ولكنه لم يعبأ به • وأعاد الطائر المتعب عليه تحذيره للمرة الثالثـة ، وأخبره أن وادى « جيلا » سوف يغرقه الطوفان ، ولكن هذا التحذير كله لم يجد عند الرجل آذانا صاغية • وفى هذه الليلة نفسها بدأ الطوفان يغرق الارض • وفى اليوم التالى لم يكن هناك وجود لاى كائن حى عدا رجلا واحدا ، ان كان يعد رجلا بحق ، لانه كان «سيزويكها» ابن الخالق الذى أنقذ نفسه بأن طفا على كرة من المطاط أو الراتنج • فلما انخفض الطوفان رسا بقاربه بالقرب من منبع نهر الملح حيث أقام فى كهف على الجبل • ولايزال هذا الكهف موجودا حتى اليوم ، وكذلك العـدد التى كان « سيزويكها » يستخدمها فى حياته • وعلى الرغم من أن النسر الكبير حذر «سيزويكها» قبل وقوع الطوفان حتى ينجو بحياته ، الا أنه غضب من النسر كل الغضب لسبب أو لاخر • ومن ثم فقد تسلق الجبل بحبل بعد أن انتهى الطوفان ، حتى وصل الى مكان النسر وقتله فى وكره • ثم أبصر فى هذا الكور ومن حوله عددا هائلا من أجساد بشرية متراكمة عفنة ، كان النسر قد حملها الى وكره وانهال عليها يفترسها • فأعاد «سيزويكها» الحياة الى هذه الاجساد وعمر بها الارض •

أما « الهنود الأكاجشيميون » الذين يسكنون بالقرب من « سانت جوان كايسترانو » فى كاليفورنيا « فلم يكونوا يجهلون كلية حكايـــة

الطرفان الذى أصاب العــالم • على أننى لم أســتطع أن أتبين على الاطلاق كيف وصلتهم هذه الحكاية بعينها ومن أى مصدر سمعوها • والى هذه الحكاية تشير بعض أغانيهم • وهم يروون أن البحر فاض فى زمن بالغ فى القدم وأغرق السهول وملأ الوديان حتى غطى الجبال • ومن ثم فقد هلك الجنس البشرى كله وصنوف الحيوان ، ولم ينج من هؤلاء جميعا سوى عدد قليل من النــاس والحيــوان لجــأوا الى جبل شاهق لم تصل اليه الميـــاه ••

وكذلك يحكى « الهنود اللويزينيون » الذين يسكنون « كاليفورنيا الجنوبية » حكاية عن طوفان غطى الجبال العالية وأغرق معظم الناس ، ولم ينج منه سوى قليل من الناس كانوا قد لجأوا الى أكمة تقع بالقرب أما الهنود فيسمونه الآن « كاتوتا » • وقد غرق هذا المكان « مورا » ، أما اهنود فيسمونة الآن « كاتوتا » • وقد غرق هذا المكان بأكمله تحت سطح الماء فيما عدا هذه الأكمة التى أقام فيها الهنـــود حتى انحسر الطوفان • ويمكنك أن ترى حتى هذا اليوم على قمة التل الصغير أكواما من أصداف البحر والقش والرماد والأحجار بعضها بجانب بعض ، وهى تشير الى المكان الذى كان يطهو فيه الهنود طعامهم • أمـــا الأصداف فهى أصداف السمك الصدفى الذى كانوا يأكلونه ، وأما الرماد والأحجار فقد تخلفت عن مواقدهم : ويضيف الكاتب الذى حكى هذه الرواية فيقول : « وتحتوى التلال القريبة من « ديل مار » ، وأماكن أخرى تقع بمحاذاة الساحل على أكوام كثيرة هائلة من أصداف البحر من النوع الذى مازال موجودا على الشاطىء • وما زال « اللويزونيون » يغنون أغنية الطوفان التى يرد فيها ذكر أكمة « كاتوتا » •

وقد حكت امرأة هندية من قبيلة « سميث ريفر » التى تســكن فى « كاليفورنيا » ، الرواية التالية عن الطوفان : لقد هطلت مياه غزيرة فى زمن من الأزمنة ، وظلت تهطل حتى غمرت الوديان • ولجأ الهنود الى النجاد المرتفعة • ولكن المياه ظلت ترتفع حتى أغرقت هؤلاء الهنود جميعا عدا

رجلا وامرأة تسلقا الى أعلى قمة وبذلك نجيا من الغرق • وقد عاش هذان على السمك بعد طهيه تحت ابطيهما ، اذ لم يتمكنا من اشعال النار لأن كل شيء كان مبتلا للغاية • وبعد ذلك أخذت المياه فى الانخفاض بعد أن أغرقت كل من عليها عدا هذا الرجل وتلك المرأة اللذين تناسل عنهما كل الهنود الذين يعيشون اليوم على وجه الأرض • وقد تحولت أزواج الهنود الذين غرقوا فى الطوفان الى غزلان ودببة وثعابين وحشرات وأيائل وغير ذلك من صنوف الحيوان التى عمرت بها الأرض كما عمرت بالانسان •

وقد كانت حكاية الطوفان تروى ، وفقا لقول « دى برانتز » مؤرخ « لويزايانا » الفرنسى المتقدم ، بين قبيلة « ناتشيز » ، وهى قبيلة هندية كانت تسكن عند أعالى نهر المسيسبى • فيخبرنا هذا المؤرخ بأنه سأل حارس المعبد الذى يحتفظ فيه فى ورع دينى ، بالنار المقدسة مشتعلة على الدوام ، عن موضوع الطوفان ، فأخبره بأن الكلمة القديمة علمت الهنود الحمر جميعا أن كل الناس على وجه التقريب غرقوا فى الطوفان ، سوى عدد قليل منهم لجأوا الى جبل شاهق للغاية • وفيما عدا هذا فهو لايعرف شيئا عن هذا الموضوع سوى أن الذين أنقذوا عمروا الأرض من بعد » • ويضيف « دى برانتز » الى هذا قائلا « وحيث اننى قد استمعت لهذا القول نفسه من شعوب أخرى ، فقد دفعنى هذا لأن أتأكد من أن كل الأهالى كانوا ينظرون الى هذه الحادثة النظرة نفسها وأنهم لم يحتفظوا بأية ذكرى لطوفان نوح • ولم أتعجب لهذا الأمر كثيرا ، حيث ان الاغريق أنفسهم ، رغم علمهم الواسع ، لم تكن معلوماتهم حول هذا الموضوع أفضل من معلومات هذه الشعوب • بل اننا نحن لم نكن لنعرف أكثر منهم ، لو لم نقرأ عن هذا الموضوع فى الكتابات المقدسة » • ثم يحكى المؤرخ الفرنسى الرواية اللويزيانية فى مكان آخر بطريقة أكثر اكتمالا فيقول : لقد ذكر الأهالى أن مطرا غزيرا هطل من السماء لمدة طويلة حتى غمر الأرض

عدا جبلا شاهقا لجـأ اليه بعض النـاس هروبا من الطوفان • ولمـا كانت النار قد خمدت جميعها من على وجه الأرض ، فان طائرا أحمر اللون يسمى « كويى — أوبى » (وهو الطائر الذى يسمى فى «لويزيانا» بالطائر المغرد) أحضر النار من السماء • وقد أدركت من حديث هؤلاء الناس ، أنهم كادوا ينسون كلية الرواية التاريخية عن الطوفان » •

ويروى الهنود « الماندانيون » رواية عن الطوفان الذى هلـك فيه الجنس البشرى كله عدا رجـلا واحدا هرب فى قارب عنـد جبـل يقع فى الغرب • ومن ثم فان هؤلاء يقومون كل عـام بتأدية طقوس معينة فى ذكرى انتهاء الطوفان التى يسمونها « مى — نى — رو — كا — ها — شا » أى انخفاض المياه أو استقرارها • وتؤدى هذه الطقوس عندما تمتد أوراق الصفصاف امتدادا كاملا على طول شواطىء النهر • وسبب هذا ، وفقا لروايتهم ، أن الغصن الذى أحضره الطائر كان غصنا من شجر الصفصاف • وأما الطائر الذى أحضر هذا الغصن ، فهـو اليمامة أو الحمامة النائحة • وكثيرا ما يقف هذا الحمام عند جوانب أكواخهم المغطاة بالتراب ، دون أن يتعرض لـه أحد من الهنود لايذائه أو قتله • بل انهم قد مرنوا كلابهم على عدم ازعاجه • وقد كان سكان قرية « مادان » يحرصون على الاحتفاظ بهيكل خشبى يمثل القارب الذى نجا فيه الرجل الوحيد من الطوفان • ويقول الرسام « كاتالين » ان فى وسط القرية ميدانا يبلغ قطره مائة وخمسين قدما ، يحتفظ بـه على الدوام خاليا نظيفا بوصفه مكانا شعبيا تقام فيه الأعياد والاحتفالات الى غير ذلك • وحول هذا الميدان تلتف أكواخهم ذات الشكل المخروطى ويلتصق بعضها بجانب بعض متجهة أبوابها جهة هذا المكان الشعبى وفى وسط هذا الميدان الذى مهد فأصـبح كالرصيف الصلب ، حاجـز (اشبه بالبرميـل المرتكز على حافته) من الالواح الخشبية ، تحيط به أطواق يبلغ ارتفاعها ما يقرب من ثمانية أو تسعة أقدام ، ويحافـظ عليها الأهالى فى ورع دينى ، ويقومون على صيانتها من عام لآخر حتى تظل نظيفة خالية من الخدوش والعلامات • وهم يطلقون عليها اسـم

« القارب الكبير » • ومما لاشك فيه أن هذه الأطواق تعد تجسيدا رمزيا لجزء من تاريخهم الشعبى عن حادثة الطوفان التى يبدو تماما من هذا الهيكل ومن الملامح الأخرى العديدة لهذا الاحتفال الكبير ، أن الأهالى قد عرفوها بشكل أو بآخر ويحاولون تخليدها عن طريق تذكير الناس بها بطريقة حية • ويعد هذا الموضع الخرافى ، نظرا لموقعه المتوسط فى القرية ، مكان تجمع الأهالى جميعا • ففيه يقومون بتقديم واجبات التقديس فى المناسبات والأعياد المختلفة والممارسات الدينية طوال السنة » •

وفى الاحتفال السنوى الذى حضره « كاتالين » فى ذكرى حادثة الطوفان ، شخص الرجل الوحيد الذى نجا من الطوفان واسمه « نو ــ موهك ــ موك ــ آناه » فى هيئة مهرج يرتدى جلد ذئب أبيض يتدلى على كتفية ، بينما يغطى رأسه بغطاء زاه لجلدى غرابين ، ويحمل فى يده اليمنى غليونا طويلا • ويدخل هذا المهرج القرية من جهة المروج ويقترب من مكان العلاج أو كما يعرف بالمكان السرى • وهو يملك وسائل فتح هذا المكان الذى يحكم اغلاقه طوال السنة ، ولا يفتح الا من أجل تأدية الطقوس الدينية • ثم يتجول هذا المهرج طوال اليوم فى القرية ، ويقف أمام كل كوخ ويصيح حتى يفتح له صاحب الكوخ ويسأله عمن هو ، وعن سبب مجيئه • وعند ذاك يجيبه برواية حكاية الكارثة المحزنة التى أغرق فيها الفيضان الأرض ويقول : « انه الشخص الوحيد الذى نجا من هذه الكارثة التى انتابت العالم وأنه رسا بسفينته الكبيرة على جبل شاهق يقع جهة الغرب • ومن ثم فهو فى حاجة لأن يقدم لــه صاحب كل كوخ آلة حادة هدية لتقدم ضحية للماء ، لأنهم ان لم يفعلوا هذا فسوف تصاب الأرض بطوفان آخر لن ينجو منه أحد كما نجا صاحب السفينة الكبيرة التى صنعت ذات يوم بمثل هذه الآلات الحادة» • وبعد أن يزور هذا المهرج كل كوخ فى القرية طوال اليوم ، ويتسلم من صاحب كل كوخ سكينا أو فأسا أو أية آلة حادة أخرى ، يضع هذه الاشياء فى مكان العلاج حيث تترك هناك حتى عصر اليوم الأخير من الاحتفال • وفى نهاية الطقوس ترمى هذه الآلات فى أعماق النهر من

شاطىء يرتفع ثلاثين قدما فى حضرة أهل القرية جميعا • « وهذه الآلات تقدم بدون شك ضحية لروح الماء ، ومن ثم فهى لا تسترد مرة أخرى »• ومن بين طقوس الاحتفالات التى يقوم بها « الماندانيون » فى عيد الربيع، رقصة الثيران ، ويرقصها رجال متنكرون فى هيئة الجاموس ، والهدف من هذه الطقوس أن تمدهم الطبيعة بنتاج وافر من الجاموس فى العام التالى • وفضلا على هذا فان الشباب يعرض نفسه اختيارا لأنواع من العذاب المبرح حتى يرضى عنهم « الروح الكبير » • على أنه لا يتضح فى كتابات الكتاب الذين اعتمدنا عليهم ، الى أى حد تتصل هذه الطقوس الغريبة الغامضة بحادثة الطوفان •

وقد كان يسمى هذا الاحتفال عند المياندانيين باسم « أو — كى — با » • وكان « احتفالا دينيا يقام كل عام • ولم يكن هذا الاحتفال بالنسبة لهذا الشعب الجاهل الذى يؤمن بالخرافات مجرد متعة فى حياتهم ، بل كان جزءا من كيانهم بحق ، ذلك أن تراثهم المروى ، وهو بالنسبة لهم تاريخهم الوحيد ، قد أورثهم الاعتقاد فى أن شعائر هذا الاحتفال تزيد من ثروتهم فى الجاموس الذى يعتمدون عليه فى معيشتهم، وان اهمال هذا الاحتفال السنوى بما يتضمنة من تقديم الضحية للماء ، قد يتسبب فى حدوث الكارثة مرة أخرى ، تلك الكارثة التى حلت بهم ذات مرة ، كما أخبرهم تراثهم المروى ، وأهلكت الجنس البشرى بأسره ، عدا رجلا واحدا استطاع أن يرسو بمركبه على جبل شاهق يقع جهة الغرب • على أنه ليس من الغريب أن تسمع هذه الرواية من قبيلة « ماندان » ، اذ ليست هناك قبيلة من القبائل المختلفة التى زرتها فى أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو الوسطى والتى يبلغ عددها مائة وعشرين قبيلة — لم ترو لى حكايات واضحة أو غامضة عن مثل هذه الكارثة التى نجا منها شخص أو ثلاثة أشخاص أو ثمانية، بأن لجأوا الى الجبال العالية • وبعض هذه القبائل التى تسكن عند سفح الجبال الصخرية وفى سهول « فنزويلا » و « بامبا ديل ساكرامنتو » فى أمريكا الجنوبية ، يحج كل عام الى هذه القمم الوهمية التى لجأ اليها من

أنقذ من الطوفان فى سفينة أو ما أشبه ذلك وهناك يصلون الى « الروح الكبير » ويقدمون له التضحيات وفقا للتعاليم الملغزة لرجالهم العارفين بأسرار الدين ، حتى يؤكدوا حصانتهم ضد مثـل هذه الكارثة •

وقد قيل : ان « الهنود الشيروكيين » يروون حكاية عن الطوفـان، مؤداها أن الأرض ظلت غارقة تحت الطوفان حتى هلك الجنس البشرى بأسره عدا اسرة واحدة • وقد كان كلب قد أخبر سيدة بهذه الكارثة قبل حدوثها ، فقد حدث أن هذا الكلب الحصيف كان يذهب يوما بعـد يوم الى شواطىء النهر ، حيث يقف ويحملق فى الماء وينبح نباحا مثيرا للشفقة• فلما نهره سيده وأمره أن يعود الى البيت فتح الكلب فاه وحذر سيده من الخطر المحدق به وقال له : « يجب عليك أن تبنى مركبا وتختزن فيه كل ما يمكن أن تدخره ، لان مياها غزيرة سوف تهطل حتى تغرق الأرض» • ثم ختم الكلب نبوءته بأن أخبر سيده بأن نجاته تتوقف على رمى سيده لـه هو نفسه ــ أى الكلب ــ فى الماء • ثم رجاه أن ينظر الى خلف رقبته لكى يرى علامة صدق قوله • فنظر الرجل خلف رقبة الكلب فرأى حقا أنها مسلوخة جرداء وقد برز منها اللحم والعظم • وعند ذاك صدق الرجل كلبه ، وعمل بنصيحة هذا الحيوان المخلص وبذلك نجا هو واسرته التى تناسلت عنها شعوب الأرض التى تعييش عليها اليوم •

وتنتشر حكايات الطوفان الكبير انتشارا واسعا بين الهنود الذين ينتمون الى أصـل « الجونكوين » الكبـير • كما أن هـذه الحكايات تتشابه مع بعضها البعض فى بعض التفاصيل • فقبيلة « ديلاوارى » وهى قبيلة تنتمى الى أصل « الجو نكوين » وكانت تسكن حول خليج « ديلاوارى » ، روت حكاية عن الطوفان الذى أغرق الأرض جميعا ، ولم ينج منه سوى بعض أفراد قلائل امتطوا ظهر سلحفاة بلغت من الكبر عتيا الى درجة أن ظهرها العظمى أصبح رخـوا مثل شاطىء الجدول • وبينما كانوا يطفون فى يأس على ظهر السلحفاة ، طـار طائر مائى أمامهم ، فرجوه أن يغطس فى الماء ، ويحضر لهم الأرض الغرقى من أعماق المياة • فغطس الطائر ولكنه لم يهتد الى قاع الماء • فطار

بعد ذلك بعيدا ثم عاد وأحضر معه بعض التراب فى منقاره • فسارت السلحفاة فى اثره حتى وصلت الى قطعة من الأرض الجافة • فنزل الناس من على ظهرها وسكنوا هــذه الأرض وعمروها المياه •

وكذلك حكى « المونتانايون » وهم مجموعة من القبائل الهندية التى كانت تسكن فى كندا ، وهم ينتمون بالمثل الى أصل « الجو نكوين » الكبير ، حكت لمبشر يسوعى عاش بينهم فى زمن مبكر ، أن كائنا قويا ، أطلقوا عليه اسم « ميسو » ، أعاد الحياة الى العالم ، بعد أن كان الطوفان قد قضى عليها • فقد خرج « مسو » ذات يوم للصــيد ومعه ذئاب بدلا من كلاب الصيد • فغاصت الذئاب فى بحيرة واختفت • وأخذ « مسو »يبحث عنها فى كل مكان ، حتى أخبره طائر بأنه قــد رأى الذئاب الضالة فى عرض البحيرة • فغاص « مسو » فى الماء لينقذها • ولكن البحيرة فاضت حتى غمرت المياه الأرض وأغرقت العالم • فدهش « مسو » لما حدث وأرسل غرابا ليبحث عن كتلة من الطين ليعيد عن طريقها خلق الأرض ، ولكن الغراب لم يجد أثرا للطين • فأرسل بعد ذلك كلب البحر ليقوم بنفس المهمة ، فغاص فى الماء ولم يحضر معه شيئا • وفى النهاية أرسل « مسو » فأر المســك فأحضر معه كتــلة من الطين اســتخدمها فى اعادة خلق الأرض التى نعيش عليهــا اليـــوم • ثم صوب سهاما الى سيقان الاشجار ، فتحولت السهام الى التوالى الى أغصان • ثم انتقم بعد ذلك ممن أغرق ذئابه فى البحيرة ، وتزوج فأر المسك وأنجب أولادا تناسلوا فيما بعد وعمروا الأرض •

وفى هذه الحكاية لا نجد ذكرا لانسان • ويمكننا أن نفترض بناء على الدور الذى لعبته الحيوانات فيهــا ، أن الطوفان حدث فى عصور مبكرة لم تكن الحياة قد دبت فيها بعد على وجه الأرض • على أن هناك مبشرا كاثوليكيا آخر أخبرنا بعــد ذلك بقرنين من الزمان أن « المونتانيين » الذين يسكنون ولاية « خليج هدسون » يروون حكاية عن الطوفــان الكبير الذى أغرق العالم ، ولم ينج من هذا الطوفان سوى أربعـــة أشخاص ومعهم بعض الحيوانات والطيور ، وقد لجأوا جميعا الى جزيرة عائمة •

وهناك مبشر كاثوليكى آخر روى الأسطورة المونتانية فى شكل أكثر اكتمالا على النحو التالى : عندما غضب الاله من الشياطين ، أمر رجلا ببناء قارب كبير • وما أن فعل الرجل هذا واستقل بقاربه ، حتى أخذت المياه تفيض من كل جانب والقارب يطفو فوقها ، حتى لم تعد العين تبصر أى أثر للأرض • ولما تعب الرجل من رؤية مساحات المياه الهائلة من حوله ، ومن كلب البحر فى الماء ، غطس وأحضر معه كتلة من الطين • فأخذ الرجل قطعة الطين فى يده ونفخ فيها ، وفى الحال أخذت قطعة الطين تتضخم • فوضعها على سطح الماء وحال دون سقوطها فيه • وأخذت قطعة الأرض هذه تكبر تدريجيا حتى أصبحت جزيرة • ثم شاء الرجل أن يعرف ما اذا كانت الجزيرة من الكبر بحيث تتسع لاقامته عليها • فأرسل أيلا طاف حولها فى وقت قصير ، ثم عاد اليه فعلم الرجل أن الجزيرة ليست متسعة بما فيه الكفاية • ومن ثم أخذ ينفخ على سطحها حتى تكونت فيها الجبال والبحيرات والأنهار • وعند ذاك ترك مركبه وعاش عليها • ويحكى هذا المبشر نفسه أسطورة عن الطوفان تنتشر بين قبيلة « كرى » وهى قبيلة أخرى تنتمى الى أصل « الجونكوين » الذى يقطن فى كندا • ولكن هذه الحكاية « الكريبيه » تكشف عن تأثيرات مسيحية • اذ يروى فيها أن الرجل أطلق من سفينته غرابا فى بادىء الأمر ، ثم أطلق حمامة برية بعد ذلك • أما الغراب فقد تغير لونه فأصبح أسود بعد أن كان أبيض بسبب عدم اتباعه أوامر الرجل • وأما الحمامة فقد عادت والطين عالق بمخالبها ، فعرف الرجل من ذلك أن الأرض جفت وبذلك رسا على الأرض •

ويبدو أن « ه•ا• ماكينزى » • هو الذى دون أسطورة جماعة « الجو نكوين » عن الطوفان كاملة لأول مرة • وقد أمضى « ماكينزى » جزءا كبيرا من حياته المبكرة بين الهنود « السالتوويين أو التشيباويين »• وهم يكونون فرعا كبيرا قويا من أصل « الجونكوين » • وقد حكى « ماكينزى » هذه الرواية الى النقيب البحرى « و•ه• هوبر » • الذى

كان يقيم فى فورت نورمان » بالقرب من « بحيرة بير » فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر • وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى •

كان بعض الهنود يعيش فى زمن من الأزمنة ، ومن بينهم طبيب كبير يدعى « ويس ـــ كاى ـــ تشاش » وكان يعيش معهم ذئب وابنان له فى مودة واخاء • وكان « ويس ـــ كاى ـــ تشاش » ينظر الى الذئب بوصفه أخا له ، كما كان ينظر الى أولاد هذا الذئب بوصفهم أبنـــاء أخيه ، ذلك لأنه كان ينظر الى الحيوانات جميعا بوصفها أقرباء له • ثم حدث أن أخذ الجميع يعانون من الجوع فى فصل الشتاء • ومن ثم فقد عزم الذئب على أن ينفصل عن الجماعة مع ولديه حتى يبحث عن طعام • فشاء « ويش كاى تشاش » أن يرافقه ، ورحل الجميع معا • وفى أثناء السير صادفا آثار أقدام أيل ، فوقف الذئب العجوز والطبيب « ويس » (كما سنسميه اختصارا) عند هذا الاثر وأخذا يدخنان ، بينما سار الذئبان الصغيران يقتفيان أثر أقدام الأيل • ولم يعد الذئبان الصغيران بعـــد مضى وقت ، فسار الذئب الأب مع « ويس » ليبحثا عنهما • وسرعان ما أبصرا أثر دماء على الثلج • فعلما من ذلك أن الأيل قد قتل • ثـــم تقابلا بعد ذلك مع الذئبين الصغيرين ، ولكنهما لم يجدا أثرا للأيل ، لأن الذئبين الصغيرين كانا قد افترساه • ثم توسل الذئبان الى « ويس » لكى يشعل نارا • فلما فعل ذلك ظهر جسد الأيل وكان مقطعا الى أربعـــة أقسام • وكان الذئبان قد قطعا الغنيمة الى هذه الأقسام الأربعة ، بعد أن احتفظ أحدهما لنفسه باللسان ، والآخر بشفة الأيل العليا ، وهمـــا الجزءان الرئيسيان الشهيان فى هذا الحيوان • ولما اعترض « ويس » على هذه القسمة « قدم الذئبان هذين الجزءين له • وبعد أن أكل كـــل نصيبه تطوع أحد الذئبين أن يصنع لهم حساء دسما من عظام الحيوان المهشمة • على أنهم سرعان ما أحسوا بالجوع بعد أن هضم هـــــذا الطعام • فاتفقوا على أن يفترقوا مرة أخرى • فرحل الذئب الكبير فى هذه المرة مع أحد أبنائه ، ورحل « ويس » مع الابن الآخر •

ثم تترك الحكاية الحديث عن الذئب الكبير ، وتحكى عن مصير

« ويس » وابن أخيه الذئب • فقد حدث أن قتل الذئب الصغير بعض الغزلان وابتلعها ثم تقيأها كما هي عند وصوله ، وأخبر عمه أنه لم يستطع أن يصطاد من الوحوش أكثر من ذلك • فجلس « ويس » طوال الليل يصنع الدواء أو يستخدم التعاويذ • وفى الصباح توسل الى ابن أخيه أن يخرج للصيد ، ولكنه حذره أن يحرص على أن يضع عصا عبر أى وادٍ أو مكان أجوف قبل أن يعبر هو نفسه ، والا فسوف تلحق به بعض الشرور • فرحل الذئب • وفيما كان يجرى وراء غزال ، نسى أن يتبع تعليمات عمه • فلما حاول أن يقفز عبر مكان أجوف سقط فى نهر ومات على الفور وابتلعته حيوانات الماء • ولم يذكر القاص شيئا عن طبيعة هذا الحيوان ، ولكنه اكتفى بذكر أن الذئب الصغير قد قتل وابتلعته هـذه الكائنات • وبعد أن انتظر « ويس » عودة الذئب الصغير فترة طويلة ، خرج ليبحث عنه ، فلما وصل الى المكان الذى قفز عنده الذئب ، أدرك توا أن الذئب قـد أهمل نصيحته ، ولهذا فقد سقط فى الماء • ثم أبصر «ويس» طائر القاوند يجلس بأعلى شجرة ويحملق بشدة فى الماء • فلما سأله عن هذا الشىء الذى ينظر اليه بهذا الاهتمام ، أجاب الطائر بأنه ينظر الى جلد ابن أخى « ويس » الذى يستخدم الآن مساحة للأرجل عند بيت الحيوانات المائية التى ابتلعته • اذ لم تكتف هذه الحيوانات القاسية بقتل هذا الذئب وابتـلاعه ، بل أضافت الاساءة الى جريمتها فاستخدمت جلد الذئب على هذا النحو الوضيع • فأسدى « ويس » الشكر للطائر على المعلومات التى قدمها له ، وذلك بأن طلب منه أن ينزل اليه ، وأخذ يمشـط لـه رأسه ويصنع له طوقا من الريش حول رقبته • ولكنه قبل أن يفرغ من عمله ، طار الطائر • وهذا هو السبب فى أن طائر القاوند لا يحيط رقبته سوى جزء من الشعر خلف الرأس • على أن طائر القاوند أسدى الى « ويس » نصيحة قبل رحيله ، وقال لـه : ان هذه الحيوانات المائية كثيرا ما تخرج من الماء وتستلقى على الشاطىء، فان شاء أن ينتقم منهـا ، فعليه أن يحول نفسه الى كتلة من الخشب ويستلقى بجانبها ، وأن يكون حريصا كل الحرص على أن يكون جسمه متصلبا للغاية ، حتى لا تشده الضفادع والثعابين التى لا بـد أن

ترسلها الحيوانات المائية لكى تزحزحه من مكانه • وبعد أن استمع « ويس » لهذه الارشادات عاد الى خيمته وأخذ يعاود تعاويذه • كما أنه أعد كل ما يلزمه لهذه المغامرة ، من بينها قارب كبير يسع كل الحيوانات التى تستطيع العوم •

وقبل أن تشرق الشمس ، كان « ويس » قد أعد عدته واستقل مركبه مع الحيوانات المذكورة آنفا • ثم أخذ يجدف فى هدوء حتى وصل الى مقربة من الحيوانات المائية • وعند ذاك أرسى مركبه عند نتوء فى البحر ، ونزل من المركب وحول نفسه الى كتلة من الخشب وأخذ ينتظر ، وهو على هذا النحو المصطنع ظهور الحيوانات المائية • وسرعان ما ظهر حيوان أسود أخذ يزحف حتى استلقى على الرمل • ثم أعقبه حيوان رمادى اللون فعل ما فعله الحيوان الأسود • وأخيرا أطل الحيوان الأبيض الذى كان قد قتل الذئب الصغير ، برأسه من الماء • ولما أبصر كتلة الخشب تسرب الشك الى نفسه وصاح بأخويه وقال لهما : انه لم يبصر كتلة الخشب هذه من قبل • ولكنهما ردا عليه فى غير اكتراث بأن هذه الكتلة الخشبية لابد أنها كانت موجودة فى هذا المكان على الدوام • ولكن الحيوان الأبيض الحذر الذى كان الشك ما زال يساوره ، أرسل الضفادع والثعابين لكى تزحزح كتلة الخشب • ولكن « ويس » قاوم بشدة حتى يحتفظ بانتصابه ، ونجح فى ذلك • عند ذاك خمد شك الحيوان الأبيض ، واستلقى على الرمل ونام • أما « ريس » فقد انتظر بعض الرقت ، ثم عاد الى شكله الأصلى ، وأخذ رمحه وزحف فى بطء الى الحيوان الأبيض • وقد كان طائر القاوند قد نصح « ويس » أن يصوب رمحه نحو ظل الحيوان والا فشلت محاولته • ولكن « ويس » نسى هذه النصيحة ، وصوب سهمه نحو جسم الحيوان مباشرة ، فأخطأ الهدف واندفع الحيوان أثر ذلك الى الماء • وكانت لدى « ويس » فرصة أخرى لكى يضربه ، وفى هذه المرة صوب سهمه نحو ظله فأصاب الحيوان نفسه بجرح بالغ • ومع ذلك فقد حاول الهروب الى الماء وتبعه أخواه • وفى الحال بدأ الماء يفور ويرتفع فى الوقت الذى استقل فيه « ويس » مركبه وسار به فى أقصى سرعة • وأخذت المياه ترتفع حتى غطت الأرض والأشجار والتلال • أما

مركب «ويس » فقد أخذ يطفو على سطح الماء • ولما كان « ويس » قد جمع فى مركبه كل الحيوانات التى لا تستطيع العوم ، فقد أخذ يجمع هذه المرة الحيوانات التى كانت تسبح من حوله وهى تصارع هذا التيار المائى الجارف •

وقد فات « ويس » وهو منشغل فى تلاوة تعاويذه لمواجهة الاخطار المحدقة به ، أن يفكر فى طريقة عاجلة يسترجع بها الأرض بعد أن أغرقها الطوفان • ولم يكن لديه أى قدر من التراب ، ولا حتى ذرة منه تصلح أن تكون نواة لأرض جديدة تتكون من بقايا الارض الغرقى تحت المياه • فلما تذكر هذا الموضوع ، شرع فى الحصول على كمية من الطين فربط خيطا فى رجل طائر ، « آكل السمك » وطلب منه أن يحاول أن يسبر غور الماء وأن يثابر على ذلك ، ولو أدى هذا الى هلاكه • ثم قال :«لاتفكر فى أمر غرقك ، لأنك اذا غرقت ، ففى وسعى أن أعيد اليك الحياة فى يسر »• فشجع هذا القول الطائر واندفع فى الماء كما يندفع الحجر ، وجرى معه الخيط الذى كان «ويس» ممسكا بطرفه • فلما كف الخيط عن الجريان شد «ويس» الخيط من الماء ، واذا بالطير قد مات وهو مربوط فىنهايته فأعاد «ويس» الحياة اليه فى بطء • وعيد ذاك أخبره الطائر أنه لم يهتد الى قاع الماء • وبعد ذلك أرسل «ويس» كلب البحر ليقوم بهذه المهمة نفسها ، ولكنه لم يكن أسعد حظا من الطائر الأول • وفى المرة الثالثة أرسل حيوان السمور الذى أخبر «ويس» بعد أن مات وبعث للحياة مرة أخرى ، أنه قد غاص حتى وصل الى قمم الأشجار ، ولكنه لم يتمكن من الغوص أبعد من ذلك •وفى نهاية الأمر أرسل «ويس» فأرا ربطه فى حجر ، فغطس الفأر والحجر وارتخى الخيط عن آخره • وعند ذاك شد «ويس» الخيط وكان الفار ميتا فى طرفه ، ولكنه كان يحمل قطعة من الطين بين أظافره• وكان هذا هو كل ما كان يسعى اليه «ويس» ، فأعاد الحياة بعد ذلك الى الفأر ونشر قطعة الطين حتى تجف ثم أخذ ينفخ فيها حتى تمددت الى حد كبير، وهو يتصور أن حجم الأرض على هذا النحو كاف لأن يحيا عليها هو ومن معه من صنوف الحيوان • ثم أرسل الذئب ليستكشف له حجم الأرض • ولكن الذئب عاد على وجه السرعة وأخبره أن مساحة الأرض

صغيرة . فأخذ «ويس» ينفخ فيها فترة طويلة ، ثم أرسل غرابا ليعرف له قدر مساحتها . فلما لم يعد الغراب مرة أخرى ، تأكد «ويس» أن الأرض أصبحت من الاتساع بحيث تكفى الحياة عليها . وعند ذاك نزل اليها «ويس» ومن معه من صنوف الحيوان ..

وقد دونت لهذه الحكاية رواية أكثر اختصارا من الرواية السالفة ، وتختلف عنهـا بعض الاختلاف . وهـذه الرواية الأخيرة كان يرويهـا « الأوجيبويون » الذين يسكنون فى جنوب شرق « أونتاريو » (١) . وتجرى هذه الرواية على النحو التالى : كان « نينيبوجو » يعيش مع أخيه فى الغابات ، وكان يخرج كل يوم للقنص ، بينما يبقى أخوه فى البيت. وذات يوم عاد « نينيبوجو » من القنص فى المساء ولم يجد أخاه فخرج للبحث عنه ، ولكنه لم يعثر له على أثر . ثم خرج فى صباح اليوم التالى ليواصل البحث عن أخيه . وبينما كان يسير بجوار شاطىء بحيرة لم يبصر سوى طائر القاوند وهو جالس على فرع شجرة يتدلى فى الماء . وكان الطائر يحملق باهتمام فى الماء أسفل الشجرة . فسأله « نينيبوجو » قائلا : علام تحملق فى الماء ؟ ولكن القاوند تظاهر بأنه لم يسمعه . فقال له « نينيبوجو » ، « ان أنت أخبرتنى فسأجعل منظرك جميلا ، اذ أننى سأقوم بتلوين ريشك » . فوافق القاوند على ذلك ، وقال له بعد أن لون له ريشه : « اننى أنظر الى شقيق « نينيبوجو » الذى قتلته أرواح المياه وفرشت جلده عند عتبة البـــاب » . فسأله « نينيبوجو » بعد ذلك : « وفى أى مكان على الشاطىء تستلقى هذه الأرواح لتدفىء نفسها بأشعة الشمس ؟ » فأجاب القاوند : « انها تستلقى على الدوام هناك عند أحد الخلجان حيث الرمل جاف كل الجفاف » .

وعند ذاك ترك « نينيبوجو » طائر القاوند وقرر أن يذهب الى الشاطىء الرملى الذى أرشده اليه الطائر ، وهناك يتحين الفرصة كى يقتل

---

(١) مدينة فى ولاية كاليفورنيا وتبعـــد عن لوس انجلوس بجـــوالى خمسة وثلاثين ميـــلا . (المترجمة)

أرواح المياه • وأخذ يبدىء الأمر يفكر في الشكل الذي يتنكر فيه حتى لا تتعرف عليه هذه الارواح ، وقال لنفسه : « سأحول نفسى الى كتلة خشب قديمة عفنة » • وبالفعل حول «نينيبوجو» ، نفسه الى هذا الشكل مستعينا بعامود طويل كان يحمله معه على الدوام • فلما خرجت الأسود من الماء لتستدفىء فى الشمس ، أبصر أحدها كتلة الخشب وقال لأحد رفاقه : « لم يسبق لى أن أبصرت هذه الكتلة الخشبية فى هذا المكان ، ولا يمكن أن تكون هى «نينيبوجو» • فرد عليه الأسد الثانى قائلا : «لا ، بل اننى رأيتها من قبل » • عند ذاك قدم أسد ثالث لينظر الى كتلة الخشب ويتأكد منها • فكسر قطعة منها ووجدها عفنة • فاطمأنت الأسود وخلدت الى الراحة • فلما رأى «نينيبوجو» أن الأسود راحت فى سبات عميق ، هوى على رؤوسها بعصاه • وبينما كان يضربها كانت المياه ترتفع • فولى هاربا ولكن الأمواج اقتفت أثره • وبينما كان يجرى والأمواج تلاحقه ، تقابل مع طائر النقار الذى أرشده الى جبل تنبت عند قمته شجرة صنوبر عالية • فتسلق «نينيبوجو» الشجرة ، وأخذ يصنع لنفسه لوحا من الخشب • وما كاد يفرغ من صنعة حتى كانت المياه قد وصلت الى رقبته • فوضع على لوح الخشب زوجا من كل صنف من صنوف الحيوان وطفا الجميع على سطح الماء •

وبعد أن سار «نينيبوجو» بقاربه بعض الوقت فوق سطح الماء ، قال لنفسه : « لا أعتقد أن الماء سوف ينحصر على الاطلاق ، ولذلك كان من الأفضل أن أقوم بخلق أرض جديدة » • فأرسل كلب البحر ليغوص فى الماء حتى القاع ويحضر له قطعة من الطين • ولكن كلب البحر رجع خاوى الوفاض • فأرسل بعد ذلك حيوان السمور ليقوم بنفس المهمة ولكنه لم يأت له بشىء كذلك • وفى المرة الثالثة أرسل فأر المسك ليحضر له من قاع الماء قطعة من الطين • فلما رجع وجده قابضا يده باحكام • فلما فتحها وجد فيها ذرات من الرمل • كما وجد ذرات أخرى فى فمه • فجمع الذرات بعضها الى بعض وجففها ونفخها فى البحيرة ببوقه الذى كان يستخدمه فى نداء الحيوان • فكبرت حبات الرمل فى البحيرة وكونت جزيرة • وعند ذاك أرسل « نينيبوجو » غرابا ليكتشف مساحة الجزيرة

ولكن الغراب طار ولم يعد اليه . فأرسل بعد ذلك الصقر الذى يسرع فى طيرانه أكثر من أى طائر آخر . وبعد فترة عاد الصقر . فلما سأله « نينيبوجو » عما اذا كان قد رأى الغراب ، أجاب بأنه قد رآه يأكل جيفة عند شاطىء البحيرة . فأجاب « نينيبوجو » : « من الآن فصاعدا لن يجد الغراب ما يأكله سوى ما يسرقه » . ثم انتظر « نينيبوجو » بعض الوقت وأرسل « الكاريبو » ليكتشف له حجم الجزيرة . فجاءه وقال له : انها ليست متسعة بما فيه الكفاية . وعند ذلك نفخ « نينيبوجو » مزيدا من الرمل فى البحيرة واكتفى بعد ذلك بهذا القدر من مساحة الأرض .

وتحكى قبيلة ذوى الأقدام السود « بلاك فوت » وهى قبيلة « جونكونية » أخرى ، كانت تنتشر فى المنحدرات الشرقية لجبال روكى ، وفى البراوى التى تقع عند سفحها ، تحكى حكاية شبيهة بالحكاية السابقة عن الطوفان الأول الكبير . فهم يقولون : « ان الأرض كانت تغمرها المياه فى بداية الحياة ، وكان « الرجل الشيخ » يطفو مع الحيوانات على ظهر لوح من الخشب . وذات يوم طلب « الرجل الشيخ » من السنور « أن يغوص فى الماء ويحاول أن يحضر معه قدرا من الطين . فغاص « السنور » ومكث فيه وقتا طويلا دون أن يصل الى قاع الماء . ثم قام كلب البحر ومن بعده عجل البحر بهذه المحاولة نفسها ، ولكنهما لم يتمكنا من الوصول الى قاع الماء كذلك . وأخيرا غطس فأر المسك ومكث وقتا طويلا الى درجة أن الرجل الشيخ ظن أنه قد غرق . ولكنه عاد فى النهاية وقد أوشك على الموت . فلما انتشله من الماء ووضعه فوق الرمث ، وجد فى أحد فكيه قطعة من الطين . ومن هذه القطعة خلق « الرجل الشيخ » الأرض ، ثم خلق الناس بعد ذلك » .

ويبدو أن مثل هذه الحكايات تنتشر انتشارا كبيرا بين القبائل الهندية التى تسكن فى شمال غرب كندا . ولا تقتصر رواية هذه الحكايات على القبائل التى تنتمى الى الأصل « الجونكوينى » ، وانما تنتشر كذلك بين جيرانهم الشماليين وهم « التينيهيون » أو « الدينيون »

الذين ينتمون الى أسرة « أثا باسكان » الكبيرة ، وهى أكثر الأسر اللغوية الهندية انتشارا فى أمريكا الشمالية ، فهى تنتشر من ساحل « أكيتيك » الى المكسيك ، كما تنتشر من الباسفيك الى « خليج هدسون » ، ومن « ريو كلورادو » الى منبع نهر « ريو جراندى » .
فقبيلة « كرى » وهى قبيلة جونكوينيه ، تحكى أنه فى بداية الحياة ، كان يعيش ساحر عجوز اسمه « ويساكيتشاك » وكان يصنع المعجزات بتعاويذه . على أن كائنا مهولا من كائنات البحر كان يبغض هذا الساحر وعزم على أن يقتله . فبينما كان الساحر يسبح فى عرض البحر على ظهر لوح من الخشب ، ضرب هذا الكائن البحر بذيله حتى ارتفعت الأمواج وفاضت المياه وأغرقت الأرض . فأسرع الساحر وصنع لوحا عريضا من الخشب جمع عليه أزواجا من كل صنف من صنوف الحيوان والطيور ، وبذلك أنقذ نفسه ومن معه من الكائنات الحية من الفناء . واستمر الكائن المهول يضرب الماء بذيله حتى غمرت المياه الأرض ، بل أكثر الجبال ارتفاعا ، بحيث لم يعد يرى البصر شبرا واحدا من الأرض الجافة . وعند ذلك أرسل « ويساكيتشاك » البطة الغطاسة لكى تغوص فى الماء ، ولكنها لم تستطع أن تصل الى قاع الماء وغرقت . فأرسل « ويساكيتشاك » اثر ذلك فأر المسك الذى مكث طويلا تحت الماء ، ثم طلع بعد ذلك وقد لطخت رقبته بالطين . فأخذ « ويساكيتشاك » الطين وشكله على هيئة قرص صغير وضعه فوق الماء فطفا فوقها . وكان هذا القرص الطينى يشبه أعشاش فئران المسك التى تبنيها فوق الثلج . ثم نفخ « يساكيتشاك » فى هذا القرص حتى تمدد وأصبح تلا صغيرا . فواصل عملية النفخ ، وكان كلما نفخ فيه تمدد أكثر وأكثر ثم احترق الطين بتأثير الشمس وأصبح كتلة صلبة . وعند ذاك وضع « ويساكيتشاك » فوقه الحيوانات لتعيش عليه . وفى النهاية ترك لوحه الخشبى ، ووقف على هذا القرص وسكنه . وقد أصبح هذا القرص فيما بعد الأرض التى نعيش عليها .

وشبيه بهذه الحكاية حكاية أخرى يرويها الهنود « الدوجريبيين » ،

و « السلافيون » ، وهم يكونون قبيلتين من القبـائل « التينيهية » •
ولا تختلف هذه الرواية عن سالفتها سوى فى أن اسم الرجل الذى أنقذ من الطوفان فى هذه الرواية الأخيرة هو « تشابيوى » • وتذكر هذه الحكاية أنه بينما كان هذا الرجل يطفو فوق الماء على لوحه الخشبى ومعه زوج من كل نوع من أنواع الحيوانات التى أنقذها ، جعل كل الحيوانا تالبرمائية بما فى ذلك السنور وكلب البحر تغوص فى المـاء لتحضر له قطعة من الطين ، ولكنها لم تتمكن جميعا من احكارها عدا فأر المسك الذى كان آخر من غاص وعاد وعلى مخلبه قطعة صغيرة من الطين • فنفخ « تشابيوى » فى هذه القطعة حتى تمددت وأصبحت الأرض التى نراها الآن • عند ذلك أنزل « تشـابيوى » الحيوانات عليها ، وعاش هو معها كما كان يعيش قبل أن يحدث الطوفان • ثم انه دعم الأرض بدعامة قوية حتى جعلها صلبة متينة •

ويحكى الهنود « الهاريسكيثيون » ، وهم يكونون قبيلة « تينيهية » أخرى ، أن رجلا بعينه يدعى « كونيان » ومعناه الرجل الحكيم ، قرر ذات مرة أن يصنع لوحا خشبيا عريضا • فلما سألته أخته ، وهى فى الوقت نفسه زوجته ، عن السبب الذى من أجله يصنع هذا اللوح قال لها : « اذا انتاب الأرض طوفان ، كما أتنبأ بذلك ، فاننا سنطفو على هذا اللوح » • ثم كشف عن خطته لغـيره من أهل الأرض ، ولكنهم استهزءوا به وقالوا له : « اذا حدث طوفان سنأوى الى الأشجار » •
ومع هذا فان الشيخ الحكيم صنع اللوح الخشبى العـريض بأن ربط الدعائم الخشبية بعضها إلى بعض بأحبال مصنوعة من ألياف الشجر • وفجأة زحف طوفان الى الأرض ، كما لم يحدث قط من قبـل ، وكأن المياه كانت تتدفق من كل جانب • وأخذ الناس يتسلقون الأشجار ، ولكن المياه كانت فى أثرهم ، حتى أغرقتهم عن آخرهم • أما الشـيخ الحكيم فقد طفا فوق لوحه الخشبى القوى المحكم الصنع • وبينمـا كان يسير فى عرض الماء ، أخذ يفكر فى المستقبل ، فجمع من كل صنف من صنوف الحيوان آكل العشب ، ومن الطيور ، بل من الوحـوش

المفترسة ، وصاح بها قائلا : « هيا اتخذى مكانك على اللوح الخشبى ، فلن يترك الطوفان شبرا من الأرض دون أن يغمره » • واختفت الأرض حقا تحت المياه ، وظلت هكذا زمنا طويلا دون أن يفكر أحد فى البحث عنها • وكان أول من غاص الى قاع الماء ليبحث عن الأرض هو فأر المسك •ولكنه لم يتمكن من الوصول الى قاع الماء • ولما طفا على السطح ، كان قد أوشك على الغرق ، وقال للشيخ الحكيم : اننى لم أجد أثرا للأرض • ثم عاد فغاص مرة أخرى • ولما رجع قال : لقد شممت رائحة الأرض ولكننى لم أهتد اليها » • ثم جاء دور السنور ، فغاص وغاب فترة ثم ظهر أخيرا وهو يسبح على ظهره فاقد الوعى والأنفاس ، واكنه كان يحمل فى منقاره قطعة من الطين سلمها للشيخ الحكيم الذى وضعها بدوره على سطح الماء ونفخ فيها وقال : « لن أكون الا حيثما كانت الأرض » • وفى الوقت نفسه ملأ يده بالطين ونفخ فيه ، ولشدة سعادته أخذ يتمدد • فوضع على قطعة الطين طائرا وأخذ ينفخ فيها فأخذت تتسع رقعة الأرض تدريجيا • ثم وضع عليها ثعلبا دار حول رقعة الأرض فى يوم واحد • ثم عاد الثعلب وطاف حولها وهى تزداد اتساعا حتى أكمل ست دورات ، وفى الدورة السابعة عادت الأرض الى شكلها الطبيعى قبل الطوفان • عند ذاك أنزل الشيخ الحكيم الحيوانات عليها ، كما فعل هذا هو وزوجته وابنه من بعد وقال لهما : « ان الأرض سوف تعمر بأولادنا » • وهذا ما حدث بحق • ثم بقيت هناك مشكلة أخرى كان على الشيخ الحكيم أن يجد حلا لها • وهذه المشكلة هى كيفية ابطال الطوفان الذى كان مازال مستمرا • فلما رأى طائر « الواقة » ما كان عليه الرجل الحكيم من حيرة ، جاء لانقاذه • فابتلع الماء كله ثم استلقى على الشاطىء على دعامة من الخشب وقد تضخمت حوصلته تضخما مفزعا • وقد كان هذا أكثر مما كان يتوقعه الشيخ الحكيم ، فبعد أن كان الماء كثيرا كل الكثرة ، أصبح قليلا كل القلة • فتحدث الشيخ الحكيم ، وهو فى هذه الحيرة ، مع طائر الشرشق وقال له : « ان طائر الواقة يستلقى فى الشمس وحوصيلته منتفخة بالماء كل الانتفاخ ، فاذهب اليه واثقبها » • عند ذلك ذهب طائر الشرشق

الى الواقة التى لم تكن تتوقع قدومه ، وقال لنفسه فى نغمة ، ملؤها الشفقة : « لا شك أن جدتى تعانى من ألم فى معدتها » • ثم تحسس بيده فى رقة الجزء المتورم فى جسم الواقة ، كما لو كان يريد أن يسكن الألم • ولكنه وخز هذا الجز الملتهب فى غير عمد بمخالبه وخزة شديدة ، وفى الحال سمع صوت قرقرة تدفق على اثرها الماء من معدة الطائر وهو يرغى ويزبد • ثم انساب الماء مكونا البحيرات والأنهار ، وبهذا أصبحت الأرض قابلة للسكنى مرة أخرى •

ويؤكد بعض الهنود التينيهيين أن الطوفان تسبب عن سقوط كميات هائلة من الثلوج فى شهر سبتمبر • ولم يتنبأ بهذه الكارثة سوى رجل واحد كهل وحذر رفاقه ، ولكنهم لم يأبهوا لقوله وقالوا : « سوف نهرع الى الجبال اذا انتابنا الطوفان » • ولكنهم غرقوا جميعا فيما بعد • أما الرجل الشيخ فقد ابتنى مركبا أبحر به وأنقذ معه كل الحيوانات التى صادفها حية • ولما تعب من التحياة فى المركب على هذا النحو ، أرسل السمور وكلب البحر وفأر المسك والبطة ، كى يغوصوا فى الماء ، ويبحثوا عن الأرض الغرقى •على أن البطة هى التى صعدت الى سطح الماء وفى مخالبها قطعة صغيرة من الطين • فبسط الشيخ هذه القطعة على سطح الماء ونفخ فيها • وبعد ستة أيام رست الحيوانات على سطحها • فلما كبرت الأرض وأصبحت فى حجم الجزيرة ، خطا هو بنفسه عليها • ويحكى بعض التينيهيين أن الرجل الشيخ أرسل أول الأمر غرابا انهمك فى افتراس الأجساد الطافية على سطح الماء ، ولم يعد الى الرجل الشيخ مرة أخرى • فأرسل من بعده اليمامة التى طارت حول الأرض مرتين ثم عادت • وفى المرة الثالثة عادت فى المساء وقد أنهكها التعب وفى فمها فرع من الشجر ذو براعم • وقد يبدو لنا تأثير التعاليم المسيحية فى هذه الرواية الأخيرة •

وقد كانت قبيلة « سارسى » ، وهى قبيلة هندية أخرى تنتمى الى أصل «تينه» الكبير ، تكون أمة قوية فى سالف الزمن ، ثم انقرضت ولم

يعد عددها اليوم يتجاوز بضعة مئات من الأفراد • وهـى تنتشر فى مساحة غير صغيرة من أرض البرارى ، بالأضافة الى انتشـارها فى « بلاكفيت » فى « ألبيرتا » التى تقع على وجه التقريب جنوب « سكك حديد الباسفيك الكندى » • وتتفق رواية هذه القبيلة عن الطوفان فى ملامحها الأساسية مع روايتى قبيلتى « أوجيبواى » و « كرى » وسائر القبائل الكندية الأخرى • وتحكى هذه القبائل أنه عندما أغرق الطوفان الأرض ، لم ينج منه سوى رجل وامرأة طفيا على لوح من الخشب بعـد أن وضعا عليه صندوقا من الحيوانات والطيور • ثـم أرسـل الرجل بعد ذلك السنور لكى يغوص الى قاع الماء • فغاص السنور وعـاد ومعه قطعة من الطين عجنها الرجل فى يده لكى يصنع منهـا أرضـا جديدة • وقـد كانت هذه الأرض صغيرة فى بادىء الامر ، الى درجـة أنه كان فى وسع العصفور أن يطوف بها • ولكنهـا أخذت تكبر تدريجيا بعد ذلك • ويضيف راوى هذه الحكاية الى هذا قائلا : « كان أول من عاش على وجه هذه الأرض هو أبونا الشيخ ، ثم ظهر علينا بعـد ذلك رجال ونساء وحيوانات وطيور • ثم خلق أبونا الشـيخ الأنهار الجبال والأشجار وكل الاشياء التى نراها أمامنا الآن » • وبعـد أن فرغ الراوى من روايته لفت الرجل الأبيض الذى دون هذه الحـكاية نظر قبيلة « سارسى » ، أن رواية قبيلة « أوجيبواى » شديدة الشـبه برواياتهم ، فيما عدا أن الحيوان الذى أحضر قطعـة الطين فى هذه الرواية الاخيرة ليس هو السنور وانما فأر المسك • وقد أثارت هذه الملاحظةصيحة الموافقةمنخمسة أو ستة أفراد منالقبيلة كانوا يجلسون القرفصاء داخل خيمتهم • فصاح هؤلاء فى صوت واحد : « نعم ، نعم ، لقد كذب الرجل ، فلقد كان الحيوان هو فأر المسك • لقد كان حقا هو فأر المسك » •

ويلعب غراب بعينه أو كما يسمى « بيل » دورا كبيرا فى ديانة قبيلة « التيلنجيت » أو « التيلنكيت » وأساطيرها ، وهى قبيلة هندية ذات شأن فى «ألاسكا » • ولا يعـد هذا الغراب جدا لأسرة الأغربـة فحسب ، وانما كان خالق الجنس البشرى ، ومنبت النبـات وواضـع

الشمس والقمر والنجوم فى أماكنها • وقد كان لهذا الغراب خال شقى قتـل اخوته العشر بأن أغرقهم أو أنه سطحهم على لوح خشبى وجـز رؤوسهم بسكين • وقد كان دافعه لارتكاب هذا العمل الشرير هو الغيرة • ذلك لأنه كان متزوجا بامرأة شابة كان يحبها كل الحب • وكان يعلم ، وفقا لقانون قبيلة « تيلنجيت » ، أن أولاد أخته يرثون زوجته بعـد موته • فلما شب « بيل » عن الطوق وأصبح رجلا ، حاول خاله أن يقتله كماقتل اخوته من قبل ، ولكنه لـم ينجح فى هذا ، لان بيل لم يكن طفلا عاديا • فقد حملت فيه أمه عن طريق ابتلاعها حصاة عثرت عليها عند جزر البحر • ثم ابتلعت حصاة أخرى أصبح « بيل » بعدها لا يؤثر فيه الطعن • فلما حاول خاله أن يقتله ، لم تؤثر فيه السكين • ولكن الخال لم ييأس ، وحاول أن يعرضه لأخطار أخرى • فنطق فى سورة غضبه : « ليكن هناك طوفان » • فتدفقت المياه بحق حتى غمرت الجبال • عند ذاك استخدام بيل جناحيه وريشه اللذين كان يستخدمهما كيفما شـاء ، فنشرهما حتى وصل الى عنان السماء ، وهناك ظل معلقا فى السماء من منقاره مدة عشرة أيام ، بينما ظلت المياه تعلو حتى غطت جناحيه • فلما انخفضت المياه طار كالسهم الى البحر ، حيث سقط فى هدوء على جرف تنبت فيه الأعشاب • وهناك أنقذه من الخطر كلب البحر ، وأوصله الى الشاطىء فى أمان • هذا ما تذكره رواية قبيلة « تيلنجيت » • أما ما حدث للناس فى أثناء الفيضان ، فلا تذكر عن هذا شيئا •

وهناك أسطورة أخرى لقبيلة « تيلينجيت » تروى بطريقة أخرى كيف أن الغربان تسببت فى حدوث الطوفان الكبير • فلقد وضع هـذا الغراب امرأة تحت الأرض لكى تراقب مد البحر وجزره • وذات يوم شاء الغراب أن يعرف كل شىء يجرى تحت البحر فطلب من المرأة أن ترفع المحيط حتى يمكنه أن يسير تحت المحيط دون أن تبتل قدماه ، ولكنه نصحها فى حذر أن ترفعه ببطء حتى يكون لدى الناس متسع من الوقت ، اذا ما حل بهم الطوفان ، أن يحملوا فى مراكبهم المؤن اللازمة لهم ، وأن يصعدوا الى ظهرها • وبعد ذلك أخذت مياه المحيط ترتفع تدريجيا ، حاملة

الناس فى مراكبهم على سطحها • وبينما كانوا يرتفعون تدريجيا فوق سطح الماء ، كانوا يبصرون الدببة وسائر الوحوش تتجول على قمم الجبال التى لم يكن الطوفان قد أغرقهم بعد • وأخذ يسبح الكثير من الدببة من حول المراكب حتى تقفز اليها لأنهـا كانت ترغب فى الحياة على البر • ولكن الناس الذين كانوا من بعد النظر بحيث اصطحبوا معهم كلابهم ، سعدوا بتصرفهم هذا ، لأن الكلاب حالت دون صعود الدببة الى ظهر المراكب • وقد رسا بعض الناس على قمم الجبال وشيدوا من حولهم سورا ليحجز عنهم المياه ، وذلك بعد أن ربطوا مراكبهم داخل السور • على أن الناس لم يكونوا قد تمكنوا من أن يأخذوا معهم كمية وافرة من خشب الوقود لان مراكبهم لم تتسع لذلك • ولقد مر الناس بوقت عصيب خطير فوق قمم الجبال ، اذ كانوا يبصرون الأشجار وهى تقتلع من جذورها وتنجرف مع التيار ، كما كانوا يبصرون شيطان البحر وسائر المخلوقات الغريبة وهى تطفو على صفحة الماء • وعندما انحسرت المياه ، أقتفى الناس أثر الجزر وهو يتراجع عن جوانب الجبال • ولما لم يجدوا أثرا للأشجار ، وكان وقودهم قد نفذ فى الوقت نفسه ، فقد هلكوا من البرد • وعندما عاد الغراب من تحت الماء ، أبصر السمك جافا مطروحا على الجبال وفى الشقوق ، فقال له : « قف حيث أنت وتحول الى حجر » • فتحول السمك الجاف الى حجر • فلما أبصر الناس وهم هابطون من فوق قمم الجبال ، صاح بهم فى نفس اللهجة قائلا : « لتحولوا الى أحجار حيثما كنتم » ، فتحول الناس فى الحال الى أحجار كذلك • ثم عـاد وخلقهم مرة أخرى من أوراق الشجر • ولما عرف الناس فيما بعد أنهم قد خلقوا من أوراق الشجر ، أدركوا أن الغراب لا بد أنه كان قد حول من نجا من الطوفان من الجنس البشرى الى أحجار • وهذا هو السبب فى أن كثيرا من الناس حتى يومنا هذا يموتون فى فصل الخريف مع تساقط الأوراق • ويقول الأهالى انهم يموتون كما تذبل الاوراق وتتساقط •

وهناك حكاية أخرى تحكى عن الطوفان الذى أنتاب العالم ، تروى عن قبيلة « تيلينجيت » أو « كولوش » كما تعود الروس أن يسموها •

وقد نجا الناس فى هذه الحكاية فى فلك عائم كبير رسا بعد أن انخفضت المياه ــ على صخرة ، ثم انشطر الى شطرين . وهذا هو السبب من وجهة نظرهم ، فى اختلاف لغات الناس ، ذلك أن قبيلة « تيلينجيت » التى ركبت الفلك ، تمثل نصف سكان العالم ، فى حين أن من بقى من الناس على سطح الأرض يمثلون النصف الآخر . وربما كانت هذه الأسطورة الأخيرة تعتمد على أصل مسيحى ، حيث انها تمثل نوعا من الخلط بين حكاية نوح وحكاية برج بابل .

ويحكى الهنود « الهايدا » الذين يسكنون جزر « كوين شارلوت » أنه « قد حدث فى سالف الزمان طوفان مهول غرق فيه الناس والحيوانات جميعا ، ولم ينج منه سوى غرا بواحد . على أن هذا الغراب لم يكن طائرا عاديا تماما ، وانما كان يمتلك الى حد كبير ــ شأنه شأن كل الحيوانات فى الحكايات الهندية القديمة ــ خصالا انسانية . فقد كان فى وسعه ، على سبيل المثال ، أن يرتدى رداءه الريشى وأن يخلعه ، كما يرتدى الانسان ملابسه ويخلعها . بل انه ولد وفقا لرواية من روايات هذه الحكاية ، من امرأة لم يكن لها زوج ، وأن هذه المرأة صنعت له الأقواس والســهام التى كان يقتل بها الطيور عندما كبر ، وكانت تخيط له جلود هذه الطيور رداء أو غطاء . وكانت تتألف هذه الطيور التى كان يقتلها الغراب بسهامه ، من الطائر الثلجى الصغير ذى العنق والرأس الأسودين ، ومن الطائر الثلجى الكبير ذى اللون الأســود والأحمر ، ومن طائر النقار المكسيكى وقد كان اسم هذا الغراب هــو « نى ــ كيل ــ ستلاس » . وبعد أن انحسر الطوفان ، نظر « نى ــ كيل ــ ستلاس » من حوله ، ولكنه لم يجد زوجة أو رفيقا ، ومن ثم أصبح يشعر بالوحدة . فأخذ حيوانا من الحيوانات الرخوة (Cardium Nuttalli) من شاطىء البحر وتزوجه وأخذ يفقس على الدوام وهو ما زال يفكر جديا فى أن يكون له رفيق . ثم سمع فى النهاية صراخا خافتا للغايــة شبيها بصراخ الطفل الوليد . وأخذ الصوت يعلو شيئا فشيئا ، وفى النهاية بزغت طفلة أخذت تكبر تدريجيا فيما بعد ، ثم تزوجها الغراب . ومن هــذا التزاوج تناســل الهنــود الذين عمروا الأرض من بعــد » .

ويحكى هنود طومسون الذين يسكنون « كولومبيا البريطانية » ، أنه قد حدث طوفان ذات مرة ، وغمر بلادهم جميعا فيما عدا قمم بعض الجبال العالية • ويظن هؤلاء الهنود ، وان كانوا غير واثقين من ظنهم هذا ، أن هذا الطوفان تسبب عن ثلاثة أخوة يدعون « كواكلكال » • وقد كان هؤلاء يتجولون فى البلاد ليقدموا معجزاتهم ويحولوا الاشياء الى أشكال أخرى ، حتى تحولوا هم فى النهاية الى أحجار • ومهما كان من أمر هؤلاء الأخوة ، فان الطوفان أغرق الناس جميعا عدا ذئبا وثلاثة رجال • أما الذئب فقد أنقذ لأنه حول نفسه الى قطعة من الخشب طفت فوق الماء ، وأما الرجال الثلاثة فقد نجوا لأنهم استقلوا مركبا جرفه التيار حتى رسا بهم عند جبال « نزوكسكى » ، وهناك تحولوا ومركبهم فيما بعد الى أحجار • ويمكنك أن تراهم هناك على هذا النحو فى هيئة أحجار حتى اليوم • وأما الذئب فقد ظل مطروحا على الشاطىء بعد أن انحسر الطوفان ، وهو على هيئة قطعة الخشب التى استطاع أن يحول نفسه اليها بمهارة فى وقت الشدة • ثم عاد واسترد شكله الأصلى وأخذ ينظر فيما حوله فرأى أنه فى بلد نهر طومسون • وعند ذاك اتخذ من الأشجار زوجات له • ومن هذا الزواج تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم • ولم يكن هناك ، قبل أن يحدث الطوفان ، بحيرات أو أنهـار بين الجبال ، ومن ثم لم يكن هناك سمك • أما بعد الطوفان فقد امتلأت الكهوف بالمياه وأخذت تتدفق منها المجارى المائية الى البحر • وهذا هو السبب فى أننا نجد الآن بحيرات فى الجبال ، وسمكا فى هذه البحيرات • ويبدو أن حكاية « طومسون ريفر » قد اخترعت لتفسر سبب وجـود البحيرات فى الجبال • وقد عزا الفيلسوف البدائى وجودها الى الطوفان الكبير الذى خلف وراءه مياها فى تجاويف الجبال تماما كما يترك جزر البحر وراءه احواضا من المياه فى تجاويف الصخور التى تقع على شاطىء البحر •

ويبدو أن أساطير الطوفان الكبير كانت منتشرة بين القبائل الهندية التى كانت تسكن فى « ولاية واشنطون » • فقد حكت قبيلة « توانا »

التى كانت تسكن « بوجيت ساوند » أن الناس أصبحوا آثمين فى عصر من العصور . وعقابا لهم على اثمهم انتاب الأرض طوفان أغرق الارض جميعها عدا جبلا واحدا . فهرب الناس فى قواربهم الى أعلى جبل فى بلدهم ، أى الى قمة سلسلة جبال « أولمبيك » . فلما غمرت المياه هذه الجبال ،ربط الناس قواربهم بحبال متينة فى أعلى شجرة . ولكن المياه أخذت فى الارتفاع حتى غمرت الأشجار . فتحطمت بعض المراكـــب وجرفها التيار جهة الغرب حيث تعيش اليوم سلالات الذين أنقذوا ذات يوم من الطوفان . وهم قبيلة تتحدث لغة شبيهة بلغة قبيلة « توانا ». وهذا هو السبب ، كما يدعى الأهالى ، فى أن أفراد هذه القبيلة قلائل . وهم يطلقون على هذا الجبل اسما ، معناه « المربط » ، لأنهم ربطوا قواربهم عنده آنذاك . وبالمثل يحكى الأهالى عن حمامـــة أطلقت لتستكشف أحوال الغرقى .

وقد وجد المبشرون الاول فى أثناء اقامتهم بين القبائل الهندية « سبوكانا » و « نيزبيرسى » و « كايوزى » ، هؤلاء الذين ألفوا أن يستوطنوا ، مع قبيلة « ياكيما » شرق ولاية واشنطون ـــ وجدوا أن هـــؤلاء الهنود يروون حـــكايات خاصـــة بهم عن الطـــوفان الكبير ، الــــذى نجـــا منه رجل وزوجته على لوح من الخشب . وكل قبيلة من هذه القبائل الثلاث ، بالاضافة الى قبائل « فلات هيد » ، تحكى عن جبل خاص بها هـــــو جبـــل « أرارات » الـــذى لجأ اليه من أنقذ من الطوفان .

وبالمثل روى هنود ولاية واشنطون الذين ألفوا أن يسكنوا عند المجرى الأدنى لنهر كولومبيا ، وكانوا يتحدثون لهجة « التشـــينوك الكاثلامية » ـــ رووا حكاية عن الطوفان الكبير . وهذه الحكاية تتشابه بصفة خاصة مع الأسطورة « الأجونجوينية » . فهم يقـــولون : ان طائر « الثرثار الأزرق » نصح فتـــاة بعينها أن تتزوج النمر الأرقط الذى كان يصطاد الأيائل ، وكان رئيس بلده فى الوقت نفسه . فرحلت

الفتاة الى مدينة النمر الأزرق ، وهناك تزوجت خطأ السنور بدلا من النمر الأزرق • وذات يوم عندما رجع زوجها السنور من الصيد ، ذهبت لتستقبله ، فطلب منها أن تنتشل السمك الذى اصطاده • ولكنها رأت أن ما معه ليس سمكا ، وانما فروع شجر الصفصاف فحسب • فولت عنه مشمئزة مما رأته ، وتزوجت فى النهـاية النمر الأرقط الذى كان ينبغى عليها أن تتزوجه بادىء الأمر • فلما وجد السنور أنه فقد زوجة شبابه ، جلس وبكى مدة خمس أيام حتى فاضت دموعه عـلى الأرض وأغرقتها جميعا ، بما عليها من بيـوت • أما الحيوانات فقـد استقلت قواربها هروبا من الغرق • ولما أوشك الطوفان على أن يصل الى السماء ، تدبرت الحيوانات أمرها فى احضار قطعة من الطين من أعماق المياه • فقالت لطائر الثرثار الأزرق : « الآن اغطس فى المياه أيها الثرثار الأزرق ، وأحضر قطعـة من الطين » • فغطس الثرثار الأزرق ولكنه لم يغص الى قاع الماء ، لأن ذيله ظل ملتصقا بسطح الماء • ثم حاولت الحيوانات من بعده أن تغوص الى قاع الماء ، فغاص النمس أولا ومن بعده كلب البحر ، ثم عادا دون أن يتمكنا من الوصول الى قاع المياه • ثم جاء دور فأر المسك فقال للحيوانات : « اربطوا القوارب بعضها بجانب بعض • فربطت الحيوانات المراكب بعضها ببعض ، ووضعت ألوحا من الخشب عبر القـوارب • عند ذاك خلع رداءه ، وغنى أغنيته خمس مرات ، ثم غطس فى الماء دون أن يطيل الوداع واختفى عن الأبصار • وهناك مكث مدة طويلة • وفى نهاية الأمر ظهر زهر السوسن على صفحة المياه • ولما حل الصيف ، هبطت المياه وهبطت معها القوارب حتى رست على أرض جافة • وعند ذاك قفزت الحيوانات من القوارب • وبينمـا كانت تفعل هـذا ، خبطت أذيالها بحافة المركز ، فانقطعت أذيالها • وهذا هـو السبب فى أن الدب الرمادى والدب الأسود لهما ذيل قصير حتى اليوم • أما النمس وكلب البحر وفأر المسك والنمر الأرقط ، فقد رجعوا الى القوارب واستردوا أطراف ذيلهم ولصقوها فى مكانها • وهذا هو السبب فى أن هذه الحيوانات لا تزال لديهـا ذيول ذات طول لائق حتى اليـوم ،

على الرغم من أنها كانت قد قطعت عند حدوث الطوفان • هذا ولم تذكر الحكاية سوى الشيء اليسير عما حدث للجنس البشري وكيف هرب من الطوفان • ولكن الحكاية تنتمي ، كما هو واضح ، الى نمط الحكايات البدائية التي لا تميز تميزا واضحا بين الانسان والحيوان • فالمخلوقات الدنيئة تفكر وتتكلم وتتصرف تصرف الانسان وفقا للتصور البدائي ، بل انها تعيش على قدم المساواة معه • وهذه الطبيعة المشتركة تشير اليها الحكاية « الكاثلاميتية » بوضوح بزواج الفتاة بالسنور أولا ، ثم بالنمر الأرقط ثانيا • كما يتضح هذا كذلك في الوصف العرضي للسنور على أنه رجل منتفخ الحويصلة • ومن ثم ، فربما تصور القاص أن وصفه لنجاة الحيوانات من الطوفان يعد اشارة كافية لنجاة الجنس البشري كذلك •

ولا تقتصر أساطير الطوفان الكبير على القبائل الهندية في أمريكا الشمالية ، وانما يحكيها كذلك الاسكيمو وأقرباؤهم سكان جرينلاند • فقد ذكر القائد « جاكوبسين » نقلا عن سكان « أورويجناراك » في « ألاسكا » ، أن الاسكيمو يروون حكاية عن طوفان مهول أغرق الأرض في سرعة مذهلة اثر هزة أرضية مفاجئة ، بحيث لم يتمكن من النجاة منه سوى أفراد قلائل استطاعوا أن يهربوا في قواربهم المصنوعة من الجلد ويلجأوا الى قمم أكثر الجبال ارتفاعا • وكذلك يحكي الاسكيمو الذين يسكنون « تورتون ساوند » في « ألاسكا » أن الطوفان أغرق الأرض جميعا في بداية الحياة الأولى سوى جبل شاهق كان يتوسط الأرض • وحتى هذا الجبل غمرته المياه عدا قمته التي لجأ اليها بعض الحيوانات • كما حاول قلة من الناس الهروب من هذا الطوفان ، بأن طافوا على الماء في قواربهم وعاشوا على السمك الذي كانوا يصطادونه • فلما انخفضت المياه بعد ذلك ، برزت الجبال من وسط المياه ، ورسا الناس بقواربهم فوقها • ثم أخذوا يتتبعون الطوفان المتراجع تدريجيا حتى وصلوا الى الشاطىء • وكذلك استقرت على هذا الشاطىء الحيوانات التي كانت قد لاذت بالجبال وعمرت الأرض بنتاجها ••

ويحكى الاسكيمو « التشيجليتين » الذين يسكنون ساحل محيط « أركتيك » بين « بوينت بارو » فى الغــرب الى « كيب باثروست » فى الشرق ، أن طوفانا كبيرا تدفق على سطح الأرض ، ودفعته الرياح فغمر مساكن الناس • فربط الاسكيمو عددا من القوارب بعضها الى بعض ، فكانت أشبه بلوح خشبى كبير طافوا عليه فوق سطح المــاء وهم يتزاحمون طلبا للدفء فى خيمة نصبوها • ولكنهم كانوا يرتعشون من لفحات الهواء الباردة وهم يرقبون الأشجار والرياح تقتلعها من جذورها • وفى نهاية الأمر رمى ساحر يدعى « أن — أودجيــون » ومعناه « ابن البومة الصغيرة » ، بسهه فى البحر وهو يقــول « كفى أيتها الرياح ، لتهدئى الآن » • ثم رمى بعد ذلك قرطه ، وكان هذا كافيا لأن يجعل الطوفان ينحسر •

أما الاسكيمو الذين يسكنون وسط بلاد الاسكيمو ، فيحــكون أن مياه المحيط ارتفعت فجأة منذ زمن طويل واستمرت فى الارتفاع حتى أغرقت الأرض جميعا • بل انها أغرقت قمم الجبال ، وهى تجرف الثلوج فوقها • وعندما انحسر الطوفان ، ترك الثلوج وراءه ، التى لا تزال تغطى قمم الجبال حتى اليوم • وقد تخلف فوق قمم الجبال كثير من الأسماك الصدفية ومن الأسماك العادية وعجول البحر والحيتان وقد جفت هذه الحيوانات المائية فيما بعد ، ولا تزال قشورها وعظامها بادية للعيان حتى اليوم • وقد غرق كثير ن الاسكيمو ، ولكن الكثير منهم هرب من الطوفان فى قواربهم •

أما فيما يختص بسكان جرينلاد ، فيحكى لنا مؤرخهم « كرانتز » أن « الشعوب الوثنية كلها على وجه التقريب تعرف شيئا عن طوفان نوح ، وأن المبشرين الأول ســمعوا عن « الجــرينلاديين » روايات بسيطة طريفة تتصل بهذا الموضوع • وتتلخص هذه الروايات فى أن الطوفان أغرق الأرض ومن عليها فى ســالف الزمــان ، ولم ينج من الناس سوى رجل واحد ، كما تحول بعضهم الى أرواح نارية • وضرب

هذا الرجل بعصاه الأرض بقــوة ، فبرزت من باطنها امرأة تزوجها الرجل ، وعمرا الأرض بنسلهما • ومما يؤكد من وجهة نظرهم ، أن الطوفان قد أغرق الأرض جميعا ، أنه قد عثر على عظام الحيتان فوق الجبال العالية » • وقد أيد هذه الأسطورة الرحالة « س • فه • هول» بما رواه عن « الانويتيين » أو « الاسكيمو » الذين عاش بينهم • فقد أخبرنا هذا الرحالة أن « هؤلاء الاسكيمو يروون حكاية عن الطوفان الذى يعزونه الى مد غير عادى للبحر • وبينما كنت أتحدث فى مناسبة من المناسبات مع امرأة تدعى « توكوليتو » حول قومها ، قالت لى : « ان « الانويتيين » كلهم يعتقــدون أن الأرض جميعا قد غمــرها الطوفان ذات يوم • فلما سألتها عن سبب اعتقادهم فى هذا الحادث ردت على قائلة : «ألم تر أحجارا صغيرة على الجبال تشبه الحيوانات الرخوية وغيرها من الحيوانات التى تسكن البحار ؟ » •

١٥ ـــ حكايات افريقية عن الطوفان الكبير

انه لمن الغريب حقا أننا لا نكاد نعثر على حكايات الطوفان الذى أغرق العالم فىافريقيا ، بينما تنتشر هذه الحكيات انتشارا واسعا فى كثير من جهات العالم • حقا ان الشك يمكن أن يساورنا فيمــا اذا كانت هناك رواية واحدة أصلية عن الطوفان الكبير دونت فى هذه القارة الشاسعة • بل انه ن الصعب أن نجد آثارا لمثل هذه الرواية ، فلم يكتشف أثر لهذه الحكاية فى الأدب المصرى القديم • وقد قيل لنا أن سكان « غينيا الشمالية » يروون « حكاية عن الطوفــان الذى أغرق الأرض جميعا • ولكن هذه الحكاية ممتزجة بالخرافات والمعجزات ، بحيث يصعب علينا أن نقرنها بحكاية الكتاب المقدس » •

وحيث ان المبشر الذى روى هذه الحكاية لم يذكر تفاصيل عنها ، فاننا لا نستطيع أن نحكم بما اذا كانت هذه الحكاية قد نشأت أصلا عن سكان « غينيا الشمالية » أم أنها نقلت عن الأوربيين • على أن هناك مبشرا آخر صادف اشارات لحكاية الطوفان الكبير بين حكايات

أهالى نهر الكونغو الأعلى • فهم يقولون : ان الشمس والقمر تقابلا ذات يوم ، فلطخت الشمس جـزءا من وجه القمـر بالطين ، وبذلك حجبت بعض ضوئه • وهذا هو السبب فى أن جزءا من القمـر يكون مظلما فى كثير من الأحيان • وقد حدث الفيضان عندما تقابل الشمس والقمر • وحمل الناس القدامى الجذور التى يصنعون منهـا حساءهم (لوكو) على ظهورهم وتحولوا الى قردة • فالجنس البشرى الذى يعيش الآن على وجه الأرض يعد خلقا جديدا •

وهناك رواية أخرى تقول : ان الرجال قد تحولوا بعد حدوث الطوفان الى قرود كما تحولت النساء الى سحالى ، وأن ذيل القرد هو بندقية الرجل • وقد نفهم من هذه الرواية أن هذا التحول قد حدث ، وفقا لتصور هؤلاء الأهالى ، فى زمن متأخر للغاية • وليس لدى أهالى الكنغو حكايات تحكى عن سبب دخول البندقية الى بلادهم • كما أنهم لا يمتلكون أخبـارا تحـكى عن الزمن الذى استخدموا فى صـيدهم وحروبهم الرماح والدروع والأقواس والسهام والسكاكين • ويقال ان قبيلة « بابيدى » وهى قبيـلة « باسوتوية (١) » تسـكن جنوب أفريقيا ، تروى أسطورة عن طوفان أغرق الجنس البشرى كله على وجه التقريب • وقد قام المبشر المحنك الدكتـور « روبرت موفات » باستفسارات مثمرة حول أساطير الطوفان لدى أهالى أفريقيا الجنوبية وقد تبين أن أحد الأهالى الذى صرح بأنه قد سمع حكاية الطوفان من أجداده ، قد سمعها فى الحقيقة من مبشر يدعى « شـيميلين » • ويضيف الدكتور « موفات » الى هذا ، « أن مثل هذه الحكايات كان يسمعها الأهالى أصلا من المبشرين أو من بعض الرحـالة المتدينين • وهذه الحكايات اختلطت مع مرور الوقت اختلاطا كبيرا ، واكتسـبت أفكارا وثنية ، بحيث أصبحت تشبه الى حد كبيرا للحكاية الأهلية •

---

(١) نسبة الى باسوتو احدى ولايات جنوب افريقيا . (المترجمة)

ويعلق الدكتور « لفنجستون » حـــول هذا الموضوع بعـــد أن دون أسطورة حول نشأة بحيرة « ديلولو » فى « أنجولا » التى أغرقت قرية بأكملها بما فيها من سكان وطيور وكلاب ، يعلق قائلا : « وربما كانت هذه الحكاية أثرا باهتا لحكاية الطوفان • والجدير بالذكر أنها الأثر الوحيد الذى سمعته فى هذا البلد » • وقد أخبرنى صديقى المجرب « جون روسكو » المبجل ، الذى قضى ما يقـــرب من عشرين عاما فى علاقات وديةمعسكان أفريقيا الوسطى وبصفة خاصة مع أهالى محمية أوغندا ، أخبرنى أنه لم يستمع الى حكاية عن الطوفان ترويها القبائل التى تعرف عليها •

على أن الكتاب الألمان اكتشفوا حكايات عن الطوفان الكبير بين سكان « أفريقيا الشرقية » ، ولكن هذه الحكايات ليست سوى روايات لحكاية الكتاب المقدس التى تسربت الى هؤلاء البدائيين بتأثير المسيحيين أو من المحتمل بتأثير المسلمين • وقد دون ضابط ألمانى احدى هـــذه الروايات عن قبيلة « ماساى » ، وهى تجرى على النحو التالى :

كان « تومباينوت » رجلا مستقيما ، ولهذا فقد أحبه الله • وقد تزوج هذا الرجل امرأة تدعى « نايباندى » ولدت له ثلاثة أبناء هم « أوشـــومو » و « بارتيمارو » و « بارمـــاو » • ولما توفى أخـــو « تومباينوت » تزوج، وفقا لعادة قبيلة « ماساى » أرملة أخيه التى كانت تدعى « ناهابا ــ لوجوينجا » • ويشير اسمها الى رأسها الطويل الدقيق وهو علامة من علامات الحسن عند هذه القبيلة • وولدت هذه المرأة من زوجها الثانى ثلاثة أبناء كذلك • ولكنها تركت بيت زوجهـــا نتيجة خلاف نشأ بينها وبين زوجها ، بعد أن رفضت أن تعطيه جرعة من اللبن فى المســـاء • ثم ابتنت لنفسها بيتا أحاطته بسور من النباتات الشائكة كى تحميها من الوحوش • فى هذه الأيام كانت الأرض تضيق بالناس الذين لم يكونوا أخيـــارا وانما كانوا على العـــكس أشرارا لا يطيعون أوامر الله • ولكن مهما كانت درجة شرورهم ، فقد أحجموا

عن ارتكاب جرائم القتل • وفى ذات يوم مشئوم ، ضرب رجل يدعى « نامبيجا » رجلا آخر يدعى « سواجى » على رأسه • كان هذا أكثر مما يحتمله الاله ، ومن ثم فقد قرر أن يهلك الجنس البشرى بأسره عدا « تومباينوت » الذى أشفق عليه الاله وأمره أن يبنى فلكا من الخشب ، وأن يلجأ اليه هو وزوجتاه وأولاده الستة ، وأن يأخذ معه عددا من الحيوانات من كل صنف • فلما استقل الجميع الفلك واختزن فيــه « تومباينو ت» مئونة كبيرة ، أسقط الاله المطر بغزارة ولمدة طويلة حتى نجم عنه طوفان كبير أغرق الناس والحيوانات جميعا فيما عدا هؤلاء الذين أووا الى الفلك العائم • وأخذ « تومبــاينوت » ينتظر بشغف نهاية سقوط المطر ، لأن مئونته كانت قد أوشكت أن تفرغ • وفى النهاية كف المطر عن السقوط • وشاء « تومباينوت » فى شغف أن يعرف حال الفيضان ، فأطلق حمامة من الفلك عادت اليــه منهكة آخر النهار • فأدرك « تومباينوت » من ذلك أن الطوفان لابد أنــه مازال مرتفعا لأن الحمامة لم تجد مكانا تستريح عنده • فأطلق النسر بعد ذلك ببضعة أيام • ولكنه قبل أن يطلقه ، أخذ حيطته بأن ربط رمحا فى ذيله حتى اذا استقر النسر فى مكان ليأكل ، فان الرمح يجــرجر وراءه • فاذا أعاقه معوق فى أثناء جره ، فانه يلتصق بهذا الشىء ، وينفصــل عن ذيل النسر • وقــد أثبت ما حــدث صحة ما توقعــه « تومبايغوت » ، ذلك أن الطير عاد فى المساء بدون الرمح والريش الذى كان مرتبطا به • فحدس أن الطائر قد انقض على جيفة ، وان الطوفان لابد قد انحسر • فلما تراجعت المياه عن الأرض ، رســا الفلك على أرض البرارى ونزل منه ركابه • فلما خطا « تومباينوت » خارج الفلك ، أبصر ما لا يقل عن أربعة من أقواس قزح يتجه كل منها فى جهة من الجهات الأربع • فنظر اليها « تومباينوت » على أنها علامة على زوال غضب الاله •

وهناك رواية أخرى لحكاية الطوفان دونها مبشر ألمانى كان يسكن المنطقة نفسها • وقد حصل المبشر على هذه الرواية فى محطة تبشير

« مكولوى » التى تقع عند « سايسى » أو « نهر مومبا » على بعد عشرين ميلا من مصب النهر فى بحيرة « روكوا » • وقد اعترف الراوى للمبشر أنه قد سمع هذه الحكاية من جده ، وأكد له فى اصرار أنها رواية قديمة أصلية نشأت بينهم ولم ترد اليهم من الخارج • وقد أكد هذا القول رجل آخر من الأهالى اشتهر بحبه للصدق ولم يختلف هذا الراوى فى روايته عن رواية الراوى الأول سوى أن نوحا الافريقى أرسل حمامتين بدلا من حمامة واحدة • وهذه الرواية تجرى على النحو التالى :

فى زمن بالغ فى القدم فاضت الأنهار • فقال الاله للرجلين : ادخلا السفينة وخذا معكما كل نوع من أنواع الحبوب ، وكل صنف من صنوف الحيوان ، الذكر منه والأنثى • ففعل الرجلان ما أؤتمرا به • ثم فاضت المياه حتى أغرقت الجبال ، وطافت السفينة فوقها • أما الناس والحيوانات فكانوا قد هلكوا عن آخرهم • فلما تراجعت المياه ، قال أحد الرجلين لرفيقه : دعنا نرى ــ فربما لم تجف الأرض بعد » • فأطلقا حمامة رجعت للفلك بعد حين • فانتظرا بعض الوقت ثم أطلقا صقرا لم يعد ثانية الى الفلك ، لأن الأرض كانت قد جفت • عند ذاك خرج الرجلان من المركب ونزلا الى الأرض وأنزلا حيواناتهما وحبوبها •

ربما كان العرض السابق لحكايات الطوفان كافيا لأن يثبت أن هذا النمط من الحكايات سواء سميناه نمطا أسطوريا أم خرافيا ، كان منتشرا فى جميع أنحاء العالم • وربما كان من الأفضل قبل أن نتساءل عن علاقة الحكايات بعضها ببعض ، وعن السبب أو الأسباب التى دعت الى روايتها ، أن نشير مرة أخرى باختصار الى الأماكن التى عاشت فيها هذه الحكايات • فاذا بدأنا بآسيا ، فاننا نذكر أننا قد صادفنا

نماذج من هذه الحكايات فى بابل فلسطين وسوريا وفيريجيا (١) وفى الهند القديمة والحديثة ، وفى بورما، والهند الصينية • وفى شبه جزيرة الملايو وكامشكا ، أى أنها باختصار ، تنتشر فى جنوب آسيا • وتختفى بوضوح فى آسيا الشرقية والمتوسطة والشمالية • والجدير بالذكر أن شعبى آسيا الشرقية اللذين بلغا من الحضارة شأوا بعيدا ، ونعنى بهما الصينيين واليابانيين ، لم تحتفظا ضمن آدابهما القديمة الهائلة فى حدود ما يتسع اليه علمى ، بحكاية أهلية عن الطوفان الكبير من النوع الذى نحن الآن بصدده ، ذلك الذى يحكى عن طوفان أغرق العالم ، كما أغرق الجزء الأكبر من الجنس البشرى •

وفى أوربا تندر حكايات الطوفان الأهلية عنها فى آسيا ، ولكنها رويت عند الأغريق القدماء ، كما رويت فى « ويلز » و « ليتوانيا »، وعند غجر ترانسلفانيا ، و « الفوجوليين » سكان روسيا الشرقية • أما الحكاية الأيسلندية التى تحكى عن الطوفان الذى تسبب عن انسكاب دم المعفريت ، فلا تدخل ضمن هذه الحكايات •

وفى افريقيا بما فى ذلك مصر تختفى الأساطير الأهلية عن الطوفان الكبير بشكل ملحوظ ، اذ لم تدون فى هذه القارة حقا حكاية أهلية واحدة من هذا النوع •

وفى جزر الأرخبيل الهندى وجدنا حكايات عن الطوفان الكبير فى جزر سومطرة ، وفى « بورنيو » و « سيليبس » ، كما وجدناها فى الجزر الأصغر منها وهى جزيرة « نياس » و « انجانو » و « سيرام » ، و « روتى » ، و « فلوريس » • كما روت هذه الحكايات القبائل الأهلية فى جزر الفيلبين وفرموزا ، وكذلك الأندمانيون الذين يعيشون منعزلين فى جزر خليج البنغال •

---

(١) احدى مدن آسيا الصغرى فى الزمن القديم وكان سكانها يرتبطون بالأرمينيين من الناحية الأثنولوجية . (المترجمة)

كما صادفتنا بعض حكايات الطوفان الكبير فى الجزر الكبيرة مثل جزر « غينيا الجديدة » وفى قارة استراليا ، كما وجدنا أساطير هذا النمط تعيش فى أطراف الجزر الأقل حجما مثل جزر « ميلانيزيا » التى تلتف فى شبه قوس حول جزر « غينيا الجديدة » و « استراليا » فى الشـــمال والشرق •

فاذا أوغلنا فى المحيط الهـادى شرقا فاننا نجـد أن حكايات الطوفان تنتشر انتشـارا كبيرا بين البولونيزيين الذين يعيشـون منتشرين فى أصغر جزر هذا المحيط من جزر هاواى شمالا الى نيوزيلنده جنوبا • كما دونت أسطورة عن الطوفان عند « الميكرونيزيين » الذين يسكنون « جزر بيلو » •

وتنتشر روايات الطوفان انتشارا كبيرا فى جنوب أمريكا ووسطها وشمالها ، من « تيراديل فويجو » جنوبا الى الاسكا شـمالا ، ومن الشرق الى الغرب فى كلتا القارتين • ولا تنتشر هـذه الحكايات بين الاسكيمو الذين يعيشون من غرب ألاسكا الى شرق جرينلاند •

فاذا كان هذا هو الانتشار الجغرافى لحكايات الطوفان بوجه عام ، فانه يحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن علاقة هذه الحكايات بعضها ببعض فهل هناك علاقة أصلية فيما بينها ، أم أن هذه الحكايات متميزة ومستقلة بعضها عن بعض ؟ وبتعبير آخر ، هل ترجع تلك الحكايات جميعا الى أصل واحد ، أم انها نشأت مستقلة فى بقاع كثيرة من العالم ؟ لقد كان الباحثون يميلون سالفا متأثرين بحكاية الكتاب المقدس ، الى أن يقرنوا أساطير الطوفان الكبير ، أينما وجدت ، بحكاية طوفان نوح المعروفة • كما افترضوا أننا نجد بين هذه الأساطير روايات مشوهة ومشكوك فيها لهذه الكارثة المهولة التى تعد أكثر رواياتها ثقة ، تلك التى يتضمنها سفر التكوين • على أن وجهة النظر هذه لم تعد تؤيدها الأدلة • وحتى اذا سلمنا بوجوه التشويه العديدة ، وشتى التغيرات التى تتعرض لها الرواية الشفاهية بالضرورة فى أثناء انتقالها من جيل

الى جيل ومن مكان لآخر عبر الأزمنة اللامتناهية ، فما زلنا نواجـه صعوبة لأن نتعرف فى هذا الحشد الهائل من حكايات الطوفان الكبير التى غالبا ما تتسم بالغـرابة والطابع الطفـولى ، على النمـاذج الانسانية لأصل دينى واحد • وقد تضاعفت هذه الصعوبة منذ أن أثبت البحث الحديث أن حكاية سـفر التكوين ليست هى الحـكاية الأصلية على الاطلاق ، وانما هى نسخة قديمة نسبيا لرواية بابلية أكثر قدما منها أو بالأحرى سومبرية • على أنه ليس هناك مسيحى مدافع عن دينه ، يميل لأن ينظر الى الحكاية البابلية بلونها الوثنى ، بوصفها وحيا أوليا من الله للانسان • واذا كانت نظرية الوحى الالهى لا تنطبق على الأصل ، فهى بالأحرى لا تنطبق على صورة هذا الأصل •

فاذا تغاضينا عن نظرية الكشف أو الوحى الالهى التى تتعارض مع تلك الحقائق المعروفة ، فما زال أمامنا أن نتساءل عما اذا كانت الأسطورة السومبرية أو البابلية التى تعد بكل تأكيد ، أقدم روايات الطوفان ، هى الأصل الذى استمدت منه سائر الروايات • ومثـل هذا السؤال من الصعب أن توجد له اجابة ايجابية ، حيث انه يفتقر الى دليل ، وحيث ان النتيجة التى تنتهى اليها ترتكز على احتمالات عدة تختلف باختلاف وجهات النظر اليها • ومن الممكن بدون شك أن نحلل الحكايات جميعا الى عناصرها ، وأن نصنف هذه العناصر ، وأن نحصى عدد العناصر التى تعد قاسما مشتركا بين الروايات المختلفة ومن ثم يمكننا ، بناء على عدد هذه العناصر التى تحتوى عليها رواية من الروايات ، أن تنتهى اما الى احتمال تفرعها عن حكاية أخرى أو كونها هى نفسها رواية أصلية • وهذا فى الحقيقة ما قام به أحدالذين سبقونى فى هذا المجال من البحث ، ولكننى لا أرى هناك داعيا لأن أعيد ذكر النتائج التى توصل اليها • وفى وسع القراء الذين يميلون الى الاتجاه الرياضى أو الاحصائى اما أن يرجعوا الى أعمال هـذا الكاتب نفسه (١) ، أو أن يستخلصوا هذه النتائج من المـادة التى

M. Winternitz : Die Flutsagen, p–. 312-333. (١)

(نقلا عن النسخة الأصلية ـــ المجلد الأول ص ٣٣٥) •

قدمت لهم فى الصفحات السابقة • أما الآن فسأكتفى بتقديم نتائجى العامة ، تاركا للقارىء مهمة التأكد من صحتها أو تصحيحها أو معارضتها معتمدا على الشـــواهد التى زودته بها • ومن ثم فاننا اذا صرفنـــا النظر عن الحكاية العبرية التى تعد بدون شك مستقاة من الروايـــة البابلية ، واذا صرفنا النظر عن النماذج الحديثة التى تكشف بوضوح عن تأثير واضح للمبشرين المتأخرين أو عن تأثير مسيحى بصفة عامة ، فاننى لا أعتقد فى أننا نملك أدلة قاطعة تعيننا على ارجاع أية رواية من روايات الطوفان الى الحكاية البابلية بوصفها أصلا لها جميعا • حقا ان بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة فى البحث ، قد انتهوا الى أن كلا من الأسطورة الاغريقية أو الهندية القديمة مستمدة من الأسطورة البالية • وربما كان هؤلاء الباحثون على حق فى هذا ، ولكن التشابه بين الروايات الثلاث ، من وجهة نظرى ، ليس كاف لأن يبرر لنا أن ندعى التعرف على الأصل • حقا ان الاغريق كانوا فى العصور المتأخرة ، يعرفون كلا من حكاية الطوفان العبرية والبابلية ، ولكن حكايات الاغريق أنفسهم عن الطوفان أقدم بكثير من عصر انتصارات الاسكندر الأكبر التى كشفت للباحثين لأول مرة عن كنوز الشرق • ولا تكشف هذه الروايات الاغريقية فى أقدم أشكالها أى تأثر بأصـــول أسيوية • ففى أسطورة « ديوكاليون » ، على سبيل المثال ، التى تعد أقرب الروايـــات للحكاية البابلية ، لم ينـــج من الطوفان ســـوى « دويكاليون » وزوجته • وبعد أن انحسر الطوفان اكتشفا حاجتهما الى خلق الجنس البشرى بطريقة معجزة من الحجر • وليس هنـــاك ذكر بعد ذلك الى اعادة خلق الحيـــوانات التى كانت قد هلكت فى الطوفان بطبيعة الحال • وفى هذا تختلف الرواية الاغريقية عن كل من الرواية البابلية والعبرية كل لاختلاف ، هاتين الروايتين اللتين اهتم فيهما الانسان بتكاثر الجنس البشرى والحيوانى معا عنـــدما ينتهى الطوفان وذلك بأن احتفظ فى الفلك بعدد من الركاب من كل من الجنس البشرى والحيـــوانى •

وبالمثل فان مقارنة الرواية الهندية القديمة بالرواية البابلية ،

تبرز تناقضا خطيرا فيما بينهما • فالسمكة العجيبة التى تبرز بوضوح فى كل الروايات الهندية القديمـة ليس لها ما يناظرها فى الروايـة البابلية ، وان كان بعض الباحثين قد جادل فى حذق ، أن الاله الذى تجسد فى شكل سمكة حذرت مانو من قدوم الطوفـان فى الأسطورة الهندية ، ليس سوى صورة مطابقة للاله « ايا » الذى حذر أوتنابشتيم كذلك ن الطوفان فى الأسطورة البابلية • وحجـة هؤلاء الباحثين فى نظريتهم ، هى أن الاله « ايا » هو اله الماء ، وكان يصور أحيانا فى شكل انسانى ، وأحيانا أخرى فى شكل سمكة ، واذا كان من الممـكن اثبات هذا التشابه بين الأسطورتين ، فانه يمكننا آنذاك أن نربط بين الأسطورتين ربطا وثيقا • ومن جهة أخرى ، فان أقدم شكل للحكاية الهندية وهو الموجود فى « ستاباثا براهمانا » ، يحكى أن « مانو » هو الانسان الوحيد الذى نجا من الطوفان • وكان عليه أن يعيد خلق المرأة بطريقة معجزة بعد هذه الكارثة ، من الأشياء التى قدمها ضحية وهى اللبن الرائب وشرش اللبن والجبن ، وذلك لكى يتمكن بعد الزواج منها ، من العمل على استمرار النوع البشرى • ولم تصور الحكاية الهندية « مانو » وقد أخذ معه مجموعة من الحيوانات والنباتات الا فى الروايات المتأخرة من هذه الحكاية • بل ان هذه الروايات لم تذكر شيئا عن انقاذ « مانو » لزوجته وأولاده ، على الرغم من أنها تصوره عـلى ظهر السفينة بصحبة مجموعة من اخوانه الحكماء الذين أنقذهم من كارثة الطوفان • وهذا الحذف لا يكشف عن فجوة فى العاطفة العائلية فحسب ، وانما يكشف كذلك عن نقص فى حكمة الفيلسوف ، فضـلا على أنه يبرز التناقض البالغ بين البطل الهندى والبطل البابلى ببعد نظره العلمى ، ذلك البطل الذى كان أقل عزاء له فى تلك المحنة المحزنة ، أنه كان محاطا بأسرته وسط المياه المصطخبة ، ومن ثم كان يعلم أنه بمجرد أن ينخفض الطوفان ، سيكون قادرا ، بمساعدة أسرته ، أن يعين على استمرار الجنس البشرى عن طـريق العمليات العادية للطبيعة • اليس من الغـريب أن نكتشـف من خـلال هذا الاختـلاف البين بين

الحكايتين ، التناقض بين الحكمة الدنيوية للعقل السامى والزهد الحالم للعقلية الهنـــدية ؟ •

وخلاصة القول ان الشواهد التى تثبت أن كلا من أسطورتى الطوفان الهندية والاغريقية مستمدتان من الحكاية البابلية ، ليست كافية • فاذا تذكرنا ان البابليين فيما نعلم لم ينجحوا على الاطلاق فى نقل حكايتهم عن الطوفان الى المصريين القـــدماء الذين كانوا عـــلى اتصال مباشر بهم طيلة قرون طويلة ، فليس هناك ما يدعو الى العجب أنهم قد فشلوا فى نقلها الى من كانوا أكثر بعدا منهم من المصريين ، وهم الهنود والاغريق الذين كانوا حتى زمن الاسكندر الأكبر متصلين بهم على نطاق ضيق • ثم انتقلت الحكاية البابلية بحق فى جميع أنحاء العالم فىعصور متأخرة • وكان لها صدى فى الحكايات التى كانت تحكى تحت أشجار النخيل فى جزائر المرجـــان ، وفى أكواخ الهنـــود ووسط ثلوج القطب الشـــمالى وصقيعه • ويبدو أن هـــذه الحـــكايات انتقلت بدون وساطة مسيحية أو اسلامية فيمـــا وراء حـــدود بلادهـــا الأصلية والمناطق السامية المجاورة •

واذا بحثنا عن أدلة فيما قدمناه من روايات أخرى متعددة عن الطوفان ، تثبت أن هذه الروايات قد استمدت من أصل معروف ، ثم انتشرت بعد ذلك ، فاننا لن نعجز فى الحصول على دليل واضح على هذا متمثلا فى الحكايات الالجونكوينية فى شمال أمريكا • فحـــكايات الطوفان المختلفة التى دونت بين القبائل الكثيرة التى تنتمى لهـــذا الأصل الذى كان ينتشر على نطاق واسع ، تتشابه فيما بينها تشابها كبيرا الى درجة أننا نعدها مجرد روايات متنـــوعة لحكاية واحـــدة بعينها • وما زال السؤال مطروحا عما اذا كانت حادثة الحيوانات المختلفة التى غطست فى الماء لتحضر قطعة من الطين ، قد نبعت أصـــلا بين أهالى هذه المنطقة ، أم أنها ترتكز على ذكرى حادثة الطيور فى حكاية نوح التى وصلت الى الهنود عن طريق الرجل الأبيض •

وقد رأينا أكثر من ذلك ، أن هناك تشابها عاما يمكن اقتفاء أثره وفقا لرأى « هومبولت » بين روايات الطوفان التى انتشرت بين هنود « أورينوكو » ، كما أن هناك كذلك تشابها بين الأساطير البولونيزية وفقا لرأى « وليام اليس » • ومن المحتمل أن الحكايات انتشرت بين هؤلاء الهنود وكذلك بين البولونيين من مركزين محليين ، أى أنهـا ، بتعبير آخر ، تعد روايات مختلفة لأصل واحد •

على أننا اذا كنـا قد استمحنا لأنفسـنا أن نعـد الروايات السـالفة منتشرة من مراكـز محلية ، فانه من المحتمـل كذلك أنه لا تزال هناك أساطير عن الطوفان نشأت مستقلة •

أصل حكايات الطوفان الكبير :

مازال علينا أن نتسـاءل : ما الشكل الذى كانت عليـه الحكاية الأصلية التى تفرعت عنها روايات الطوفان ؟• وكيف ألف الناس أن يصدقوا أن الأرض جميعا أو بالأحرى الجزء المأهول منها بالسكان قد غمرته مياه فيضان عتى فى وقت أو آخر ، وأغرق معهـا الجنس البشرى كله على وجه التقريب ؟ والاجابة القديمة عن هذا السؤال ، هى أن الكارثة قد حدثت بالفعل ، وأن سـفر التكوين احتفظ لها بسـجل تاريخى كامل • كما احتفظ العدد الهائل من أسـاطير الطوفان التى انتشرت انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية بذكرى هـذه الكارثة المهولة • فصورتها فى كثير أو قليل تصويرا مهوشا مختلطا غير دقيق • ومما يؤيد وجهة النظـر هذه ، تلك الأصـداف والمخلفات الحيـوانية والنباتية المتحجرة التى افترض الناس أنه قد عثر عليهـا مبعثرة فى الأماكن المرتفعة والصحارى وعلى قمم الجبال ، بعد أن تراجعت مياه طوفان نوح عن تلك الأماكن •

وقد اتخذ « تير توليان » من قواقع البحر التى عثر عليها فوق قمم الجبال شاهدا على أن المياه قد أغرقت الأرض ذات مرة ، ولكنه

لم يربط هذا بحادثة الطوفان التى وردت فى سفر التكوين • وبينما كانت تتم عمليات الحفر عام ١٥١٧م لاعادة بناء مدينة فيرونا ، بدت للعيان مجموعة من المتحجرات الغريبة • وقد أدى هذا الكشـف الى تأملات عديدة أهمها ، بطبيعة الحال ، حادثة نوح وفلكه • ولكن هذه التأملات لم تترك دون أن تتعرض للمعارضة ، ذلك أن عالم الطبيعة الفيلسوف الايطالى « فراكاستورو » ، كان من الشجاعة بحيث أشـار الى الصعوبات التى يتعرض لها هذا الافتراض الشائع • فقد لاحظ « أن هذا الطوفان كان عابرا للغاية ، اذ كان يتكون أساسا من مياه الأنهار • واذا كانت المياه قد خلفت وراءها الأصداف على مسافات بعيدة ، فلابد أنها قد خلفتها على السطح ، ولم تدفنها فى أعماق بعيدة داخل الجبال • وقد كان من الممكن أن ينهى الجدل حول هذا الموضوع هذا العرض الواضح لهذا الشاهد ، لو لم تتدخل العواطف الانسانية فى هذا الموضوع » • وفى نهاية القرن السابع عشر ، غزا حشد من علماء اللاهوت المجال الجيولوجى فتجمعوا من ايطاليـا وفرنسا وألمانيـا وانجلترا وجعلوا الظلام يخيم على الرأى فى هذا الموضـوع ، حتى تركوه أكثر ابهـاما • ومن ثم فان كل من كان يرفض أن يقتنع بأن مخلفات البحر العضوية دليل على طوفان نوح الذى ورد فى الشريعة الموسوية ، كان معرضا لتهمة الكفر بالكتابات المقدسة • ونادرا ماعبر العلماء منذ عهد « فراكاستورو » ، عن آراء تصل الى حد النظريات السـليمة •

وبذلك انقضى ما يقرب من مائة علم فى الجـدل الذى تلخص فى أن ما عثر عليه من مخلفات عضوية متحجرة لم يكن سوى عمل من أعمال الطبيعة • كما انقضت فترة أخرى تقرب من قرن ونصف قرن فى تأكيد نظرية أن المخلفات الحيوانية والنباتية المتحجرة التى عثر عليها مدفونة فى طبقات الأرض الصلبة ، هى تلك التى خلفها طوفـان نوح • ولم يتدخل بعد ذلك أى منطق نظرى فى أى فرع من فروع العلم بطريقة أكثر جدية من هذا ، وبمـلاحظة أكثر دقة ، وبتصنيف

تنظيمى للحقائق • ويحق لنا فى العصر الحديث أن نعزو تقدمنا السريع أساسا الى تحديدنا الدقيق لنظام تتابع الكتل المعدنية عن طريق محتواها العضوى المتفرع وتطابق أشكالها المنتظم • ولكن الباحثين القدماء فى الرواسب الطوفانية كانوا مدفوعين بوسائلهم الى الخلط بين مجموعات الطبقات الأرضية ، كما كانوا يعزون كل ظواهرها الى سبب واحد ، ويرجعونها الى فترة زمنية قصيرة واحدة ، ولا يرجعونها الى مجموعة أسباب حدثت خلال فترة طويلة من تعاقب العصور • لقد كانوا ينظرون الى الظاهرة فى حد ذاتها فحسب ، وكما يحلو لهم أن ينظرون اليها ، مشوهين الحقائق فى بعض الأحيان ، ومستخلصين النتائج الخاطئة من المعلومات الصحيحة فى أحيان أخرى •• وباختصار فان مجمل التقدم الجيولوجى منذ بداية القرن السابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر ، كان صراعا قويا دائما بين الأفكار الجديدة من ناحية ومعتقدات الأجيال اللاحقة التى يكرسها الايمان التأويلى الذى فرض فيه الاستناد على نصوص مقدسة •

ولم يكن الخطأ الذى ارتكبه « سير تشارلزليل » قد نسى حقا ، ففى أقل من قرن مضى ، عين « وليام بوكلاند » مدرسا للجيولوجيا فى جامعة أكسفورد ، وكان لا يزال يؤكد لمستمعيه فى حفل توليه « أن الحقيقة الكبرى للطوفان الذى انتاب العالم منذ زمن ليس بعيدا للغاية ، قد دعمت بأسس حاسمة لا نزال فيها ، بحيث أننا لو لم نكن قد قرأنا عن هذا الطوفان فى الكتاب المقدس أو فى أى مصدر آخر ، فان علم الجيولوجيا نفسه كان سيفترض حدوث مثل هذه الكارثة ليفسر ظاهرة الحدث الفيضانى » •

كما كتب فى عصرنا عالم جيولوجى آخر مرموق يقول (١) :

---

(١) (Sir) John William Dawson, The Story of the Earth and Men, 6th Ed. (London 1880), p. 290.

(نقلا عن الطبعة الأصلية ج ٢ ص ٣٤٠ حاشية ٣) • (المترجمة)

« لقد كنت أعتقد لزمن طويل ان حكاية الطوفان التى تقع فى الاصحاح السابع والثامن من سفر التكوين لا يمكن أن تفهم الا اننا افترضنا أنها سجل لشاهد عيان دونه فيما بعد مؤلف سفر التكوين • فتحديد وقت ارتفاع المياه وسقوطها ، وسبر غور المياه من أعلى قمم التلال عندما بلغ الفيضان أقصاه ، وغير ذلك من التفاصيل ، فضلا عن الايقاع الكلى للحكاية ، كل هذا يبدو انه يتطلب هذا الفرض ، فضلا على أنه يزيح كل الصعوبات فى سبيل فهم الحكاية ، تلك الصعوبات التى كثيرا ما كان يحس بها القارىء • ولكن اذا كانت حكاية الطوفان فى سفر التكوين تعد سجلا لشاهد عيان ، فكيف يمكننا أن نفسر المتناقضات الواضحة التى تحتوى عليها الحكاية فيما يختص بمدة الطوفان وعدد الحيوانات التى سمح لها نوح بدخول السفينة ؟ ان مثل هذه النظرية ، فضلا على أنها لم تحل المشكلات التى أثارتها الحكاية ، فانها على العكس جعلتها متعذرة كلية على الفهم ، اللهم الا اذا تبنينا بالمثل افتراضات غير عادلة ومسيئة لصدق المؤلف أو لوقاره •

ولن نسهب كذلك فى عرض تفسير آخر لحكايات الطوفان تمتع بشعبية كبيرة فى السنوات الأخيرة فى ألمانيا • فحكاية الطوفان ، وفقا لهذا التفسير ، ليست لها علاقة بمياه أو بفلك ، وانما هى أسطورة تتصل بالشمس أو القمر أو النجوم ، أو بها جميعا • على أن هؤلاء العلماء الذين توصلوا لهذا الكشف الغريب ، لم يتفقوا فيما بينهم بحال من الأحوال حول تفاصيل نظريتهم الفلكية ، فى الوقت الذى اتفقوا فيه على رفض التفسيرات الدنيوية الشائعة • فبعضهم رأى أن الفلك يمثل الشمس ، والبعض الآخر رأى أنه يمثل القمر ، وأن القار الذى طلى به الفلكتعبير تجسيدى لخسوف القمر ، كما تمثل طوابق الفلك الثلاث مراحل مدار القمر • وقد حاول آخر المدعين لهذه النظرية أن يوفق بين كل المتناقضات فى وحدة واحدة ، بأن جعل الناس يركبون القمر بينما تركوا الحيوانات تفعل ما يحلو لها بين النجوم • حقا انه لما يشرف هؤلاء كثيرا أن تناقش مثل هذه السخافات جديا بطريقة

علمية • وانما حرصت على أن أشير اليها لما أحدثته من بهجة خففت من ملل المناقشة الطويلة الجادة •

على أننا اذا أهملنا هـذه التصـورات الخالية ، وهذا هـو ما تستحقه بحق ، فما زال أمامنا أن نوجه السؤال عن أصل حكايات الطوفان • فهل هذه الحكايات تعبر عن حقيقة صـادقة أو عن كذب ملفق ؟ وهل هذا الطوفان الذى تصفه الحكايات باصرار ، قد حدث حقا أو لم يحدث ؟ اننا يمكننا أن نقـول بشيء من الثقة ان هـذه الحكايات فى حدود وصفها للطوفانات التى أغرقت العالم جميعا حتى المرتفعات الشاهقة ، كما أغرقت الناس والحيوانات جميعـا على وجه التقـريب ، حـكايات كاذبة • ذلك أنه اذا أمكننـا أن نثق فى أكثر الشواهد ثقة لعلم الجيولوجيا الحديث ، فان مثل هذه الكارثة لم تحدث قط طوال عصور سكنى الانسان على وجه الأرض • أما ما يفترضه بعض الفلاسـفة من أن محيطـا كونيا غمـر الأرض جميعـا قبل أن يعيش الانسان على وجه الأرض ، فهذه مسألة أخرى تماما • فقد تصـور « ليبنتز » ، على سبيل المثال ، أن الأرض « كانت فى الأصل كتـلة مضيئة مشتعلة ثم أخذت تتعرض لعمليات التبريد منذ ذلك الوقت • فلما بردت القشرة الخارجية بما فيه الكفاية ، بحيث سمحت للبخار بأن يتكثف على سطحها ، تسـاقطت الأبخرة المكثفة مكونـة المحيط الكونى الذى غطى أعلى الجبال ارتفاعا وأحدق بالأرض جميعا » • ومثل هـذه النظـرية التى تقول بتـكون محيط أولـى من الأبخـرة المتكثفة بينما كانت المواد المنصهرة فى كوكبنا الأرضى تفقد حرارتها تدريجيا ، هذه النظرية تتبع بالضرورة فرض « نيبيولار » الشـهير الذ ىنادى به « كانت » لأول مرة مفسرا به أصل الأجرام الكونية ، ثم وسعه « لابلاس » فيما بعد • كما كان لامارك كذلك « متأثرا بعمق الاعتقاد الذى كان سائدا بين الطبيعيين القدامى وفحـواه أن المحيط الأولى أحدق بالكوكب الأرضى بعد أن سكنتها الكائنات الحية بزمن طويل » • على أنه اذا كانت مثل هذه التأملات قد راودت الانسـان البدائى ، فانها تختلف بوضوح عن حكايات الطوفان الذى قضى على

للناس جميعا على وجه التقريب ، لأن مثل هذه الحكايات افترضت وجود الجنس البشرى على وجه الأرض قبل حدوث الطوفان ، ومن ثم فهى لا ترجع الى عصر سبق عصر البلايستوسين ٠

ولكن على الرغم من أن حكايات الطوفان الكبير ذات طابع خرافى صرف ، فمن الممكن ، بل انه من المحتمل حقا ، أن كثيرا منها يخفى بذرة من الحقيقة تحت غلافها الأسطورى٠ أى أن هذه الحكايات من الممكن أنها تحتوى على ذكرى حوادث الطوفان الذى غمر أحياء بعينها بحق ٠ ثم صور الطوفان المحلى بشىء من المبالغة فى أثناء انتقال الروايات ، فأصبح كارثة حلت بالعالم ٠ وسجل التاريخ غنى بأمثلة عن الفيضانات الكبيرة التى جلبت معها الدمار هنا وهناك ٠ وقد كان الامر يكون غريبا حقا، اذا لم تكن ذكرى بعض هذه الحوادث قد عاشت طويلا بين سلالات الأجيال التى عاصرت هذه الحوادث ٠ واذا شئنا أن نسوق أمثلة لمثل هذه الفيضانات المدمرة ، فاننا لن نبعد بعيدا ونشير الى البلد المجاور لهولندا ، الذى كثيرا ما تعرض للفيضانات فى القرن الثالث عشر ، فكثيرا ما هددت الفيضانات الأراضى المنخفضة التى تقع على طول «فلى» حتى غمرتها الأمواج فى نهاية الامر ٠ وبالمثل طغى المحيط الألمانى على بحيرة « فليفو » ــ الداخلية ٠ وقد بدأ بحر « زويدرزى » وجوده بأن غمر آلافا من القرى الفريزيانية ، وأغرقها بمن فيها من السكان ، ثم فصل بين الاهالى عن طريق أخدود حفره وسط بلادهم ٠ وبذلك طمس هذا الطوفان الكبير معالم هذه البلاد الجغرافية والسياسية معا ٠ وهكذا انعزل الهولنديون عن أقربائهم فى الشرق عن طريق هذا البحر الخطير الشبيه بذلك البحر الذى عزلهم عن اخوانهم الأنجلوسكسونيين فى انجلترا ٠ ثم حدث أن هبت عاصفة من الشمال فى بداية القرن السادس عشر ، فدفعت مياه المحيط الى شاطىء زيلندة المنخفض فى سرعة هائلة بحيث لم تتمكن المياه أن تتدفق فى مضيق دوفر ٠ وقد تحطمت حواجز « بيفلاندة الجنوبية » وغمرت مياه البحر البلاد ، وأغرقت مئات القرى ، وانفصل جزء من البلد عن الضواحى ودفن تحت

الأمواج ، وبذلك أصبحت « بيفلاندة الجنوبية » جزيرة ، ومنذئذ أصبح الشريط المائى الذى فصلها عن سائر القارة يعرف « بالارض الغرقى » •

ولم يتسبب الطوفان الذى أغرق بقاعا من هولندا فى هذه الظروف وغيرها عن سقوط الأمطار الغزيرة ، وانما تسبب عن ارتفاع مياه البحر • وعلى نحو هذا نرى أن الطوفان فى غير قليل من حكايات الطوفان لا يعزى الى سقوط الأمطار ، وانما يعزى الى ارتفاع مياه المحيط • فارتفاع مياه البحر هو سبب الفيضان الذى حكى عنه أهالى جزر « نياس » و «انجانو» و «روتى» و «فرموزا» و (تاهيتى ، و «هاواى»و «راكانجا» وجزر «بيلو»،وفيما روته القبائل الهندية التى تقطن الشاطىء الغربى من أمريكا من « تيراديل فويجو » فى الجنوب الى « آلاسكا » فى الشمال ، وما رواه « الاسكيمو » الذين يسكنون شواطىء المحيط المتجمد •• ومن الواضح كل الوضوح أن مثل هذه الحكايات تنتشر على نطاق واسع عند شواطىء جزر المحيط الهادى وفى داخل هذه الجزر ، ذلك لأن المحيط الهادى يتعرض من وقت لآخر للهياج الناجم من الزلازل العنيفة ، ذلك الهياج الذى كثيرا ما تسبب فى اغراق الشواطىء والجزر التى حكت عنها حكايات الطوفان الكبير الذى نجم عن ارتفاع مياه البحر • أفلا يحق لنا بعد هذا ، بل أفلا يتحتم علينا، أن نفسر نشأة بعض هذه الحكايات على الأقل بحدوث مثل هده الفيضانات ؟ أليست كل الاحتمالات تؤيد العلاقة السببية لا العرضية بين هذه الحكايات والفيضانات التى حكت عنها ؟ •

ومن الطبيعى أن أول رد فعل عند الأهالى الذين يسكنون الشواطىء التى تتعرض للزلازل وما يتبع هذا من ارتفاع مياه البحر ، أن يلجأ هؤلاء الأهالى، عندما يشعرون بالهزات الأرضية، الى المرتفعات العالية طلبا للحماية من مياه الفيضان • ولقد رأينا أن الهنود الأراوكانيين ، سكان « شيلى » الذين يروون حكاية عن الطوفان الكبير ، والذين يخشون من تكرار هذا الدمار ، يأوون الى الجبال عندما يشعرون بهزات

أرضية عنيفة . كما تعود « الفيجيانيون » الذين رووا بالمثل حكاية عن الطوفان المهول ، أن يعدوا قواربهم لاحتمال حدوث طوفان آخر شبيه بما حكوا عنه . فاذا أخذنا فى الاعتبار كل هذه الحقائق ، فربما قبلنـــا تفسير العالم الاثنولوجى الامريكى المشهور « هوراشيو هالى » ، الذى فسر به الرواية الفيجيانية عن الطوفـــــان ، بوصفه تفسيرا معقولا ومحتملا . فقد كتب تعليقـــا على ما ورد من أن « الفيجيانيين » كانوا فيما مضى يعدون قواربهم لاحتمال حدوث طوفان آخر فقال :

« ان هذا التقرير ــ الذى سمعناه من اناس آخرين بنفس التعبير ــ ربما دفعنا الى أن نتساءل عما اذا كان قد حدث فى تاريخ هــذه الجزر حوادث حقيقية كانت دافعا على نشأة هذه الحكايات ، وعلى عــــادة الاحتفاظ بالقوارب معدة لحدوث أية كارثة . ففى السابع من نوفمبر عـــام ١٨٣٧ تغير مجـــرى المحيط من الشرق الى الغرب بتـــأثير الأمواج العاتية التى سببتها حدوث الزلازل فى شيلى ، وشعر بها ســـكان جزر « بونين » . كما ارتفعت المياه عند جزر « ساندوتش » عند شـــاطىء « هاواى » الشرقى ، وفقا لما ذكره « جارفيس » فى تاريخه (صفحة ٢١) وبلغ ارتفاعها عشرين قدما فوق سطح البحر ، فغمرت الأراضى المنخفضة كما غمرت عدة قرى ، وأهلكت كثيرا من الكائنات الحية . وقـــد تكرر حدوث مثل هذا الفيضان فى هـــذه الجزر فى ظروف أخـــرى . فاذا افترضنا ، وهو أمر ليس بعيد الاحتمال ، أنه فى غضون ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة ، ان أمواجا بلغ ارتفاعها أضعاف ما ذكره «جارفيس» قد تجاوزت المحيط الى جزر « فيتيان » (فيجيان) ، فمن المؤكد أن مثل هذه الأمواج قد أغرقت السهول الخصبة التى تقع على الجـــانب الشرقى من « فيتيليفو » التى تعد أكثر الجزر ازدحاما بالســـكان . ولا يساورنا شك فى أن يغرق عدد كبير من السكان فى هذه الظروف ، وأن يهرب البعض فى قواربه ، ويلجأ الى جزيرة « مبينجا » الجبليـــة التى تقع بالقرب من هذه المنطقة .

ومثل هذا التفسير يمكن أن ينطبق بوضوح على سائر اســـاطير

الطوفان التى دونت فى جزر الباسفيك ، حيث ان هذه الجزر جميعا قد تعرضت على هذا النحو فيما يبدو ، الى غزو الأمواج العالية التى تتبع الهزات الأرضية • وقد يبدو أنه من الاسلم على الأقل ، فى حدود معلوماتنا الراهنة ، أن نقبل بصفة مؤقتة ، وجهة نظر العالم الاثنولوجى الأمريكى المرموق ، بدلا من أن نقبل نظرية عالم اثنولوجى ألمانى بارز نزع الى تفسير كل الحكايات البولوينزية بوصفهـا أساطير تجسد حركة الأجرام السماوية هى الشمس والقمر والنجوم •

واذا كانت بعض حكايلت الطوفان التى نشأت بدافع فيضان البحار تعتمد على هذا النحو ، على أساس تاريخى ، فليس هناك ما يمنع من أن حكايات الطوفان الذى تسبب عن سقوط الامطار الغزيرة ، ترتكز بالمثل على هذا الواقع الطبيعى • فها نحن هؤلاء الذين يسكنون البقاع المنبسطة من بريطانيا ، قد تعودنا حدوث فيضانات محلية تسببها الأمطار الغزيرة• فقد حدث ، على سبيل المثال ، منذ بضع سنين أن غمرت الميـــاه التى تجمعت من سقوط مطر غزير مفاجىء كان أشبه بالوابل ،أجزاء كبيرة من « نورفولك » بما فى ذلك « نورويتش » • وبهذا السبب نفسه غرقت الأجزاء المنخفضة من « باريس » منذ بضعة ســنوات مضت ، مخلفة الرعب والفزع لا بين ســكان باريس وحدهم ، بل بين عشـــاق المدينة الجميلة فى جميع أنحاء العالم • ولعله من اليسير أن ندرك بعد هذا ، كيف يمكن أن تكبر ذكرى كارثة من هذه الكوارث بين شعب جاهل أمى لا يتجاوز تفكيره حدود رؤياه ، فتصبح فى خلال أجيال أسطورة تحكى عن طوفان عالمى لم يهرب منه سوى أفراد مفضلين بطريق أو بآخر • بل ان المسافر أو المقيم الأوربى الذى استمع من جماعة من البـدائيين الى حكاية عن طوفان محلى صرف غرق فيه كثير من الناس ، يمكن أن يبالغ فيها الى حد كبير ، ويفسرها فى ضوء حكاية طوفان نوح التى ألف هـو نفسه أن يسمعها منذ صغره •

وعلى هذا النحو رأى بعض الباحثين أن يفسروا كلا من الحكاية

للبابلية والعبرية عن الطوفان الكبير من خلال ظاهرة الفيضانات التى يتعرض لها وادى نهر الفرات ودجلة فى كل عام بسبب سقوط الأمطار الغزيرة وذوبان الثلوج على جبال أرمينيا • فقد قيل ان أساس الحكاية البابلية هى ظاهرة سقوط الأمطار وموسم العواصف فى كل عام ، تلك الأمطار والعواصف اللتان كانتا تدومان عدة شهور تغرق فى أثنائها أحياء كاملة فى وادى نهر الفرات • وقد كانت الأمطار والعواصف تسببان دمارا مروعا يستمر حتى ينتظم مجرى نهر دجلة والفرات مرة أخرى وتحل البركة محل اللعنة ، عندما يحل الخصب الذى اشتهرت به بلاد بابل • وتذكرنا حكاية الطوفان العبرية بموسم بعينه حل فيه دمار ترك تأثيرا عميقا فى النفوس • وتؤكد مقارنة الحكاية العبرية بأختها البابلية التى عثر عليها دونة على ألواح الطين فى مكتبة آشور بانيبال ، وجهة نظر نشأة الحكاية محليا •

وبناء على هذا الفرض ، فان الطوفان الكبير قد تسبب عن سقوط أمطار غزيرة غير عادية وعن ذوبان الثلوج • ولم يكن هذا سوى صورة غير مألوفة لظاهرة عادية • وقد ترك هذا الدمار الذى حل بالوادى أثرا لا يمحى فى ذاكرة الأحياء وذاكرة الأجيال من بعدهم • وقد يقال انه مما يؤيد وجهة النظر هذه ، أن كلا من الحكاية البابلية وأقدم صيغة للحكاية العبرية ، تؤكد أن السبب الوحيد الذى يعزى اليه حدث الطوفان هو سقوط الأمطار الغزيرة •

ويمكن الاستشهاد كذلك ، تأييدا لهذه النظرية ، بما تتعرض اليه البلاد حتى اليوم من فيضانات خطيرة بسبب العوامل الطبيعية • فعندما وصل «لوفتوس» أول عالم آثار عمل فى حفريات مدينة «وركا» القديمة فى الخامس من مايو عام ١٨٤٩ م وجد أن السكان فى أقصى حالات الفزع وتوقع الخطر ، ففى أعقاب ذوبان الثلج السريع على جبال الأكراد ، وتدفق المياه من نهر الفرات عبر قناة « السجلاوية » ارتفعت مياه دجلة فى ربيع هذا العام الى مستوى لم تصل اليه من قبل ، اذ بلغ ارتفاعها

العادى الذى كان يرتفع اليه النهر فى السنوات السالفة • بل انه ارتفع عن أقصى منسوب وصل اليه عام ١٨٣١ م ، عندما حطم النهر الجسور ، وأغرق مالا يقل عن ألف مسكن فى ليلة واحدة ، فى وقت كان الوباء ينشر أكبر خراب مروع بين السكان • وقبل وصول البعثة الانجليزية ببضعة أيام ، دعا الباشا التركى ، حاكم بغداد ، الشعب كله دعوة رجل واحد ليقوم على حماية البلاد من الخطر الداهم بتشييد جسور حول الأسوار • فغرس الناس فى الأرض جدائل من البوص لكى تمسك التربة مسكا محكما ، وبذلك حيل بين الماء وبين تدفقه داخل البلاد ، وان كانت المياه قد تسربت الى الأرض الطينية الرخوة وارتفعت فى المطامير الى عدة أقدام • أما خارج المدينة فقد ارتفعت المياه الى قدمين فوق الشاطىء ولم يحل دون تدفق المياه داخل البلد سوى البيوت التى كانت تقف على الشاطىء ومعظمها كان واهيا ، بالغ القدم • لقد كان وقتا حرجا للغاية ظل الناس فيه ساهرين ليلا ونهرا يرقبون الحواجز •ولو كان الخزان أو احدى الحواجز قد فشلت فى حجز المياه ، لغرقت بغداد عن آخرها • ولكن التحصينات صمدت لحسن الحظ حتى انحسرت المياه تدريجيا • أما أطراف المدينة فقد غمرها الماء بحيث تعذر الوصول وراء الحواجز الا عن طريق القوارب التى استخدمت وسائل انتقال فى الأماكن التى غمرتها المياه • وهكذا ظلت المدينة لبعض الوقت كالجزيرة وسط بحر داخلى • وقد استمر الحال على هذا النحو مدة شهر قبل أن يتمكن الناس من السير وراء الحواجز • وعند مقدم الصيف تسببت الأبخرة المتصاعدة من المياه المتراكمة فى انتشار الملاريا على نطاق واسع بحيث مات من الناس الذين كان يبلغ عدهم سبعين ألفا ، مالا يقل عن اثنى عشر ألف نسمة بسبب الحمى •

فاذا كانت الفيضانات التى تتسبب عن ذوبان الثلوج فوق جبال ارمينيا من الممكن أن تهدد البلاد الواقعة فى وادى النهر حتى العصر الحديث ، فليس بعيدا أن نفترض أنها كانت تفعل هذا أيضا فى العصور

القزيمة ، ومن ثم فان الحكاية البـابلية التى حكت عن دمار مدينـة « شوريباك » بسبب الطوفان ترتكز على أصل واقعى • حقا انه يبدو أن المدينة قد دمرت بسبب النار لا الفيضان ، ولكن هـذا يتفق تماما مع افتراضنا أن الفيضان كان قد دمر المدينة فى عصر أكثر قدما ، ثم أعيد بناؤها بعد هـذا •

وفى العموم ، فانه يبدو أن هناك سببا معقولا يدعونا لأن نفكر أن بعض حكايات الطوفان ، ومن المحتمل الكثير منها ، ليست سوى أخبار مبالغ فيها عن الفيضانات التى حدثت بالفعل ، أما بسبب الأمطار الغزيرة أو بسبب الأمواج الثائرة التى تعقب الهزات الارضية أو لأى سبب آخر • ومن ثم فان مثل هذه الحكايات تعد مزيجا من الحقيقة والأسـطورة • فهى حقيقية بقدر ما تحتفظ بذكرى الفيضانات التى حدثت حقا ، وهى أسطورية بقدر ما تصف الفيضانات العالمية التى لم تحدث قط • على أننا صـادفنا فى أثنـاء عرضنا لحكايات الطوفان ، حكايات ذات نزعة أسطورية صرفة ، لأنها تتحدث عن طوفان لم يحدث قط • ومثال ذلك الحكايات « الساموثراسيانية » و « الشيساليانية » التى ربط الاغريق بينها وبين اسمى « داردانوس » و « دويكاليون » • ومن المحتمل أن الحكاية « الساموثراسيانية » ليست سوى استدلال خاطىء مستخلص من المعالم الجغرافية الطبيعية للبحر الأسود وحدوده ، ونعنى البوسفور والدردنيل • وبالمثل فان الحكاية « الفيساليانية » ليست سوى استدلال خاطىء مستخلص من الحقائق الجغرافية الطبيعية لحوض تسيساليان الذى تحيط به سلسلة من الجبال ، ويحده أخدود « تيمبى » • ومثل هذه الحكايات ليست حقيقية وانما هى أسطورية صرفة ، فهى تصف كوارث لم تحدث على الاطلاق • ولهذا فهى تعد نماذج من هذا النوع من الحكايات الأسطورية التى أطلق عليها « سير ادوارد تايلور » ، الحكايات التليلية حيث انها تعتمد على ملاحظة الظواهر الطبيعية ، وتخطىء فى تفسيرها •

وهناك مجموعة أخرى من حكايات الطوفان التى تندرج تحت صنف

الاساطير التليلية وهي تلك الحكايات التي تعتمد على ملاحظة المخلفات الحيوانية والنباتية التي عثر عليها فوق الجبال وفي الاماكن النائية من البحر . ومثال هذا النوع كما رأينا ، ما روى عن سكان منغوليا وسكان « وسيليبس » الذين يتحدثون اللغة البارية ، والتاهيتيين والاسكيمو ، وسكان جرينلاند . فحيث أن هذه الحكايات تعتمد على فرض خاطيء مؤداه أن مياه البحر لابد أنها ارتفعت حتى غمرت المرتفعات التي عثر فوقها على المخلفات الحيوانية والنباتية ، فهي تعد حكايات استلالال خاطئة ، أي أنها تندرج تحت صنف الأساطير التليلية . ولو أنهم افترضوا هبوط هذه المرتفعات سالفا تحت سطح البحر ، لكان ذلك استلالالا حقيقيا ، أو حدسا علميا ..

ومن ثم فانه اذا كان هناك سبب معقول يجعلنا نعتقد أن كثيرا من حكايات الطوفان التي انتشرت في انحاء العالم ترتكز على ذكرى كوارث حدثت بالفعل ، فانه ليس هنالك أدلة مؤكدة تجعلنا نعتقد أن أيا من هذه الروايات أقدم من ثلاثة آلاف سنة على الاكثر . وحيثما وجدنا روايات تصف التغيرات الكبيرة التي طرأت على شكل الكرة الأرضية ، وهي تغيرات حدثت في زمن ما في العصور الجيولوجية القديمة ، فان تلك الروايات لا ترتكز على سجل شاهد عيان معاصر لتلك التغيرات ، وانما ترتكز على تأملات مفكرين عاشوا في عصور متأخرة عن عصور هذه التغيرات بزمن طويل . فالانسان ، بالقياس الى الملامح الطبيعية الهائلة لكوكبنا الأرضي ليس سوى ابن الأمس ، كما أن ذاكرته ليست سوى حلم ليـــلة ..

الفصل الخامس

برج بابـل :

من بين المشكلات التى وقفت عقبة دون أية محاولة للبحث عن فجر تاريخ الجنس البشرى ، مسألة أصل اللغة وهى فى الوقت نفسه من أكثر المسائل اثارة وأكثرها صعوبة • على أن الكتاب الذين ضمنوا الفصول الاولى من سفر التكوين آراءهم الساذجة عن الأصول البشرية لم يذكروا شيئا عن الوسيلة التى يمكن أن يكونوا قد تصوروا أن الانسان قد حصل بهـا على أهم القدرات التى تميزه عن الحيوان وهى القدرة على الكلام البين • بل انهم على العكس ، قد افترضوا فيما يبدو ، أن الانسان قد منح تلك القدرة التى لا تقدر بثمن ، منذ الأزل • نعم ، بل تصوروا أن هذه القدرة كانت قاسما مشتركا بين الانسان والحيوان ، اذا كان لنا أن نستدل على ذلك من خلال حديث الانسان مع الحيوان فى جنة عدن • ومهما يكن الامر ، فان اختلاف اللغات التى تحدثت بها الاجناس الانسانية المختلفة ، قد جذبت بطبيعة الحـال أنظار العبريين القدماء وفسروهـا من خـلال الحكاية التالية •

كان الجنس البشرى بأسره ، يتحدث لغة واحدة فى بداية الحياة• ثم انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من بابل ،وهناك حطوا رحالهم • وابتنوا مساكنهم من الطوب بعد أن الصقوا بعضه بالبعض الآخر بملاط من الطين ، حيث انه كان يتعذر عليهم الحصول على الأحجار فى التربة الرخوة للمسطحات المستنقعية الشاسعة • على أنهم لم يكتفوا ببناء مدينة ، بل رأوا أن يشيدوا برجا عاليا يصل الى عنان السماء من نفس المواد التى بنوا بها مساكنهم • والسبب الذى دفعهم الى بناء هذا البرج ، هو أن يكون البرج علامـة

لهم من ناحية،وحتى لايتفرق الناس على سطح الأرض من ناحية أخرى • ذلك أنه اذا تجول أحدهم خارج المدينة وضل طريقه فى السهول المترامية ، فانه ينظر الى الوراء غربا ، فيرى من بعيد هذا البرج وهو يقف مظلما وقد انعكست عليه أضواء سماء المساء البراقة• أو أنه ينظر شرقا فيبصر قمة البرج وقد انعكست عليه بقايا أشعة شمس الغروب • وعند ذاك يسلك طريقه مسترشدا بهذا المعلم حتى يصل الى بيته• وقد كانت هذه الخطة سليمة ، لولا أنهم لم يكونوا قد وضعوا فى حسابهم قوة الرب وغضبه عليهم • فبينما كانوا يشيدون البرج بقواهم وسواعدهم الفتية ، هبط الرب من السماء ليبصر المدينة والبرج الذى كان الناس يعملون به فى سرعة فائقة • فساءه هذا المنظر وقال لهم : « ها هم أولاء شعب واحد له لسان واحد ، وهذا ما شرعوا فى عمله ، ولن يمنعهم شىء من تحقيق غرضهم » ويبدو أن الرب كان يخشى أنه عندما يكتمل بناء البرج ويصل الى عنان السماء يتسلقه الناس ويقضون مضجعه ، وهو الأمر الذى لم يفكر فيه الناس • ولذلك فقد عزم الرب على أن يقضى على هذه الخطة فى مهدها • وقال لنفسه أو لمجمعه السماوى « لنهبط الى الارض ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضا » • وعند ذاك هبط الرب وبلبل لغتهم وفرقهم على وجه الأرض • ومن ثم فقد كف الناس عن بناء المدينة والبرج • وقد أطلق على هذا المكان اسم بابل ومعناه البلبلة ، لأن الرب قد بلبل فيه لغات الناس جميعا •

وقد زخرفت رواية عبرية متاخرة هذه الحكاية البسيطة بتفاصيل تصويرية غنية • من هذه التفاصيل نعلم أن فكرة تشييد برج بابل لم يكن يقصد بها سوى التمرد على الاله، وان لم يتفق المتمردون على هدف واحد • فبعضهم كان يرغب فى ارتقاء السماء واعلان الحرب على شخص الاله ، واحلال أصنامهم محله • والبعض الآخر قصر هدفه على فكرة أكثر تواضعا ، هى الحاق الضرر بالقبو السماوى ، وذلك بضربه بالرماح والسهام • وقد ظل الناس يشيدون البرج عدة سنين

حتى شمخ عاليا ، وأصبح على البناء أن يقضى عاما كاملا فى سبيل الوصول الى أعلى البناء وهو يحمل وعاء الملاط فوق ظهره . فاذا هوى البناء ساقطا وكسرت رقبته ، لم يبال أحد بذلك ، انما ينفجر الجميع فى البكاء على الطوب الذى لم يستخدم فى استكمال بناء البرج ، اذ يتحتم عليهم أن ينتظروا عاما آخر حتى يتمكنوا من اضافة قوالب أخرى الى البناء . وقد كانوا يعملون فى حماسة بالغة الى درجة أن المرأة لم تكن تكف عن اعداد الطوب ساعة ولادة طفلها . فاذا ولدت الطفل ربطته حول بطنها بملاءة واستأنفت عملها فى تشكيل قوالب الطوب وكأن شيئا لم يحدث . وهكذا استمر العمل ليل نهار دون توان . وهناك من أعلى البرج صوبوا سهامهم نحو السماء ، فكانت سهامهم ترتد الى الذين يقفون أسفل البرج وهى ملوثة الدماء . وعند ذاك صاحوا قائلين . « لقد قتلنا كل من فى السماء » . وهنا نفذ صبر الرب وتوجه الى الملائكة السبعين الذين يحيطون بعرشه ، وأمرهم أن يهبطوا الى الأرض ويبلبلوا ألسنة الناس . وفعلت الملائكة ما أمروا به ، ونجم عن ذلك سوء تفاهم دائم ومؤلم بين الناس ، فاذا طلب رجل ، على سبيل المثال ، الملاط من رجل آخر ، قدم اليه هذا قالبا من الطوب بدلا من الملاط ، فيغضب الأول ويقذف بقالب الطوب فى وجهه فيقتله . وهكذا مات كثير من الخلق على هذا النحو . ومن لم يمت عاقبه الرب جزاء جريمة التمرد التى دبرت ضده . أما عن البرج الذى لم يكن قد اكتمل بناؤه بعد ، فقد هوى جزء منه ، كما التهمت النار جزءا آخر ولم يظل واقفا منه سوى ثلثه . هذا ولم يفقد هذا المكان خاصيته العجيبة قط ، فكل من مر به نسى كل ما كان يعرفه .

ان مشهد هذه الاسطورة قد صور فى أرض بابل ، ذلك أن كلمة بابل هى الصيغة العبرية الوحيدة لاسم هذه المدينة . أما كون الكلمة هى الصيغة الشائعة المستخلصة من الفعل « بلل » (بلبل بالآرامية) بمعنى بلبل ، فهذا خطأ . أما المعنى الحقيقى للكلمة ، كما يتضح من الصيغة التى دون بها الاسم فى المخطوطات فهو فيما يبدو « بوابة

الرب » (باب ـ ايل أو باب ـ ايلو) • وربما كان الشارحون على حـق فى ارجاع دافع الحكاية الأصلى الى التأثير العميق لهذه المدينة الكبيرة على عقول البدو الساميين السذج • فهؤلاء الذين كانوا قـد اعتـادوا الوحـدة وسكون الصحراء ، قد أذهلهم ضجيج الشـوارع والأسواق ، وبهرتهم الألوان المتغيرة فى الزحام المصطخب ، كمـا دهشوا لضجيج الأصوات التى تنطلق من السنة غريبة ، وذعروا لرؤية المبانى الشاهقة وبصفة خاصة تلك المعابد ذات الارتفاع الشاهق وهى تعلو طابقا فوق الآخر حتى كانت تبدو قممها البراقة المبنية من الطوب المصقول وكأنها تمس صفحة السماء الزرقاء • وليس بعيدا بعـد هذا أن يتصور ساكنو الخيـام أن هـؤلاء الذين تسلقوا هذا البرج الهائل عن طريق انحداراته الملتفة حتى كانوا يبدون فى النهاية كالذرة المتحركة على قمة البرج ، أنهم كانوا قد اقتربوا من الآلهـه بحق •

ولا تزال الآثار الترابية لمعبدين هائلين من هذه المعابد ترى حتى اليوم فى بابل • ومن المحتمل أن أسطورة برج بابل تتصل باحدى هذه المعابد أو بالآخر • ولا يزالأحد هذين المعبدين يبرز بين حطـام بابل نفسها ويحمل اسم بابل • أما المعبد الآخر فيقع حطامه عند النهر قرب « بورسيبا » على بعد ثمانية أو تسعة أميال جهة الجنوب الغربى ويعرف باسم « بيرز نمرود » • وقد كان الاسم القديم لهذا المعبد الذى كان يقع فى مدينة بابل ، هو « أى ـ ساجيل » (١)،وكان مخصصا لعبادة الاله « مردوك » • أما الاسم القديم للمعبد الذل كان يقع قـرب « بورسيبا » فهو « اى ـ زيدا » وكان مخصصا لعبادة الاله « نبو »• ولم يتفق الباحثون حول أى من المعبدين كان فى الأصل هو برج بابل ، فالحكاية المحلية واليهودية تربط بين البرج الأسطورى وحطام«بئر نمرود» الذى يقع عند « بورسيبا » • ونحن نعلم من مخطوط عثر عليه فى هذا المكان ، أن الملك البابلى القديم الذى بدأ فى بناء بـرج

---

(١) كلمة اىَ فى اسمى المعبدين سومارية ومعناها بيت •

المعبد عند « بورسيبا » ، تركه ناقصا بدون قمة • وربما كان منظر هذا الصرح الهائل فى شكله غير المكتمل هو الدافع وراء نشأة اسطورة برج بابل ••

وعلى كل ، فقد كان فى بابل الكثير من أبراج المعابد ، وربما كانت الأسطورة ترتبط بأحد هذه الأبراج • فحطام مثل هذه المعابد ، على سبيل المثال ، لا يزال قائما فى « أورو » أو « أور الكلدانيين » التى هاجر منها ابراهيم ، فيما يقال ، الى أرض كنعان • ويعرف هذا المكان الآن باسم « المقير » أو « المجير » وهو يقع على الشاطىء الأيمن لنهر الفرات على بعد خمسة وثلاثين ميلا جنوب شرق بابل • ولا تزال مجموعة من الروابى المنخفضة ذات الشكل البيضاوى تشير الى مكان المدينة القديمة • وأرض هذه المدينة التى تلتف حول الروابى مسطحة للغاية بحيث ان مياه فيضان نهر الفرات كثيرا ما تغمرها فى الفترة ما بين شهر مارس الى شهر يونيه أو يوليه • وعند ذاك تبرز هذه الروابى كالجزيرة وسط مستنقع كبير ، ولا يمكن الوصول اليها الا بواسطة القوارب • وتمتد أشجار النخيل على طول شاطىء النهر دون انقطاع حتى تختفى فى الخليج الفارسى • وبالقرب من الطرف الشمالى لهذا المكان ، تتشمخ أطلال برج المعبد الى ما يقرب من سبعين قدما • ويتكون هذا الصرح من طابقين فى شكل متواز قائم الزوايا يتجه جانباه الكبيران جهة الشمال الشرقى والجنوب الغربى ويبلغ طول كل منهما حوالى مائتى قدم • أما الجانبان الأصغران فيبلغ طول كل منهما مائة وثلاثين قدما • وتتجه احدى زوايا الصرح جهة الشمال تقريبا ، كما هو الحال فى جميع الابنية المماثلة له • ويرتكز الطابق الأسفل الذى يبلغ ارتفاعه سبعة وعشرين قدما على دعائم قوية • أما الطابق العلوى الذى يبتعد عن طرف الطابق الأسفل بحوالى ثلاثين الى سبعين قدما ، فيبلغ ارتفاعه أربعين قدما وتتوجه أنقاض من الطوب يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام على وجه التقريب • أما مرتقى هذا الصرح فقد كان من جهة الشمال الشرقى • ويشير نفق محفور فى

الرابية الى أن الصرح كله كان مبنيا من الداخل من الطوب المجفف فى الشمس ، تحيط به طبقة سميكة بعضها من الطوب المحروق ذى لـــون أحمر فاتح ، وتفصل بين بعضه وبعض عيدان الغاب • ويبلغ سمك هذا كله عشرة أقدام حيث انه مغلف بحائط مرصع بالطوب المحروق فى الأفران • وقد عثر على سطوانات محفور عليها كتاباتفى الزوايا الأربع من هذا المبنى ، وكل اسطوانة كانت موضوعة فى كوة هى عبارة عـــن قالب منزوع من الطوب • وقد أثبتت الحفريات التى تمت بعد ذلك أن الكتابات التذكارية على هذه الاسطوانات ، فيما يبدو ، كان البناءون أو الذين يقومون بترميم المعابد البابلية والقصور يضعونها فى أركان الصروح الأربعة •

وقد علمنا من احدى هذه الكتابات أن المدينة اسمها « أور » ، وأن المعبد قد خصص لعبادة الاله « سين » اله القمر البابلى (١) • كما علمنا أن الملك أور ــ أوك أو «أورينجور» ، كما ينبغى ان ينطق اسمه الذى شيد برج المعبد ، قد تركه غير كامل ، وان هذا الصرح قد أكمله ابنه الملك « دونجى » من بعده • ويختلف تاريخ حكم الملك « أور ــ أوك » أو « أورينجور » ، فهو يتحدد بعام ٢٧٠٠ ق•م• أو بعام ٢٣٠٠ ق•م• وفى كلتا الحالتين فان بناء المعبد قد سبق التاريخ الذى يحدد عادة لميلاد ابراهيم ، ربما بمئات من السنين • فاذا كان ابراهيم قد هاجر حقا من « أور » الى « كنعان » ، كما تذكر ذلك الرواية العبرية، فان هذا البناء بعينة الذى ما تزال آثاره المقدسة قائمة بهـــذا المكان حتى اليوم ، والذى كان مسيطرا بارتفاعه الشامخ على طبيعة البلاد المسطحة التى يخترقها نهر الفرات متجها الى البحر ــ كان يألفه ابراهيم منذ نعومة أظفاره ، وربما كان آخر ما وقـــع عليه بصره فى بلـــده ، عندما رحل ليبحث عن أرض الميعاد ، فودعه وهـــو ينظر وراءه الى وطنه ، والصرح يختفى على البعد وراء غابات النخيل •

---

(١) هو الاله الذى تحمل اسمه شبه جزيرة سيناء فى الأراضى المصرية •

ولم يذكر كاتبو سفر التكوين شيئا عن طبيعة اللغة المألوفة التى كان يتحدث بها الجنس البشرى كله قبل أن تتبلبل السنته ، تلك اللغة التى يفترض أن أبوينا الأولين قد تحدثا بها مع بعضهما بعضا ، ومع الحية ، ومع الرب فى جنة عدن • وقد افترض جدلا فى العصور المتأخرة أن اللغة العبرية كانت هى الأولى للجنس البشرى • ويبدو أن آباء الكينسة لم يعارضوا هذا الرأى • وفى العصر الحديث عندما كان علم اللغة ما يزال فى مهده نشيطا وان كان ناقصا ، بذلت الجهود لارجاع كل أشكال اللغات الانسانية الى اللغة الغبرية على اعتبار أنها أصل هذه اللغات • ولم يختلف الباحثون المسيحيون فى تبنى هذا الفرض الساذج ، عن علماء الأديان الاخرى ، الذين رأوا أن لغة كتبهم المقدسة لم تكن لغة آبائهم الأولين فحسب ، وانما كانت لغة الالهة أنفسهم • وقد كان أول من وخز هذا الرأى بطريقة مؤثرة هو «ليبنتز » ، الذى لاحظ « أنه كما أن هناك من الأسباب مايدعو لافتراض أن اللغة العبرية هى اللغة الاولى للجنس البشرى ، فان هناك من الأسباب كذلك ما يدفعنا الى تبنى وجهة نظر « جوروبيوس » الذى نشر مؤلفا فى « آنتويرب » عام ١٥٨٠ يثبت فيه أن اللغة الهولندية هى اللغة التى كان يتحدث بها آدم فى الجنة » وهناك كاتب آخر ادعى أن اللغة التى كان يتحدثبهاآدم فى الجنة هى اللغة الباسكية (١)•وتحدى آخرون الكتاب المقدس صراحة وادعو أن اللغات المختلفة كانت موجودة فى جنة عدن نفسها ، فآدم وحواء كانا يتحدثان اللغة الفارسية ، كما كانت الحية تتحدث اللغة العربية وأما جبرائيل الملك المفضل فقد تحدث مع أبوينا الأولين باللغة التركية • وهناك باحث شاذ آخر ، يرى جديا أن الرب قد تحدث الى آدم باللغة السويدية ، وان آدم أجاب خالقه باللغة الدانمركية وان الحية تحدثت مع حواء باللغة الفرنسية كل هذه النظريات منشؤها التعصب الوطنى والتنافر بين علماء اللغات •

---

(١) الباسكيون هم شعب مجهول الأصل يقطن مناطق البرانس الغربية •

وتحكى قبائل افريقية عديدة حكايات تتشابه مع أسطورة برج بابل فى وجوه محدده • فبعض أهالى زمبيزى الذين يسكنون فيما يبدو بجوار سلالات فيكتوريا ، يحكون حكاية تتصل بحكاية بناء برج بابل لكنها تنتهى بأن البنائين الجرآء انفلقت رءوسهم عندما سقطت بهم السقالات » وهذه الحكاية التى رواها دكتور « لفنجستون » بايجاز ، دونها مبشر سويسرى فى شكل أكثر اكتمالا • فقبيلة « أ — لوبى » التى تسكن عند أعالى نهر الزمبيزى، تحكى أن آلههم ، نيان بى « الذى يعد اله الشمس عندهم ، تعود فى سالف الزمن أن يسكن فى الأرض ، ثم صعد الى السماء بعد ذلك متسلقا خيوط العنكبوت • وهناك تحدث الى الناس من عليائه وقال لهم آمرا : « اعبدونى » • فتحدث الناس الى بعضهم بعضا وقالوا : « دعونا نقتل الاله نيانبى » • فذعر الاله لتهديدهم ولاذ هاربا الى مسكنه السماوى الذى كان قد هبط منه من قبل • وعند ذاك قال الناس : « لتتصب الآن أعمدة نصل عن طريقها الى السماء » فنصبوا أعمدة ربطوها بأعمدة أخرى تعلوها ثم أخذوا يتسلقونها • فما أن وصلوا الى ارتفاع كبير حتى سقطت بهم الأعمدة ، وهووا صرعى الى الارض ، وكانت هذه هى نهايتهم • وتحكى قبيلة « بامبالا » التى تسكن فىالكنغو ، أن « الوانجونجيين » رغبوا ذات مرة أن يروا القمر على حقيقته • فدكوا عمودا فى الأرض تسلقه رجل يحمل عمودا آخر فى يده ثبته فى نهاية العمود الأول ، ثم صعد رجل آخر يحمل عمودا ثالثا ثبته فى العمود الثانى ، وهكذا حتى وصل البرج الى ارتفاع كبير للغاية بحق ، اذ أن كل فرد من أفراد الشعب تسلق ومعه عمود ربطه بالعمود الأخير • ثم هوى هذا الصرح فجأة ، فهوى الأهالى صرعى وراحوا ضحية حب استطلاعهم الطائش • ومنذ ذلك الوقت لم يحاول أحد أن يتعرف على القمر • ويحكى أهالى « مكولوى » الذين يسكنون فى شرق أفريقيا حكاية شبيهة بالحكاية السالفة • فقد قال الناس ذات يوم لبعضهم بعضا ، وذلك وفقا لرواية هؤلاء الاهالى :

« دعونا نبنى بناء عاليا حتى نصل الى القمر » • وعنــد ذاك غرسوا شجرة ضخمة فى الأرض ، ووضعوا فوقها شجرة ثانية وثالثة وهكذا حتى هوت بهم الاشجار وقتل بعض الاهالى • فقال بعضهم الاخر: « لا تيأسوا من هذه المحاولة » • فرصوا الاشجار بعضها فوق بعض حتى هوت بهم وقتلوا هم كذلك • وعند ذاك كف الناس عن محاولة الصعود الى القمر • ويحكى الأشانطيون أن الاله القديم كان يعيش بين الناس ، ولكن امرأة عجوزا الحقت به الاهانة ، فصعد غاضبا الى مسكنه فى السماء • فحزن الناس لفراقه وقرروا أن يبحثوا عنــه • فأخــذوا يجمعون أرجل الخنازير ورصوا بعضها فوق بعض • فلمــا علا برجهم وكاد أن يصل الى السماء ، اكتشفوا فى فزع أن ما لديهم من أرجل الخنازير لا يكفى لاتمام البرج • فماذا يفعلون؟ عند ذاك هب رجل حكيم وهم فى هذا المأزق ،وقال لهم : « ان المســـألة فى غاية البساطة • خذوا الرجل السفلى وضعوها فوق العليا ، واستمروا فى هذا الفعل حتى نصل الى الاله » • فلما بدءوا ينفذون اقتراحــــه ، وانتزعوا الرجل السفلى ،هوى البرج كما يمكن أن نتوقع • على أن بعض الأهالى يعزون سقوط البرج الى النمل الأبيض الذى أخذ يقرض الارجل من أسفل • وعلى كان فان الاتصال بالسماء لم يتم ولم يتمكنــوا قط من الصعود الى الاله •

ويحكى فى المكسيك عن بناء هرم « كولولا » ، أضخم عمل للسكان الأصليين فى أمريكا بأسرها ، حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس عن برج بابل • ويقع هذا العمل الضخم الذى مازال المسافر فى العصر الحديث يقف أمامه متأملا اياه فى اعجــاب ، بالقرب من المدينة الحديثة الأنيقة « بويبلا » ، فى الطريق من « فيراكروز » الى العاصمة • هذا الهرم يشبه فى شكله الاهرام المصرية ، ولكنه يضارعها فى أبعاده • ويبلغ ارتفاع سطحة المنحدر حوالى مائتى قدم ، أما قاعدته فيبلغ طولهــا ضعف قاعدة هرم خوفو • ويتخذ هذا الهرم شكل الــ « تويكاليس » المكسيكى ، أى أنه هرم اقطع • وتتجه جوانبه الاربع نحو الجهــات

الأصلية ، كما أنه يتكون من أربعة مصاطب • على ان خطوطه الأصلية انمحت بمرور الزمن وبتأثير الجو ، بينما أصبحت الشجيرات الكثيفة والأشجار تغطى سطحه ، بحيث يبدو وكأنه تل طبيعى أكثر منه رابية صنعتها يـد الانسان • وهذا الهرم مشيد من الطوب الأحمر الملصوق بالملاط الذى عشقت فيه قطع الأحجار الصغيرة وأجزاء من السكاكين والأسلحة المصنوعة من الزجاج البركانى الاسود • وبين قوالب الطين وضعت طبقات من الصلصال • وتطل قمة هذا الهرم المسطحة التى تبلغ مساحتها حوالى الفدان على منظر رائع ، هـو منظر الوادى الخصب المترامى الأطراف الذى تحيط به الجبال البركانية الضخمة التى تغطى منحدراتها المنخفضة الغابات الكثيفة • أما قمتها الرخامية فهى عارية ومجدبة ، وتغطى أعلى أجزائها الثلوج على مدار السنة •

وقد دون المؤرخ الأسبانى «دوران» الأسطورة التى تتعلق بهذا الصرح الضخم فكتب عام ١٥٧٩ يقول : « فى بداية خلق الحياة ، كانت الأرض مظلمة عابسة قبل أن تخلق الشمس والقمر ، كما كانت خلوا من كل المخلوقات ومسطحة ليس بها جبال أو تلال أو أشجار وتحيط بهـا المياه من كل جانب • فلما خلقت الشمس وبزغت من الشرق ، ظهر بعض الناس على سطح الأرض فى هيئة شياطين غلاظ وأصبحوا أصحاب الأرض • ثم دفعهم الفضول لأن يبصروا الشمس وهى تشرق وتغرب • فاتفقوا فيما بينهم أن يذهبوا للبحث عنها • فقسموا أنفسهم الى مجموعتين ، المجموعة الأولى اتجهت الى الشرق والأخرى الى الغرب وظلوا سائرين حتى وقفوا عند شاطىء البحر • وعند ذاك قرروا أن يعودوا منحيث أتوا • فوصلوا الى المكان الذى يسمى « ازتاكشولين أنيمينيان»•ولما احتاروا فى طريقةتوصلهم الى الشمس التىاستمتعوا بدفئها وجمالها ، قرروا أن يشيدوا برجا عاليا تصل قمته الى السماء • وبينما كانوا يبحثون عن مواد للبناء عثروا على طين وقار سـميك استعانوا بهما على العمل فى تشييد البرج • فلما ارتفعوا به عاليا حتى كاد أن يصل الى عنان السماء ، غضب منهم الاله وقال لساكنى الجنة:

هل رأيتم كيف شيد سكان الأرض هذا البرج الشامخ وأصابهم الزهـو فشاءوا أن يتسلقوه اذ بهرتهم الشمس بضوئها وجمالهـا ؟ دعونا الآن نفرقهم فى الأرض ، اذ لايصح أن يختلط بنا البشر بأجسامهم الدنيوية » • وفى لمح البصر كان سكان السماء منتشرين فى جهـات الأرض الأربع ، وحطموا الصرح الذى شيده الناس بضربة كالصاعقة • عند ذاك فزع هؤلاء العمالقة وملأهم الرعب وتفرقوا فى كل جهـات الأرض •

ولايتمثل تأثير حكاية الكتاب المقدس على هذه الحكاية فى تفـرق مشيدى البرج فى انحاء العالم فحسب ، وانما يتمثل كذلك فى بنـاء البرج من الطين والقار • اذ بينما نجد أن برج بابل قد شيد ، كمـا قيل ،من هاتين المادتين ،نجد أن المكسيكيين لم يستخدموا قط مادة القار فى مثل هذا الغرض ، هذا فضلا عن أن القار لا وجود له فى أى مكان قريب من « كولولا » •« على أنه يبدو أن حكاية بلبلة الألسنة قد انتشرت فى المكسيك بعد غزو الأوربيين لها بزمن قصير ، اذ أنه من المحتمل أنها قد ذاعت بتأثير المبشرين • ولايبدو أن الحكاية العبريـة لها صـلة بأسطورة برج « كولولا » • ولكنه من المحتمل على الأقل أن هنـاك حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس مدونة فى قائمة « جيميلى » للمهاجرين المكسيكيين ، تلك القائمة التى نسخت فى « هومبولت » • وتحكى هذه الحكاية أن طائرا كان يقف على شجرة أرسل عددا من اللغات الى حشد من الناس كانوا يقفون أسفل منه » • وربما كان « تايلور » على حـق فى اتهام أسطورة « كولولا » بأنهـا « ليست أصيلة ، أو أنهـا على الأقل جزء من تلفيق متأخر » •

وربما انطبق مثل هذا الحكم على حكاية تروى عن قبيلة «كارن» فى « بورما » ، وهى قبيلة أبدت ميلا غريبا لاستعارة الحكاية المسيحية بعد أن كانت تخلع عليها طابعا محليا شفافا • وتجرى حكاية بـرج

بابل كما ترى عن «الجايكهوويين» ، وهم فرع من هذه القبيلة ، على النحـو التـالى :

« يرجع « الجايكهوويون » سلسلة نسـبهم الى آدم • وعندما بنى برج بابل كان قد تناسل منهم ثلاثون جيلا ، وفى هذا الوقت انفصلوا عن « الكارين الحمر » • وفى عصر « بان ــ ان ــ مان » ، استقر رأى هؤلاء على أن يشيدوا هيكلا متعدد الأدوار يصل الى عنان السماء • أمـا المكان الذى شيد فيه هذا الهيكل فهو ، فيما يرون ، كان يقع فى مكان ما فى بلاد « الكارين الحور » • وقد كان الكاريون ، كمـا يذكرون ، على صلة بهذا المكان حتى زمن حادث هذا البرج • ولمـا أتموا بناء نصف هذا الهيكل ، هبط الاله من السماء وبلبل السنةالناس، بحيث لم يعـد بعضهم يفهم البعض الاخر • ومن ثم تفرق الناس ، واتجه « ثان ــ ماو رأى » جد قبيلة « جايكو » جهة الغرب ومعـه ثمانية من الزعمـاء ، واستقر فى وادى « سيتانج » •

وقد عادت حـكاية برج بابل وبلبلة الألسن الى الظهور بين قبيلة « ميكير » احدى قبائل « التبت البورمانية » المتعددة التى سكنت فى أسام •فهم يقولون أن نسل « رام » كان قويا فى الزمن القديم • ولما لم يقتنع هؤلاء بسيادتهم على الأرض ، فكروا فى غزو السماء • ومن ثم فقد بدءوا فى تشييد برج يوصلهم الى السماء • وأخذ البرج يعلو تدريجيـا حتى خشـيت الآلهة والشياطين أن يسيطر هؤلاء المردة على السماء كما سيطروا من قبل على الأرض الأربعة • فبلبلت الآلهة ألسنتهم وشتتهم فى أركان الأرض الأربعة • ومن ثم فقد تعددت لغات الجنس البشرى • ومرة أخرى نجد الحكاية القديمة بعينها تنتشر فى شـكل خفى بعض الشىء بين « الأيسـلنديين » و « الأ ميراليين » فهم يقولون : ان تعداد أسرة أو قبيلة « لوهى » كان يبلغ مائة وثلاثين نسمة ، وكان زعيمهم يسمى « مويكيو » • ثم قال هذا الزعيم لقومه « دعونا نشـيد بيتا يطـاول السماء » • فبدأوا فى تشـيد هـذا البيت • وما كادوا يقتربون من السماء حتى أتاهم رجل من « كالى »

يدعى « بواوى » منعهم من الاستمرار فى بناء البيت وقال « لمويكيو » : « من الذى أمرك أن تشيد بيتا عاليا على هــذا النحو ؟ » • فأجــاب مويكيو انني زعيم اللوهيين • ولقد قلت لقومى : « دعونا نشيد بيتا يطاول الســماء » • ولو كنت طوع ارادتى ، لشـــيدت بيوتنـــا جميعا عالية تطاول السماء • أما الآن ، فقد نفذت رغبة قومى ، وأصبحت البيوت منخفضة » • وبعد أن انتهى من كلامه نثر الماء على قومه ، فتلبلت السنتهم ، ولم يعد الواحد منهم يفهم الآخر ، وتفرقوا فى بقاع الأرض ، وبذلك أصبح لكل بلد لغته • وقد لايساورنا أدنى شك فى أن هذه الحكاية ليست سوى صدى لتعاليم المبشرين المسيحيين •

على أن هناك غير قليل من الشعوب حاولت أن تفسر اختلاف اللغات عن طريق حكايات لا تمت لحكاية برج بابل بسبب أو بأية حكاية أخرى تشبهها فى تكوينها المعمارى • فقد حكى الاغريق أن النـــاس عاشوا أحقابا طويلة فى سلام • ولم يكونوا آنذاك يعيشون فى مدن أو يحكم بينهم قانون سوى حكم الاله زيوس ، ولا يتحدثون سوى لغة واحدة • ولكن الاله «هرمس» ، جعل لغة الناس مختلفة فقسم الجنس البشرى الى شعوب • فلما دب النزاع بين الناس فى بادىء الأمر ، استاء « زيوس » لخلافاتهم ، فاعتزل العرش وتركه للبطل اليونانى « فورونيوس » ، أول ملك حكم من بين النـــاس • وتحكى قبيلـــة « واسانيا » التى تسكن افريقيا الشرقية البريطانية ، أن القبائل كلها لم تكن تتحدث فى الزمن القديم سوى لغة واحدة • ثم حدثت مجاعة قاسية أصابت الناس بالجنون ، فتفرقوا فى كل بقاع الأرض وهـــــم يثرثرون بألفاظ غريبة ، فنشأت اثر ذلك اللغات المتعددة • وتفسر قبيلة « كاشاناجاس » ، وهى قبيلة تسكن التلال فى آسام ، اختلاف اللغات على نحو آخر • فقد كان الناس جميعا ، وفقا لروايتهم ، جنسا واحدا قدر لهم بعد ذلك أن ينقســموا الى أمم متعددة • وقد كان للملك الذى كان يحكم بين الناس ابنة تدعى « ستيولى » ، وكانت تتميز بسرعة معجزة فى السير • وكانت«ستيولى»تحب التجول فى الأحراش طوال النهار بعيدا

عن البيت ، الأمر الذى كان يسبب قلقا لأبويها ، اذ كانا يخشيان أن تفترسها الوحوش • وذات يوم فكر أبوها فى حيلة ليبقيها فى البيت ، فأرسل فى طلب سلة مملوءة ببذر الكتان ، ثم نثر الحب على الأرض ، وأمر ابنته أن تجمع البذور بذرة بذرة وتضعها فى السلة وتعدها فى الوقت نفسه • ثم تراجع عنهـا وهو يحسب أن هذا العمل سيشغلها اليوم كله ولكن الفتاة فرغت من العمل عند الغروب • وعدت الحبوب ووضعتها فى السلة ، ثم أسرعت على التو الى الأحراش فلما عاد والداها وتفقداها ، لم يعثرا لها على اثر • فأخذا يبحثان عنها أياما عديدة حتى اعترض طريقهما تنين مهول كان يأكل فى نهم فى ظل الأشجار • فاجتمع النـاس حول التنين وطعنوه برماحهم وسيوفهم • وما أن فعلوا هذا حتى تغيرت أشكالهم ووجدوا أنفسهم يتحدثون لغـات مختلفة • ثم انفصلت كل جماعة تتحدث لغة واحدة عن الجماعات الأخرى ، وأصبحت هـذه الجماعات المختلفة اجدادا للأمم المختلفة التى تعيش الآن على وجه الأرض • على أن الحكاية لم تذكر شيئا بعد هذا عن الأميرة ومصيرها وعما اذا كانت قد عادت لوالديها الحزينين أم أن التنين قد ابتلعها •

ويفسر « الكوكيون » فى « مانيبور » وهم عنصر آخر يسكن تلال « أسام » ، اختلاف اللغات فى قبائلهم من خلال الرواية التالية : كان ثلاثة أحفاد لزعيم بعينه يلعبون معا ذات مرة داخل البيت ، عندما طلب منهم جدهم أن يصطادوا له فأرا • وبينما كانوا منصرفين الى اصطياد الفار أصيبوا بلعثمة فى ألسنتهم ، وأصبح كل منهم يتحدث لغـة لا يفهمها الآخر ، ولذا فقد هرب منهم الفـأر • أما أكبر هؤلاء الأخوة فقد تحدث اللغة « اللاميانجية » ، وأما الأوسـط فقد تحدث اللغـة « التادوية » • وأما الثالث فقد قيل أنه تحدث اللغة « الوفيبية » ولكن البعض يعتقد أنه قد تحدث بلسان « انكونترباى » التى تسكن فى جنوب استراليا أصل اللغـات الى امرأة عجوز حادة المزاج ، توفيت منـذ زمن بعيد • وقد كان اسم هـذه المرأة « وروري » ، وكانت تسكن جهة الشرق ، وتسير فى العادة وهى تحمل عصا فى يدها تفرق بـه النار التى ينام الناس من حولها • فلما ماتت ابتهج الناس لتخلصهم منها ، الى درجة أنهم أرسلوا الرسل فى كل مكان لتعلن نبأ وفاتها •

ومن ثم فقد اجتمع الرجال والنساء لا لتأبينها ، ولكن ليبتهجوا بموتها ويقيمون وليمة كانيبالية • كان « الرامينجيراريون » هم أول من سقطوا على الجسد وأخذوا يلتهمون لحمه • وما كادوا يفعلون هذا ، حتى أخذا يتحدثون لغة واضحة • أما القبائل الأخرى التى كانت تسكن جهة الشرق ، فقد وصلت متأخرا ، ومن ثم فقد أخذت تلتهم الأمعاء ، ولهذا فقدأخذت تتحدث بلغة تختلف بعض الشىء عن لغة القبيلة الأولى وما لبثت أن وصلت القبائل التى تسكن جهة الشمال فى نهاية الأمر ، فأتت على سائر الأمعاء وما تبقى من الجسد ، فتحدثت بلغة تختلف عن لغة « الرامينجيراريين » • أكثر من اختلاف لغة القبائل الثانية منها •

ويحكى الهنــود الماندبون فى كاليفورنيا أن الناس جميعـــا كانوا يتحدثون لغـــة واحـــدة حتى زمن معــــين • وبينما كان الناس يشعلون النار ، وكان كل شىء معدا لليوم التالى ، أخـذ كل منهم فى الليل يتحدث بلغة لا يفهمها الآخر ، وان كان كل زوجين كانا يتحدثان بلغة واحدة • وفى تلك الليلة ظهر الاله الذى يسمونه « الأرض الأول » لرجــل بعينه اسمه « كوكسى » ، وأخبره بما حدث ، وأرشده الى ما ينبغى عمله فى اليوم التالى عنــدما يبدأ الناس يتحدثون لغـــات مختلفة• ومن ثم فقد جمع « كوكسى » الناس جميعا وتحدث اليهم ، اذ كان يعرفاللغات جميعا ، فعلمهم أسماء الحيوانات المختلفة ، وغيرها من أسماء الأشياء باللغات المتعددة كما علمهم كيف يطهون طعامهم ويقتنصون حيواناتهم ، وشرع له القوانين ، وحدد لهم أوقات الرقص والاحتفالات• ثم سمى كل قبيلة باسمها ووزعم فى جهات الأرض المختلفة بعد أن حدد مكانا لسكنى كل منها • قد سبق أن رأينا أن « التيلينجيين » فى «ألاسكا» يفسرون اختلاف الالسنة من خــلال حكاية الطوفان التى ربما أخذوها عن المبشرين المسيحيين أو من التجار • وقد حكى « الكويتشيون » فى « جواتيمالا » عن زمن ما فى بداية الحياة ، كان الناس فيه يعيشون معا ويتحدثون لغة واحدة ، ولا يعرفون آنذاك عبادة الحجر أو الخشب، ولا يذكرون سوى كلمة الخالق « قلب السماء والأرض » •وبمرور الزمن

تكاثرت القبائل وتركوا موطنهم الأصلى ووصلوا الى مكان يسمى « تولان » • وهناك فى المكان ، وفقا لرواية « الكويتشيين » تغيرت لغة القبائل ، ونشأت اللغات المختلفة • وعند ذاك لم يعد الناس يفهم بعضهم وتفرقوا فى بقاع الأرض بحثا عن مساكن جديدة لهم •

هذه الحكايات الأخيرة التى تنحو الى تفسير اختلاف الالسنة لا تمت بحكايات برج بابه بسبب • ومن ثم فاننا يمكننا أن نعدها باستثناء الحكاية التيلنجية ، حكايات مستقلة حاول العقل الانسانى عن طريقها أن يتصارع مع المشكلات المعقدة ، مهما يكن مقدار النجاح الذى أحرزه فى سبيل حلها •

فهـــــــــرس

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمة بقـلم المترجمة	٣
مقدمة الطبعة المختصرة	٢٣
الباب الأول	
عصر الحياة الأولى	٧٧
الفصل الأول	
خلق الانســـان	٧٩
الفصل الثانى	
ســـــقوط آدم	١٠٥
الفصل الثالث	
علامـــة قابيـــل	١٣٧
الفصل الرابع	
الطــوفان الكبير	١٥٩
الفصل الخامس	
برج بابل	٣١٧

رقم الايداع ١٦٥٢ لسنة ١٩٨٢

مطابع سجل العرب